ربيع جابر

أميركـــــا

روايــــة

أميركا

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى: 2009

ISBN 978-9953-68-397-2

الناشران



الدار البيضاء - ص.ب.: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339 - 52 - 212 +
فاكس: 212522305726+
e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص.ب. 5158 - 113 الحمرا
هاتف: 352826 - 343701
e-mail: cca@ccaedition.com



ساقية الجنزير - بناية الريم
ص.ب.: 4123 - 11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
email: d_aladab@cyberia.net.lb

ربيع جابر

أميركا

رواية


المركز الثقافي العربي


دار الآداب - بيروت

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شَبَه بين أحداثها وأشخاصها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومجرد عن أي قصد.

الجزء الأول

– 1 –

Ellis Island

«أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض».

صلّبت على وجهها الشاحب البياض وهي ترى السيدة الحجرية تمدّ الشعلة الحجرية صوبها وتخرج من الضباب الذي يغطي البحر. سمعت صوتاً يقول هذا تمثال الحرية، وهناك وراء الضباب الغريب، هل ترون البنايات ناطحات السحاب، هذه مدينة نيويورك، انظروا البيوت العالية!

طوال الوقت ظلّت تدمدم صلواتها وهي تنزل من الباخرة إلى «إليس أيلاند». المهاجرون تدافعوا على «السقالة» الخشب وهي تمسّكت بحبال الدرابزين ورأت جرذان الماء تقفز من الصناديق إلى الأرصفة. المبنى الضخم المتربع على الجزيرة ابتلع البشر المتدفقين كالأنهار من البواخر: أين يختفون؟ لا يغرقون في الضباب لكنهم يغيبون عنها في قاعات وممرات وغرف كثيرة. مثل قطعان نمل تغور في التراب. لسع هواء جليدي أذنيها. رجل يرتدي لباساً رسمياً ويعتمر قبّعة عليها شارة معدنية - هذا شرطة؟ - دنا منها وسألها من أين تأتي؟ تكلم بالإنكليزية، ولأنه تكلم متمهلاً فهمت كلماته. لعلها استوعبت قصده من دون أن تحدد معاني كلماته تماماً. كل ما تعرفه من هذه اللغة الغريبة تعلّمته على الطريق من بيتها البعيد في الجبل إلى

هذه القارة المغمورة بالضباب.

دلّها الرجل إلى صفٍ كي تقف فيه. شعرت بنظرته تتبعها، تحفر ندبات خفيفة على كنزتها الطويلة الصوف. ثم انشغلت بالحصول على نقطة في الصف بين نساء باكيات وأولاد صغار يخفون وجوههم وراء التنانير. حاولت أن تتكلم مع إحدى النساء لكن المرأة لم تفهم لغتها. نظرت حولها تفتش عن وجه يشبه وجهها فلم تجد إلا العيون الغريبة. حتى الذين كانوا معها على الباخرة اختفوا. شدّت يدها على مسكة الكيس «الجنفيص» الذي يحوي حياتها. عندما وصلت إلى المكتب حيث يقعد رجل يدخن ويكتب في دفتر ضخم لم ترَ مثله من قبل، انقبضت معدتها. سألها عن اسمها.

- مرتا أندراوس حدّاد Martha Haddad.

لفظت اسمها الاول ثم عائلتها بالطريقة الأميركية كما علّموها على الباخرة التي حملتها من مرفأ الهافر الفرنسي عبر المحيط الشاسع الذي يسمّونه الأتلانتيك إلى هناك. الرجل كشح غيمة الدخان ثم رفع القلم عن الدفتر وسألها من أين تأتي.

- سورية Syria. أنا من قرية بتاتر في جبل لبنان، بتاتر قريبة من عاليه وبحمدون.

خافت من النظرة التي تخترق الدخان ثم أدركت أن الرجل لا يهددها. دام خوفها لحظة ثم أدركت أنه لم يفهم من جوابها غير كلمة مفردة وأن نظرته مصدرها الحيرة. اطمأنّت رمشة عين - برَد العرق على رقبتها - ثم باغتها الذعر من جديد. إذا لم يفهم لغتها كيف ستشرح لهم؟ إذا غضبوا ردّوها إلى الباخرة لترجع من حيث جاءت!

أشار لها الرجل أن تبتعد، أن تزيح من طريق الصف. ابتعدت فتقدمت امرأة أخرى واحتلت مكانها، وهذه تكلمت بالإنكليزية.

كانت صفراء الشعر، وسمعت كلمات إنكليزية وأخرى من لغة غريبة ظنّت أنها سمعت مثلها على الباخرة. الرجل كرّر من أقوال المرأة كلمة Poland وعبس واستدار ونادى اسماً فيه قرقعة حجارة. أتى رجل قصير من غرفة لم تنتبه لها قبل ذلك ووقف عند المكتب وبدأ يترجم أقوال المرأة ذات الشعر الأصفر. المكان يعجّ بالبشر والأصوات، لغات وألوان ووجوه، ناس يركضون وناس يبكون وناس يبحثون عن أوراق أضاعوها. من هنا تدخل أمواج المهاجرين إلى أميركا. نحن في خريف 1913 وهنا يتقرر كل شيء، إما الدخول أو العودة.

دقائق عبرت كالدهور عليها. رأت الصف ينقسم في اتجاهين. رأت رجلاً يحمل طبشورة يرسم بالطبشورة علامة X على معاطف رجال اصطفوا حزانى الوجوه جنب الحائط. امرأة تتلقى العلامة ذاتها صاحت واستندت إلى كتفي الرجل وصارت ترجوه بكلمات غير مفهومة ألاّ يفعل ذلك. مرتا أندراوس حدّاد نظرت إلى مداسها السختيان الجلد الذي خاطه من أجلها خالها المريض في صدره - طوال الوقت يسعل وهو ينحني على الصرامي - ثم نظرت إلى الدفتر الكبير على المكتب. رأت خطوطاً أفقية وعمودية، رأت أسماء وأرقاماً، وانتظرت ما سيأتي.

كانت النوافذ العالية تُظلم عندما اقترب رجل وسألها بالعربية من أين تأتي، من أي مرفأ غادرت سورية، ومن يكفلها في أميركا؟

- 2 -
أسألك العناية يا وليّ الهداية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الباقي بلا زوال المنفرد بالعظمة والقدرة والكمال المقدِّر الآجال في البكرة والآصال الذي حكم على عبيده بالموت وهو حيّ لا يزال. ثم لما كان الأجل المحتوم لا يتوقف على صحة أو اعتلال فالواجب على كل حيّ ناطق أن يترقّبه في الغدوات والآصال وأن يبادر لرقم وصيته ليرفع من بين ذريته الخلاف والإشكال.

ولهذه النيّة أي في اليوم الخامس عشر من شهر ذي القعدة من شهور سنة ألف وثلثماية وستة وأربعين للهجرة النبوية حضرت عند الشيخ أبي علي بشير زين الدين جابر من قريتنا كفرنبرخ إذ كان منحرف الصحة وهو بصحة من عقله خالياً من الهذيان ولا مانع يمنعه عن صحة الإقرار والبيان شرعاً، فطلب مني أن أحرر عن لسانه هذه الوصية خوفاً من هجوم المنية واقتداء بالسلف الصالح ذوي النفوس الأبيّة.

فأوصى أن يكون بعد وفاته جميع ما تملكه يده من حطام هذه الدنيا الفانية من عماد وعقاد وأثاث ونحاس وذهب وفضة ونقود ومواشٍ ذُكر وما لم يُذكر يكون لولديه علي ومحمد مناصفة ليس لأحد منهما زيادة على الآخر لا يعارضهما فيه مُعارِض ولا ينازعهما منازع. ولما كانا ولداه علي ومحمد المذكوران متغيبين في أميركا

فيكون لحفيده شاهين ابن ولده محمد مع والدته حق أن يتناولا حاصلات هذه العقارات ويسكنا في العمارة أثناء مدة غياب ولديه علي ومحمد. هذا ما دامت أم شاهين مقيمة في البيت. لكن لو خرجت من البيت لا يحق لها أن تتناول من هذه الحاصلات شيئاً.

وأما والعياذ بالله إذا تقدَّر على ولده علي شيئاً من قِبَل الحق تعالى وهو متغيَّب في أميركا وبلا عقب تكون حصته أي النصف الموصى له إلى شقيقه محمد. ولكن إذا لا سمح الله تقدّر على ولده محمد شيئاً تكون حصته إلى ولده شاهين المذكور. وأما إذا لا سمح الله توفي الاثنان أي علي ومحمد وهما في بلاد المهجر يكون جميع ما ذكر إلى حفيده شاهين مُلكاً خالصاً لا يعارضه فيه أحد. وإذا حضر محمد من المهجر ولم يحضر علي فإن لمحمد حق أن يستلم حصة شقيقه ويتناول حاصلاتها كل مدة غيابه. ولكن لو حضر علي ولم يحضر محمد فلا يحق لعلي أن يتعرّض لحفيده شاهين المحرر في حصة أبيه بشيء ما دام محمد متغيباً وشاهين حيّ يُرزق.

وإذا توفي شاهين قبل الإرشاد أو بلا عقب يرجع جميع ما ذُكر إلى ابنته ندى أخت علي ومحمد تتصرف بحاصلاتها مدة حياتها فقط ولا يحق لها أن تبيع من هذه العقارات ولا ترهن ولا تفاوض بها في غيرها. ومن بعد ندى يرجع كل ذلك إلى من يكن حياً من ذريته آل جابر الأقرب فالأقرب ذكوراً أم إناثاً. وأوصى من خصوص ابنته ندى إذا انقطعت من الرجال تعيش في البيت مع أخويها علي ومحمد بدون جميلة ولا منيّة وإن لم تتفق بالإقامة معهما يكون لها محل سكن القبو العقد الملاصق للحارة. وأن يقدم لها من أخويها المذكورين معاشاً كافياً وفرشتين كاملتين وطنجرة ومقلة وطواية وصينية نحاس وحصيرة. وأوصى من خصوص منيرة ابنة أخيه محمود إذا انقطعت من الرجال

تكون بنسبة ابنته ندى ويكون لها حق السكن معها أو وحدها في القبو المعيّن مسكناً لها. وأن يُقدم لها ولداه علي ومحمد معاشاً مع المعاش المقدَّم لها من أخيه إبراهيم حسبما هو موصى لها وبالاتفاق المعقود بينهما بهذا الخصوص.

فهذا ما أراد أن يوصي به وطلب مني تحريره. وأراد أيضاً بأن يوصي دراهم على نية الخير طمعاً بالأجر والثواب فأوصى بأن يكون لكل مجلس من مجالس قريتنا كفرنبرخ عشرة غروش ولكل مجلس من مجالس العرقوب عشرة غروش وطلب من الله تعالى المسامحة والغفران ومن حضرة المشايخ والإخوان الرحمة وحُسن الظنّ وحرّم وغضَّب كل من يُغيّر أو يبدّل حرفاً واحداً مما تضمّنته هذه الوصية يكون تعالى خصمه ومجازيه في عاجل الدنيا أم آجل الآخرة. وبعد أن تُليت عليه الوصية كلمة كلمة أذن عليه بالإشهاد والحمد لله أولاً وآخراً. حُرّر بالتاريخ المسطر أعلاه في 15 ذي العقدة 1346 للهجرة.

حرره وشهد الحقير محمود سلمان أبي غانم. شهود الحال: الحقير سعيد محمد الدويك. الحقير سلمان عبد الصمد. الحقير عز الدين قاسم. الحقير بشير زين الدين.

وقد وكّل على حفيده شاهين كلاً من المحرر محمود سلمان المذكور وصالح يوسف جابر وكالة شرعية ولكل منهما حق أن يوكل غيره من يشاء.

- 3 -
العلامة

صلّت ألاّ تأتي المرأة وترسم عليها العلامة. كانت ترتدي زيّ الشرطة ذاته لكنها تضع على رأسها قبعة بيضاء غريبة الشكل. الشرطي يرسم الـ X على الرجال الممنوع دخولهم، والمرأة ذات القبعة الغريبة ترسم العلامة على النساء. بينما تصلي مغمضة العينين - عالمة أن نظرات الرجال مسلّطة عليها - أريد أن أكتب هنا شيئاً عن رحلتها من بتاتر إلى بوابة أميركا.

خالها لم يصدّق أذنيه عندما أخبرته. نظر إليها مبحلقاً وفمه نصف مفتوح وأسنانه الصفراء المنخورة بالسوس بائنة. الناس الذين يعبرون وراء ظهرها كانوا يلقون التحية على الكندرجي بأصوات قوية. «التسقيفة» الخشب (حيث يقعد خالها وجنبه ابنه الصغير وأمام الابن الصندوق وعدّة مسح الصبابيط) تهتز عندما يقترب القطار من محطة بحمدون. في تلك اللحظات ـ بينما القطار البخاري يدخل المحطة - ترتفع غيوم الغبار والرمل وتغطي العالم. مرتنا تسمع الصافرة إلى بيتها البعيد الغارق بين جلول التوت، في المنحدر الهابط إلى الأودية.

كانت تحمل سلّة مملوءة ببيض الدجاج المسلوق، جلبته إلى المرأة التي تبيعه لعابري المحطة. كانت تراهم يمدّون الأيدي من نوافذ القطار وترى المتاليك تتساقط من بين الأصابع وتبرق في الشمس. يأخذون البيض المقشّر وهم يضحكون ثم ينفخ القطار

كالإبريق على نار الشتاء، ينفخ مرتين ثم مرة ثالثة، ويرتفع الهدير ويبتعد الوحش الحديد الأسود.

الخال نظر إليها وهو لا يفهم (سيلاحظ القارئ أن هذه المواقف تتكرر كثيراً في هذه الرواية. والسبب ليس اللغة: هي وخالها يتكلمان العربية، باللهجة الدارجة ذاتها الشائعة في جبل لبنان في تلك الفترة؛ ومع هذا تبدو اللغة عاجزة عن إيصال المعنى).

كانت تطلب بَرَكته وهو سألها كيف يبارك رحلتها وهو يعرف أن ما تفعله غير مقبول وغير معقول ولم يُسمع بمثله من قبل.

مرتا أحسّت يدها تبرد على رأس الولد الصغير الذي يمسح حذاءً أسود. الأولاد في مثل هذه السن لا يحبّون أن تضع يدك هكذا، اليد على الرأس تضايق. لكن هذا الولد يستكين تحت يدها. صعب أن تجد ولداً يميل بعيداً عن أصابع مرتا.

المرحومة (أمها) طالما خافت عليها من حظها. الجمال فتنة. وهنا - في المبنى الضخم على «أليس أيلاند» - يستطيع مراقب أن يلحظ أثر هذه المرأة (الآتية على باخرة من سوريا البعيدة) في الرجال. لا يمكن إحصاء العيون في هذه القاعة المحتشدة بالمهاجرين لكن عيوناً كثيرة تتأمل وجهها. الكنزة الصوفية طويلة وتخفي ملامح جسمها لكن هذا يضاعف جمالها: هل نقول إن نوراً يتحلّق حولها؟ هذه مبالغة شعرية ويمكن تجاوزها. لكن في المقابل لا يمكن تجاوز الجوع في هذه النظرات المسدّدة إلى كتفيها المبرومين وإلى جبهتها العريضة. أغمضت عينيها كي يغيب الرجل العجوز الذي يعضّ شفته السفلى ويأكلها بعينين غارقتين بين تجاعيد وجهه المحروق بالشمس. كان يلبس قميصاً أبيض وطيّات رقبته ظاهرة حيث تلتقي الرقبة بالكتفين. يبرم رأسه صوبها كالضبع وهو قاعد بين صناديق وأكياس ويحدجها بنظرة جامدة لا تتغير.

في محطة بحمدون قالت لخالها (الذي يسعل ويمسح الصمغ عن أصابعه بمريوله الملطّخ بصباغ الأحذية) إنها لم تعد تقدر، قالت «قلبي سيفقع». هل قالت ذلك؟ هل بكت ويدها تغوص في جيبٍ عميقٍ خاطته في الكنزة وأودعت فيه الرسالة الأخيرة من أميركا والرسالة التي سبقتها؟

أراد خالها أن يقول عدداً لا يُحصى من الكلمات، لكن الكلمات تجمعت كالحصى في فمه المحطّم الأسنان ولم تخرج. أراد أن يبصق الحصى والمسامير على الأرض وأن يتكلم لكنه لم يعرف كيف يرصف كلماته. هي تعرف كيف تتكلم. قيصر روسيا فتح مدرسة هنا، جنب القرية، وهي دخلت إلى المدرسة. يتذكرها طفلة تقعد على الحصيرة تحت شجرة التوت وتأكل الهزاز الأبيض العسل عن الأرض وهي تقرأ في الكتاب الأصفر.

كبرت وجاء خليل حدّاد وطلب يدها. أخذها إلى فراشه ونام عليها ثم ذهب إلى أميركا. كان يكتب لها، وكانت تطرّز المناديل ويأتي السمسار من بيروت ويأخذ المناديل ويختم عليها الصندوق ويرسلها مع البضاعة إلى أميركا. خليل كتب لها - وهي قرأت «المكتوب» لخالها - أن صاحب المعمل الأميركي يتحدث عن مناديلها المطرّزة لأصحاب المعامل الأخرى: «لا أحد يطرّز مثل نساء سورية».

لكن منذ سنة لم تصل من خليل رسالة.

- 4 -
العلامة (2)

رسموا عليها العلامة. لم تبكِ. لكنها شعرت بجسمها يتداعى في ثيابها. أسندت ظهرها إلى الحائط ثم سالت على الأرض. وبقيت هكذا.

القطار بلغ الجبل وهي تكبر. تذكُر عندما كان أبوها يأخذ عدّته وكيس الزوّادة ويذهب إلى التلال حيث يمدّون سكة الحديد. قال لها ابن الجيران الذي يقفز عن السطح إلى الجَلّ من دون أن يكسر ساقه إن هذا القطار يسير على البحر أيضاً. لم تصدق. بعد سنوات عرفت أنه لم يكذب عليها: بينما الباخرة تصفر وتغادر مرفأ بيروت تذكرت طفولتها البعيدة وشعرت بالبكاء يفور كالحليب في أعماقها. ابتعدت عن النظرات، أخفت وجهها بين يديها، وبكت. كان ذلك صعباً. الباخرة تعجّ بالبشر: ثلاث طبقات هي، طبقات تغوص تحت سطح الماء، وكل الطبقات ملآنة. نامت على سرير يعلوه سرير وتحته سرير، والأسرة تملأ المهجع عن الجنبين وهي تخشى أن تختنق بالهواء الراكد. السلم اللولبي الحديد يصعد من الطبقة التحتانية إلى الوسط إلى الفوقانية إلى ظهر الباخرة: من هنا يأتي الهواء وإذا سدّوا المدخل بأجسامهم وهم ينزلون ويصعدون يختفي الهواء وتخنقها الرائحة. في حياتها كلها لم تعرف مثل هذه الرائحة. خليل لم يخبرها في رسائله عن هذه الرائحة.

كانت عندما تأتي إلى المحطة كي تزور خالها تستغرب هؤلاء الناس في القطار. يذهبون طوال الوقت ولا تدري أين يذهبون ولا لماذا. ملأها خليل. بعد زواجها فكرت أنها قبل ذلك كانت فارغة كالكيس الأجوف، ثم أتى خليل وملأها قمحاً وعدساً. المرة الأولى التي سمعت فيها كلمة «أميركا» تخرج من فمه توقف نبض قلبها.

السماسرة ملأوا القرى، يطنون كالدبابير، يعملون عند شركات الملاحة البحرية، يدبّرون للراغبين تذاكر السفر إلى وراء البحر. يدبّرون «الكفيل» أيضاً: أصحاب المعامل والمتاجر في أميركا بحاجة إلى باعة جوّالين يأخذون البضاعة على ظهورهم ويقطعون الطرق التراب إلى القرى البعيدة التي لا تُعدّ. من دون «كفيل» لا يُسمح لك بدخول أميركا.

خالها سألها وهو يمسح العرق عن وجهه هل تظن أميركا قرية صغيرة مثل بتاتر؟

الصمغ التصق بشعره. بدا فجأة متعباً كأنه يسير تحت الشمس منذ سنوات. (هذا الرجل خرج من الجبل أكثر من مرة. هي لم تخرج. في حياتها لم تركب القطار. خالها خدم في الحرب الروسية - التركية. أخذوه من الطريق، حلقوا شعر رأسه، ألبسوه الزيّ النظامي وأعطوه بارودة أكل الصدأ حديدها. كيف بقي حيّاً ولماذا، لا نعلم، لكنه في هذه اللحظة - بينما يحاول إنقاذ مرتا من نفسها - أحسّ أنه عاد من أرض الصقيع لسببٍ: عليه أن يحفظ هذه المرأة الصغيرة، عليه أن يحفظها سالمة هنا، في بيتها في قريتها، حتى يرجع زوجها).

مرتا هزّت رأسها ولم ترد. سألها خالها ماذا تفعل إذا مرضت، ماذا تفعل إذا ضايقها عسكري، ماذا تفعل إذا حصل لها شيء، من يساعدها؟

- الربّ يساعدني، قالت مرتا.

من بيروت إلى الإسكندرية توقفت الباخرة في ثلاث محطات: حيفا ثم يافا ثم بور سعيد. في يافا (كما في حيفا قبل ذلك) نزل منها ركاب وصعد إليها آخرون. لكن في الإسكندرية لم ينزل أحد، وهنا صعد إليها كثرٌ: صارت مكبوسة كبساً. مرتا شعرت أنها ستموت وهي نائمة، من الهواء القليل الفاسد. أبحرت الباخرة وهذه المرة وطوال سبعة أيام بلياليها لم ترَ إلا البحر والسماء. اختفت اليابسة كأن الطوفان غمر الأرض، كأن اليابسة غير موجودة. كانت تراهم يركضون إلى الدرابزين بوجوه مخضوضة مصفرة وتسمع الأصوات. المعدة تنقلب على البحر لكن معدتها حفظت طعامها القليل في جوفها. هذا أعطاها إحساساً طيباً. دام ذلك حتى اليوم الخامس ثم انضمّت إلى الراكضين حتى درابزين الباخرة. بينما تمسح فمها ثم تغسله بالماء المالح فكرت أن خليل لم يخبرها عن هذا أيضاً في الرسائل.

قبل أن ترسو الباخرة في ميناء مرسيليا مرضت. الدم أبكاها كما يفعل كل مرة. شعرت بحنين لا يُحد إلى الطراحة تحت النافذة، في البيت حيث عاشت سنوات حياتها. لم تبقَ خارج البيت أكثر من شهور. ثم جاء خليل وأصلح السقف وبنى قنّاً كبيراً للدجاج جنب شجرة الرمان وصار البيت - حيث وضعتها أمه - بيتها هي وزوجها.

- 5 –

مرسيليا

نزلت في فندق يملكه بيروتي وحلبي مناصفةً. البيروتي تذكَر زوجها عندما قالت اسمه. الباخرة تنتهي رحلتها هنا. شرحوا لها أنها من هنا ستركب القطار عبر الأراضي الفرنسية إلى الشمال. ستقطع فرنسا كلها في القطار حتى تصل المرفأ في مدينة الهافر، ومن هناك تركب الباخرة الأميركية. (البيروتي شرح لها أن نزلاء الفندق رجال، هناك نساء بلى، لكنهن مع أزواجهن. الحلبي اقترح عليها أن تنزل في بيته، بيته كبير وزوجته سوف ترحّب بها). حصلت على غرفة جنب الدرج على الطبقة الثانية. كانت غرفة ضيقة، تنتهي في زاوية مثلّثة غريبة، وفي الزاوية كوّة تطلّ على البحر المملوء سفناً.

النوم كان مستحيلاً. ضجة الفندق مخيفة. وعندما ينام الفندق يستيقظ الشارع كله وترى من الكوّة مناظر عجيبة: نساء شبه عاريات ورجال يترنحون وفِرَق موسيقية لا تشبه فرق الجيش العثماني. مصابيح تنير الظلام وفي الضوء المتموج ترى رجلاً يحمل امرأة بين ذراعيه!

ظهرت حبوب على وجهها وذراعيها وساقيها. ظهرت بعد ذلك على بطنها وجنبها. خافت ولم تفهم ماذا يحدث لها. تذكرت أنهم حذّروها على الباخرة: قالوا لها أن تفرش ملاءة نظيفة على السرير. فعلت ذلك. فمن أين تأتي هذه الحبوب؟

ارتفعت حرارتها وزاد همّها عندما أيقنت أن البيروتي كذب عليها مرتين: مرة عندما زعم أنه يتذكر زوجها (قال ذلك بلا مبالاة؟ لا، تعمّد أن يقول ذلك وهو يتأملها ملياً). وأخرى حين قال «لا نساء في الفندق». تسمع الأصوات ليلاً وتعرف أنهن لا يدخلنَ إلى هذه الغرف مع أزواجهن. رأت إحداهنّ على الدرج، تغطي وجهها بالأحمر والأزرق، وعلى ذراعيها علامات. كانت رائحة الكحول تسبقها. عانقتها على الدرج وهي لم تصدق كيف أفلتت من الذراعين العاريتين. العرق كان يلمع على جلدها. رأتها بعد ذلك في كابوس تهاجمها مرة أخرى. عندما استيقظت بكت وهي ترفع ركبتيها إلى صدرها. حين غادر القطار مرسيليا أخيراً فكرت أنها تخرج من سدوم وعمورة.

فتحت كيسها وأخرجت تيناً يابساً وأكلته. بانت الشمس من بين الغيوم الكثيفة. تعلّقت نظراتها بالأشعة الصفراء تنتشر فوق الحقول والغابات. منذ أيام لم ترَ الشمس. كأن هذه البلاد بلا شمس. خافت ألا ترى الشمس بعد الآن؟ من الكوّة في الفندق الأسود الفظيع (ستتذكره بعد ذلك مائلاً، كأنه سيقع على جنبه) كانت ترى مداخن البواخر وهي تقتحم الغيوم: إلى ذلك الحد كانت الغيوم منخفضة!

وضعت كيسها في حضنها. الرحلة إلى La Havre طويلة، «أكثر من 15 ساعة» قالوا لها. فتحت كيسها وتفقّدت أغراضها وهي في قلب الكيس، لم تُخرِجها. المرأة العجوز على المقعد المقابل نظرت إليها وابتسمت، ثم عادت إلى كتابها. كان كتاباً غريباً، فيه صور غريبة. مرتا تفحصت أوراقها بأصابعها. تفحصت «شغلها» أيضاً. أرادت أن تُخرج الصنارة وكرة الخيطان والقطعة التي تطرّزها، لكن شيئاً ما ظلّ يمنعها. عند الظهيرة لم تعد تبصر ظلّ القطار يزحف على

الأعشاب جنب السكة. بعد أن نامت العجوز (أكلت سندويشة بيضاء اللون كالثلج، وبين القطعتين الناصعتين شريحة وردية اللون لم تعرف ما هي، وبعد سنوات عرفت أنها صنف من سمك الأنهار يؤكل بارداً بعد تدخينه... بعد السندويشة مسحت فمها بمنديل ونامت)، أخذت مرتا ترفع وجهها وتنظر: نظرت إلى المقصورة، نظرت إلى الحقيبة الجلد بالسيور الجلد والبكلات النحاس، الحقيبة التي رفعها الحاجب فوق الرف بينما العجوز تناوله قروشاً مطفأة اللون... نظرت إلى الستارة جنب النافذة. ومرة أخرى نظرت إلى العجوز النائمة. حزن عظيم ملأ قلبها.

بان الظلّ في الجانب الآخر. كانت ذاهبة إلى الحمام، عابرة الممر وهي تتمسك بالماسورة الحديد تحت النوافذ، خائفة أن تقع بينما القطار يجري، ورأت ظلّ القطار يمتد حتى النهر الأزرق. تجمدت مكانها تنظر إلى الحقول والنهر. عندما رأت سرباً من البط يطير فوق قطيع أغنام متجمد كحقل من الحجارة شعرت بحركة في بطنها: كأنها ابتلعت حصى وهي تشرب ماء من إبريق الفخار في القرية، والحصى تتحرك الآن في جوفها (أمها كانت تقول لها وهي صغيرة: لا تتركي الإبريق بلا الغطاء القماش، الجنّ يملأه بالحصى وأنت نائمة).

عند العصر، وهي تتأمل اللون البرتقالي يغمر الأرض والبيوت المتراكضة، سمعت العجوز تسألها أين هي ذاهبة؟ لم تردّ. لعل العجوز تظنّ أنها لم تسمعها (تعرف هذه الكلمات الفرنسية، تعرف أيضاً أن تقول بالروسية صباح الخير ومساء الخير، وأنا جيدة أنت كيف أحوالك؟). لكن العجوز تكلمت من جديد وقالت إن رحلتها تنتهي في باريس وسألتها إلى أين هي ذاهبة؟

– 6 –

مصابيح فرنسا

هبط المساء على الحقول وأظلمت النوافذ. عندما أضيئت المصابيح في رواق القطار رأت وجهها منعكساً في زجاج النافذة: تراجعت في مقعدها خائفة. لم تعرف وجهها! البثور تركت ندبات، وبعض البثور ما زال ظاهراً. ماذا حدث لها في ذلك الفندق المائل الأسود؟

نزلت العجوز في المحطة والآن تعرف أن باريس عاصمة الفرنسيس وراء ظهرها. خالها كان يحكي لها قصصاً. وأبوها قبل ذلك. كانت صغيرة وتسمعهما يتكلمان وهما يشربان قهوة أو «زهورات» مغلية تحت شجرة الجوز. لم تتخيل في ذلك الزمن البعيد أنها ستصل إلى هذه الأرض يوماً! أرادت أن تحيا الحياة كلها في القرية مع زوجها. لماذا سافر إلى أميركا؟

خلّصت قدمها اليمنى من المداس ورفعتها على ركبتها اليسرى. كانت حمراء، متورمة. لمستها بأصابعها ودلّكت بطن القدم. كل عضلاتها تؤلمها، خصوصاً ظهرها ومؤخرتها. عندما ذهبت إلى المطبخ كي تشرب ماء انتبهت إلى وجوه تعرفها: هؤلاء كانوا معها على الباخرة من يافا إلى الإسكندرية! حاولت أن تتذكر متى رأت هذه الوجوه آخر مرة. لم تكن متأكدة. ثم فكرت أنها فقدت أثرهم في مرسيليا. وها هم يظهرون أمامها مرة أخرى. كانوا يتجنبون الكلام معها، ولم تفهم سبب ذلك.

طوال الطريق، وكلّما دنا القطار من محطة وأبطأ سيره، ظلّت تنهض من مقعدها وهي تحمل كيسها وتتأهب للنزول إلى محطة الهافر. لكن الحاجب الذي يمرّ في الرواق ظلّ ينظر إليها ويقول «لا». يعمل إشارة بيده، لكنها أصلاً تعرف هذه الكلمة: Non. وقبل محطتين اقترب ووضع يده على كتفها وأجلسها. تضايقت لكن رائحته - تبغ وصوف - أبعدت ضيقها. شمّت رائحة عجوز طيب، رائحة أليفة لا تفزع منها.

تُميّز القرى من البلدات الكبيرة: كتلة المصابيح التي تظهر بين الأشجار، مرة متقاربة كثيفة، ومرة متباعدة منتشرة. عندما تكون المصابيح متقاربة، كثيرة، لا تُعدّ، تعرف أنها مدينة.

سمعت جرساً يُقرع ثم سمعت امرأة تدنو وتفتح ستارة (كانت ناعسة الآن، توشك أن تغفو بينما القطار يهدهدها.. بعد باريس ومحطة Marne صارت حركته ثابتة رتيبة). لم تفهم كلامها ثم رأت أنها تحمل شيئاً وراء ظهرها. اقتربت المرأة ووضعت على المقعد صينية فضة (معدن يلمع كالفضة)، وعلى الصينية طبق معدن بغطاء معدن يشبه قبّة. «المنديل الملفوف فيه شوكة وسكين»، قالت مرتا في نفسها. (رأت مثل ذلك من قبل. منذ بدأت هذا السفر وهي ترى أشياء غريبة).

أيام وهي لا تأكل غير الزبيب والتين اليابس. في الطريق من بيروت إلى أوروبا انتهت زوادة البيض المسلوق وأرغفة الخبز بالمربى. الآن توفر قروشها. في مرسيليا، عندما خافت أن يضعفها المرض بحيث لا تقوى على الوقوف، نزلت إلى الطريق واشترت من فرن بوابته زجاج خبزاً عجيب الشكل عليه حبوب تشبه السمسم لكنها ليست سمسماً. كان قاسياً كالحجر ولم تتمكن من أكله إلا بعد أن بلّته بماء فاتر.

خرجت المرأة كما دخلت ومرتا بقيت وحدها مع الصينية. بخار خفيف خرج من تحت الغطاء المعدن وتسرب إلى أنفها: لمن هذا الطعام؟ لماذا تركته المرأة هنا؟

وقت طويل مرّ ولا أحد يأتي. امتدت يدها وحدها - بلا إرادة منها؛ هي أصلاً نصف نائمة - ورفعت الغطاء لحظة: رأت قطعة لحم وجنبها بطاطا مقلية. هذا أيضاً رأت مثله من قبل... في مرسيليا.

المنظر ضاعف جوعها. عبثت يدها في الكيس فخرجت منه رائحة الجبل: في جورب صوفٍ أودعت زهور التيّال اليابسة. خليل يحب هذه الزهور، كان يطلبها كل مساء. عندما يرجع من الحقل وعندما يرجع من الكرخانة وعندما يرجع من الورشة في عاليه: كلما عاد من نهار الشغل الطويل يطلب هذا الشراب الساخن قبل اللقمة. يقعد عرقان الرأس على الطراحة في باب البيت ويشرب كوب الزهورات وهو يمدّ ساقه العارية و«يهرش» بأظافره حيث يعقص البرغش. (متى لفظ للمرة الأولى تلك الكلمة؟ متى بدأ يتحدث عن السفر إلى «أميركا»؟ تتذكره واقفاً أمام المرآة المربّعة المبرقعة بالصدأ - اشتراها من عاليه وجلبها ودقّ مسامير في باب البيت وعلّقها - يحلق ذقنه بالموس ويمسح رغوة الصابون على منشفة على كتفه ويتكلم معها وهو ينظر إلى وجهها المنعكس في المرآة. كانت تخشى عليه أن يجرح وجهه. وحين يسن الموس تقول له «لا تسنّ أكثر» وهو يضحك ويفرد قطعة الجلد على فخذه).

أخرجت قطعة تين يابسة وقضمتها. تركتها تذوب في فمها وأغمضت عينيها. عندما رجعت المرأة وأخذت الصينية - لم تلمس الطعام - كانت مرتا نائمة.

- 7 -

La Havre

أفزعتها الباخرة. «هذه أكبر باخرة في العالم»، قال الرجل وهو يدلّ أولاده إلى المداخن العملاقة. تكلّم معها، هو وزوجته، بينما ينزلون من القطار مباشرة إلى العربات التي تنتظر وصولهم: شركة الملاحة استأجرت هذه العربات. الباخرة تنتظر. مرتا رأت عندئذ وجوهاً كثيرة شبه أليفة. كان القطار يمتد إلى ما لا نهاية في الليل: عربات مقطورة إلى عربات مقطورة. معظم الوجوه الأليفة نزلت من العربات في الخلف. فيما بعد ستعرف أنهم كانوا في الدرجة الثالثة. (المفروض أن تكون معهم، ولا نعرف من منحها هذه المعاملة الخاصة: الحاجب العجوز؟). بينما البحر يطلّ أخذ ضوء الشمس ينير الفضاء. للوهلة الأولى خُيِّل إلى مرتا أنها تحلم: شعور بالصفاء ملأ جسمها. كأنها بلغت الهدف! كأن خليل ينتظرها هنا، على هذه الأرصفة! عندما قال الرجل لأولاده (اسمه جرجي - جورج - حموي، من حماه في سوريا. رجع من أميركا كي يأخذ إلى «العالم الجديد» زوجته وأولاده الصغار الثلاثة): «هذه أكبر باخرة في العالم»، فكرت مارتا: «هذه ليست باخرة! هذه مدينة عائمة!».

قال إن الرحلة عبر الأتلانتيك تستغرق تسعة أيام فسقط قلبها. زوجة الرجل سألتها من ينتظرها هناك، في أميركا.

- زوجي، قالت مرتا.

جرجي (جورج) حموي رأى الحمرة تتسرب إلى وجنتيها وظنّ أنه الحياء ولم يخطر في باله أنها تكذب.

قلبها اطمأنّ بعض الشيء وهي تسمع الكلمات العربية. شعرت أنها ليست وحدها تماماً. لكن هذا لم يستمر طويلاً. بينما يرتقون السقالات إلى الباخرة (من الفراغات بين ألواح الخشب ترى الماء أبيض اللون، كأنه حليب وليس ماء!) هاجمتها اللغات: المهاجرون السوريون ذابوا في بحرٍ من مهاجري أوروبا. فجأة اختفوا ورجعت وحدها. أعداد البشر مفزعة. من أين يأتي هؤلاء كلّهم؟ دفعتها المناكب وأوشكت أن تقع هي وكيسها. تمسكت بالأجسام، بالحبال، بالهواء، حتى بلغت ظهر الباخرة. رأت ناساً يرتقون سلّماً حديدياً فمشت إلى حيث السلم. كانت ترتقي الدرجات عندما امتدت يد وقبضت على زندها. استدارت فرأت رجلاً في زي البحارة. جذبها بقوّة وصاح في وجهها. لم تفهم. ثم أدركت ـ كان يشير بيديه الاثنتين الآن ووجهه يحمر كأن الدم يغلي في أذنيه - ماذا يقول: نزلت الدرجات عكس التيار ولم تبالِ بالخبطات تقع على جنبها (كانوا يركضون صاعدين وسمعت ضحكاً). ثم ذهبت إلى حيث أشار الرجل المحتقن الوجه: كانت البوابة ضيقة، وزاد ضيقها الأعداد المتدافعة: الكل يتدافع ويصيح ويشتم وهو يشق طريقه وينزل السلالم إلى بطن السفينة.

الضربة على ظهرها (حقيبة خشب أم صندوق؟) أخرجت الأنفاس من صدرها. داست أقدام على مداسها وخافت أن تفقده، أن يفلت من قدمها ويضيع. حاولت أن تتمهل لكن التيار دفعها نزولاً. فكرت أنها ستقع على وجهها وأن الأقدام ستدوسها. بينما تتخيل السقوط سقطت. لكن الناس منعوا بأجسامهم سقوطها. اكتشفت أنها

تنزل السلالم حتى من دون أن تتحرك أو تبذل جهداً. التيار البشري يحملها وحده. عليها فقط أن تبقى واقفة وأن تحضن كيسها.

كم طبقة تحت سطح الماء تغور هذه الباخرة؟ كلّما بلغت طبقة وحاولت العثور على سرير وجدت المكان مملوءاً. ناس فوق ناس. الرعب هدّها. تخاف أن تختنق. استغربت بعد ذلك كيف ظلّت تتحرك، كأن جسمها يتحرك وحده، بلا إرادة منها. كيف يحدث هذا؟ كانت بلا قلب، ضعيفة وبلا قوة، ومع هذا استمر جسمها في الحركة: صارت ذراعها تمتد وتبعد من يدفعها وهي تركض على السلّم منحدرة كي تصل قبل الآخرين، كي تعثر على سرير. في مكان عميق من رأسها كانت تحصي الطبقات من دون أن تنتبه: أخيراً، على الطبقة الرابعة تحت سطح الماء وجدت سريراً. في هذه الباخرة الأسرّة ثلاث طبقات أيضاً. لكنها هذه المرة أخذت السرير التحتاني، لم تأخذ السرير في الوسط. وفي هذه المرة حصلت على سرير قريب من السلالم: هنا الهواء أكثر من أعماق القاعة. (لاحقاً اكتشفت أن هذا غير صحيح: جنبات القاعة فيها أنابيب تهوئة).

طوال أيام الأتلانتيك بلياليه الجليد، لم ترَ وجهاً أليفاً واحداً. أقفلوا الأبواب بين طبقات الباخرة ومنعوا خروج الركاب إلى ظهر السفينة إلا في أوقات قصيرة مخصصة للنزهة.

- 8 -

الجثة

قبل أيام من بلوغ «إليس أيلاند» سمعت رجلاً يتكلم بصوت غاضب. رفعت رأسها وهي شبه متلاشية من البرد والجوع فرأته يشير بيديه واقفاً في حلقة من الركاب الذين تجمعوا في الممر بين الأسرّة. بعد ذلك رأت أحدهم يصعد السلالم ويطرق على الباب الحديد.

عندما أخرجوا الجثة (أحدهم مات على السرير فوق الرجل الغاضب: عرف من الرائحة. ولأنه منذ وقت لا يتحرك فوقه) سمحوا للركاب بالصعود إلى ظهر السفينة. كان المطر يتساقط رذاذاً خفيفاً. وقفت تنظر إلى الماء يمتد ويمتد بلا نهاية.

لفّوا الميت بالكتّان وحزموه جيداً ثم ألقوا به إلى المحيط. كانت تميل على الدرابزين - رائحة الحديد ملأت أنفها - ورأت الجثة تخبط الماء مثل الصخرة وترتد إلى أعلى ثم تسقط من جديد. النوارس جاءت من الجهة الأخرى (هناك المطبخ: طوال الوقت يرمون إلى الماء قشور البطاطا والبصل). والرذاذ أخفاها هي والجثة. مع ذلك ظلت تسمع صراخها الغريب (أين تحيا هذه النوارس؟ أين أعشاشها؟ الماء يستدير حول الباخرة ولا ترى جزراً هنا! من أين تجيء هذه الطيور؟).

نظفوا سرير الميت وفركوا الأرض بالماء والكلس. وقف كاهن على رأس الجثة قبل رميها في المحيط. على شرفات الطبقة العالية

(هذه الدرجة الأولى؟) وقف رجال في بذلات أنيقة، وعلى رؤوسهم قبعات. أحدهم فتح مظلة بيضاء فوق رأسه. هذه المشاهد علقت في ذاكرتها ولن تنساها. قبل رمي الجثة نزعوا قبعاتهم.

كانت ساعة النزهة تنتهي (في ذلك النهار نفسه؟) حين اقترب منها بحّار وسألها عن زوجها. تكلم بالإنكليزية وفهمت كلامه. قالت إنها وحدها، إنها تسافر وحدها، وإن زوجها ينتظرها في أميركا. البحّار نزل معها إلى الطبقة الرابعة تحت الماء وحمل كيسها وصعد السلم وهو يلتفت صوبها. تبعته من دون أن تفتح فمها. أعطاها سريراً في قاعة صغيرة على ظهر السفينة، في المؤخرة. كانت قاعة مخصصة للنساء. تلك الليلة نامت على هدير المحركات وهي تشعر بهواء المحيط البارد يملأ رئتيها. (قبل أن تنزل من الباخرة ستبحث عن البحّار كي تشكره لكنها لن تعثر عليه. بعد سنوات طويلة ستحكي عنه لأولادها).

لم ترَ البحّار إلا في تلك اللحظات. أخرجها من بطن السفينة إلى القاعة المذكورة ثم اختفى من حياتها. لماذا فعل ذلك؟ لماذا ساعدها؟ مرات كثيرة في حياتها سيحدث لها هذا: وفي كل مرة تشعر بالضوء يخترق قلبها.

ستحكي لأولادها أيضاً عن الحساء الساخن الذي شربته في تلك القاعة في مؤخرة الباخرة: حساء معمول من البصل واللحم المقدد. ستقول إنه كان أطيب حساء أكلته في حياتها. وبعد ذلك لم تذق مثله. «شوربة» تُغلى في قدور ضخمة في مطبخ الباخرة، ونصف البصل فيها قديم، لكنها مع هذا «أطيب شوربة». إحدى النساء اقتربت منها وأعطتها خبزاً جافاً. كلّمتها بالروسية. عرفت أنها الروسية، فردّت عليها. لفظت الكلمات القليلة التي حفظتها من أيام

المدرسة والروسية ضحكت وشدت على يدها. في الصباح ألقت عليها تحية الصباح بالروسية. كانت تنتظر استيقاظها كي تلقي عليها هذه التحية.

دلّتها الروسية إلى حمام نظيف بقنوات يغسلها ماء المحيط، وعلّمتها كيف تستخدم الحنفيتين: القصيرة الباردة والطويلة الحارة. كانت عائدة من هناك والهواء الساخن الخارج من غرفة المحركات يلفح كاحليها الرطبين، عندما سمعت صوت الرجل الحموي الذي يُدعى جرجي وينادونه جورج في أميركا. كان يتكلم مع رجل آخر وراء حاجز خشب، ويضحك. سمعت طرطقة صحون أيضاً. رغم ضجة المحركات استطاعت أن تسمع نتفاً من الحديث. كان يتكلم عن شخص رجع من مرسيليا إلى دمشق: كان آتياً معهم إلى أميركا لكنه عندما بلغ مرسيليا شعر بالشوق إلى أهله. لم يتحمل فرجع إلى بيته في سوريا وضاع عليه ثمن التذكرة.

- 9 -

تراخوما

عجزت عن النوم. الليلة الأولى على «إليس أيلاند». الحيرة وعدم الفهم. تعبانة. جسمها ليس لها. لكن كيف تنام؟ منعوها من الدخول. لكنهم لم يردّوها إلى الباخرة! لم يردّوها! لم يقل لها أحد خذي كيسك وارجعي من حيث أتيت، ارجعي إلى بتاتر في سوريا! قالوا لها «ممنوع مغادرة الجزيرة». هذا ما لا يُفهم. هل هي سجينة؟ لا يُبدون لها العداء. يعاملونها معاملة لطيفة. فماذا يعني هذا؟ الترجمان لم يشرح شيئاً. كلمة واحدة علقت في رأسها: «تراخوما». على الباخرة قبل ذلك سمعت أن الحراس لا يسمحون بدخول المصابين بهذا المرض. أخبروها على الباخرة أنه مرض في العينين وأنه ينتقل بالعدوى. على السرير الذي أُعطي لها في زاوية مهجع مستطيل في «إليس أيلاند» تلمّست عينيها. الظلمة كاملة وأناملها تتلمس العينين وتصلي أن تكون خالية من المرض. هل هي مريضة ولا تدري؟ ماذا تكون تلك الحبوب التي ظهرت على وجهها في الفندق الفظيع في مرسيليا؟ رأت الضابط ينظر عبر الدخان إلى البثور على جبهتها. شعرها ملفوف بمنديل ولو أفلتته كانت غطت البثور! لماذا تركته مربوطاً؟ هل يكلفها هذا الخطأ حياتها؟

لا تعرف من هي في هذا الظلام. تسمع همهمات. وامرأة تشخر. ولطمات المحيط على الصخور. تلمّست كيسها في الليل:

كل ما أتت به من بيتها من الجانب الآخر من العالم. (الترجمان رفع حاجبيه وهو يكرر سؤاله: «وحدكِ؟»). «الجنفيص» خشن. وتحت الخشونة تحسّست المفتاح الحديد، مفتاح بيتها. تركت العنزتين والدجاجات عند خالها أمانة. كي تحصل على ثمن التذكرة (الناولون) رهنت جلّ التفاح وراء الساقية الشتوية: إرث أبيها الثمين. طانيوس جرمانوس أبي راشد* دبّر لها الأوراق اللازمة كما فعل مع زوجها من قبلها. أخرجت الأوراق من الكيس ورتبتها على الطاولة تحت غيمة الدخان بينما الترجمان يتكلم مع الضابط. سألها من يكفلها؟ أشارت بإصبع يرتجف (كل يدها ترتجف؛ كانت الرجفة تهزّ بدنها، كأنها طفلة تُحمَّم بماء بارد) إلى الاسم على الورقة المخططة بالأسود أفقياً: Mr. Herman Tucker.

كم مرة في رحلتها الطويلة إلى هنا فتحت الكيس ونظرت إلى هذه الأوراق؟ حفظت الاسم غيباً. السيد هرمان تاكر من شركة هرمان وماكينري. حفظت اسم الشارع ورقم الشارع. شُرِحَ لها أن المدن في أميركا مقسّمة إلى مدن بدورها، مدينة داخل مدينة، وكل مدينة تتألف من خمسة شوارع، وأحياناً أكثر، ولكل شارع رقم. والبيوت (البنايات، هنالك لا توجد بيوت، توجد بنايات، وكل البنايات تحتوي عدداً محدداً من البيوت، البيت فوق الآخر) كلها مرقّمة. لكل إنسان عنوان ويمكن الوصول إليه عبر التفتيش عن الرقم. هناك

---

* طانيوس جرمانوس: أشهر سماسرة الجبل في تلك الحقبة. مذكور في رسالة ليوسف هلال مؤرخة 8 آب 1919، ومرسلة من شيكاشا (أوكلاهوما) إلى عائلته في قرنايل (جبل لبنان). هاجر يوسف هلال إلى أميركا في مطلع 1919 - بعد تجدد الهجرة بانتهاء الحرب العالمية الأولى. أقام في ولايات الغرب الأوسط متنقلاً مع «كشته» (صندوق يُحمل على الظهر) حتى وفاته في 1926 أو 1927.

عربات تجرّها الخيول وعربات بلا خيول، وعندما تعطين السائق الورقة ينظر إلى الرقم والاسم ويأخذك إلى باب الشركة.

Herman & McCinery

ضايقها أن الحروف في الكلمات الثانية متداخلة. ولم تتأكد من طريقة لفظ الاسم: أحدهم - على الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية - لفظ الاسم مثل «الكاف» في الوسط. آخر قال هذه «سين». ماكينري أم ماسينري؟ لا تعلم. ولعل الاسم كُتب خطأ! وعندئذ ماذا يحدث لها؟

أطفأ الضابط سيكارته وقلب الأوراق بين يديه. ثم أصدر صوتاً غريباً كحمحمة الأحصنة. ما به؟ ماذا رأى؟ ماذا سيقول؟ عندما رأته ينظر صوب المرأة التي تحمل الطبشورة رفعت يدها تلقائياً وقبضت على الصليب الخشب المتدلي من رقبتها. قبضت على الكنزة وعلى الصليب الذي تشعر به تحت الكنزة. كانت تصلي في سرّها طوال الوقت لكن ارتباك ذهنها أضعفها: لعلها نسيت كيف تصلي! لعل الصلاة تضيع في هذا المكان البارد! (مع أنها تتعرق عرقاً حاراً في ثيابها!).

هكذا انتهت على هذا السرير بالـ X على كنزتها. لم يردّوها. أرادت أن تسأل الآخرين لكن أحداً لم يفهم كلماتها. هل سبّب لها الاسم (McCinery) هذه الكارثة؟ لكنه ليس كفيلها. هذا الرجل الآخر في الشركة. وكفيلها السيد هرمان. كانت تتقلب على السرير، وكلما انقلبت إلى جهة حملت معها كيسها. البيت البعيد ظلّ حاضراً في خيالها. كانت تستطيع أن تراه الآن، مقفلاً، وعلى العتبة أمام الباب أوراق يابسة من السنديانة. أحسّت بالرطوبة على خديها. لمست عينيها. تخاف أن تكون مريضة في عينيها ولا تدخل إلى أميركا.

نامت قبيل الفجر وهي تحصي الخراف الخيالية في قريتها التي تركتها خلفها.

- 10 -

على الجزيرة

أراحها النوم من دون أن تنتبه. أخيراً: سرير جامد. اضطربت أحشاؤها على المحيط، والآن على اليابسة تلاشى وعيها ونسيت رحلتها: كفَّت عن أن تكون المرأة الصغيرة التي قطعت البحر وأوروبا والأطلسي كي تجد زوجها المنقطعة أخباره في أميركا. غرقت في ظلام العينين المقفلتين كأنها ترقد على فراشها على أرض بيتها في بتاتر. (إذا صاح الديك في القنّ فجراً تنهض إلى جرن الماء خارج باب البيت، تغسل وجهها ثم تهرع وتطلق الدجاج وتفك حبل العنزتين. أثناء الشتاء، حين اشتد البرد وغطّت الثلوج كرخانة الحرير على كتف الوادي، أدخلت العنزتين إلى البيت ونامت جنبها).

كم يوماً قضت مرتا أندراوس حداد (سجلوا اسمها في سجلات الجزيرة: Martha Haddad*. الترجمان قال لها: «في أميركا لا نحتاج إلى ثلاثة اسماء. أنتِ الآن مرتا حداد فقط» على جزيرة «إليس أيلاند»؟ ماذا دار في بالها أثناء تلك الأيام الماطرة وهي تخرج من المبنى وتسلك الطريق المعبّدة بالحصى المفلطح البحري إلى المطعم الصغير فوق الربوة الصخرية؟ اكتشفت أن هذا

---

* أسماء المهاجرين إلى أميركا في تلك السنوات ـ نحو 30 مليون شخص هاجروا إليها أثناء موجة «الهجرة الجديدة» - موجود بعضها في الموقع الإلكتروني: www.ellisisland.org

الرذاذ المتواصل لا يضايقها! كأنها لا تمطر! لم تترك كيسها لحظة. تعبت من مراقبة الآخرين سراً: كانت تنظر إليهم مواربة والآن صارت تنظر إليهم بلا وجل. اكتشفت أن الآخرين أيضاً كفّوا عن تجنّبها. في الحمام عثرت على مرآة صغيرة واكتشفت أن الحبوب وقعت. ليلاً تلمّست وجهها مرة أخرى: صحيح، البثور زالت! كانت تسترد وجهها. بينما تجول على طرقات الجزيرة ذات يوم غائم أصفر اللون رأت ورشة: عمال يرفعون تسقيفة خشب. ماذا يبنون؟ بيتاً أم دكاناً؟ حبساً أم مخزناً؟ كانوا يتعرقون في الهواء البارد وعلى أجفانهم ملح من العرق أو المحيط. رأت العرق يقطر من وجوههم ورأت البقع التي يصنعها العرق على القمصان. شعرت بحكاك في أصابعها. مشت حتى طرف الجزيرة وجلست حيث أكوام الصخور على حافة الماء (هذه الصخور والأتربة مجلوبة من بطن نيويورك: عندما حفروا أنفاق الصابواي - القطار - رموا الردم هنا). فتحت الكيس وأخرجت «شغلها». الصنارة بين أصابعها وظُلُّ السيدة الحجرية يتحرك وبنايات نيويورك تطلّ عليها كالعمالقة.

لا تقعد في المطعم. تشتري خبزاً وتذهب إلى الصخور. كانت عائدة إلى المهجع عند الغروب - في اليوم الثالث أو الرابع - والتقت سوريين.

عرفتهم من ثيابهم وطرابيشهم الحمراء قبل أن تصل إليهم. اتسعت خطوتها ووجدت نفسها تركض. لم تخف أن تزلق على الأرض الرطبة. ورأتهم يرفعون الأيدي من بعيد ويضحكون وهم يغذون الخطى صوبها: «أهلاً، أهلاً».

أصوات كثيرة وكلّها قوية جبلية محبّبة. رقص قلبها. ترطّبت عيناها. كانوا يُرحِّبون بها وهي تنظر إلى «شراويلهم» (السراويل

الفضفاضة) الكحلية وإلى الصديريات النيلية وإلى الزنانير الصوف العريضة مشدودة على خصر الشروال وعلى القميص الأبيض. الوجوه السمراء بلون التراب، والشوارب الكستنائية. كانوا كثراً ولم تفهم كيف لم ترهم على الجزيرة قبل ذلك. دلّوها إلى المبنى حيث ينزلون: كان في الجهة الأخرى، شبه محجوب وراء أشجار سوداء عارية الأغصان، تتعالى فروعها وهي تتشابك نحو القماشة الغائمة الرمادية. استداروا واحداً بعد آخر كي ترى العلامات على معاطفهم. رأت الـ X ورأت K ورأت الـ H ورأت L . أكثر من علامة واحدة (قبل ذلك - في مهجع النساء - لاحظت أيضاً علامات غريبة وظنّت أنه الطبشور يمحى بمرور الوقت). شرحوا لها أن كل علامة تدلّ على حالة طبية محددة. شرحوا لها أن الفحص الطبي الحقيقي يأتي بعد أيام وعندئذ يتحدد مصيرهم. كانوا يتكلموا دفعة واحدة، كما يفعل الأولاد الصغار، وعندما رأت أن أحدهم لا يحمل أي علامة بالطبشور سألته «أين العلامة؟» وهو قال «محاها هذا المطر». ورفاقه ضحكوا وقالوا «الكذّاب هو محاها وعنده خطة أن يخرج من الباب الكبير ويدخل إلى نيويورك».

ضحكاتهم رفعتها إلى أعلى، شعرت أنها تطفو على الهواء. جلسوا في ظلّ سقف نافرٍ من مبنى خشبي وصارت تسألهم ويسألونها. كانوا من جبل لبنان ومن حوران ومن دمشق ومن طبرية. الرجل ابن طبرية ملون العينين، طوال الوقت يحدّق إليها كأنه سيأكلها: أخرج من معطفه تفاحة بيضاء - خضراء تلمع كأنها مصقولة. استحت أن تمدّ يدها لكنهم ألحوا عليها. أخذت التفاحة بين أصابعها وأصغت إلى كلامهم ولم تأكلها. ألحّوا عليها مرة أخرى: «كلي، كلي، هذه من الشام، كلي»، وضحكوا. كانت ضحكاتهم تهزّ الفضاء كأنهم في احتفال، في عيدٍ ينتظرونه من سنة إلى أخرى.

- 11 -
قمر الدين

ابن طبرية الملون العينين ظلّ ينظر إليها. صارت تلعب بالمحبس الذهب في إصبعها لعله يكفّ بصره عنها. لكنه لم يُبالِ بتلك الحركة. عرفت أنهم ينادونه «قمر الدين». اسمه سلمان وينادونه «قمر الدين» لأنه حمل معه على الباخرة زوّادة لا تفنى من المشمش المكبوس المحلى: كان يُخرج الرقاقات البرتقالية القاتمة من ثيابه، ويزيل الخيوط التي علقت بالدبق، و«يعزم». لا يقبل أن يأكل وحده أبداً. ومرتا - بعد أن التقت أبناء بلدها - صارت هي أيضاً لا تأكل وحدها أبداً. عندما أطعموها لبنة ماعز «سردالي» مكبوسة بالزيت خافت أن تبكي وهم ينظرون إليها.

«قمر الدين» شرح لها أن هذه الجزيرة مثل الكرنتينا (المحجر الصحي). قال إنه رأى الأطباء يفحصون إحدى الدفعات وإن العدد الأكبر نجحوا ودخلوا إلى أميركا. لا يردّون إلا الحالات المستعصية. «لو كنّا مصابين بهذه التراخوما اللعينة كانت عيوننا كعيون الأرانب الآن، لا تخافي». سألته ماذا يصنع هذا المرض. قال «الواحد يعمى».

سألته لماذا يضايقهم ذلك؟ قال «لا يعمى وحده». وقال إن المرض معدٍ، ينتقل باللمس، ويقولون حتى بالنظر. هي كانت تمازحه أصلاً (عرفت في الأيام الماضية أنه مرض يُعدي) لكنه عندما تكلم

ناشف الوجه خشن النبرة خافت: خوفه انتقل إليها بالعدوى.

أحدهم - هذا من حوران - سألها من ينتظرها في أميركا؟ كان يحمل عصا في يده وطوال الوقت يبرمها بين أصابعه وهو يتكلم. عندما يسكت يدق الأرض بعصاه كأنه يقيس فارق الوقت بين سؤاله والإجابة.

- زوجي.

سألوها ماذا يشتغل، وماذا يُدعى؟ قالت «خليل حدّاد» وقالت يشتغل عند السيد هرمان، يبيع بضاعة في نيويورك وبروكلين وأماكن أخرى.

الرجل الذي قال إنه من عينبال الشوف في جبل لبنان تكلم عندئذ:

- وأنا سأعمل عند مستر هرمان.

اكتشفت أن عدداً منهم كفيله السيد هرمان أيضاً.

- «هذا خواجه آدمي ويحب السوريين»، قال «قمر الدين».

- المهم الآن أن نخرج، وألا يردّونا إلى البلاد.

- لا أحد يرجع من هنا. إذا وضعوني على الباخرة أقفز وأسبح إلى المدينة.

- أنت تغرق كالخروف.

- أبوك الخروف. أنا أسبح في النهر، لن أغرق في هذه المياه المالحة.

كانوا يتكلمون ومرتا ابتعدت من دون أن يتحرك جسمها. كانت تفكر في زوجها. كلما سألها أحد من ينتظرها في أميركا قالت «زوجي». هل تقول ذلك عفو الخاطر؟ من دون قصد يخرج هذا الجواب من فمها؟

ساعة النوم، عندما تنفصل مرة أخرى عنهم، ترقد على ظهرها. السرير جامد. وهي تنظر إلى السقف. ضوء المنارة يدخل من الشباك الكبير ويبرم على السقف. تنظر إلى الضوء الأصفر وتتخيل البيت البعيد وشجرة الرمان وشجرة التين والهواء الذي حين يهبّ يحمل إلى الباب أوراق السنديانة. تكنس الورق ويرجع، تكنسه ويرجع. يتسلق العتبة ويدخل البيت. ومرات - إذا تركت باب الخزانة بالناموسية الشبك مفتوحاً - يقع في صحون الزعتر والزيت ودبس العنب واللبنة.

في الصباح أيقظوا المهجع باكراً بطنين جرس مدوٍ. طُلب من الجميع النزول إلى البهو مع الأغراض والاصطفاف بانتظار الطبيب. مرتا أندراوس حدّاد شدّت الكيس إليها وحلّت منديلها: تدفق شعرها الأسود فشعرت بالخوف والقوة في اللحظة ذاتها.

الطبيب أوجع عينيها. يقول «افتحي، افتحي» (Open, Open) ثم يدفع العود في بؤبؤها. فكرت أنها ستعمى على يده. لكنه عندما انتهى ابتسم وأشار برأسه إشارة طيبة. وقفت أمام رجل - هذا غير الضابط الأول - يدخن بلا توقف، ونظرت إليه يطبع الختم على الورقة ويعطيها الورقة شبه مطوية. من دون أن تنظر عرفت: ستدخل إلى أميركا!

كانت خارجة من الباب الكبير إلى «العالم الجديد» الذي ينتظرها، واستدارت لا تدري لماذا، فرأت الرجل الذي يسمّونه «قمر الدين» حزين الوجه يرفع يده متباعدة الأصابع ويودّعها. كان بين حارسين ورأت أنهما يأخذانه إلى الباب الآخر.

«باب الدموع»، هكذا يسمّونه. من هناك يرجع الواحد إلى الباخرة.

- 12 -
المزرعة

السيد يبدو شارداً هذا الصباح. دلزي (في عروقها تمتزج دماء زنجية ومكسيكية) وضعت الفطور على الطاولة وانسحبت بلا صوت. كان ينظر إلى الحقول تمتد بيضاء وبنّية إلى نهاية العالم. القطن تفتّح، وحين يهبّ الهواء ترتفع الكواكب الناضجة مع الهواء وتسبح. هل يرى المنظر؟ الأعمدة الرخام البيضاء تمنع أشعة الشمس عنه. يقعد في الظل ويبدو معتكر المزاج. أليزابيث قالت وهي تتثاءب في الفراش: «الديوك ما زالت نائمة، ارجعْ!». لكنه كتلة طاقة في هذا الصباح. كلماتها الإنكليزية بقيت في الغرفة ذات الستائر الحرير وهو خرج إلى البهو الشاسع. القصر بناه أبوها. كان الجد يملك أكبر عدد من العبيد في المقاطعة كلها. صورته تتربع في صدر البهو، يلبس الزي العسكري. أليزابيث قالت إنه أصيب أثناء الحرب الأهلية بثلاث رصاصات في بطنه وظلّ حيّاً. ثم مات في الفراش بعد سنوات وهو نائم. هل تتذكره؟ لا، لكن أهلها أخبروها أنها وُلدت قبل موته وأنها كانت المفضلة عنده. كان يجلسها في حضنه ويطعمها الدراق بأصابعه ويضحك. لكنها لا تتذكره.

خرجت بقميصها الأبيض وعلى كتفيها شال صوف بمربعات خضراء وصفراء. لفّت ذراعيها الطويلتين حول رقبته فترك رأسه يتراجع ويستند إلى بطنها لحظة. ثم نهض وقال إنه تأخر. نادى بأعلى

صوته على الصبي فظهر من وراء الإسطبل وهو يلهث. طلب الحصان لكن الصبي كان عارفاً ماذا يطلب سيده من قبل أن يتكلم.

أليزابيث نظرت إلى جزمته الطويلة الساق وسألته لماذا لا يقعد ويأكل فطوره. كان متحفزاً ويشعر أن التوتر في أعضائه لا يُحتمل. بقفزة واحدة نزل الدرجات الأربع الرخام. الحصان خرج من الإسطبل مرفوع الرأس، صقيل الجلد، ومن شعره تتساقط قطرات ماء. نبّه على الصبي أكثر من مرة أن ينشفه جيداً. لكن الصبي نصف أبله.

بينما يقطع الحقول يهزّ رأسه (طوال الوقت يلقون عليه التحية: يرفعون الوجوه العرقانة عن النبات والأرض ويقولون أشياء غامضة. «سينيور، سينيور». وهو - إذا كان معتدل المزاج - يردّ: «سي، سي». هذه «نعم» بالإسبانية). الصبي قال إنهم يحبّونه. بعد «سينيور» ينطلقون في سلسلة كلمات يستحيل فهمها. مع هذا تبدو وجوههم فرحة، مُرحِّبة. تحت الشجرة الضخمة غرب الحقول تتراصف أكياس القطن. جنبها على الأرض امرأة قاعدة في ثوب فضفاض تحمل إبرة بيد وفوطة مبلّلة باليد الأخرى. الفوطة حمراء اللون. القاطفات العبدات يقتربن من المرأة بكفوف مفتوحة. تستخرج شوك القطن من الراحات وتمسح الجروح بالفوطة. عندما ألقى حصانه الضخم ظلاّ على المرأة قامت واقفة. كلّمته بالإسبانية والإنكليزية معاً. كان يهزّ رأسه ويُربّت على عنق الحصان. حرارة الحصان تسربت إلى راحته، تسربت إلى دمه. شعر المرأة فاحم السواد يُحدّد وجهها. بشرتها حنطية وعندما تفتح فمها تظهر أسنانها بيضاء، قاسية، متراصفة. يتخيلها تقضم جوزاً وتكسر القشرة القاسية. نفخ الحصان بخاراً وتراجع. اقتربت المرأة وهي تمدّ يدها. لمست فم الحصان، داعبت المنطقة الحساسة بين

عينيه. أحنى الحصان رقبته. السيد ضحك وهمز الحصان وخرج من الحقول إلى الطريق في غيمة من غبار أحمر.

رأى أرنباً ميتاً وسط الطريق وأثر العجلة التي مرّت على جسمه. لسبب لا يعرفه نزل عن الحصان ونظر إلى الأرنب الممعوس. بعد ذلك ركب الحصان وانطلق خبباً.

على يمينه، في سهل أخضر العشب، مرّت كالسهم ثلاثة ثعالب. بعد ذلك رأى مجموعة أخرى: كانت توج حمراء وبنية في بحر العشب الأخضر - الأصفر. قبل أن يبلغ النهر (لولا هذا النهر يكون العشب بنّياً الآن، محروقاً) سمع هديره. مع أنها سهول والنهر لا ينحدر هنا قوياً. الصوت سببه الصخور في مجرى النهر. ربط الحصان حيث يربطه كل مرة. نزع ثيابه وخاض في الماء. جلس بين صخور مفلطحة صقيلة وترك النهر يغمره حتى الرقبة. في الأشجار بانت العصافير الملوّنة: عيونها تنظر إليه.

فتح يده في الماء. البرد اللذيذ بين الأصابع. أول نزوله في الماء تصعقه البرودة. الحصان يتردد ولا يخطو صوب النهر إلا كي يشرب. النهر بارد جداً في هذا الصباح والحصان تتبخر منه الحرارة في موجات مرئية. بعد وقت هدأت حركته. كان يأكل العشب والزهور البيضاء الغريبة الشكل (في قلب الزهرة كتلة حمراء تشبه ثمرة الكرز) وبين حين وآخر يهزّ ذيله هزاً عنيفاً ويطرد الحشرات الطائرة.

- 13 -
نيويورك

بعد سنوات طويلة، وهي تجلس بين شجيرات ياسمين فوّاحة العطر في باسادينا* (كاليفورنيا)، ستقول الجدة مرتا ردّاً على سؤال من أحد أحفادها: «ثلاثة أشياء أتذكرها من دخولي الأول إلى نيويورك: جسر بروكلين. الناس الذين يخرجون فجأة من بطن الأرض ويقطعون الطريق ثم ينزلون في ثقب آخر. ورائحة الهوت دوغز». هذا كله سيُقال بالإنكليزية، وصعب على شخص يسمع لهجة الجدة مرتا وهو مار خارج سور الحديقة أن يتكهّن أن هذه المرأة جاءت من وراء المحيط وهي لم تبلغ العشرين بعد.

الرجل الذي قال «محسوبك قاسم عبد الباقي من عينبال الشوف» وهو يقرقع بالقاف القوية، الرجل الذي التقته مع أصحابه على «إليس أيلاند»، كان رفيق رحلتها من الجزيرة - الكرنتينا إلى عنوان المتجر التابع للسيد هرمان في «واشنطن ستريت». كانت رحلة عجيبة: خلال دقائق انتقلا من حي إلى آخر كأنهما ينتقلان من زمن إلى زمن مختلف. كانت رحلة عبر الزمن! لم تكن رحلة عبر أمكنة متجاورة في المدينة نفسها!

سائق العربة لم يلفظ كلمة واحدة وهو يأخذهما في هذه الرحلة العجيبة. ألقى نظرة واحدة على الورقة وعرف العنوان المنشود.

---

* Pasadena

تركهما يتخبطان في الحيرة وهما يعبران الشوارع والأحياء تحت سماء غائمة، سماء هذا «العالم الجديد». من كل جهة هجمت عليهم أصوات وروائح وألوان غير مألوفة. وجوه لا تُحصى، بيضاء وسوداء وصفراء، كل أعراق الأرض اختلطت على هذه البقعة التي تُسمّى مانهاتن.

وما ضاعف الإحساس بالضخامة والزحمة واجهات المتاجر الزجاج وكل تلك النوافذ الفسيحة: إلى أي ناحية التفتت كانت مرتا ترى وجهها في الزجاج منعكساً وضائعاً بين مئات الوجوه الغريبة. وكل الناس يركضون، ولا تعلم من أين يأتون (من أي قرية؟ من أي عائلة؟) ولا إلى أين يذهبون. عربات بأحصنة وسيارات فورد ودودج وقطارات أصغر من القطارات تمرّ في هدير قوي مفزع على شبكات حديد معلقة في الهواء بين الأرض الموحلة والسماء القاتمة. خُيِّل إليها أن أحد هذه القطارات الرمادية بالعلامات الصفراء الدائرية سيدخل في البناية الضخمة عند الزاوية. لكنه مرّ خلف المبنى ولم تسمع شيئاً. فتى في العاشرة ركض وهو يرفع سلّة فوق رأسه. لم تعرف ماذا يريد أن يبيعها لكن وجهه المغطى بالنمش ردها إلى عالم آخر بعيد لا تعرف هل تراه بعد اليوم: كان يشبه نعوم ابن خالها (الصورة الأخيرة التي تحفظها له: يمسح يده على سرواله ويتناول منها «كمشة» من اللوز الأخضر الطري وجوزة رقبته تتحرك وهو يبلع ريقه). أوجعها عنقها وهي ترفع وجهها وتحاول أن تحصي عدد الطبقات في البنايات الشاهقة العلوّ. (رجال عابرون في بذلات، على رؤوسهم قبّعات عالية سوداء، وفي قبضاتهم شماسي أنيقة، التفتوا ونظروا إليها).

هل كانت خائفة؟ هل شعرت بعقدة في بطنها هي تنظر إلى الغيوم التي تعبر زجاج البنايات؟ بدت البنايات كأنها ستقع عليها؟

خافت من حركة الغيوم في الزجاج؟ خافت من الضجة والزحمة؟ في مرسيليا خافت وهي تقطع الطريق حتى أنها صلّت ألا تقتلها السكتة. كل تلك المناظر في الليل أفزعتها. لكن ساعتها الأولى هذه في نيويورك لم تزرع رعباً في قلبها. على الأقل هكذا أتخيّل تلك الساعة: كانت مدهوشة! عيناها تتسعان والفتنة تشعّ من وجهها.

رأت بناية حمراء اللون، كلها مبنية من القرميد الأحمر. ما هذا؟ في سوريا لا أحد يبني عمارة كاملة بالقرميد الأحمر. القرميد تُصنع منه السقوف الهرمية الشكل في بيروت وجبل لبنان: هذه السقوف الهرمية علامة الثراء. مهاجرون كثر يرجعون من أميركا وعلى بطن الصديرية تتدلى ساعة ذهب بسلسلة ذهب وكل لحظة يفتحون الساعة كي ينظر الآخرون إليهم وهم يفتحون الساعة (ماذا يبدل الوقت هنا، في القرية النائمة بين أشجار الزيتون والتوت والكرز؟). يفتحون الساعة ثم يشترون الأرض ثم يبنون البيت ويرفعون سقف القرميد العالي: هكذا تكتمل الحياة. لكن بناية كاملة من القرميد الأحمر! هذا لم تتخيل مثله يوماً!

من شرفة بناية تطلّ على الشارع نظرت إليها زنجية ضخمة الجسم ترتدي ثوباً أصفر لا يغطي إلا جزءاً من لحمها. كان المنظر لا يُصدّق! البشرة السوداء لمعت من القماش الأصفر والمرأة حدقت إليها كأنها تعرفها! حتى السائق استدار لحظة وأشبع نظره من وجه مرتا. الرجل القاعد جنب مرتا لم ينتبه إلى ذلك: بدا مرتبكاً كأنه وقع في ورطة ولا يعرف كيف يخرج منها. بدا مصدوماً بأميركا! ماذا أتى يفعل هنا؟ لماذا ترك البيت الأليف والجبل الساكن والقرية الوديعة؟ أي غباء حمله من هناك إلى هنا؟ يده على الحقيبة المصنوعة من خشب وجلد، والظلام يقتحم عينيه. أعتمت الدنيا أمامه وودّ لو يُحمل إلى عينبال الشوف في هذه اللحظة.

- 14 -

تقرير قنصلي

من ماجلسن (Magelssen) القنصل في بيروت

إلى لوميز (Loomis) في الخارجية - واشنطن.

ذكرت في رسالة سابقة أن قرى كاملة في هذه الجبال باتت فارغة أو شبه فارغة. وتجد قرى بلا رجال. وإحداها سُميت «قرية الأرامل» لأن الرجال خرجوا إلى وراء البحر وتركوا النساء واختفت أخبارهم! لكن هذه حالة شاذة.

وعموماً فالبيانات المنشورة في المطبوعات السورية عن المهاجرين السوريين تعوزها الدقة. ولا بد من أن نلاحظ أن المهاجرين السوريين يقتصرون غالباً على لبنان الذي ينتمي سكانه تقريباً إلى طبقة الفلاحين. وهناك بلا شك عائلات عريقة ذات نفوذ كبير في لبنان ولكن من النادر أن يهاجر منها أحد. ومن ثم سأقصر تقريري على طبقة الفلاحين المذكورة.

نظراً لطبيعة أرضهم الصخرية والتجارب الصعبة التي اكتسبوها في مجال حراثة الأرض فإن ذلك يجعل منهم إضافة قيّمة لسكان الريف عندنا إذا شجعناهم على العمل في هذا المجال. لكن لسوء الحظ لا تتوافر لديهم النية أو الميل للاشتغال بنوع العمل الذي من الطبيعي أن ننتظره منهم. وكما يتضح من البيانات التي قدمها المواطنون العائدون فإنهم يشتغلون جميعاً بالتجارة، ويعني ذلك في

كثير من الحالات أنهم باعة متجولون، ولنا أن نتخيل بسهولة ملامح البائع السوري المألوفة الذي يرتاد الطرق الترابية في الريف الأميركي. إنه يذهب إلى أماكن قصيّة لا يذهب إليها غيره لكنه في المقابل غير مستعد بعد الآن لحراثة الأرض وزراعتها.

من الناحية العملية لم يأتِ أي من هؤلاء المهاجرين من بيروت أو غيرها من المدن التجارية، ونسبة من تعلموا منهم في المدارس الأميركية في سوريا ضئيلة جداً. فهم على نحو ما وعوض النزول من الجبل إلى المدن لامتهان التجارة ينزلون من الجبل إلى أميركا لفعل ذلك.

من جهة أخرى فنموذج السوري الذي «يتأمرك» بسهولة نجده غالباً بين من تأثر بالثقافة الأميركية في هذه البلاد: ففي الكلية الأميركية ببيروت مثلاً والموجودة هنا منذ 1866 يتّبع المحاضرون الأميركيون المناهج الأميركية. والقساوسة يُدرّسون التوراة والإنجيل جنباً إلى جنب العلوم والجغرافيا والرياضيات والتاريخ الطبيعي. ويمكن بمراجعة سجلات مرفأ بيروت وسجلات «إليس أيلاند» أن نتبين مدى قلة عدد من يذهب إلى أميركا من أولئك الخريجين السوريين المتعلمين وهكذا نرى أن 37 خريجاً فقط من أصل 842 خريجاً هم جملة خريجي الكلية (أي أقل من 5.4 في المئة) قد هاجروا إلى أميركا. وهؤلاء المهاجرون الـ 37 ينقسمون إلى عدد من الاختصاصات وبينهم 8 أطباء و6 صيادلة و3 قساوسة وخمسة درسوا التجارة ومسك الدفاتر.

السوري العادي في أميركا يعيش بأقل نفقة ممكنة عيشة الضنك ليوفر أكبر قدر ممكن من المال يرسله إلى بلاده أو يحمله معه عند عودته. وقياساً على عدد من عادوا إلى بلادهم لبناء المنازل وشراء الأراضي يبدو أن منتهى ما يطمحون إليه أن يصبحوا من عداد الملاك

في بلادهم. ومن الملاحظات العامة الشائعة بين السوريين والأجانب أن كل البيوت التي بنيت في لبنان بالسقوف القرميدية إنما بنيت بأموال جاءت في أميركا. فإذا وضعنا في اعتبارنا أنه تكاد لا توجد قرية في أي منطقة نائية في لبنان لا يشيد فيها بيتان أو ثلاثة بيوت جديدة بسقوف قرميد بينما أخطّ هذا التقرير، وأنه قد تمّ بناء قرى بأكملها على هذا النحو أحياناً، يمكننا التعرف على حجم الأموال التي نزحت من أميركا واستثمرت استثماراً دائماً في سوريا. ويمكننا الحصول على فكرة بسيطة عن الأموال التي أرسلها المهاجرون السوريون إلى بلادهم مما تذكره بعض مصادر البنك العثماني الإمبراطوري عن تلقي ما بين 400 و 500 ألف جنيه استرليني من هذه التحويلات. والقسم الأكبر يأتي من الأميركتين. (بين قرى الجبل نذكر دير القمر التي باتت معظم بيوتها تتغطى بسقوف القرميد حتى أنها تبدو من القاطع المقابل حمراء اللون؛ والقسم الأكبر من مهاجري هذه البلدة يستوطنون الأرجنتين ويرسلون المال إلى الأنسباء ومرات يُسهِّلون لهم الهجرة).

ورغم القيود التي تفرضها تركيا (السلطات العثمانية) على المهاجرين المتجنسين بالجنسية الأميركية يغامر عدد كبير منهم بالعودة إلى بلادهم الأصلية. وخلال مدة عملي في هذه القنصلية التي زادت على خمس سنوات، سنحت لي فرص نادرة لدراسة هذه الشريحة والكلام معهم وطرح الأسئلة حول غرضهم من العودة. ولم يقل أي منهم إنه أسرع بالعودة أملاً في إقامة وكالة تجارية أو مشروع استثماري ولكنهم كانوا يقولون دائماً إنهم عادوا لزيارة أُسَرهم وأقاربهم أو لتصفية ممتلكاتهم، وعدد لا بأس منهم عاد للبحث عن زوجة. وفي بعض الحالات كان المرض وسوء الحالة الصحية دافعاً للعودة.

- 15 -

السيد هرمان

تراجعت الدهشة وحلَّ مكانها الخوف والترقّب الذي يعقد المصران عندما توقفت العربة. مرتا ميّزت حروف اللافتة فوق المتجر الذي يحتل الزاوية:

Herman Dry Goods Co.

شبكت شعرها بدبوس وغطّت رأسها بالمنديل. ها هي بلغت نهاية رحلتها (هذه نهاية رحلتها حقاً؟). منذ زمن طويل وهي تسافر، قطعت الأرض من جهة إلى أخرى. «ثمانية آلاف ميل»، هكذا قالوا لها على الباخرة التي حملتها من «الهافر» إلى «إليس أيلاند» (بعد سنوات طويلة، وهي تساعد حفيدها المفضل على دروسه في الجغرافيا، اكتشفت سرّ هذا الرقم الغامض: قطر الأرض 8000 miles)

العجلة طرطقت على حافة الرصيف. من دكان يجاور المخزن الكبير (واجهته الزجاج ملأى بالثياب وبناس يقفون بلا حراك كالتماثيل والثياب تغطيهم) خرج حلاق يحمل مشطاً ومقصاً ويطرطق بالمقص كأنه بائع قهوة يطرطق بفناجين القهوة المرّة في محطة بحمدون. كان أصلع والضوء يبرق على رأسه. رأته بطرف عينها وهو يستدير بكامل جسمه ويحدق إليها وهي تدوس في الوحل محاذرة لئلا تزلق (نظراته ألهتها عن ذكرى باغتتها: جلّ التفاح المرهون وراء الساقية الشتوية عندما تغمره الأمطار شتاءً ويتحول إلى ما يشبه

المستنقع... هل تفكّ الرهن عن الجلّ يوماً؟ هذا ما لا نعرفه حتى الساعة: المستقبل يحفل بمناطق مظلمة، وما علينا إلا الانتظار ثم نعرف ما خفي عنا). شدت الكيس إلى جسمها كأنها تحتمي من خطر محدق (ولو كانت العين لا تراه في هذه اللحظة) وسألت نفسها السؤال الذي تسأله كل ليلة قبل أن تغمض عينيها: «أين أنت يا خليل؟». بدت مترددة وهي تقترب من متجر السيد هرمان. ماذا ستجد في الداخل؟ أي خبر ينتظرها؟ هل تعرف مكان زوجها؟ هل تجد خليل هنا؟ (خلفها سمعت الرجل ابن عينبال يقول شيئاً للسائق. لم تعرف ماذا يقول. لعله لا يكلم السائق. كان يتعرق طوال الوقت في العربة ويتلفت حوله كالأرنب المذعور لا تعرف لماذا).

قبل أن تبلغ الباب دخلت رائحة دافئة إلى رأسها. في اللحظة ذاتها رأت قطار بحمدون يعبر أمامها برؤوس الماشية تطلّ منه مع رؤوس البشر ورأت غيمة من الرمل الأصفر وفي جوف الغيمة رجال يقعدون ويلعبون «الطاولة». الباب الزجاجي المشرع عكس كنزتها الصوف الملوّنة ثم عكس الرجل الذي هرع كي يلحق بها حاملاً صندوقه - الحقيبة. بينما تخطو إلى قلب المتجر شعرت بقلبها يتجاوز نبضة.

خطوة واحدة حملتها - بعد هذه الأميال كلها - من ضوء نيويورك الرمادي إلى عتمة خفيفة أنارتها مصابيح تتباعد وتتوغل إلى نقطة بعيدة غير مرئية: وجدت مرتا نفسها عندئذ في مدخل أطول متجر في العالم. كان متجراً بطول شارع! وعن الجانبين تتعالى الرفوف المثقلة بالثياب، وإلى جهة من الاثنتين تمتد منضة طويلة صقيلة: أطول منضدة في العالم. وكان المكان فارغاً! أو هكذا خُيِّل إليها للوهلة الأولى. ثم سمعت الأصوات ورأت ناساً يخرجون من

وراء إحدى «السقالات» (رفوف فوق رفوف مثل سقالات القزّ التي يُربى عليها دود الحرير في سوريا). كانوا رجالاً ونساء وخرج من الجماعة رجل نحيل كالظلّ واقترب منها وسألها من تطلب؟ لم يسألها ماذا تطلب؛ من ثيابها حدس أنها تطلب السيد هرمان أو أحد الباعة الذين يعملون عنده على الطرقات.

العيون نظرت إليها وهي تتقدم مع كيسها (والرجل صاحب الصندوق يتبعها). هذه العيون لا تعرف عادات سوريا: في سوريا يسير الرجل أولاً والمرأة تتبعه، وليس العكس. النظرة المستغربة في هذه العيون لا علاقة لها بهذا الانقلاب المباغت في التقليد الشرقي. بدت المرأة فاتنة الجمال. هذه مرتا ونحن نعرفها لكنهم يرونها للمرة الأولى: من وجهها المدوّر شعّ ضوء غريب. (كل آثار المرض زالت عن وجهها: ماذا كان؟ جدري الماء؟ لا نعرف ماذا كان لكن آثاره زالت والقشرة الجديدة ـ بدّلت جلدها كما تفعل الحيّة؟ - هذه البشرة الطرية تجعل الإنسان - رجلاً كان أم امرأة - راغباً في مدّ أصابعه كي يلمس خدها برؤوس الأنامل). النظرات لم تحرق صفحة خدها. عيناها الواسعتان تجاوزت الرجال والنساء. أحدهم ألقى تحية. ردّت بهزّة رأسها. لعلها رفعت يداً في إيماءة. باتت فجأة عارمة القوة، وكل إرادتها تقودها في اتجاه واحد: إلى أعماق المتجر حيث مكتب السيد هرمان يحتجب وراء ستارة.

استقبلها بالترحاب:

- Welcome Madame Haddad

كرّر كلمة welcome مرتين ثم قال «أهلاً» بعربية ثقيلة. كان رجلاً خمسينياً يميل إلى البدانة. (لكنه غير سمين. ولعله بدا مملوء الجسم مقارنة بالظلّ الذي وقف جنبه - وراء الكرسي الكبير - يترجم

كلامها وهي تستغرب أنه يعرف ماذا تقول: «الظلّ» بدا أميركياً خالصاً فكيف يعرف لغتها؟). عندما نهض السيد هرمان ومدّ يده فوق المكتب المغطى بدفاتر الحسابات ولفّات القماش و«المساطر» كي يصافحها انتبهت إلى رجفة في جانب وجهه: شعرت (من أين يأتي هذا الشعور؟) أنه رجل غير قادر على الكذب.

- 16 -

علي جابر

إذا بحثت عن علي جابر (Ali Jaber) في سجلات «إليس أيلاند» وجدت أربعة أشخاص يحملون هذا الاسم، ثلاثة منهم قدموا إلى أميركا من سوريا (أحدهم قال إنه قدم من تركيا، ولعله فعلاً تركي، أو هو من سوريا، العثمانية آنذاك، أو التركية). الأول وصل إلى أميركا سنة 1901 وعمره 25 سنة. الثاني وصل سنة 1920 وعمره 37 سنة (هذا حدّد بيروت مكاناً لقدومه، ولعله من بيروت، أو من جبل لبنان، فالمهاجر من جبل لبنان كان يركب البحر من مرفأ بيروت، والسلطات في إليس أيلاند كانت تسأل عن اسم المرفأ الأول الذي بدأ منه المهاجر رحلته الطويلة). أما الثالث فوصل سنة 1913 وعمره عندئذ 30 سنة. الرابع وصل في 1906 وعمره 35 سنة لكنه ليس من سوريا ولا من تركيا ولا علاقة له بقصتنا.

حتى هؤلاء الثلاثة أعلاه لا علاقة لهم حقيقية بقصتنا. قد يجد أحد القراء علاقة لكننا نستطيع تجاوز ذلك الآن والدخول في قصة علي جابر الذي لم يبقَ اسمه في سجلات «إليس أيلاند» لأنه دخل نيويورك من دون المرور بالكرنتينا.

دخل علي جابر إلى أميركا بطريقة غير شرعية. لم ينزل في إليس أيلاند التي سمّاها «الكرنتينا» وهو يحكي لأخيه بعد ذلك مغامراته الكثيرة. ولم يمرّ على الشرطة. كان يكره جميع أشكال

السلطة ويقول إنه لم يترك سوريا إلا هرباً من البطش والقيود: من كان يقصد؟ السلطان عبد الحميد* في قصره الكبير الأبيض في إسطنبول قاعداً على كرسيّه الذهب يستعرض حريمه كل ليلة - 16 تركية واثنتان من السويد واثنتان من النروج؟ ـ أم كان يقصد «الوالد»، أبو علي جابر؟ أم كان يقصد أحد البكوات من آل العماد أو آل جنبلاط أصحاب النفوذ والرهبة في الجبل في تلك الفترة؟ لعله كان يقصد هؤلاء جميعاً في وقت واحد. ولعله كان فقط يبرر دخوله أميركا بطريقة غير قانونية. لم يقف ذليلاً أمام ضابط ينفث الدخان كالتنين ولم ينظر إلى السجل المفتوح على الطاولة وقد قُيّدت عليه الأسماء تحت العنوان العالي المطبوع بالأسود:

List or Manifest of Alien Passengers

عرف متى يترك الباخرة. لم يقفز كتلك الجثة المكفّنة ويطرق صفحة المحيط ويرتد إلى أعلى محطماً بسلسلة ظهر مدقوقة. أرخى حبلاً وتدلى. سبح في مياه أبرد من الجليد. لم يتخيل يوماً أن المياه يمكن أن تكون باردة هكذا! في ظلام الليل سبح إلى ساحل نيويورك ودخل أميركا خلسة. لم يقل لأخيه إن السباحة كانت منهكة. لعله قال ذلك لكن الأخ لم ينقل ذلك إلى الأبناء والأحفاد. سبح لابساً ثيابه؟ كان يحمل دولارات أميركية اشتراها على الباخرة. لعله اشتراها قبل ذلك في مرفأ بيروت أو في مرسيليا. هل كان يلفها بقماش سميك داخل زناره؟ هناك أقمشة يعرفها البحارة لا يخترقها ماء: هل حفظ أوراقه النقدية القليلة من البلل؟ أم قضى أيامه ولياليه الأولى في نيويورك بلا لقمة واحدة؟ هل امتلك أسلافنا - في البدن والروح -

* خُلع عن عرشه في 1909.

قوة لا نعرفها نحن الذين ورثنا جيناتهم؟ (الناس في «التوراة» يعمّرون مئات السنين: نوح مات عن 950 عاماً).

هل كان علي جابر جبّاراً شجاعاً؟ لماذا ترك الباخرة قبل أن ترسو؟ لعله خاف أن ترده السلطات الأميركية إلى بلده. على ظهر الباخرة شعر بنار في عينيه. عثر على مرآة ونظر إلى وجهه: رأى اللون الأحمر يغزو العين اليسرى. خاف أن يكون مصاباً بهذا المرض (التراخوما) اللعين الذي يتكلمون عنه طوال الوقت. إذا كان المرض في عينه اليسرى فتلك نهاية رحلته: لن يسمحوا له بالدخول إلى أميركا! هل يكون خوفه هو السبب غير المعلن لنزوله من الباخرة* إلى الماء خلسة؟ هل يوجد سبب آخر لا نعرف عنه شيئاً، سبب مظلم لا يقدر أن يبوح به؟ (سبب مظلم؟ ماذا؟) وماذا يُبدّل - في الختام - ذلك؟ كل ما بقي في الإرث الشفهي للعائلة من حياته النيويوركية القصيرة تلك الحكاية: دخوله أميركا مبلولاً بماء الأطلسي.

وقف في الظلام ينظر إلى بنايات مضاءة: في حياته كلها لم يرَ بنايات طويلة كهذه البنايات. كان يرتجف من البرد ويفرك جسمه بيديه كي يدفأ، ويغمض عينيه ويفتحهما، وكل لحظة ينحني ويبصق ماء البحر. لم يكن يعلم عندئذٍ أن الحمرة في عينه ستزول بعد أيام وحدها (هذه الحمرة سببها الشمس الساطعة على صفحة الأطلسي ليل نهار). ولا كان يعلم أن نيويورك - مدينة الأضواء الملتفة بهذا الليل الصاعق البرودة - لن تكون إلا محطة أخرى قصيرة وعابرة في حكايته.

---

* لن يتحمل رحلة العودة. قلبه يفقع إذا رموه مرة أخرى كرأس الماعز في بطن هذه الباخرة... كل ليلة مرت عليه، كل يوم مرّ، دهرٌ.

- 17 -
حياة خليل حداد

السيد هرمان تكلم و«الظلّ» ترجم أقواله. مرتا شعرت أنها تضيع في مياه اللغتين. في الأيام والأسابيع الماضية، على ظهر البحر ثم على الجزيرة - الكرنتينا، حاولت أن تتعلم (بالإصغاء) الإنكليزية. لم تفلح. صارت تفهم نتفاً من الحديث، بصعوبة. لكن هذا لا يكفي، ثم أن «الظلّ» يترجم بطريقة غريبة: يتدفق السيد هرمان بسيل كلمات فيترجم «الظلّ» كل ذلك في جملة واحدة أو في عبارة بلا معنى! لزمها الأمر بعض الوقت (عبر النافذة رأت - من دون أن تستوعب ماذا ترى - الفضاء يُعتم، وطقس نيويورك يتحول فجأة من غائم ساكن إلى ماطر يهتز بالرعود) ثم بدأت ترى زوجها، ترى خليل بقامته الطويلة وضحكته المحببة يدخل هذا المكان ذاته ويلقي السلام على السيد هرمان أول وصوله إلى أميركا قبل سنين.

في وقت قصير تعلم خليل حداد الإنكليزية. السيد هرمان قال إنه جلس على حافة الكرسي - حيث هي جالسة الآن - وأعلن أنه على استعداد للبدء بالعمل في هذه اللحظة. غبار الجبل اللبناني كان ما زال عالقاً بالشروال والقمباز والطربوش لكن خليل حداد نزع الطربوش عن رأسه وقال «أخرج الآن وابدأ قبل أن تغيب الشمس».

السيد هرمان لم يستغرب لكنه ضحك من السوري المتحمس وأخبره أن الأهم الآن أن يرتاح من عناء الرحلة الطويلة ثم في

الصباح وبعد تدبير الملابس الضرورية - «في أميركا البسْ كما يلبس الأميركيون» - وبعد تلقّي التعليمات والتمرين الأولي يستطيع أن يبدأ.

خليل حدّاد قال إنه يتعلم بسرعة. السيد هرمان أخبره أن العمل ليس صعباً، المهم أن يكون قادراً على التحمّل، وهو ما زال في عزّ الشباب ولن يجد الأمر مرهقاً. لكن الأساس المثابرة. أنا بدأت بائعاً جوّالاً أحمل الكشّة، قال السيد هرمان. بعد ذلك اكتشف خليل حداد أن وكيله وربّ عمله لا يمزح وأنه فعلاً بدأ «كشّاشاً»: رآه يُغيّر قميصه مرة واقفاً في نور النافذة المربعة (والآن ترى مرتا المطر يهطل على نيويورك للمرة الأولى في حياتها) ورأى العلامات - الندبات العميقة - التي خلفتها سيور الكشة في كتفيه وعلى ظهره. السيد هرمان أخذ خليل حداد تحت جناحه وعلّمه كيف يبيع ربّات البيوت الأميركيات بضاعته: عليك أولاً أن تقرع الباب ثم تتراجع خطوتين. في حالتك ومع هذا الطول أفضل أن تتراجع ثلاث خطوات. بعد ذلك التحية. كنْ مهذّباً واعرضْ بضاعتك. لا تفكر أن عليك طيّ المناديل والأقمشة بعد ذلك: ابسطْ كل بضاعتك أمام الزبون ثم توسع في الحديث لكن من دون إزعاج.

«الظلّ» كان يساعد بترجمته في البداية لكن خليل صار يفهم من دون الكلمات. وسرعان ما أتقن الإنكليزية. نزل في «أوتيل الجبل» في الحي السوري في نيويورك (هنا في طرف «واشنطن ستريت» حيث يتداخل الحيّان السوري والإيرلندي على بُعد خطوة من «وول ستريت» مبنى البورصة). كان يخرج كل فجر - قبل شروق الشمس - ويبدأ المشي. حمل كشّته عبر أحياء نيويورك وبروكلين ونيوجرسي. هذه الأمكنة كانت تعجّ بالمنافسين، وأعلم السيد هرمان أنه يريد أن يذهب أبعد. كل أغراضه جمعها في كيس وتركها أمانة

عند صديق في «أوتيل الجبل» ثم ترك الغرفة حيث نام الليالي الأولى في أميركا على سرير يجاور تسعة أسرّة أخرى، وصار ينام حيث ينزل عليه الليل: في إسطبل للماشية، في حقل، على قارعة الطريق، وأحياناً في منزل: تتكرم عليه عائلة باعها قماشاً فينام الليل على «فرشة» في المطبخ ويتناول الفطور الصباحي مع الذين أحسنوا إليه ثم يغادر حاملاً كشّته (أبداً لا يغادر من دون أن يودع يد مضيفته هدية: منديلاً مطرّز الحاشية، أو «ذخيرة» من الأراضي المقدسة: صليباً من خشب الأرز اللبناني).

خلال شهور قليلة وصل إلى ولايات أركانساس وكانساس وأوكلاهوما. كان يرجع للتزود بالمزيد من البضاعة من المخازن التابعة للشركة في ميسوري ثم ينطلق من جديد: صارت رحلاته تأخذه إلى تكساس، إلى كولورادو، إلى نيومكسيكو. قال السيد هرمان إنه كان أسرع وأنشط البائعين. «صرنا نرسل صناديق البضاعة بالقطار إلى المحطات في «لينكولن - نبراسكا» أو «تولسا - أوكلاهوما» وهو يتسلمها هناك ويخرج بها إلى المزارع. اقتنى عربة وحصاناً وبات يرسل الحوالات إلينا بانتظام وكل ذلك في أقل من سنتين».

المطر يهطل خارج النافذة ومرتا تصغي بلا حركة.

- 18 -
حياة خليل حداد (2)

رسائل خليل لم تخبرها كل هذه التفاصيل. الآن تكتشف أنه عموماً لم يخبرها شيئاً! كانت رسائله قصيرة ولا تروي الغليل. وكم مرة أعادت قراءة السطور. الكيس على الأرض، عند قدميها، والرسائل مطوية فيه. كانت ترفعها إلى وجهها وتحاول أن تشمّ رائحة يديه وهي قاعدة في البيت في بتاتر. حتى في المنام كانت تفعل ذلك: تشمّ الحبر والورق وتشمّ العرق من أصابعها ولا تعثر على رائحة خليل. مرّت السنوات وشوقها إليه يتضاعف. عندما اختفت أخباره وقالت لخالها «قلبي سيفقع» كانت تسيطر على نفسها: منذ وقت تشعر أن قلبها تبعثر. إذا لم تعثر على خليل كيف تبقى على قيد الحياة؟ قال السيد هرمان إنه لا يعرف أين زوجها. بحثنا عنه ولم نجده. مثل فص ملح وذاب في أميركا. الحوالة الأخيرة أرسلها مطلع السنة الماضية. وبعد ذلك لم يقصد المخازن في ميسوري واختفى أثره. أميركا شاسعة والوقت يمرّ بسرعة ولعله يظهر في وقت قريب وتجتمع بزوجها من جديد: ما علينا إلا الصلاة والانتظار.

فتح السيد هرمان يديه على المكتب وسكت. مرتا نظرت إلى البخار يتصاعد من كوب الشاي أمامها (لم تنتبه متى وضعوا أمامها الشاي). انتبهت إلى يد سمراء تمتد وتحمل الكوب الآخر. رفعت وجهها ورأت الوجه الغريب والطربوش الغريب: كان يبتسم ابتسامة

حزينة. «من هذا؟ أنا أعرفه! من هذا؟» وتذكرتْ: هذا الرجل الذي جاء معها من إليس أيلاند إلى هنا! قبل وقت قصير فقط - كم دقيقة مرّت؟ مرّت ساعة؟ مرّت سنة؟ - دخلت من ضوء نيويورك الرمادي إلى هذا المتجر الطويل كشارع. وفي هذا الوقت القصير صار الرجل ابن عينبال مخلوقاً من عالم آخر ومن حياة بعيدة!

سألتْ من أين وصلت الحوالة الأخيرة؟

- Louisiana

سألتْ عن المسافة التي تفصلها عن هذه القرية أو المدينة.

«الظلّ» شرح لها أن لويزيانا ولاية كاملة وفيها عدد لا يُحصى من المدن والقرى.

استجمعت أنفاسها وسألت مرة أخرى عن المسافة، كم تبعد هذه الولاية من هنا، وهل يذهب القطار إليها؟

«الظلّ» ترجم جواب السيد هرمان: أقدر أن أعثر على نسخة من الحوالة وأن أعرف عنوان المصرف الذي أُرسلت منه واسم المدينة في لويزيانا، هذا سهل جداً. لكنه لن ينفع. حتى لو ذهبتِ إلى هناك لن تعثري على زوجك يا سيدتي. أنا اتصلت بالشريف - الشرطي - هناك في ذلك الوقت. وهو استعلم ولم يجد أثراً لجو. هذا اسم زوجك في أميركا: Joe Haddad. أفضل ما نقدر عليه هو الصلاة من أجله وسوف يرجع. وعندما يرجع يجدك هنا في انتظاره.

مرتا لم تفهم. الكلام واضح وغير واضح. إذا كان السيد هرمان اتصل بالشرطي في تلك المدينة فلماذا لا يخبرها اسم المدينة؟ هل نسي الاسم؟ كان المطر يشتد وصار يهدر في أذنيها، كأنها في الخارج. (كم مرة أضاءت شمعة في كنيسة بحمدون الحجرية الصغيرة في المقلب الآخر من الكوكب وصلّت ألاّ يباغت

المطر والرعد خليل وهو على الطريق بين مزرعة وأخرى).

تعرف أنه يُسمّى «جو» هنا. أخبرها منذ الرسالة الأولى. ظلّ في رأسها «خليل». لكن عليها منذ اللحظة أن تستعمل الاسم الجديد. لن ينفع أن تسأل الناس عن خليل حداد. عليها منذ هذه الساعة أن تسأل عن جو حداد. (خارج النافذة مرّت عربة تجرّها الأحصنة. كان المطر يلسع الأحصنة الراكضة ورأت سوطاً جلداً يقص المطر وينزل على رأس الحصان. لم ترَ وجه الرجل الذي يقود العربة لكنها رأت ما يشبه القناع الجلد الأسود يبين من أعماق خيوط المطر البيضاء ثم يتبدد. هل التفت القناع بالفتحتين الضيّقتين كعينين وحدّق إليها؟ صوت غامض كان يدعوها إلى شرب الشاي. هل بدت لهم بردانة؟ هل تسرب اللون الأزرق إلى يديها ووجهها وما يظهر من الرقبة؟ كانت ترجف برداً؟).

تحرك الهواء وأحاطت بها ضجة. رفعت وجهها ورأت المكان يمتلئ بالناس. كانوا ينظرون إليها وينتظرون وقوفها وهم يمدّون الراحات صوبها: سوريون - يعملون عند السيد هرمان - عائدون من عمل النهار سمعوا بوصولها فأتوا يسلّمون عليها وعلى قاسم عبد الباقي.

- 19 -

قاسم عبد الباقي

رجل في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين. ملوّن العينين مثل دروز كثر في جبل لبنان. طالما اعتبر نفسه شجاعاً. لكن أميركا صدمته. المناظر الغريبة المتوالية أشعرته بالعجز. أمام الحديد الأسود لجسر بروكلين المعلَّق بلا أعمدة أحسّ أنه أصغر من حبة عدس. هدر «الصابواي» تحت قدميه وهو يقطع الطريق فظنّ أنه الزلزال: هل قطع الأرض إلى نيويورك كي يُردم تحت الحجارة بهزّة؟ أدرك أنه بلا حول ولا قوة. أدرك أنه بلا عائلته وعشيرته يساوي صفراً. ندم على سفره وعضّ أصابعه وهو يدخل إلى المتجر الطويل كشارع على تلك الزاوية في مدخل «واشنطن ستريت».

رحّب السيد هرمان به ودعاه إلى الجلوس. نظر إلى الخواجه الأميركي - الذي كفله كي يأتي ويعمل في أميركا بائعاً جوّالاً - ولم يفكر شيئاً. نظر عاقداً أصابعه وانتظر ما سيأتي: عندئذ بدأت تلك القصة الغريبة تحدث أمام عينيه. تحدث؟ لكنه يسمعها! أصغى إلى الكلام الغريب ولم يصدق. لم يفهم: كيف؟ معقول؟ لم يسمع بمثل هذا من قبل. على الجزيرة، في الحجر الصحي، قالت المرأة إنها آتية إلى زوجها الذي يعمل هنا عند المستر هرمان. لماذا كذبت؟ ألم تكن تعلم أنه ليس هنا، أن زوجها - هذا المدعو جو خليل حداد - قد اختفى وضاع أثره منذ سنة كاملة؟ استدار برقبته - نسي اللياقة

والحشمة وغض البصر - وتأمل جانب وجهها: قلبه انقبض في صدره وهو يرى الرطوبة تبرق في عينيها المشروحتين. ما هذه المرأة! امرأة جبلية صغيرة تقطع العالم إلى أقصاه بحثاً عن زوجها! لم يسمع بمثل هذا من قبل! كيف سمح لها أهلها؟ وكيف وجدت في نفسها القوة الكافية كي تقدم على هذه المغامرة؟ عندما رفعت يدها وردّت إلى وراء الأذن خصلة شعر خفق قلبه: سمع النبض يرفّ وخاف. العرق بلَّ الشعر النابت تحت إبطيه. لم يعرف ماذا يحدث له. عندما اقتحم المكان رجال أقوياء الصوت يحملون كشّات ثقيلة تضايق من وجودهم: مع أنه بحاجة إلى أصوات عربية تُبعد وحشته، تضايق منهم. كانت الأذرع تمتد وتفصله عنها. أراد أن يقترب منها أكثر. خاف ولم يفهم ماذا يحدث له. خاف وسأل نفسه ماذا سيحدث.

قاسم عبد الباقي لا يقرأ المستقبل. هذا ما سيحدث له: من لحظة السقوط هذه (بينما المطر ينهمر غزيراً خارج النافذة المربّعة ونيويورك تبدو مشرفة على الطوفان) تبدأ رحلة صعوده. خلال أسابيع قليلة تعلّم من رفاقه على الطرقات ما يكفيه من الكلمات الإنكليزية: كان يخرج معهم حاملاً الكشّة ويقبل التعليمات ويشكر. اكتشف أنه قادر على حمل الكشّة وأنه قادر على بيع النساء قماشاً ومناديل وقمصان وسيوراً وخيوطاً وتلك الأزرار الخشب الصغيرة. صار يخرج وحده ويسعى بين البيوت. ليس عاجزاً. حمل الكشّة أسهل ألف مرة من «الفلاحة» على الثور في عينبال، أرض الصخور البعيدة. هنا لا يلحق «السكة» ويخاف أن تكسرها الحجارة. هنا لا يمرض الثور وتقع الأمعاء خضراء من جوفه وتحلّ الكارثة. علّم نفسه أن يحبّ الأكل الأميركي. «ستايكس»، تعلّم الكلمة وصار يدخل إلى المطعم ويطلب هذا الطبق. لا يطلب غيره. يقطع الشريحة بالشوكة والسكين

ويأكل. في «عيد الشكر» الأميركي احتفل مع أصدقائه الجدد في البهو المثلث الشكل أسفل «أوتيل الجبل». أكلوا خبز الذرة مع الحبش المحشي والمشوي بالفرن وشربوا. في الجبل لم يقرب العرق ولا النبيذ. مرة دخن تبغاً وأبوه الشيخ رآه وطارده بالعصا من قبو العقد حتى النهر. لو لحق به كان حطّم رأسه. في البهو المثلّث وهو يرفع كأس النبيذ الأحمر ويشرب مع رفاقه الجدد فكر أنه لم يعد الشخص نفسه. قضم حبّات كستناء مشبعة بنكهة الحبش (عندما تصيح ديوك الحبش يرى بيوت عينبال أمامه تتدرج على التلال بيتاً بيتاً). شرب كأساً بعد كأس وتخيّل نفسه يدنو من مرتا حداد ويلمس يدها.

أثناء شتاء 1916 - بينما الحرب الكبرى تحرق أوروبا - استطاع أن يفتح مع صديقين متجراً صغيراً لبيع الثياب في بوسطن. آخرون غيره لزمهم سنوات من حمل الكشّة قبل أن يجمعوا مالاً يكفي لفتح متجر. دفع ثلث الرأسمال وصار يقف في المتجر طوال النهار ويثرثر بالإنكليزية مع سيدات بوسطن ويبيعهن فساتين من معامل هرمان وماكينري. بعد ذلك استقدم (هو طلع بهذه الفكرة) «ملابس يابانية من وراء المحيط الهادئ»: كيمونوات للمحترفات بنات الليل في بلدات أميركا التي تظهر من بطن الأرض بين ليلة وضحاها.

طُلب إلى الخدمة العسكرية في الجيش الأميركي أواخر 1917. في أيلول (سبتمبر) 1918، قبل شهرين من «الهدنة»، قتلته قنبلة على الجبهة الغربية.

- 20 -

الحي السوري - نيويورك

المستقبل يقدر أن ينتظر وكذلك وحول الجبهة الغربية (ملايين طُمروا هناك؛ لاحقاً يدخلون هذه القصة). في هذه الأثناء نتأمل قاسم عبد الباقي يبادل آخرين السلام والكلام بينما مرتا تنهض من المقعد كأنها تنتشل جسمها من تحت البحر.

شعرت بعظامها تتفكك. انتبهت فجأة أن الجوع ينهشها. تفكر في الطعام في هذا الوقت؟ لم تكن تفكر لكنها سمعت عصافير معدتها تزقزق وتطلب كسرة خبز. في الطريق إلى «الحي السوري» هاجمتها الرائحة مرة أخرى. وفي هذه المرة عرفت ماذا تكون: رأت مقهى ومقاعد قش على الرصيف وأراجيل. كانوا يدخنون تحت الظلات والمطر يُحوّل الشارع إلى برك وحل تغلي وتفور. غمرت الوحول نيويورك والسوريون - الأميركيون ظلّوا أمام المقهى يدخنون الأراجيل وينشرون رائحة البلاد البعيدة في الهواء. كانوا كثراً وعجبت كيف جاؤوا جميعاً من آخر الأرض إلى هنا وكيف اجتمعوا في هذه الزاوية الصغيرة جنب ناطحات السحاب («الحي السوري» اندثر بعد ذلك ولم يبقَ منه إلا أسطورته. ولعل موقعه الجغرافي الفريد في جوار وول ستريت Wall Street كان السبب في اندثاره).

مرتا أيضاً لا تقرأ المستقبل: لا تعرف أن «التركو» (هكذا سُمي السوريون آنذاك)* الذين ينظرون إليها وهي تمرّ مع آخرين تحت المطر المنهمر (كانوا يسيرون الآن، يقفزون فوق البرك، والوحل

يلطخ النعال والصبابيط) لن يجتمعوا هنا إلا لوقت قصير: مرور الأعوام سيبعثرهم على خريطة أميركا. بينهم من يرجع إلى البلاد البعيدة وبينهم من يمضي إلى أقصى الغرب (إلى كاليفورنيا) وبينهم من يذهب جنوباً إلى فنزويلا والبرازيل والأرجنتين. مصيرهم التبعثر. هذه المساحة سترتفع عليها ناطحات سحاب أين منها البنايات الشاهقة التي تراها مرتا الآن بعينين غائمتين. الجوع يجعلها تدوخ والبرد يقتحم مصارينها وهي تقطع خريف ثم شتاء 1913 ولا تعرف شيئاً عما سيأتي. (بالتأكيد لن ترى البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمية يقعان هنا والغبار يغطي العالم وهي تواصل طريقها - جائعة وخائفة ومقهورة - إلى «أوتيل الجبل»). كل ما تعرفه.هذا: عليها أن تعثر على خليل. لا أحد. غيرها يبحث عنه الآن وإذا لم تعثر هي عليه فمن سيفعل؟

خفّ سقوط المطر لحظة، صار رذاذاً، ورأت بيتاً يشبه البيوت في البلاد البعيدة وأمام البيت جنينة مزروعة بندورة وقرنبيطاً وملفوفاً. شتلات البندورة بدت شبه يابسة لكن زهرات القرنبيط بانت بيضاء ناصعة وسط اللون الأخضر واللون الأصفر. رأت امرأة على رأسها منديل تزيح ستارة مطرّزة ثم تُشرع النافذة رغم المطر وتنادي. كانت تصيح بالعربية، تكلم جاراتها، ومرتا تجمدت في مكانها: سألت نفسها هل تهذي، هل هو الجوع! لكن شخصاً معها التفت ونادى وقال للمرأة في النافذة شيئاً والمرأة ضحكت ورفعت ذراعاً تخشخش بالأساور الذهب و«عزمت» عليهم جميعاً كي يشربوا فنجان قهوة وينشفوا رؤوسهم من المطر. الرجل قال إنهم على عجلة، والمرأة ردّت بكلام غير مفهوم، وقاسم عبد الباقي قال لمرتا «انتبهي» ومرتا وجدت نفسها تغوص في الوحل.

---

* كونهم يتبعون السلطنة العثمانية.

في مدخل الفندق، وهي تنفض عن رأسها وكنزتها المطر، نظرت إلى الحيطان وإلى اللوحات الغريبة على الحيطان، وفكرت أن خليل، من قبلها، نظر بعينيه الواسعتين إلى هذه المناظر.

أعطوها سريراً على الطابق الثالث في غرفة تضم عشرة أسرّة. وجدت في الغرفة خمس نساء غيرها؛ اثنتان منهن يعرفن العربية: واحدة من بكفيا المتن أخبرتها أنها تعرف بحمدون جيداً وعندها هناك أقارب. والأخرى من زقاق البلاط - بيروت. ابنة بكفيا أتت مع أخيها الكبير والأخ يتاجر في بنسلفانيا وهي ستلحق به بعد أيام. والبيروتية جاءت مع زوجها وأولادها وكلهم يتاجرون على الطريق وهي في الفندق مؤقتاً وستنتقل إلى غرفة في بيت معارف من حلب يقطنون غير بعيد من هنا، وراء بناية «سنجر»*.

مرتا هجعت عندما انطفأت الأضواء. الخبز الذي أكلته مع حليب أثقل على معدتها. لا تعرف مم يصنعون هذا الخبز: فيه حبوب لم تذق مثلها من قبل. ليس أنها كرهته. لا. بل هي أحبّت طعمه. لكنه الآن، وهي في الفراش، ثقيل. كأنه يشرب الحليب وينتفخ ويتورم كالإسفنج في معدتها. رفعت رأسها ونظرت من النافذة إلى الأنوار في البنايات والنوافذ وعلى الطريق. رأت ناساً يتحركون فوق ناس في النوافذ الصفراء المربّعة: رأت عائلة جالسة إلى المائدة. في هذا الوقت المتأخر يجلسون إلى الطعام؟ راقبتهم هناك، في الجانب الآخر من الشارع، حتى نامت.

---

* ناطحة السحاب الأطول في نيويورك في ذلك الوقت. تملكها شركة Singer صانعة ماكينات الخياطة.

- 21 -
لقاء

أيقظها عند الفجر بوقٌ بحري هادر*. قامت مذعورة وقلبها يفرّ من زلعومها. كانت بداية سيئة لنهار طيب ففي ذلك الصباح نفسه - وبينما تفطر في بهو الفندق - التقت رجلاً سيلعب دوراً مهماً في حياتها. هذا جوزف أسطفان.

لكن قبل بلوغ البهو عليها نزول السلالم الزلقة. (ثمة مصعد في هذا الفندق: علبة خطرة وضيقة مصنوعة من الخشب والحديد المشبّك. لكن المصعد - كالعادة - معطل منذ فترة، ولو كان يعمل لخافت أن تدخله). وقبل نزول السلالم الملطّخة بالوحول عليها الخروج من غرفتها وعليها دخول الحمام. كيف قضت ليلتها الأولى في نيويورك؟ وهي نائمة سمعت المطر يهطل من جديد. (كم ليلة أيقظها القلق وعدم الفهم في بيتها الحجري المربع في بتاتر؟ ترقد مفتوحة العينين في الفراش الخالي من خليل وتسمع المطر يتساقط على الأشجار في الظلام الدامس. صوت ضعيف يصدر عن وقوع المطر على السطح: التراب يمتص الصوت وكذلك العشب النابت. عندما تصحو تصعد إلى السطح وتحدله منعاً للدلف، لكن العشب عنيد وينمو من وراء المحدلة).

فتحت عينيها في نصف الليل لحظة قبل أن تغرق في نوم عميق

---

* بابور يدخل المرفأ.

من جديد. رأت نوافذ مضاءة في الظلام وأخيلة تتحرك في مربعات النور الأصفر: ما هذا المكان؟ أين أنا؟ حين أيقظها البابور فجراً كانت تظن نفسها نائمة في بتاتر. البوق الفظيع ردّها إلى أميركا. لم تعرف هل تشكر ربّها أم تفعل العكس: قبضت على صليبها وجلست في السرير ونظرت إلى خيوط المطر تسيل على الزجاج. «أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض». ثيابها الرطبة المنشورة جنب السرير لم تنشف بعد. تلمستها في الظلام الخفيف وظلال المطر وأضواء الشارع تسيل على يديها. فتحت كيس الجنفيص وأخرجت «البدل» الوحيد فإذا به رطبٌ! المطر تسلل عبر الجنفيص! تفقدت أوراقها مذعورة وشكرت الربّ ومريم العذراء لأنها وضعت هذه في جراب جلد إضافي. حملت ثيابها كلها في الكيس، جمعت جسمها إلى جسمها، وقامت إلى الحمام. تركت الكيس في الزاوية فلا يصل إليه ماء ويبقى أمام عينيها في الوقت نفسه: اغتسلت هكذا وهي تنظر إلى الكيس يتكوم كحيوان غامض في الزاوية. غسلت رأسها بقطعة الصابون البلدي الباقية ثم مشطته بالمشط الهدية الذي جلبه لها خليل مع أغراض أخرى عندما تزوجا. كان يحب أن يجلب لها أشياء. وكانت ترى في وجهه كم يحب ذلك.

مرة تلو أخرى امتدت يدها وتأكدت أن الباب موصد ولن يدخل عليها في الحمام أحد. البوق البحري كان نعمة: أيقظها قبل الباقين وأعطاها هذه الخلوة القصيرة كي تغتسل.. بينما تلتقط ثيابها الرطبة شعرت بغتة بالبرد: كأن أحدهم يضربها بقطع الثلج وهي لا تراه لكنها تشعر بلطمات الجليد. مع ذلك لم تجد أمامها غير ارتداء الثياب الرطبة. هذا المشهد المحطّم نفسياً قد يتحول بمرور السنوات إلى تفصيل شبه خيالي في حكاية تُروى أمام الموقد بعد العشاء. لكن الإنسان صغير وضعيف وطبيعته أن يعلق في اللحظة الحاضرة: كرّت

الدموع من عينيها وهي تبكل أزرار الكنزة الطويلة الصوف.

حين أطلّت على البهو المثلّث مع كيسها وقف الرجال عن الطاولة الممدودة بالكراسي عن الجهتين. كانت أطباق الطعام تغطي المائدة والبخار يتعالى من أكواب كثيرة. روائح القهوة والشاي والحليب امتزجت في رأسها. كان البهو دافئاً ورأت قاسم عبد الباقي ينفصل عن الجماعة ويدنو منها مرحّباً. الآخرون أفسحوا لها مكاناً وهي جلست على الكرسي. كانت محاطة بقاسم عبد الباقي وبرجل آخر تتذكر وجهه من «إليس أيلاند» لكنها نسيت اسمه. قبالتها تماماً، بعد صحون الجبنة والبيض وسلة الخبز، رأت بعينين رطبتين وجهاً مدوّراً يحدّق إليها ويبتسم. من دون أن تنتبه وجدت وجهها يردّ الابتسامة: العضلات الصغيرة المتخشبة استراحت، والعبسة اختفت. فتحت فمها نصف فتحة ونسيت أن الثياب رطبة على بدنها ونسيت أنها وحيدة وضائعة ولا تملك مالاً يكفيها أكثر من خمسة أيام أو عشرة على الأكثر! أحدهم دفع أمامها كوباً وقال اشربي من هذا. كانت الرائحة طيبة دافئة. صوت قال: «هذا كاكاو مع سكر وحليب، يُفيدك، اشربي منه!». ترددت ولم تمدّ يدها. ثم رأت الوجه قبالتها يقول شيئاً: لم يفتح الرجل فمه ولم يتكلم. الوجه أخبرها، بالإيماءة التي لا يشعر بها إلا شخص واحد تُوجَّه الإيماءة إليه: الأعماق تُرسل إشارة إلى أعماق أخرى. شعرت بالدفء في بطنها من قبل أن تمدّ يدها وتضم الكوب الساخن في قلب راحتها. عندما نزل الكاكاو بالحليب فيها أغمضت عينيها وأحست أنها لن تتحطم. أحسّت أنها ليست وحيدة، وأنها - حتى وهي وحيدة - تملك قوة أو ما يشبه القوة. فتحت عينيها عندما سمعت الصوت:

- اسمي جوزف أسطفان وأستطيع أن أساعدك.

- 22 -

بيت الحاجة ماري

«اسمها حجّي مطرونة لأنها حجّت إلى القدس لكننا هنا نسميها الحاجة ماري لأنها هكذا سجلت اسمها في دفتر إليس أيلاند»، قال جوزف أسطفان.

عن نفسه لم يتكلم كثيراً. القليل الذي قاله في تلك اللحظات الأولى بدا كافياً: يعمل عند السيد هرمان وهذا أخبره عنها - أنها وصلت - وطلب منه أن يساعدها على تدبير محل السكن وإرشادها إلى «المعمل».

«لكن قبل ذلك لا بد من ثياب ناشفة»، قال جوزف أسطفان وهو يراها ترجف في ثيابها الرطبة.

أخذها إلى قلب الحي السوري، إلى «كنيسة الموارنة». على باب الكنيسة الخشب المنفوخ بالمطر قرأتْ كلمات عربية من «مزامير داوود»:

«طوبى لأناسٍ عزُّهم بكَ طُرُقُ بيتكَ في قلوبهم»

رائحة البخور فاجأتها. ارتجف قلبها في صدرها وهي ترسم إشارة الصليب ثم تمرّ بين المقاعد الخشب الطويلة. رأت وجوهاً تشبه الوجوه في البلاد البعيدة. جوزف أسطفان قال تعالي، بعد قليل يمكنك الصلاة، الآن تعالي، ومدّ يده وشدّ يدها كأنه يعرفها منذ زمن الطفولة. لم تخف من أصابعه القوية وتبعته.

من باب منخفض (كان عليها أن تحني ظهرها) دخلت إلى دهليز قليل الضوء تفوح منه رائحة الشمع. «انتبهي لرأسك»، قال جوزف اسطفان. بعد لحظة قال «انتبهي، هنا درج». ورأته ينزل الدرجات إلى ظلمة سرعان ما تبددت: بان أمامها مكان فسيح تنيره شبابيك عالية مدوّرة غارق نصفها تحت الأرض. هنا وهناك رأت طاولات عريضة وعلى الطاولات أغراض كثيرة: ثياب وطناجر ومعاطف وجزم وصبابيط وصحون وأقمشة ضخمة (ما هذه؟ خيم مطوية؟). «من هنا»، قال جوزف أسطفان وعبر بها حتى طاولة تكوّمت عليها ثياب نسائية. «لا تخافي، هذه كلها مغسولة، قديمة لكنها نظيفة».

كانت حائرة لا تعرف ماذا ستفعل، يداها تشدّان الكيس إليها وجوزف أسطفان ينتظر. عندما بقيت جامدة ضحك وقال «سأرجع بعد قليل، خذي ما تريدين، هناك غرفة للبس الثياب، هناك». دلّها بإصبعه إلى قسم من القاعة الغريبة (هذا المكان لا يشبه القبو: أرضه بلاط!) تتدلى فيه ستائر بلون الشمام، ثم مضى بخطى واسعة صوب الدرج واختفى. عندما تلاشى صدى دعساته نظرت إلى الثياب الملقاة أمامها. مرّ وقت وهي هكذا ثم مدّت يدها.

عندما عاد ورآها واقفة في ثيابها الجديدة قال «عظيم». ثم أسرع إلى كومة الثياب وجلب شالاً صوفاً ومعطفاً بدا أثقل منها. هزّت رأسها كالطفلة تقول لا. كانت خائفة من ثمن هذه الأشياء كلها (قروشها قليلة ولا تريد أن تبدد ما تملك). وهو أدرك من دون أن تقول شيئاً ماذا تفكر وأخبرها أنها لن تدفع شيئاً.

مرتا لحظة سمعت العبارة بدأت ترفع يديها وتفك أزرار الكنزة التي لبستها فوق كنزة أخرى. وجهها صار في حمرة الشمندر: كيف

تقبل إحساناً؟ لا يمكن أن تقبل. ليست إلى هذا الحد فقيرة. وثيابها رطبة وبعد وقت تنشف. عندها ثيابها. جوزف أسطفان مدّ يديه الاثنتين وقبض على يديها. أفهمها بكلمات قليلة أن هذا «عُرف» هنا، تأخذ هذه الثياب مؤقتاً وحين تقدر تجلب ثياباً وتعطيها للكنيسة. «الناس للناس يا بنت عمي»، قال لها. وأخبرها قطعة صغيرة من حياته:

- اسمعي يا مرتا. أنا حين أتيت إلى أميركا كنت ابن 13 سنة. جئت مع ابن خالتي، كان يكبرني بخمس سنوات. كنا نخرج ونبيع من هنا حتى نهر ميسوري. بعد سنتين هكذا جاء رجل وقال انزلوا إلى الأرجنتين، هناك الذهب على الطريق، وتتاجرون بقارب في الريو وتصيرون أثرياء في سنة واحدة. قال الأرجنتين والبرازيل والمكسيك بلاد فاتحة جديدة وهناك يحبّون السوريين ولا ترى أحداً يطرد كشّاشاً من أمام بابه. أنا مرة في فيرجينيا قوّصوا عليّ ببارودة صيد. لولا رحمة الربّ كانوا قتلوني. ولم أكن أفعل شيئاً. اسمعي: جمعنا أغراضنا أنا وابن خالتي وركبنا القطار. من نيويورك إلى روشستر - بنسلفانيا الرحلة سبع ساعات: كنا نضحك ونأكل البوظة بكوب الورق وملعقة الخشب عندما «تدهور» القطار. هذا يحدث كل عشر سنوات مرة! وحدث لنا! فيليب مات وأنا جلست جنب رأسه المفتوح على السكة وأردت أن أموت أيضاً.

- 23 -

بيت الحاجة ماري (2)

سكت جوزف أسطفان عندما رأى وجه مرتا مخضوضاً. لم يكمل قصته بعد. انتبه إلى أثر كلماته فيها - وهي الوحيدة التي لا تعرف أين أرض زوجها - فندم على الساعة التي فتح فيها فمه.

لكنها طالبته أن يكمل، ماذا حدث بعد ذلك؟

أخبرها - قفز عن قطعة من القصة - أنه رجع إلى نيويورك وأتى مباشرة إلى هنا، إلى هذه الكنيسة، وقال لأبينا مرقس (الذي لم يعد في هذا العالم): «فيليب مات وأريد الرجوع إلى البلد لكنني لا أملك الناولون». كان معه نصف ثمن التذكرة وأراد من الخوري أن يجمع له من الرعية النصف الثاني. الخوري - هذا أبونا مرقس - مد يده في أعماق الجبة الصوف التي يلبسها وأخرج رزمة دولارات ملفوفة وقال «خذ هذه، تكفي وتزيد، وعندما تصل البلد يكون معك ليرة في جيبك».

سكت جوزف أسطفان. ابتعد بنظرته عن وجه مرتا (كان مفتوناً بها ويحاول نسيان ذلك) فرأى العجلات والأقدام على الطريق خارج الكوى العالية: كانت الجزم تخوض في الماء والوحل يتناثر ويلطخ الزجاج... كل تلك الحياة تضج في الخارج وهو هنا - تحت الكنيسة التي تحتل قلب الحي السوري في نيويورك - يحكي للمرأة الآتية من جبل لبنان وحدها، ذكريات أصعب مرحلة في حياته.

مرتا سألته عندئذ هل أخذ دولارات الخوري؟

قال جوزف إنه أخذها وباس يد الخوري وخرج إلى الطريق ومشى صوب المرفأ ودخل المكتب الكبير حيث يحجزون مكاناً على الباخرة وطلب تذكرة. لكنه بينما يعدّ الورقات بين أصابعه رأى ورقة عليها كلمة بحبر الكوبيا.

- وتعرفين ماذا كانت؟

سألته مرتا كيف لها أن تعرف؟

جوزف أسطفان قال: «اسم، رأيت اسماً مكتوباً بالحبر على ورقة من فئة الخمسة دولارات وما زالت الورقة إلى الآن معي؛ تعرفين ماذا كان الاسم؟»

مرتا هزّت رأسها أنْ لا.

- «فيليب»، قال جوزف.

قال إنه قرأ اسم ابن خالته وصار يبكي. فيليب كان يحب أن يكتب اسمه على العملة. مرة حذّروه أن هذا ممنوع في القانون الأميركي. كان يكتب اسمه بالعربية أو الإنكليزية، ويرفع الدولار في الهواء وينفخ عليه كي ينشف الاسم تماماً ولا يمحي بعد ذلك. يفعل ذلك من دون أن يبتسم أو يضحك. طوال الوقت يعقد حاجبيه كأنه يقوم بأدق مهمة في تاريخ العالم.

لماذا كان يفعل ذلك؛ لم يقل لأحد. هكذا كان فيليب. جوزف أسطفان طوى الورقة ووضعها في جيبه منفردة عن بقية الأوراق. قاطع التذاكر نظر إليه وسأله أين الدولارات؟ جوزف قال «غيّرت فكري»، قال I changed my mind، وابتسم لقاطع التذاكر كأنه صديق قديم طالما جلس معه وتكلم، ثم غادر المرفأ ورجع إلى الكنيسة وردّ إلى

أبينا مرقس «إحسانه». بدّل الورقة التي عليها اسم فيليب بأخرى. لم يسأل الخوري كيف وصلت الورقة إليه. لكنه انحنى وباس يده الخالية من الخواتم مرة أخرى وقال له «لن أرجع».

ظلّ في أميركا. قال لمرتا إنه كان يعرج على ساقه (لم تُكسر ساقه عندما انقلب القطار لكن ركبته تحركت من مكانها) في تلك الأيام، ويشعر وهو يدقّ الأبواب حاملاً «كشّته» أنه نصف إنسان وليس إنساناً كاملاً (تعوّد أن يخرج مع فيليب، وحتى عندما كانا ينفصلان ويذهبان للتجارة على طريقين منفصلين بين وقت وآخر كانا يتفقان دائماً على مكان وزمان محددين للقاء من جديد).

«كنت صغيراً»، قال جوزف لمرتا، «ومع ذلك بقيت أحمل الكشّة، وحدي من بيت إلى بيت حتى أعطاني السيد هرمان عملاً في شركته: كنتُ أتكلم العربية والإنكليزية ووجد أن العمال يتكلمون معي بسهولة وكذلك الزبائن فصرت أشتغل في مكتبه. هذا كان قبل سنوات. والآن عندي بيت وراء السنترال بارك وعندي زوجة وصبي وثلاث بنات ولا أنام ليلة واحدة جائعاً. عندما كنتُ على الطريق كنت...».

قطع الرجل كلامه ونظر إلى الأرض. دار على نفسه وسار حتى طاولة عليها طناجر وسكاكين. حمل سكيناً وتفحص حدّه وضحك ضحكة صغيرة. استدار فرأى مرتا (قبل ذلك رأى انعكاسها في حدّ السكين) تلبس المعطف الذي انتقاه وتلفّ الشال على رقبتها.

- عظيم، عظيم، والآن نأخذكِ إلى بيتكِ عند الحاجة مريم.

وبعد ذلك: المعمل.

- 24 -

بيت الحاجة ماري (3)

حارب حتى أخرجها من الكنيسة. من أعماق كيس «الجنفيص» انتشلتْ مسبحة الصلاة التي ورثتها عن أمها. قال لها جوزف أسطفان ويداه تطيران في الفضاء والكم الأسود يخفق كالسنونو: «بعدين، بعدين»*. هي تريد أن تصلي وتشكر الربّ وهو يريد أن يُخرجها إلى الطريق. استسلمت لإرادته لكن قبل بلوغ البوابة الخشب المرصّعة بالصلبان انتصب سدٌ في وجهه: كل نساء الحيّ السوري! ماذا يفعلن هنا؟ النهار بدأ وعندهن أشغالهن. من ليست في المطاحن أو المصانع شغلها في دكانها أو بيتها أو على الطريق. لكنهن هنا! ولن يتمكن من عبور السد إلا بحركة عنيفة. صاح فيهن كأنه يبعد قطيع أغنام من طريقه:

- بعدين، بعدين، في عندنا شغل كثير.

دفعهن بيد غاضبة ومع ذلك لم تخرج مرتا من الدوامة إلا بعد قبل وعناقات سريعة وغامضة. لكل امرأة ثلاث قبل، على عادة أهل البلاد البعيدة. وأكثر من امرأة حضنتها بعنف وشمّت شعرها وهي تقول: «ريحة البلد بعدها فيها». مرتا بعد ذلك فكرت أنهن على الأرجح يتكلمن عن رائحة الصابون. حارب جوزف أسطفان الأذرع

* لاحقاً، لاحقاً.

المتشابكة كالأخطبوط وانتزعها من الحلقة. إحداهن كانت تداعبه بكلمات بدت لمرتا (الجبلية) غير لائقة. كلهن كنّ ينادينه باسمه أو بكنيته (جوزف أو «بو مارون» - مارون ابنه الوحيد ولاحقاً نصل إلى حياته الغريبة والطويلة). إلا امرأة واحدة بدت لها في الثلاثين كانت تناديه «يا خالي» وتحاول أن تجذبه إليها بعيداً من الحلقة التي حاصرت مرتا.

جوزف أسطفان لم يستسلم للنساء. رفع صوته أعلى - مع أننا في الكنيسة - وجذب مرتا من ذراعها وخرج إلى الشارع. الكلمات ظلّت تطنّ في رأسها بعد ذلك: «خليل زوجها؟ جو حداد زوجها؟».

كان المطر قد كفَّ عن التساقط. وفوق أبراج الكاتدرائية في نهاية الشارع بان قوس قزح. مرتا رأت الألوان تخفق في السماء وسألت نفسها ماذا قصدت تلك الأصوات بذلك السؤال: «جو حداد زوجها؟». نبرة الاستغراب اللانهائية!. خافت من تلك النبرة. ها هي الخشية ترجع إلى نفسها (لبرهة كانت آمنة: شعرت بالدفء حين ارتدت المعطف المبطّن بالصوف؛ شعرت بالطمأنينة عندما لفّ الشال النظيف رقبتها! أكثر من ذلك: هذا الرجل الذي وضعه الربّ في طريقها ملأ قلبها حرارة. كانت تحتضر على المائدة صباحاً وهي تمدّ يدها إلى البيضة المسلوقة والمقشرة. كانت تموت! ثم جاء هذا الرجل وبدأ يُحدّثها وردّ الروح إليها! يا ربّ!). «خليل زوجها؟». كانت ضائعة في صدى العبارات والنبرة غير المفهومة تطحنها طحناً، عندما نبّهها الصوت الذي غدا بسرعة أليفاً: - الوحل!

كانت تخوض في الوحل وهي تسير جنبه. قفزت إلى حيث الأرض جافة. في تلك اللحظة خرج هواء حار من الأسفل ونفخ ثوبها الطويل. بسطته مذعورة بيديها ونظرت إلى الحركة تحت

القضبان الحديد: ماذا يوجد تحت؟ قبل أن تلفظ سؤالها كانت اليد القوية تشدّها إلى الأدراج النازلة إلى حيث لا تعلم.

في «الصابواي» شعرت بالفزع. زحمة البشر وهدير الأصوات في المكان السفلي. الحديد على الحديد والركض الذي لا ينتهي. من هؤلاء؟ من أين أتوا؟ إلى أين يذهبون؟ ألوان لا تحصى، أشكال عجيبة، والكل يركض. لولا جوزف أسطفان ماذا كانت فعلت؟ أسندها وهي تطلع إلى «الصابواي» وكرّر ذلك عندما انطلقت العربات السريعة. هي مالت في الاتجاه المعاكس ووجهها لمس - لحظةً - معطفه. سمعت تكّة الساعة في جيب المعطف.

- لو ذهبنا مشياً نصل في عشرين دقيقة. هكذا تأخذ الطريق أقل من أربع دقائق. لو لم نتأخر في الكنيسة كنا ذهبنا على الطريق. لكننا تأخرنا. الحاجة مريم تخرج بعد قليل.

مرتا لم تفهم شيئاً. سيرة الدقائق هذه غريبة عن حياتها. في الجبل لا أحد يفكر في الدقائق. ولا حتى في الساعات. ربما تفكر في الأيام: الأحد للقداس والكنيسة. ربما تفكر في الفصول: عندما تركت الجبل كان الوقت خريفاً وثمار الخرمة (الكاكي) تنضج على الأشجار رويداً رويداً. لكن، في الجبل البعيد الذي تقع عليه الثلوج الآن، من يفكر في الدقائق؟

- 25 -

بيت الحاجة ماري (4)

هكذا بدأت مرتا - ومن دون أن تعرف أن هذا يحدث لها - حياتها الأميركية. لحظة خروجها إلى سطح الأرض مجدداً (صعدت الدرج ركضاً تطلب الهواء وضوء الشمس) أحسّت بالضياع. فقدت حسّها بالاتجاه وانتابها شعورٌ أنها تحلم: أن كل هذا غير حقيقي (قطار يسعى في بطن التراب! مصابيح ومحطات وناس تحت الأرض!).

صوت جوزف ردّها إلى نيويورك:

- هذه السنة غريبة. عادة لا تمطر إلى هذا الحد. الهادسون خرج من مجراه في بعض الأماكن.

بيت الحاجة ماري غير بعيد من ضفة النهر. قطعا طريقاً تعبرها سيارات فورد وعربات خيول ثم دخلا غابة مربّعة من أشجار عارية الأغصان. في الجهة الأخرى من الغابة (صغيرة هي، قطعاها في دقيقة واحدة) رأى مرتا صفاً من البنايات الخشب يظهر من الفراغات بينها بحرٌ مرتفع غريب الحركة: كان هذا نهر الهادسون.

أحد باعة «الهوت دوغز» كان يمرّ دافعاً العربة بالعجلات الثلاث أمامه. نادى عليه جوزف وطلب سندويشتين. دفع له وناول مرتا سندويشتها. هي استحت وأخذتها من دون أن تفتح فمها (على الطاولة صباحاً سألها كيف وجدت الخبز الأميركي؟ وهي ردت

بسؤال: لماذا يظلّ كالعجين من الداخل؟). بينما يعبران أمام صف من المتاجر المبنية بالقرميد والأخشاب - بعد هذه المتاجر، هناك، بيت الحاجة مريم - مرت عربة مسرعة فأجفلت مرتا وأسقطت قطعة «الهوت دوغز» على الأرض. جوزف ضحك وقال هذه تكسر الشرّ، وأصرّ عليها أن تأخذ سندويشته. وهكذا كان مكتوباً أن تدخل مرتا البيت حيث ستسكن على ضفة الهدسون وهي تحمل في يدها سندويشة جوزف أسطفان. (حفيدها الذي صار كاتباً كتب قصته القصيرة الأولى عن هذه الحادثة).

في مدخل البناية التقيا الحاجة ماري: كانت تحمل حقيبة يد صفراء اللون، وتلبس ثوباً أخضر كورق التوت. جانب وجهها عليه أثر حرق قديم. لم تبتسم لجوزف. بدت غاضبة. في يدها ساعة (مرتا لم ترَ قبل ذلك نساء يلبسن ساعة معصم). ومن أذنيها تتدلى حلقتان ذهبيتان. شعرها أصفر مصفف ومحجوب داخل برنيطة بكشكش (البرنيطة خضراء والكشكش أصفر). وفمها مرسوم بالأحمر، كبير وشبه مائل، كأنها تعرضت لجلطة قبل سنين.

الوصف أعلاه ليس مجانياً. هذه امرأة بوجهين ومرتا ستتعرف خلال الأسابيع الآتية إلى غرابة أطوارها. عندما تغضب يميل رأسها ثقيلاً على رقبتها - كأن الرقبة ملوية - ويظهر شريان العنق، أخضر. لكن في الساعة الطيبة - حين لا يفور الغضب - تبدو أرق من نسمة وتستطيع أن تعفو عن جرائم لا تُغتفر.

الغرفة جنب الدرج بالدرابزين الخشب، تُعبر أيضاً عن شخصيتها. جلست وراء المكتب، تحت صليب عليه يسوع المسيح. فتحت دفتراً على المكتب وقرّبت دواة الحبر: الدواة على شكل دلفين، لكن الدلفين امرأة. والمرأة عارية كما خلقها ربنا ومن فمها تخرج الريشة مبلولة بالحبر.

ماري سألت جوزف هل تعرف «الست» (كانت تنظر إلى مرتا برهة ثم ترجع إلى جوزف) قوانين البيت؟

مرتا لم تفهم لماذا تناديها «الست» ولم تفهم القسم الأكبر من كلماتها. لغتها العربية ثقيلة، مع أنها من هناك، من «البلاد» (كانت تظنّ أنها حلبية؛ بعد ذلك عرفت أنها من قرية صغيرة تجاور الإسكندرية على برّ مصر). حدقت إلى أصابعها، إلى السندويشة التي تضمها كالتعويذة في كفها، وانتظرت ما سيقوله جوزف. عندما تكلم فاجأها:

- مرتا زوجة جو، جو حداد.

ماري تراجعت في كرسيها عندئذ، وفتحت فمها. كانت مدهوشة! من جسمها وثيابها فاحت رائحة عطر غريب.

- 26 -

Little Syria

أظن أنها لم تستوعب ما يجري لها. لا تريد غرفة في بيت هذه الإسكندرانية - الأميركية التي تفوح من جسمها رائحة قرنفل قديم. ولا تفهم لماذا يأخذها الرجل مرة أخرى بالقطار - الذي يتأرجح كالحية على سكة حديد في جوف الأرض - إلى الجانب الآخر من المدينة الغريبة المحاصرة بنهرين: معامل هرمان وماكينري تقع عند طرف الشارع الحادي عشر على بُعد رمية حجر من مياه «إيست ريفر». عندما دخلت المبنى الأسود لسعتها الحرارة المنبعثة من الخلاقين العملاقة (هل تذكرت كرخانة الفرنساوي بورتاليس لحل الحرير في بتاتر عندئذ؟). كان المبنى يعجّ كقفير نحل بالعاملات والعمال. أخذها الرجل إلى مكان ينقسم إلى ممرات طويلة وفي كل ممر طاولة تمتد وتمتد وتمتد وعن الجهتين خياطات وعلى الطاولة عدد لا يحصى من ماكينات الخياطة. العاملات جميعاً يلبسن الزي ذاته والأذرع تتحرك الحركة ذاتها وكذلك القدم على الدواسة تحت الطاولة: «الدعسة» حديد والقدم تدوسها والعجلة تدور وإبرة الدرز تُوقِّع موسيقى أليفة للأذن وغريبة في آنٍ معاً: عدد لا يحصى من الإبر يدرز في لحظة واحدة عدداً لا يحصى من قطع القماش. رأت الأكمام والياقات تظهر إلى الوجود من العدم (أين كان القماش يختفي؟ تحت الطاولة؟). ارتفعت الوجوه عن القمصان الطرية بين الأصابع ونظرت

إلى المرأة الجديدة. مرتا هربت من النظرات ولاحقت دعسات الرجل الذي يقودها. أسفل بنطلونه ملطّخ بالوحل. ماذا تفعل هنا؟ لم تأتِ إلى أميركا من أجل هذا!

قبل ذلك، بينما المرأة التي تُسمّى الحاجة ماري تُسلّمها مفتاح الغرفة ذات النافذة المطلّة على الهدسون، نظرت إلى الفرشة - بلا ملاءة - على السرير وسألت نفسها كم امرأة قبلها هجعت على هذه الفرشة في هذه الغرفة بالأرضية الخشب؟ الفستان الأخضر ماج أمامها، السيدة مستعجلة وعليها الخروج، «ولاحقاً عند المساء إذا أردتِ شيئاً أنا موجودة في المكتب». كانت مرتا تريد شيئاً: أرسلت كلماتها وراء المرأة الخارجة من الباب. سألتها هل تعرف زوجها؟

- الكلّ يعرف زوجك.

من دون أن تستدير ناولتها المرأة الجواب الغامض واختفت نازلة على الدرج. («ممنوع صعود الرجال إلى الغرف»، هذا هو القانون الأول في «لائحة قوانين البيت» المعلقة على باب المكتب وعلى اللوح الخشب أسفل الدرج، باللغتين العربية والإنكليزية).

ترددت قبل أن تترك كيس الجنفيص في الغرفة. «لا أحد معه هذا المفتاح. وأنتِ تنظفين غرفتك. هذا ليس فندقاً. هذه أميركا وكل واحد يخدم نفسه. إذا أردتِ شراشف أو طنجرة أو صحناً أبيعك أو أؤجرك أو تذهبين إلى السوق». جوزف أسطفان كان ينتظرها واقفاً أسفل الدرج يقرأ «القوانين» وعلى وجهه ابتسامة. («ممنوع دقّ الكبّة في الجرن». هذا القانون الثاني وكلماته العربية مكتوبة بالحرف الكبير. يقابله القانون الخامس بالحرف الإنكليزي المضخم، وموجه خصوصاً للإيرلنديات: «ممنوع قلي الدجاج في الغرف»). عندما اخترقا الغابة المربعة من جديد رفع الهواء البارد ورقاً يابساً وخبط

وجهها. والآن - بينما تنظر إلى صفوف العاملات وإلى النوافذ الفسيحة المطلّة على باخرة تعبر «إيست ريفر» ـ تشعر بتلك الأوراق الصفراء تتراقص أمام عينيها مثل فراشات تقع ميتة. هل هي مريضة؟

الشمس دارت في السماء وأسراب الطيور تعبر فوق النهر. أخذها الرجل - لماذا أعطاها النهار كله؟ ماذا يجني؟ لماذا تتبعه هكذا بلا أسئلة؟ إلى أي حد باتت منهكة وغير قادرة على تقرير شيء؟ - من يدها، سحبها إلى مكتب خشبي وأوقفها أمام رجل يلبس نظارة بعدسة واحدة على العين اليمنى. الرجل رحّب بها، قال أشياء فهمتها وأخرى لم تفهمها.. من جارورٍ في مكتبه أخرج منديلاً، وهي نظرت إلى المنديل، إلى أوراق العنب المطرّزة على المنديل، وأحسّت أنها في منام: هذه الأوراق هي طرّزتها! أخرج قميصاً محبوكاً بالصنّارة ورأت على ظهر القميص غصناً من الصنوبر. هي نسجت هذا القميص، تتذكر أين كانت تجلس: على الطراحة في باب البيت في بتاتر والشمس تملأ الفضاء وهي تسمع الدجاج ينقر الأرض في ظلّ الشجرة.

عندما خرجا من المبنى الأسود أخيراً وجدت الضوء يتبدل في السماء: الغيوم صارت برتقالية. ومع أنها تلبس معطفاً مبطّناً بالصوف شعرت بالبرد. ثم فكرت أنها جائعة. لم تكن متأكدة ماذا تشعر ولا ماذا تفكر. لماذا أتت إلى أميركا؟ أين خليل؟ كيف يعرفه الجميع ولا أحد يعرف أين هو؟ ماذا يُخفون عنها وما السبب؟ كان جوزف أسطفان ينحني كي يربط شريط حذائه وسألته هل يعرف زوجها؟ التفت وهو شبه راكع ونظر إليها بوجه مائل ومُشرّب بالحمرة: «الكل يعرف جو».

27 -

Little Syria (2)

الحيّ السوري يعرف أبناءه. عندما رضي عبود مكرزل الملقّب بنابوليون أن يعطي كريمته زوجةً لجرجي إبراهيم بن موسى إبراهيم (الدبّاغ)، شهد «واشنطن ستريت» زواجاً سورياً غير مألوف كتبت عنه الجرائد الأميركية. أهم من ذلك ما فعله خليل جو حداد: دبّر بمكره وضحكاته ألا تفسد شرطة نيويورك فرحة العرس.

قاتَلَ جرجي إبراهيم طويلاً قبل أن يُعطى يد فرنسيسكا مكرزل البيضاء اللينة. أبوها القصير ذو الطبع الحاد العسكري كان ينام أقل من خمس ساعات في اليوم ويقضي الوقت راكضاً بين أشغاله في بروكلين. عندما سمع للمرة الأولى أن ابن الدبّاغ الكوراني - من قرية كُسبة في قضاء الكورة شمال لبنان - يحوم حول المتجر في «هنري ستريت»، وجّه إنذاراً حازماً إلى ابنته: «إياكِ!»

كان يعرف جرأتها وقدرتها. من المدرسة خرجت إلى المتجر وأدارته كأنها في المصلحة منذ زمن الرضاعة. يعتمد عليها في الشاردة والواردة مع أنها لم تبلغ الثامنة عشرة بعد. قال «إياكِ!» وهي طأطأت رأسها. لو فكر مرتين كان خاف عندئذ. لكنه لم ينتبه. كيف رضخت هي العنيدة بهذه السرعة؟ (أمها كانت تقول لها: أنتِ كأبيكِ رأسك رأس تيس»).

هل قاتل جرجي إبراهيم حقاً كي يحصل عليها؟ ألم يكن

خاتماً في إصبعها منذ وقعت نظرته عليها وهي في باب المتجر تحت اللافتة المكتوبة بالعربية؟ اقترب منها فابتسمت له. منذ تلك اللحظة عرف أنه لا يتنفس إلا الهواء الذي يخرج من فمها. قال لصاحبه جو إن الكشّة صارت خفيفة، يحملها من هنا إلى بوينس أيرس ولا يتعب.

تسلق الجبال التي رفعها عبود مكرزل في وجهه. قطع الأنهار من أجل فرنسيسكا. وعندما وصل إلى ليلة العرس أخيراً علّق مع أصحابه حبالاً فوق «واشنطن ستريت» وعلقوا من الحبال أسلاك الكهرباء واللمبات الوهّاجة. شعّت الطريق كما لم تشع قبل ذلك (بلدية نيويورك كانت تشتكي دائماً من المصابيح المحطّمة في هذه الطريق: كلما تحارب السوريون والإيرلنديون والصينيون حطموا هذه اللمبات... وهناك عصابات تسرق المصابيح!).

لكن أجمل من اللمبات التي أضاءت ليل الحيّ السوري كانت الوليمة: ذبحوا الخراف على قارعة الطريق وأقاموا حفل شواء ملأ الدنيا دخاناً وجلب البوليس وعربات الإطفاء من المحطة البعيدة. كانوا فرقة كاملة، أتوا بالهراوات، والشارت على البرانيط تلمع تحت الأنوار، ووجوههم قاتمة. بان جلياً أنهم سيلغون العرس ويأخذون الجزارين والشوائين معاً إلى القسم. الأطول بينهم رفع عصاه وجذب حبل لمبات وشدّه وأسقطه مفرقعاً بين الأقدام. السوريون - الأميركيون ذُعروا أمام الهجوم المباغت. كانوا يتراجعون (عدد منهم كان «يدبك» على إيقاع «الدربكة»* لابسين ثياباً فضفاضة من الوطن البعيد؛ هؤلاء تراجعوا في حركة راقصة موحدة ثم تبعثروا واختفوا في ظلال القوس الخشب أمام المقهى الكبير).

---

* الطبلة.

كانوا يتراجعون والخوف القديم - خوف «إليس أيلاند» - يُطلّ من عيونهم، عندما سُمع صوت جو حداد عالياً وقوياً فوق فرقعة المصابيح. كان يتكلم الإنكليزية، لهجته أميركية كأنه وُلد هنا وعاش هنا الحياة كلها. تقدم حاملاً أرغفة المرقوق المخبوزة على الصاج والحطب في الباحة أمام «كنيسة الموارنة» وكل رغيف ملفوف وفي جوفه اللحم المشوي والبصل المشوي والبندورة المشوية. كان يضحك ضحكاته المشهورة، وجهه يبهر، ويبدو كأنه ينظر من فوق إلى الخليقة كلها. وزّع الأرغفة على البوليس وأحاط كتف أحدهم بذراعه ونادى على جرجي كي يجلب «العرق». شرطة نيويورك شربت العرق اللبناني المكرر ثلاث مرات في بيت سليم شقير في «ركتور ستريت»[1]: أفراد البوليس رقصوا «الدبكة» البعلبكية في عرس جرجي إبراهيم (ابن الدبّاغ الكوراني) على فرنسيسكا مكرزل ابنة عبود مكرزل الملقّب «نابوليون». أبناء الحي السوري لن ينسوا تلك السهرة التي طالت حتى تحركت عربات المترو ساعة الفجر: البوليس بالزيّ الأزرق والأسود منتظماً في صف راقص واحد مع شبان الحيّ وعجائز الحي بالشراويل والصديريات والطرابيش (من أين خرجت هذه الطرابيش الحمراء؟ وكيف لم يأكل العث شراباتها الكحلية الحرير وهي نائمة هذه السنوات كلها في الصناديق؟ ألم يرموا طرابيشهم في البحر عندما نظرت إليهم السيدة الحجرية من مكانها العالي فوق إليس أيلاند؟)

الصينيون جاؤوا على الضجة من الحي الصيني (China Town) وراء «برودواي». كانوا قصار القامة، يحملون طعاماً وشراباً ويعزفون على آلات موسيقية لها صوت كالأنين.

---

* Rector Street.

- 28 -

Little Syria (3)

كلما أخبروها عنه ابتعد! كيف هذا؟ بدل أن يقترب تراه يبتعد. يتغير، يتحول، يصير شخصاً آخر. لم تعرفه هكذا! تبدل حين قطع المحيط؟ كان هكذا ولم تنتبه؟ أليس الرجل الذي شاركته الفراش والطراحة ولقمة الخبز؟ أليس زوجها وهي زوجته في السرّاء والضرّاء؟ تتلمس المحبس وتنظر إلى يدها: ماذا تخبرها الخطوط في هذه اليد؟ ترى خليل (جو) مرة أخرى؟ تعرفه كما عرفته دائماً وتلفّ ذراعيها على جسمه وتترك خدها ينام على صدره وهي لا تطلب من العالم إلا هذا؟ تعثر عليه؟ لماذا كلما حكوا لها عنه تشعر أنه يبتعد؟ هل السبب فيها؟ أم أنه تبدل عندما غيّر اسمه؟ لعل صاحب الدفتر على «إليس أيلاند» هو من أعطاه اسمه الجديد. وهي مرتا التي ينادونها الآن مارتا هل صارت امرأة أخرى أيضاً؟ لكنها هي. تفكّ صرّة «الزهورات» وتلقي حفنة صغيرة في المياه التي تغلي وتشمّ الجبل البعيد. الحفنة الصغيرة تكفي. لا تريد أن تستهلك المخزون: هذا جلبته لخليل. جفّفت الزهور في الشمس على سطح البيت. وعندما زالت منها الرطوبة تماماً جمعتها برؤوس الأصابع وهي ترى خليل: كأنه أمام عينيها، يرفع ذراعه وهو آتٍ من بعيد. لكن أين خليل؟ جاءت من آخر الأرض ولم تعثر عليه. جوزف أسطفان أخذها مرة أخرى كي ترى السيد هرمان - تخاف إذا ذهبت وحدها أن

تضيع؟ لقد جاءت من جبل لبنان إلى هنا وحدها لكنها في نيويورك ذات الشوارع المتشابهة تُضيع الطريق! - والسيد هرمان أخرج لها الحوالة القديمة، نسخة عن الحوالة. دلّها بإصبعه السمين القصير إلى اسم المصرف وإلى اسم المدينة - «باتون روج» - وقال إنه اتصل مرة أخرى بالسلطات هناك ولا أثر لجو.

خرجت من عند السيد هرمان مضطربة الخاطر. عندما التقته للمرة الأولى أول وصولها إلى نيويورك أحسّت في أعماقها أنه رجل لا يعرف الكذب طريقاً إلى شفتيه. لكنها الآن ليست متأكدة! هل يخفي شيئاً؟ كان يدلّها إلى اسم المدينة على الحوالة - تحت، في الزاوية ـ وهي رفعت عينيها لحظة فرأت نقطاً حمراء تنتشر على خده. ألم ترَ أيضاً نقطة دم تقطع بياض العين من هنا إلى هناك؟ يكذب عليها؟ ماذا يعرف ولا يقول؟ وجوزف - هو أيضاً، بلى - ماذا يعرف ولا يقول؟ وصاحبة البيت حيث تنزل، عندما تقف في باب المكتب بيد تسند ذقنها، وتتأملها بينما تدنو من الدرج حاملة «شغلها» في السلّة الخيزران، الست ماري ماذا تعرف وتخفي في صدرها الكبير؟ والعاملات في المعمل عندما يرفعن عيونهن المحمرة وجباههن العرقانة والشعر الأسود الظاهر من تحت البرانيط البيض، ماذا يعرفن وهي تجهل، ماذا تخفي الواحدة منهن وهي تلقط دبوساً بين شفتيها أو تقص القماش أو ترسم خطاً بالصابونة وتلتفت وتنظر إلى عاملة أخرى تبادلها النظرة ذاتها! لا تدري مرتا كيف صارت هكذا، كأن القوة تغادر جسمها وهي تسير بين هذه الصفوف. النوافذ فسيحة وعالية، تُغسل بالماء والصابون كل صباح كي يتدفق منها الضوء الأبيض والأصفر والرمادي. من النوافذ الغربية يتدفق ساعة الغروب طوفان أحمر عجيب: كأن الطاولات والأشخاص وماكينات الخياطة

وأكوام الفساتين تغوص إلى قعر المحيط. كأن المعمل كلّه باخرة بمداخن والآن انفتح قعرها وها هي تنزل تحت الماء، تغرق ولا يراها إنسان بعد ذلك. فكأن هؤلاء جميعاً لم يكونوا يوماً!

كانت ذاهبة أو عائدة - حياتها الآن بين نقطتين: الغرفة المطلّة على الهدسون والمعمل على ضفة «إيست ريفر»؛ ويوم الأحد تذهب إلى القداس - والسماء رمادية ثقيلة الغيوم، لكنها لا تمطر... كانت تعبر غرينويش Greenwich وهي تحاذر لئلا تصدمها سيارة عندما سمعت صوتاً يناديها. كان الصوت مباغتاً عالي النبرة. استدارت فرأت قاسم عبد الباقي.

كان يحمل كشّته وأخبرها أنه عائد للتو من بالتيمور. هزّ الكشّة خفيفة على ظهره وقال «فاضية»*. بدا سعيداً مملوءاً عافية كأنه ليس الرجل ذاته الذي تصبب عرقاً جنبها في العربة من «إليس أيلاند» إلى متجر السيد هرمان قبل أسابيع. أسابيع؟ شهور؟ كم مضى عليها وهي هنا، تحيا كأنها نائمة، كأنها مسلوبة الإرادة، ولا تعرف لماذا تحيا هنا، ولا تعرف كيف حدث لها ما حدث.. لكن ماذا حدث؟

---

* فارغة.

- 29 -

Little Syria (4)

إذا أخذتك الطريق - عزيزي القارئ - صدفةً إلى أحد الأزقة القائمة بين «ألباني ستريت» و «ركتور ستريت» لن تصدق أنك في نيويورك! نظنّ أننا نعرف مدينتنا، نظنّ أن تسكعنا الطويل في أنحاء مانهاتن قد كشف لنا جميع خباياها، لكن قبل التوغل في «واشنطن ستريت» وفي الدروب الضيقة المتفرعة منه، كيف نتوهم أننا نعرف أحشاء هذه المدينة! هل تعرف عزيز القارئ أن قطعة من سوريا، قطعة من دمشق أو القسطنطينية، انتقلت كما هي - بالبحر - إلى أميركا! إنها هنا، على بعد دقائق من بيوتنا وأعمالنا. اركبْ «الترام» من الجادة السادسة*، من الشارع الثاني والأربعين، وفي لحظات ستجد نفسك في «ركتور ستريت»: تنزهْ غرباً، اقطعْ مربعاً واحداً من الأبنية، وها أنت في سوريا!

هذا الشارع الذي شُقّ قبل مئة سنة ما زال على الحال نفسها منذ بداية القرن الماضي، بواجهة رخام عريضة - هنا أو هناك - لمصرف تجاري؛ وكل ما تفعله هذه الواجهة الرخامية هو توكيد الفقر الفظيع لمساكن القرميد المجاورة. المصارف والمتاجر تتراصف على جهتي الطريق ولكن إذا دخلت هذا الزقاق أو ذاك وجدت نفسك في

* Sixth Avenue.

أمكنة معتمة، ورأيت مداخل إلى باحات أشد عتمة، وبعد الباحات المبلّطة بالحجر حيث تتراكض كلاب وقطط تظهر بيوت شبه متداعية، مظلمة أيضاً، وينبت على حيطانها العفن! ما تلمحه خطفاً للوهلة الأولى يُخلّف فيك إحساساً عميقاً بالدهشة لا يتبدد حتى بعد زيارات متكررة للحي.

هل سبق لك أن رأيت صور جاكوب ريس الفوتوغرافية المنشورة في 1890، صور مانهاتن السفلى (الجنوبية)؟ هل لمحت في أحد المعارض في «الفيفت أفنيو» لوحة W. Bengough «العنصر الأجنبي في نيويورك - المستعمرة السورية» (1895)؟ إذا كنت تحسب ذلك جزءاً من الماضي المندثر فليس عليك إلا دخول المطعم على تقاطع شارعي ركتور وواشنطن؛ وحتى قبل أن تدخل المطعم، ومن نظرة واحدة سريعة إلى المقهى المجاور، ستعرف أنك فجأة صرت في «الشرق»*.

الرجال الذين يقعدون هناك يغرقون في بحيرة دخان تخرج من الأراجيل التركية بقرقرتها التي تشبه الغناء - غناء الطيور. عيونهم ناعسة، واسعة وسوداء، وسيقانهم تبدو مقوّسة في البناطيل التي يستصعبون الحركة فيها لأنهم تعودوا على السراويل الفضفاضة في بلادهم وفي الصحراء.

نادر أن ترى أحدهم يحمل جريدة وإذا حدث ذلك راقبه جيداً وسترى أن رقبته، أن رأسه ونظرته، لا تتحرك كما تتوقع: إن نظرته تسافر على السطور من اليمين إلى اليسار، وليس من اليسار إلى اليمين.. ذلك أنه يقرأ جريدة مطبوعة بالعربية ولا يقرأ جريدتنا*.

---

* The Orient.

صدق أو لا تصدق: في مانهاتن جرائد تُطبع باللغة العربية - جريدتان تُوزّعان معاً ألف نسخة معظمها اشتراكات، ومجلة شبه أسبوعية فنية يشرف عليها الشاعر جبران الذي يكتب بالإنكليزية أيضاً.

يحبّون هنا قصب السكر ويجلبونه من الحي الصيني الذي يبعد دقائق عنهم. لكن حلواهم المفضلة هي الفواكه المجففة وتجدها في مرطبانات زجاج في واجهات متاجرهم ولا تعرف أين نبتت هذه الفواكه ولا في أي أطعمة يستخدمونها، كما يصنعون حلوى غريبة من العجين والسكر وهي ثقيلة على الجهاز الهضمي.

هذا كله تذوقته في المطعم المذكور بعد وجبة من الرز ولحم الضأن المقطع والمشوي على السيخ ويقدمونه على طبق خشب مع خبز غريب يشبه البسكويت الطري. الطاولات في المطعم من خشب الصنوبر الأحمر، وهي تتراصف متجاورة، وعليها أغطية ومفارش ملوّنة، إضافة إلى صحون البورسلين. صاحب المطعم يستقبلك بنفسه لابساً المريول الأبيض وهو يرفع كميّ قميصه حتى زنديه. إنه يعرف جميع الزبائن بأسمائهم الأولى، وبعد جلوسك مباشرة يصل إليك الحليب المرّ - الذي يسمّونه «اللبن» - في طاسة فخار، وهو مقدمة طعامهم، فكأنك دخلت خيمة في الصحراء والآن يستقبلك الراعي العربي الكريم بنتاج إبله. (مع أنك تسمع وأنت تشرب اللبن الأبواق البحرية للبواخر تختلط بضجة شوارع نيويورك وتكاد تصم أذنيك!).

الناس هنا يعرفون الصغيرة والكبيرة ولا أسرار عائلية فكل شخص يعرف شيئاً يجلبه مباشرة إلى المقهى وهكذا يُذاع. ومرات تسبق الإشاعة الحدث كما جرى عندما تحدث رجل عن مقتل إحدى

* New York Times.

النساء بسبب علاقة عاطفية خارج زواجها ولم تمضِ أيام حتى قُتِلت المرأة فعلاً على الطريق وأمام عيون المارة (انظرْ أعداد الأسبوع الأول من أيار/ مايو في جريدتنا؛ هذه السنة نفسها).

السوريون أذكياء، تجار بالفطرة، ومحبّون للعمل. الأشغال اليدوية التي تخرج من بين أصابع نسائهم حازت شهرة في أنحاء أميركا. المرأة تابعة للرجل، الزوج أو الأب أو الأخ، ومع ذلك ترى نساء يحملنَ السلة ويخرجن إلى الطريق اثنتين اثنتين لبيع الأمشاط والدبابيس والمقصات والخيطان وهنّ أنجح من الرجال في هذه المهنة لأن ربات البيوت الأميركيات يفضلن التعامل مع بنات جنسهن.

العائلات الآتية من وراء البحر جلبت معها إلى العالم الجديد عاداتها وتقاليدها... كما جلبت الخلافات. الموارنة (وهؤلاء طائفة مسيحية شرقية) والدروز (وهؤلاء مسلمون) يتقاتلون هنا أحياناً كما فعلوا قبل سنوات وعقود في جبل لبنان.

- 30 -

Little Syria (5)

أخاف على مرتا. أراها وحدها على الطريق، عائدة أول المساء إلى البناية على ضفة الهدسون، تلتف بالشال وترجف في المعطف المبطّن بالصوف. هذه نهاية السنة وزينة الميلاد تملأ واجهات المتاجر. وحتى في المترو عُلّقت الأجراس. تسمعها ترنّ عندما تنطلق العربات وعندما تتوقف. أضواء الكهرباء تشعشع على مبنى البورصة، وول ستريت أول الليل مثل شموس تنفجر وتضيء الظلام. هذا كله غريب وجديد ولم تتخيل مثله، لكن هذا كله لا يلمس القلب. مرتا مظلمة العينين وكل هذه البهجة تضاعف قنوطها. والآتي قد يكون أسوأ. أؤجل اللحظة لكنها تقترب. وحتى لو أجّلتها فهي ستأتي.

كانت راجعة كالعادة من نهار المعمل الطويل، وأصابعها تؤلمها عند العِقد. رقبتها أيضاً. وكذلك ظهرها. هناك «قهوة» في «واشنطن ستريت» تتجنب العبور على رصيفها. المكان سيء السمعة، وكرٌ للقمار والمخمورين. تقطع الطريق إلى الجانب الآخر وبعد أن تتجاوز المقهى تقطع مرة أخرى الطريق. الجالسون في العتمة الخفيفة يُصفرون كلما مرّت امرأة ويرسلون خلفها كلاماً نابياً. كلمات عربية، إنكليزية، إيطالية، يونانية. خصوصاً يونانية. الحي اليوناني غير بعيد، يفصل الحي السوري عن المرفأ (اليونان كالسوريين صعب عليهم أن

يبقوا بعيدين من الماء). عندما سمعتْ للمرة الأولى رجالاً من الحيّ السوري ينطقون تلك الكلمات البذيئة لم تصدق أذنيها!

لكن ما ستسمعه الآن لا يشبه ما سمعته من قبل. الكلمات سكاكين، يمكن أن تقتل. كل ما نستطيعه الصلاة من أجلها.

الصوت لم يكن مخموراً. رائحة الكحول تفوح من المدخل، هذا صحيح، لكن الصوت الذي بلغ أذنيها كان ساكن الجنان. الطريق موحلة، درجة الحرارة متدنية، وفي بعض الأماكن يبرق الجليد. لم تقطع الطريق. لا طاولات على الرصيف هذه الليلة والكراسي مقلوبة جنب الحائط وزبائن المقهى احتشدوا في جوفه شبه المظلم كأنهم يقعدون في بطن حوت. لسبب غامض لم تخف من العبور أمام عيونهم. مع أن العيون لاحقاً ستبدو لها كعيون الضباع، مثلثة وصفراء، تلمع في الظلام والدخان الكثيف.

طوال النهار وهي قاعدة إلى شغلها، وماكينات الخياطة تئز في رأسها... هل نوّمتها موسيقى الإبر وخدّرتها؟ إذا كانت نائمة فالكلمات التي سمعتها عندئذٍ أيقظتها. هل توقفت في تلك اللحظة؟ هل تجمدت كتمثال والأنفاس تخرج بيضاء من فمها؟ اخترقها الصوت كالقضيب المحمى، شعرت أنها ستقع وتموت.

ماذا قال الصوت وهي تعبر الليل البارد آتيةً من ضفة «إيست ريفر» ذاهبةً إلى غرفتها الصغيرة؟ أؤجل اللحظة لكنها وصلت.

أولاً سمعت الشتيمة. كان الصوت يشتمها. الأعوام ستمرّ لكنها لن تنسى الحقد اللانهائي في تلك الشتيمة (مع أنها لا تعرف صاحب الصوت. لم تسمعه قبل ذلك. ولم تسمعه بعد ذلك. مرات كثيرة خُيِّل إليها أنها تسمع صوتاً يشبهه. لكنه لم يكن هو. ولن تعرف من لفظ تلك الكلمات أبداً)... بعد الشتيمة قال الصوت شيئاً عن زوجها. لم

يلفظ اسمه العربي: «خليل». مع أن الصوت كان عربياً صافياً، بلا أي لكنة. قال «جو، زوجها جو حداد». ضجة الطريق سرقت كلمة أو كلمتين لكن ليس أكثر. بعد الاسم أتت التتمة. قال الصوت إن زوجها جو حداد ترك الـ... ويعيش الآن مع شرموطة أميركانية عندها حقول قطن في نيو أورلينز.

كيف قطعت مرتا ما بقي من الطريق حتى غرفتها؟ أراها بين أشجار الغابة المربعة، تستند بأصابعها إلى جذع خشن اللحاء، ترفع وجهها عن الوحول والأوراق اليابسة والأرض المظلمة، وتنظر إلى أضواء الزينة على «بيت الحاجة ماري». ترى الأضواء تلوح من بعيد ولا تفهم ماذا تكون. مرتا نفسها من هي؟ هذه المرأة الصغيرة التي تطاردها عيونٌ طافحة بالرغبة أينما ذهبت، هذه المرأة التي قطعت المسافات من بتاتر - جبل لبنان، إلى نيويورك - أميركا، بحثاً عن زوج لم تعرف أنه تخلى عنها وربط نفسه بأخرى في مكان يُسمّى نيو أورلينز، هذه المرأة بوجهها المدوّر وعينيها المشروحتين وشعرها الأسود الصقيل وأناملها التي تقبض على القلب مثل أنامل من حرير، هذه المرتا من تكون؟ أراها تتخبط بين أشجار الغابة، ومكعبات الجليد تطفو بيضاء كالرخام، شبه خيالية على نهر الهدسون، بعيدة وقريبة، أراها وأخشى عليها أن تموت.

- 31 -

نافذة على الهدسون

مرّت ثلاثة أيام أو أربعة ومراقب العمل يعبر بين الصفوف ويرى مقعد مارتا حداد فارغاً. في اليوم الخامس لم يستدر ويكمل الجولة بل ذهب مباشرة إلى الإدارة وأبلغ عن غيابها. مدير المعمل رفع وجهه الأبيض عن دفتر مملوء بالأرقام والكلمات المخربشة، فبدا كأنه يصل إلى نيويورك للتو آتياً من قارة بعيدة. أصلح العدسة على عينه ثم لفظ عبارته الأثيرة:

- Tell Joseph!

خرج المراقب يبحث عن جوزف أسطفان. المعمل كثير القاعات وأينما دخل هاجمته رائحة العاملات التي يحبها. طالما قال لأصحابه إنه محظوظ. والآن، بينما يبحث عن جوزف، تذكر من جديد وجه العاملة الغائبة - هذه الجديدة البارعة بأصابعها - وتمنى رؤيتها مرة أخرى: فيها خاصية تميّزها عن الأخريات. بينما يتأمل الوجوه المنكبّة على القماش يطيل فترة تأملها. تكون غارقة في شغلها ولا تنتبه، كأنها ليست هنا، على ضفة «إيست ريفر» في خلية النحل التي تصنع ثياباً؛ كأنها في مكان آخر. لم يعثر على جوزف أسطفان عندئذ، لكنه قبل العصر لمحه من بعيد فنادى عليه وأسرع صوبه. العاملات رفعنَ الوجوه المجهدة والإبر ظلّت تدرز القماش وحدها. قطّب المراقب جبينه واقترب من جوزف أسطفان وهو لا يعلم أنه لن يرى مارتا حداد في مقعدها مرة أخرى.

في هذه الأثناء، بينما الثلج يندف على طرقات نيويورك ويذوب ما أن يلامس الأرض، كانت «الحاجة ماري» في مكتبها على ضفة الهدسون تتساءل أين مرتا. منذ أيام لم ترها نازلة على الدرج أو صاعدة. أي واحدة تدخل أو تخرج لا بد من مرورها هنا، أمام المكتب المشرع. نادراً ما تردّ هذا الباب. وتعرف نوافذ بنايتها. كل مساء وهي عائدة من نزهتها اليومية ترفع وجهها وتنظر إلى النوافذ وتحصي المضاءة والمظلمة. الحاجة ماري متأكدة: أكثر من ليلة مرّت ومرتا لم تشعل المصباح في غرفتها. أين تقضي لياليها إذاً؟

لم يخطر في بالها أن مرتا في الغرفة. وفي مساء هذا اليوم الخامس، بينما الحاجة ماري تنظر إلى الكفوف الصوف على مكتبها، ظهر في الباب جوزف أسطفان كأنه خيال خرج من رأسها. فتحت فمها ولم تتكلم. هو ألقى التحية أولاً. لم ينفض الثلج عن كتفيه. وبدا مضطرباً. بعد الحديث القصير صعدت الدرج وهو يتبعها. كانت تنادي وهي تلهث ويدها على الدرابزين:

- Man on the floor(*)

انفتح الباب - دقّت ودقّت ودقّت - عن شبح. المرأة الحبيسة منذ أيام في غرفتها (أربعة أيام وهي لا تأكل ولا تشرب؟) نظرت إلى الوجهين في الضوء الخفيف المنبعث من مصباح الدرج ثم تراجعت إلى ظلمتها. وراء الشبح الذي كان مرتا حداد بان مربع النافذة المطلة على الهدسون. لم تقل شيئاً. تراجعت كأنها تخشى أن تلمسها يد. لولا أن الدقّ لم يتوقف على الباب لم تكن تنهض من سريرها لتفتح. جوزف أسطفان لن ينسى ذلك المشهد: هي تتراجع، صفراء وبارزة

---

* رجل على الطابق.

العظام، إلى النافذة الرمادية ـ الصفراء (مصباح الطريق يصل إلى هنا ضعيفاً)، والحاجة ماري ترفع يداً إلى فمها، كأنها تحبس صرخة ستخرج منها. يعرف «الحاجة» منذ سنوات. هذه المرة الأولى التي يراها فيها حزينة.

سحبت المرأة الصغيرة بطانية الصوف عن السرير والتفّت بها. جفناها المتورّمان بقيا في ذاكرة جوزف أسطفان وقتاً طويلاً. حركة ذراعها البطيئة أيضاً، وهي تسحب البطانية. رائحة المكان أثقلت على قلبه. حتى الضوء خارج النافذة بدا كئيباً وقاتلاً. مع أن الثلج يتساقط، رقاقات بيضاء قطنية، وهو يحب الثلج.

من هذه النافذة يظهر الهدسون تطفو عليه صخور الجليد. في ضوء الثلج ومصابيح البواخر يرى التماعات الماء بين الصخور الجليدية: هذه الصخور كأنها قطيع جواميس يقطع سهلاً. لكنه قطيع ساكت. مع أنه إذا نزل إلى ضفة النهر يسمع القعقعة ودوي ارتطام صفائح الجليد وهي تسبح أو تتكسر. وراء ظهره كانت الحاجة ماري تحاول أن تتكلم مع مرتا. عبرت شاحنة في الطريق ودار نور المصابيح وأضاء صفاً من أشجار الكستناء العارية.

استدار ونظر إلى الخيال الأصفر: كم تغيّر وجهها! كأنها ليست هي نفسها! مع هذا تعرّف على العينين. ومرة أخرى فكر أنها أجمل امرأة في العالم. هذا الإحساس دام رمشة عين ثم تبدّد. كان ينظر إلى حطام. لم تعد هي. وخيّل إليه أن هذا المرض نهايتها.

- 32 -

أضواء جرسي سيتي

- هناك، تلك الأضواء، هذه جرسي سيتي.

كانت تنظر إلى ما يشبه الهوام المضيء يسبح في الظلمة. ماذا قالت؟ Jersey City. هناك سنوات يتجمد فيها النهر من هنا إلى هناك والصغار العفاريت يأتون مع زلاجاتهم ويتزلقون إلى هناك، إلى الولاية الأخرى. لكن مرات يتصدع الجليد وإذا وقع أحدهم يموت ويبقى تحت الماء المتجمد حتى الصيف. أنا عندما كنت صغيرة فقدت أحد رفاقي هكذا. لكن ليس هنا، في الشمال، في بوكيبسي، هذه على الهدسون أيضاً، ونستطيع أن نذهب إلى هناك في عطلة الأسبوع، إذا أردتِ، عندي عمّة هناك وتصنع أطيب فطيرة تفاح في أميركا. ماذا قالت اسمها؟ Poughkeepsie

ربما في الصيف. الآن الجليد أسمك هناك. وكل الرجال يقطعون الجليد بالفؤوس على النهر ويأخذونه إلى مصانع البيرة. حصاد الجليد شتاءً مهم كحصاد الحبوب في الصيف. أبي اشتغل في هذا قبل أن يموت. كانت عندنا مخازن جليد على الضفة في Rhinebeck، هذا قبل أن تأتي «الشركة» وتستولي على جليد النهر.

أبي قاتل «الشركة» ثم باعهم المستودع. وذهب وبنى مخزناً آخر في Schodack لكنهم لحقوا به إلى هناك. عندما أذهب في العطلة لزيارة عمتي وأرى اللافتة المعلّقة فوق مخزن الشركة يؤلمني هنا.

مرتا نظرت إلى يد المرأة على صدرها، إلى جهة القلب. اسمها بتسي، إيرلندية الأصل، صهباء، على وجهها نمش أحمر. جلبتها الحاجة ماري من إحدى الغرف المجاورة. صادقت مرتا وصارت تلازمها. كلما رجعت إلى البناية تأتي وتقعد عندها وتتحدث. عندما يحل الظلام تبقى وقتاً. تقول إنها تحب الأضواء وراء النهر ومن نافذة غرفتها لا ترى إلا البناية الأخرى.

تجلب خضراً وبصلاً من السوق وتفرم ذلك على لوح خشب وتطبخ حساء على طباخ الكاز وهي تتكلم. أحياناً تسكت. لكن حتى وهي تتكلم لا تتضايق مرتا. اعتادت عليها وصارت - من دون انتباه - تعرف معاني معظم كلماتها.

في البداية كانت تجد صعوبة في رفع يديها. بعد ذلك تمكنت من حياكة الصوف. مرور الوقت ساعدها. لكن حتى بعد رجوعها إلى الصنارة ظلّت غير قادرة على الخروج. جوزف اسطفان جاء يزورها مع زوجته وابنته الصغيرة. نظرت إلى البنت التي لم تبلغ الثالثة بعد وصارت تبكي. لا تعرف لماذا كرّت من عينيها الدموع وهي تنظر إلى الطفلة في المعطف الأحمر والقبّعة الحمراء. حاولت أن تسيطر على نفسها. لم تقدر. وجوزف أسطفان رجع بعد ذلك وقال لها إن زوجته أحبّتها كثيراً. الزوجة أميركية، هولندية الأصل، ضخمة الجثة. مرتا لم تعرف ماذا تقول لجوزف أسطفان وظلّت ساكتة. هو أيضاً عجز عن مواصلة حديثه. نهض وهو يستعد لإطلاق صيحته (Man-on-the-floor) ثم تردد واستدار مرة أخرى فخرج الصوت من فمه عالياً: سألها متى تفكر في الرجوع إلى المعمل؟

فقط عندما سألها عرفت أنها لن ترجع إلى هناك. لكن ماذا

ستفعل؟ وهي راقدة في فراشها ليلاً كانت ترى شخصاً يتحرك حركتها البليدة ينزل على الدرج ويخرج إلى الطريق ثم يمرّ بين الأشجار ويعبر كومة ثلج متسخة وينحدر وينزل بين قطع الجليد ويختفي تحت المياه.

الحاجة ماري دخلت عليها ذات ظهيرة وطلبت منها شالاً، قالت إن الخيوط عندها، اشترتها قبل شهور من «كوينز»*، وتريد شالاً بثلاثة ألوان، أصفر وأزرق وأبيض. استدارت وخرجت ثم عادت تحمل كرّات الصوف بين ذراعيها كأنها تحمل قططاً صغيرة ملوّنة وألقتها على السرير.

الجمر أحمر في المدفأة والبخار قشرة على النافذة. مرتا تنظر إلى الشال الذي يكبر بين أصابعها. هل تعرف يديها؟ عندما تتعب تضع ما في يدها على حافة النافذة. الخطوط في كفّها عميقة، متشعّبة، لكنها الآن لا تنظر إليها. بعيداً، بعد هبوط الليل، تظهر أضواء بتسي. الحاجة ماري تقول هذه مراكب الصيادين. حتى في الجليد يلقون الشبك، حتى لو تمزق الشبك لا يبقون في بيوتهم.

قبل أن يتحرك الباب تسمع خطوات بتسي، تسمعها تخبط جزمتها على السجادة. إذا دخلت فاحت في الغرفة رائحة الخارج والفحم الحجري والخبز. مرات تجلب نبيذاً. تسكب لها في كأس معدنية وتقطع على قطعة الخبز جبناً أبيض كالسكاكر. مرتا تتذكر أمها عندئذ ومن دون أن تنتبه تقع الدموع من وجهها على الخبز والجبن والنبيذ.

---

* تنقسم مدينة نيويورك إدارياً إلى خمس مناطق: مانهاتن، برونكس، بروكلين، ستاتن إيلاند، كوينز.

- 33 -

Clarendon

سألها خالها ماذا تفعل إذا مرضت، ماذا تفعل إذا ضايقها عسكري، ماذا تفعل إذا حصل لها شيء، من يساعدها؟

- الربّ يساعدني، قالت.

فتحت عينيها في ظلام الغرفة. تلمّست الطريق إلى النافذة. رائحة الشوربة والكاز معلّقة بين الحيطان. أرادت أن تدفع الزجاج لكن الجليد منعها. عندما هدر بوقٌ بحري في ساعة الفجر اهتزّ لوح الزجاج. رأت باخرة تخترق صفائح الجليد متمهّلة. رأت أكوام الجلود على ظهر الباخرة: كانت محزومة ومثقلة بالحديد لئلا تنزلق. تذكرت المنام عندئذ. خالها وابن خالها دخلا هذه الغرفة. كانت تجلس هنا، عند الظهيرة، جنب النافذة. ابن خالها وضع على الأرض شيئاً يحمله - لم تعرف ماذا كان يحمل - وخالها جلس على حافة السرير والطربوش على فخذه. كان وجهه غامضاً! ضايقها ذلك في المنام وعندما أرادت أن تتبين ملامح الوجه الفتي الذي تعرفه - قريب من قلبها ابن خالها - عجزت أيضاً. كان الصبي واقفاً قبالتها، رأت ثيابه التي تعرفها، ورأت شعر رأسه البنيّ الفاتح، لكن وجهه... لم ترَ الوجه!

في يوم أحد جاءت أختان من بشمزين - هذه قرية في شمال لبنان هاجر ربع سكانها إلى أميركا في تلك الفترة - تلبسان الثياب المكوية للقداس وتزورانها.

تكلمتا عن المعمل. الكبرى تكلمت أكثر. الصغرى أقل. وطوال الوقت - وهي تحاول أن تتبع مسار الحديث ـ ظلت تلاحظ الأمر نفسه: الوجهان غامضان! طالما التقت هذه الأخت وتلك، في المعمل. ساعة الطعام (نصف ساعة ظهراً) كانت تأكل وهي تسمع حديثهما. تعرف وجه الكبرى وتعرف وجه الصغرى. فلماذا تبدو ملامح الوجهين غامضة؟ وهذا ليس مناماً!

إحدى الأختين مدّت يدها وأخرجت «شغل» مرتا من السلة الخيزران وصارت تتأمل القطع وتبدي استحسانها. الصغرى أيضاً اشتركت عندئذ في الكلام. كانت تقلب القطعة بين أصابعها الطويلة وتهزّ رأسها. ذكرت اسماً: «فرنسيسكا مكرزل إبراهيم». تكرّر الاسم أكثر من مرة. وتكلّمتا عن أثمان هذه القطع.

عندما بقيت وحدها، وأجراس الكنائس تُقرع وتقرع وتُقرع في رأسها، شعرت بضعفٍ شديد، كأنها ركضت للتو مسافات لا نهائية. كأنها بلغت هذه الغرفة للتو راكضة من بتاتر! طوال الوقت - منذ حدث ذلك، منذ سمعت تلك الكلمات في الطريق - وهي منهكة، بلا قوة، لكنها في الأيام الأخيرة صارت تنهض، تتحرك، تفعل أشياء... الآن، بعد زيارة الأختين، وجدت نفسها غير قادرة على الحركة. تكوّمت على نفسها في الفراش.

استغرق الأمر أسابيع. مجسات الأخطبوط تحركت. السيد هرمان عنده مئات الكشاشين يعملون تحت يده موزّعين على أنحاء الولايات المتحدة الأميركية. جمعوا المعلومات من أجلها؟ الآن حصلوا على المعلومة الوحيدة التي تطلبها؟ مرتا مدّت يدها وأخذت الورقة من يد جوزف أسطفان. الثلوج تذوب في الخارج، طوال الوقت تقطر مسلات الجليد على النافذة والرفّ فوق النافذة. تسمع

الجليد يتحطم، تسمع الطيور التي تزقزق، كيف مرّ الوقت؟ انتهى الشتاء، أو هو ينتهي، وها هو الربيع يبدأ! استغرق الأمر زمناً وها هو «العنوان» بين يديها. معقول؟ هذا مكانه؟ عثروا عليه؟ (أم كانوا يعرفون أين هو منذ البداية؟).

رفعت وجهاً متعباً ونظرت إلى جوزف أسطفان. الرجل رأى شفتها ترجف والورقة ترتعش بين أصابعها. أبعد نظرته، مال ونظر عبر النافذة إلى مداخن حجرية لا تُعدّ وإلى سماء ترتفع رمادية ثم تهبط فوق المداخن.

- اسمي جوزف أسطفان وأستطيع أن أساعدك.

كانت الجملة تتكرر في رأسها: ألم يقل ذلك قبل دهر، في البهو في «أوتيل الجبل»، وهي ترجف في ثيابها الرطبة أول نزولها في نيويورك! قرأت الكلمات، حفظتها، أهم شيء اسم الشارع، الطريق المفضية إلى المزرعة: .Clarendon Road

قال إن المكان خارج مدينة نيو أورلينز، يبعد من محطة القطار ساعتين بالعربة ونصف ساعة بالسيارة. صوته يخرج من بئر. كأن الكلمات تذهب إلى الخارج - حيث تنزلق الثلوج الذائبة عن حافات السطوح - ثم تعود إليها عبر لوح الزجاج.

بعد ذهابه بقيت رائحته: التبغ والعرق والجوخ. كان يتعرق في معطفه وكفوفه والبرنيطة والشال. نزع كفّه - الفردة اليمنى فقط - وهو يستخرج الورقة من جيب المعطف: ورقة صغيرة مطوية بعناية. حفظت العنوان لئلا تحترق الورقة بين أصابعها وتتلاشى الأرقام والحروف في الرماد:

7256 Clarendon Road - New Orleans

كلاريندون.. الاسم يدور كالطاحونة في رأسها. ليلاً تقوم من

نومها مبلولة بالعرق: كلاريندون. بتسي سألتها ذات مساء عن أهلها في جبل لبنان، من عندها هناك، هل عندها بعد أقارب؟

أرادت أن ترد على بتسي، أن تقول لها شيئاً عن خالها أو ابن خالها، فخرجت من فمها الكلمة: «كلاريندون».

- 34 -

المزرعة (2)

دلزي رأت السيد عائداً بالسيارة من المدينة. كانت تنفض السجاد تحت أعمدة الرخام الباردة. أسرعت تبعد الأغراض عن الدرج، وهي تتلفت بجذعها الثقيل وترسل صوب الإسطبل صوتاً كفحيح الثعبان: «سسسس».... كانت تنادي طوماس (الصبي) بطريقتها. هكذا لا ترفع صوتها وتوقظ سيدتها (ألا تظن نفض السجاد يوقظ السيدة؟). طوماس أطلّ راكضاً. وشرّع بوابة السياج لئلا يخبطها السيد بالسيارة. كانت قماشة التلميع في يده (خصّص هذا الصباح لصبغ سرج الحصان بطلاء الأحذية. بينما يطلي السيور الجلد يحاذر لئلا يلطخ البكلات النحاس). من بعيد اقتربت السيارة السوداء في خطٍ غير مستقيم، غريبة الحركة كحيوان مريض وهي تتلوى. كانت عجلاتها تنزلق على الوحل. دخل السيد بسيارته الباحة وأطفأ المحرك ولم يستخدم الفرامل. ارتطمت مقدمة السيارة - وهي تكرج على مهل - بأكوام التبن الرطب. السيد نزل منها وهي لا تزال تهتز والوحل يقطر من جنباتها. قال لطوماس:

- قلْ لإد أن يأخذ الرجال إلى النهر. الطريق هناك لم تعد موجودة*.

---

* The road there is gone.

بينما يصعد الدرجات استدار ونظر إلى الصبي واقفاً لا يتحرك. عندئذ انطلق توماس راكضاً صوب الحقول (كان ينتظر أن يعطيه السيد شيئاً. في المرة الأخيرة، عندما عاد من نيو أورلينز، جلب له مدية بمسكة وبيت عظم. هذه أثمن مقتنياته الآن. تلازم جيبه. إد علّمه كيف يفكّها. في نهاية المسكة حلقة حديد وإد أخبره أن الجنود كانوا أثناء الحرب يتقاتلون على مدية مثل هذه). في هذه الأثناء كانت دلزي تمسح العرق عن وجهها وتسأل السيد عن صحته. همهم بكلمات غير مفهومة، رفع يده في تحيته المعهودة، واخترق عتمة البهو باتجاه المطبخ. من دون أن يسأل يعرف أن أليزابيث في السرير.

حرارة المطبخ كانت حلوة بعد برد الخارج ووحول الطريق والسماء الرمادية الكئيبة. تيريزا الطباخة أسرعت تبعد السلة عن الكرسي حيث يحب الجلوس. على يديها دم من الطرائد (طيور وأرانب) التي تنظفها. نظر إلى الريش في السطل الخشب ثم نظر إلى الأرانب. من حركة يده عرفت سؤاله. لفظت اسم الرجل الذي جلب الأرانب وهي تمسح يديها على ثوبها: كانت ثلاثة أرانب برية سمينة، فروتها بلون البلوط. تفحصها بنظرته وهي ترقد على البلاطة وفكر أن اللعين ركض خلفها وكسر رقابها من دون أن يقوّص عليها خردقة واحدة: كانت الفروة سليمة بلا أثر للثقوب!

هزّ رأسه وهو يلمس فروة الأرنب الذي لم يُسلخ بعد. ابتسمت عندما رأت ملامح وجهه. وراء ظهرها كان البخار يتصاعد من إبريق القهوة ومن طناجر الماء. في الزاوية البعيدة، تحت النافذة، كانت ابنتها تقشر الثوم والبصل والبطاطا وتحاول السيطرة على جريان الدم في وجهها وأذنيها: لحظة دخول السيد المكان تخضب خداها بالأحمر الشمندري. حتى جبهتها صارت بلون الدم على بلاطة

الطرائد. خارج النافذة بانت القطط، تموء وقد شمّت الرائحة، وأظافرها تحاول تمزيق الشبك الرفيع الذي يمنع دخول البعوض والذبان. التفت - وهو يجلس - صوب النافذة: سكتت القطط عن المواء. البنت نظرت إلى قشور البطاطا تقع على الخشب وتمنت أن تختفي... لكن أن تبقى هنا أيضاً.

شرب القهوة وأكل خبز التورتيلا مع يخنة اللحمة والحبوب. بينما يكسر الخبز - المصنوع من ذرة متخمرة - وينظر إلى ألسنة النيران تتراقص في المدفأة العملاقة، شعر بالنعاس يتسرب إلى جسمه وعينيه. كانت تيريزا تسكب شراباً ساخناً في كوب بورسلين عندئذ وتأمر البنت أمراً. عرف - وهو يسمع الكلمات بعيدة وغير مفهومة - ماذا تريد. نهض وأخذ الصينية بنفسه وصعد السلالم إلى أليزابيث.

عندما دفع الباب رفعت جسمها على يديها ونظرت إليه بعينين كبيرتين. ضحكت عندما رأت ملامح وجهه. جلس على حافة السرير وهو ينفخ على الكوب الساخن ويقول إنهن أشعلن نار جهنم تحت. مدت يدها وتلمّست كتفه ورقبته. وضع الكوب على الطاولة الصغيرة ومال عليها وأخذها بين ذراعيه. كانت رائحتها طيبة: كأنها تحممت بالحليب وماء الزهر.

تأملت وجهه وهو يدخل فيها. شدّته إليها بساقين قويتين ورأت الطيور تعبر خطفاً خارج النافذة بالستارة البيضاء. دفنت وجهها حيث أوتار الرقبة وتنشقت رائحته. عندما رفع جذعه معتمداً على يديه، رأى عينيها تشعان والبؤبؤين يسبحان في بياض يتغير إلى لون البنفسج. صفت بشرتها صفاء مدهشاً وهي تلوي رقبتها إلى خلف.

بعد ذلك سمعا دلزي تترنم بأغانيها القديمة وهي تنفض السجاد أمام البيت.

- 35 -

وداع

قبل سفرها جاءت الأختان في زيارة أخرى، وهذه المرة جاءت معهما حنّة يافث*. طلبت حنّة منها بعض القطع (شغل بالصنارة). قالت إنها تستطيع أن تدفع لها أكثر مما تدفع الست فرنسيسكا (هذه صاحبة المتجر في «هنري ستريت» ـ بروكلين: اشترت منها أغطية «تريكو» للطاولات والمساند، بواسطة جوزف أسطفان). صنعت قهوة وسكبتها في الفناجين. حاولت أن تكون هادئة. المرأة القصيرة كمدقة الثوم والتي تُدعى حنّة تفحصت «شغل» مرتا حداد وهي تتنهد: بدت سعيدة وحزينة معاً. قبل أن تغادر مع الأختين تبشراني من بشمزين كانت السيدة حنّة قد أعطت مرتا دولارات تكفيها للذهاب في رحلتها إلى لويزيانا. على الدرج، وهي تنزل حاملة القطع التي انتقتها، قالت للأختين إن حصتهما محفوظة. كانت بالغة السرور الآن.

جوزف أسطفان طلب من مرتا تأجيل رحلتها. إذا انتظرت ثلاثة أسابيع أو أربعة، يستطيع أن يأخذ عطلة من عمله وأن يذهب معها.

---

* من ظهور الشوير - جبل لبنان. ولعلها تمتّ بصلة قربى إلى نعمة يافث الذي هاجر إلى البرازيل في تلك الفترة، وأصاب ثراء هناك. فتح مصانع وبنى لعماله مجمعاً سكنياً بحجم مدينة صغيرة. أهدى الجيش البرازيلي طائرات حربية وتبرّع للجامعة الأميركية في بيروت بنفقة بناء «مكتبة يافث» Jafet Library

بدا صادقاً ويريد أن يخدمها ويسندها، لكنها وجدت ذلك صعباً عليه: تذكرت زوجته والبنت في المعطف الأحمر والقبّعة الحمراء. قالت إنها لا تستطيع أن تبقى هنا أكثر.

أخذها إلى «الغراند سنترال» في الشارع الثاني والأربعين كي تقطع التذكرة قبل يومين من سفرها. كان الوقت ظهراً ونيويورك تعجّ بالبشر والعجلات والهدير. زجاج الأبنية عكس الغيوم القطن المتباعدة في سماء زرقاء. أدخلها إلى مطعم صغير مزدحم، يبيع سندويشات همبرغر وبطاطا مقلية. بينما يخبرها عن ابنه مارون - كثير المتاعب هذا الفتى: يضرب ويسرق كأنه ليس ابنه، ولا ينفع معه علاج - رأت شخصاً سوري الملامح يمرّ على الرصيف حاملاً الكشّة: فكرت أنها تعرف هذا الوجه ورأته من قبل. لكنها لم تستطع أن تتذكر أين ومتى. بينما جوزف أسطفان يحصي السنتات في كفه (الهمبرغر بعشرين سنتاً هنا) تذكرته يفعل ذلك أمام عربة الهوت دوغز قبل دخولها «بيت الحاجة ماري».

إذا أردت اليوم أن تسافر بالقطار من نيويورك إلى نيو أورلينز يمكنك أن تذهب إلى المحطة ذاتها (الغراند سنترال). قاطع التذاكر سينصحك بركوب القطار Crescent الذي يتبع خطوط Amtrak. الرحلة طويلة، 1378 ميلاً، تأخذك من الشمال إلى أقصى الجنوب قاطعة الولايات والسهول والأنهار والجبال، وحقولاً وغابات كانت مسرحاً للحرب الأهلية الأميركية في ستينات القرن التاسع عشر. مرتا قطعت هذه المساحات في ربيع 1914: رأت سهول بنسلفانيا الخضراء عند الشروق، تكرّ عن جهتي القطار حتى حيطان التلال المغطاة بالشجر. رأت ظلال الغيوم تنتشر على قطعان الماشية في مراعي Delaware و MaryLand. رأت مدن فيرجينيا وبلداتها (تقرأ الأسماء في مداخل المحطات وعلى حقائب المسافرين الصاعدين في

كـل مـحـطـة: (Manassas - Charlottesville - Lynchburg). رأت حقول كارولينا وهضابها، رأت بيوتاً واسطبلات، رأت جسوراً على أنهار المغيب وظُلّ القطار في المياه يتسارع مثيراً الذعر في قلبها. في أتلانتا - جورجيا أكلت «وجبة دجاج» وبدّلت قطارها. في ألاباما - بينما القطار يرتاح - رأت الهنود الحمر للمرة الأولى في حياتها. كانوا مجموعة كبيرة حزينة ومعهم رجال بيض في زي عسكري وفهمت من حديث الركاب أنهم في الطريق إلى المحمية في نبراسكا (بعد سنوات مرّ بها القطار هناك ورأت «المحمية» وراء السياج: خيم الهنود الحمر الغريبة الشكل، والنيران الصغيرة، فوقها تتعلق القدور، والفتية شبه عراة على الأحصنة). نظرت إلى الهنود الحمر يصعدون إلى قطار ذاهب في الاتجاه الآخر وتذكرت الصورة التي رأتها أمام صالة السينما - قبل أن تبدأ هذه الرحلة - في جوار الغراند سنترال في نيويورك: الهنود الحمر في الإعلان الملون بدوا حقيقيين بعكس هؤلاء الذين تراهم الآن بلحمهم وعظمهم أمام عينيها! هذا الإحساس هاجمها مرة ثانية عندما أطلّ نهر المسيسيبي عالياً وموحلاً: لم تصدق أن هذا نهر! كان أضخم من المحيط!

المقطع أعلاه (من «إذا أردت اليوم أن تسافر بالقطار» حتى «كان أضخم من المحيط») لا يعكس حالة مرتا بدقة. تبدو مرتا في السطور المذكورة كأنها ليست هي: تبدو «مسافرة»! (هل يصير الإنسان شخصاً آخر بينما يسافر... بينما يقطع مساحات مجهولة لم يعرفها من قبل؟)

لعل وداعها بتسي قبل ليلة أقرب إلى التعبير عن حالتها النفسية (بينما تضمها سالت الدموع من عينيها وهي لا تريد أن تبكي). أو ربما وداعها غرفتها: جمعت أغراضها في الكيس الجنفيص القديم، بكلت أزرار كنزتها الطويلة. ناظرة إلى الحيطان، وخرجت.

- 36 -

هنري أوزبورن

المقصورة مظلمة لكن الضوء الضعيف يتسرب من الممر. حركة القطار رتيبة تدفع إلى النوم. مع هذا تجد مرتا النوم مستحيلاً. فتحت كيس الجنفيص وأخرجت شيئاً من قعره. فاحت في المقصورة رائحة «الزهورات». المكان مظلم ولا نستطيع أن نرى وجهها. عندما تلصق أنفها بالنافذة، بينما القطار يدخل محطة مضاءة بالمصابيح أو يغادر محطة إلى الظلام، ماذا يرى الواقفون في الخارج والقاعدون على المقاعد الطويلة؟ هذه المقصورة يغلب عليها اللون الأخضر. القماش الأخضر يغطي جدرانها، وعلى نوافذها ستائر خضراء. هذا يحدث كثيراً معها: يأتي حاجب ويسألها هل تحبّ الانتقال إلى الدرجة الأولى؟ وهي تتبعه. الحاجب الأخير ابتسم وهو ينظر إلى تذكرتها ويقول إن القطار سيبلغ نيو أورلينز عند الفجر أو شروق الشمس. قال شيئاً عن الفحم لكنها لم تفهم: لم تكن تصغي إليه. أحد الركاب كان يحدّق إليها طوال الوقت فاضطربت.

يُدعى هنري أوزبورن. اقترب وقال اسمه وقال إنه رآها وهي تعمل بالصنارة، وهذا عمله. تذكرت عندئذ أنه عندما نظر إليها للمرة الأولى كان يعبر الممر: تراجع عندما رآها تُخيط بالصنارة ووقف في باب المقصورة وهزّ رأسه. لم تردّ تحيته لأنها كانت شاردة. بعد ذلك - وهي عائدة من الحمام - التقته مرة أخرى. وفي هذه المرة أيضاً رفع القبّعة عن رأسه لكنها لم ترد.

كانت عاجزة عن النوم فخرجت إلى الممر. في نهايته وجّ ضوء أحمر. بعض المصابيح مطفأ في الممر أيضاً. رأت أضواء حمراء صغيرة وعرفت أنهم يقفون هناك ويدخنون. كانت تستدير عائدة إلى مقصورتها عندما سمعت ذلك الصوت مرة أخرى، السيد هنري أوزبورن من ترنتون* - نيوجرسي.

عندما عرف أنها بدأت رحلتها في نيويورك أخبرها أنه اشتغل هناك زمناً، وأن أحد أقاربه يملك متجراً في هارلم. أخرج من جيبه الداخلي بطاقة. الساعة الذهب لمعت في ضوء الممر وهو يزيح سترته بلامبالاة. على البطاقة قرأت اسمه وعنوان متجره في ترنتون. تذكرت عندئذ علبة البطاقات في مكتب السيد هرمان وشعرت بالتعب.

سألها من يشتري «شغلها» وسألها هل يمكن أن تبيعه بعض القطع. قالت إنها لا تحمل شيئاً.

انتبهت أنه ينظر إلى كيس الجنفيص لكنها لم تشرح أكثر. كانت مرهقة وفجأة أحسّت أنها قادرة على النوم. تثاءبت من دون أن تنتبه. والسيد أوزبورن اعتذر ورفع قبّعته مرة أخرى ولفظ اسمها كما نطقته أمامه ثم اختفى. بعد ذلك أسندت رأسها إلى حافة النافذة بالبطانة المخمل وفي لحظة غرقت في النوم.

أيقظها اهتزازٌ عنيف. فتحت عينيها بعد الارتجاج وسمعت صياحاً ورأت أخيلة تتراكض في الممر. خارج الزجاج كانت الظلمة دامسة وفي مكان بعيد رأت ما يشبه لساناً أحمر يخرج من الأرض ويتعالى إلى السماء. لكنها كانت تعلم أن الذعر في القطار لا علاقة له بذلك المشهد البعيد. لم تفزع. كانوا يركضون ويطلقون صرخات

---

* Trenton

وفهمت أن شيئاً ميتاً على السكة أوقف تقدم القطار. قامت من مقعدها على مهل، بلا خوف، ويمكنني أن أقول بلامبالاة. كانت بائسة ويائسة إلى حد الخدر، مثل مجرم مُدان حُكم بالإعدام قبل دهر والآن يؤخذ إلى المقصلة. لماذا يحملها القطار إلى نيو أورلينز؟ وبعد أن تقطع «كلاريندون رود» إلى تلك المزرعة ماذا ستفعل؟

ظهر الحاجب قبالتها وهو يلهث ويمسح شحماً عن أصابعه. لم تعرف كيف لطّخ ثيابه بالشحم ولم تهتم. أخبرها أن الجميع ينزل من القطار بانتظار تنظيف قضبان السكة. أخذت كيسها وعبرت الممر وهي ترى وحولاً على السجاد السميك. كانوا ينزلون إلى الحقول ثم يصعدون ثم ينزلون مرة أخرى. هرج ومرج لا يُصدق. مع أن القطار بدا لها - قبل هذه الحادثة - فارغاً. تحت، واقفة على حافة مروج تحطم سياجها، رأت عمالاً يرفعون جثث الماشية عن السكة الحديد (طوال الطريق ترى هذه الأسيجة تمتد بمحاذاة السكة ولا تفهم سرّها. الآن فهمت).

المصابيح التي يحملها مسافرون وموظفون في السكة الحديد شوّهت الوجوه، جعلتها غريبة الأشكال والألوان. عندما اقترب منها ذلك الرجل من جديد لم تعرفه للوهلة الأولى. كان عليه أن يُذكّرها بنفسه مرة أخرى.

أخبرها وهما يقفان هكذا في الليل والرطوبة، في مكان ما على حدود الميسيسبي - لويزيانا، أنه ذاهب لزيارة أخته التي وضعت توأمين، أنثى وذكراً. بينما يحكي عن عائلة أخته الكبيرة أخرج بطاقة أخرى من جيب سترته ودفعها في يدها. لم تفهم ماذا يفعل. كانت تنظر إلى بقرة ضخمة بيضاء اللون يرفعها عدد من الرجال السود إلى حيث تنحدر الأرض جنب السكة.

- 37 -

Slidell

سليدل. المحطة الأخيرة قبل نيوأورلينز. ركاب متوترون بسبب الحادثة والتأخير. شعرت بعضلاتها تتشنج إلى حد التخشب. القطار سيتوقف هنا ساعة، وهي لا تعرف ماذا تفعل. نزلت كي تمشي قليلاً في جوار المحطة فرأت دكاناً جنب كنيسة بيضاء بثلاث نوافذ، وعلى زجاج الدكان كلمات عربية وإنكليزية. أغرب من ذلك: رأت رجلاً جالساً في المدخل (بين صناديق وسجاجيد شرقية، ومسابح تتدلى مع صلبان وأيقونات من قضبان خشب معلقة في الهواء) وعلى رأس الرجل طربوش أحمر! كان - باستثناء الطربوش - يرتدي الملابس الأميركية المعهودة. قميصه الأبيض لافت للنظر، وحمّالات البنطلون السوداء ترسم خطين عموديين على بياض القميص. سترته ملقاة على أحد الصناديق الدمشقية المطعمة بالصدف - كيف وصلت هذه البضاعة إلى هنا؟ - وأمامه تقرقر أرجيلة. اقتربت منه بلا انتباه فرأته يبتسم. سألها - بالعربية - من أين تأتي وهل يقدر أن يساعدها؟ كان واقفاً الآن، مقوّس الظهر بعض الشيء (لعله يخاف أن تقع الأرجيلة إذا انتصب تماماً فإبزيمها ما زال بين أصابعه) وبدا مستمتعاً باللحظة. مرتا انتبهت عندئذ أنه يشبه رجلاً من قريتها.

أخبرته أنها آتية من نيويورك وذاهبة إلى نيوأورلينز. سألها هل عندها وقت كي تجلس وتشرب فنجان قهوة. قالت إن القطار يتحرك

بعد دقائق. ضحك وقال لن يذهب القطار من دونكِ، أنا أعرف أصحابه. ضحك ضحكة أقوى وترنح وكاد يُسقط الأرجيلة على الأرض. قال اسمي جميل طرزي، أنا وُلدت في الشام لكنني جئت إلى هنا مع أبي وأنا صغير، كان عمري 11 سنة، ولهذا تسمعين عربيتي ثقيلة.. ولأنني عموماً لا أجد هنا من أتكلم معه بالعربية.

ضحك مرة أخرى لكن هذه المرة من دون فرح حقيقي. كان فقط يحاول أن يزيل - كأن هذا ممكن - الضباب الذي ملأ المسافة بينه وبين هذه الحسناء السورية التي رماها القطار أمام باب دكانه.

على الرصيف المقابل مرّ رجال في أزياء متشابهة، وكلّهم ملطخون بالأسود. كانوا ينظرون إلى واجهات المتاجر ثم يتابعون السير تحت سماء الجنوب الزرقاء (هل بدأ الصيف هنا في هذه اللحظة؟ إنها تشعر بحرارة غريبة تملأ ثيابها!). الرجل بالطربوش تبع نظرتها وقال إنهم في المنجم، هؤلاء يعملون في المناجم. ثم أخبرها - بسرعة، كأنه يسابق صافرة المحطة - قصته:

- أنا وأبي مشينا على الأقدام من نيويورك إلى هنا. أنتِ أتيتِ بالقطار لكن عندما جئنا إلى هنا لم تكن هذه السكة موجودة. وصلنا قبل السكة. كنت أتعب من السير فيحملني أبي مع الكشّة. الصندوق على ظهره، والصندوق الآخر الأصغر على صدره*، وفي يده الحقيبة التي يُفترض بي أن أحملها. يحملني تحت إبطه ويمشي. كان بطول هذا الباب، لكنه نحيل. كانت عظامه تضايقني وهو يحملني هكذا فأتشجع وأطلب النزول وأمشي من جديد. كان بقوة ثور. في البداية كان يتركني في المدينة (أولاً في نيويورك؛ بعد ذلك في سالزبوري -

---

* في الأصل كان هذا الصندوق الصغير الذي يتدلى على الصدر - مربوطاً إلى سيور الصندوق على الظهر - هو «الكشة». وهي كلمة من البرتغالية Caixa تعني «الصندوق» ويلفظها البرتغاليون Ka-sha.

كارولينا) ويبيع على الطريق يومين أو ثلاثة ثم يرجع إليّ. عندما رأى أنني لا أتحمل غيابه صار يأخذني معه. كان يقول للآخرين «هكذا أحسن» فإذا كنت معه لا يجد صعوبة في العثور على مكان للنوم. وهذا صحيح. أخبرني أنه مرة وجد نفسه في البرية والليل قريب والبرد يقتل. ظل يمشي ولم يصل إلى مزرعة أو بلدة ثم رأى نوراً بعيداً فأسرع صوبه. كان المطر بدأ يتساقط ابتلّ تماماً، وحتى الغطاء الذي يضعه على الكشّة ابتلّ وصارت المياه تنزل تحته. عندما بلغ باب البيت وقرع عليه فتحت امرأة. قالت إن زوجها في الحقل ولم يرجع بعد. ابي صار يقول «ثانك يو، ثانك يو»* ويتجاهل كلامها وهو يحاول دخول البيت. وقفت في طريقه وشرحت له مرة أخرى - بالإنكليزية وبالإشارات - أنها وحدها وزوجها ليس هنا ولا يمكن له الدخول.

أبي ظلّ يضع يديه جنب رأسه - طالباً مكاناً للنوم - ويقول «ثانك يو، ثانك يو» (شكراً شكراً). وضع رأسه في الأرض وتقدم ودخل إلى البيت وهو يقطر. تخلص من حذائه في الباب ووضع أحماله ومشى بخطى واسعة إلى الموقدة وجلس أمام النيران وهو يقول «ثانك يو».

زوج المرأة دخل بعد قليل وهو ينفض الماء عن مظلته وثيابه. كان الطوفان في الخارج وسأل زوجته من هذا الرجل وماذا يفعل في بيته؟ المرأة قالت إنه بائع جوّال ولا يفهم الإنكليزية. دخل غصباً عنها وطوال الوقت يقول «ثانك يو» ولا يعرف غيرها. الزوج وقف حائراً.

---

* Thank you, Thank you

- 38 -

Slidell (2)

صوته بلغ قلبها. القصة التي تسمعها ردّت ذكريات قديمة. طوال الوقت، بينما الرجل يحكي عن أبيه، كانت مرتا ترى أمامها وجه المرحوم أبيها.

- أبي التفت ويداه ممدودتان صوب المدفأة وصار يقول للزوج «ثانك يو»، ثانك يو مستر» ويتعمد أن يلفظ الكلمات بطريقة مضحكة. الزوج ابتسم وسأله شيئاً عن بضاعته. أبي لم يردّ عليه. كانت نظرته مسددة صوب الطاولة: عليها طعام، بخار يتصاعد من صحون، وهو جائع. قام ومشى إلى الطاولة وجلس إلى الطعام وهو يقول «ثانك يو»، مع أن أحداً لم يقل له أن يقوم إلى الطاولة. كسر خبزاً طازجاً حاراً وأكل. الزوج أشار لامرأته أن تجلس وجلس هو أيضاً. أكلوا معاً الطعام المطبوخ. وكلّما نظر أحدهما إلى أبي منقضاً على الطعام كأنه لم يأكل منذ سنوات كان أبي يرفع وجهه ويقول «ثانك يو». الزوج قام إلى المدخل ووقف ينظر إلى الصناديق. أبي قال إنه في تلك اللحظة توقف عن مضغ الطعام: إذا رمى الرجل الصناديق خارج البيت فماذا سيفعل بنفسه؟ أخذ الرجل أحمال أبي إلى غرفة النوم وأبي تبعه إلى هناك وهو يكرر «ثانك يو». نام على سرير نظيف وفي الصباح استيقظ على الشمس وصياح ديوك الحبش وضجة النساء. في المطبخ وجد المرأة مع ثلاث فتيات، وعرف أنهن

بناتها. أهدى المرأة شالاً، وأهدى كل فتاة منديلاً. ثم تكلم معهن بالإنكليزية وشكرهن على العشاء وعلى السرير وعلى كرمهن. المرأة فتحت فمها مدهوشة. كان يتكلم اللغة بطلاقة، تعلمها على الطريق. قالت له: أنت تعرف الإنكليزية؟ أمس لم تكن تقول إلا «ثانك يو». وهو ابتسم وظلّ ساكتاً. صارت المرأة تضحك، والفتيات ينظرن إلى المناديل الجميلة ويضحكن. وأبي صار كلما مرّ في تلك الناحية يمرّ على البيت في البرية ويأكل وينام كأنه عند أقارب.

مرتا قالت إنها مضطرة أن تذهب. الرجل نادى صوتاً على جاره وكلّمه. أقفل باب متجره بالمفتاح ومشى مع مرتا إلى المحطة. لم يأخذ طربوشه معه. ترك الطربوش في المتجر. بينما يسير جنب مرتا سألها هل تحتاج إلى مال؟ الكلمات التي نطقها بالإنكليزية فاجأتها. التفتت إليه. رأت الحزن يكسو وجهه. شكرته وقالت «معي مال»*. الرجل هزّ رأسه ورفع عصاه: أشار إلى مداخن وراء المحطة يتصاعد منها سحاب أسود وأخبرها أن هذا مصنع القرميد. كانت تحضن كيس الجنفيص بين ذراعيها وشعرت فجأة بالخوف على هذا الرجل الذي التقته للتو، هكذا، صدفة، في نهاية العالم.

مجموعة عابرة ألقت عليه التحية Hello Mr. Tarazi وهو رد باسماً ثم سأل مرتا هل عندها أحد هناك، في نيوأورلينز، حيث هي ذاهبة؟

كان «الكونداكتر» يصيح، يقول شيئاً عن ركوب القطار الآن، ورأت امرأة تركض وهي تشد ابنها خلفها والصبي يبكي ويجرجر على الأرض معطفاً أزرق. رائحة «هوت دوغز» هجمت عليها من عربة

(*) "I got money"

تغلي فوقها طنجرة، وهي نظرت إلى الرجل الزيتوني البشرة من دون أن تقول شيئاً. كانت عاجزة. الكلمة جوزة عالقة في زلعومها، ماذا تقول؟

وقفت في الصف. بينما تنتظر دورها لركوب القطار أكمل الرجل قصته وهو ينحني حتى يكاد رأسه يلمس كتفها. كانت رائحته طيبة، وفي صوته حزن شجي. كأنه مريض يخرج من مرضه الآن، يغتسل ويأكل شيئاً طيباً ثم يقعد في الحديقة الخضراء تحت أشعة الشمس.

- تعلمت من أبي، بقيت أحمل الكشة معه حتى وقع هنا ومات. على بُعد دقائق من هذه البلدة، على شط البحيرة*. وضعنا الصناديق وجلسنا لنأكل لقمة جنب الماء. قبل أن يقعد وقع ومات. هكذا فجأة. كان وجهه عرقان، أنا أهزّه وهو لا يتحرك. قبل أن يموت مشينا على الأقدام هذه الولايات كلها، أميركا كلها؛ من هنا إلى داكوتا ونبراسكا. كنا نملأ الكشة ونركب القطار إلى مدينة بعيدة. ثم نرجع الطريق مشياً ونحن نبيع بضاعتنا من مزرعة إلى أخرى. لم نشترِ عربة وحصاناً لأن أبي كان يفضل المشي ولا يعرف كيف يتعامل مع الأحصنة. هو مات وأنا بقيت هنا.

* Pontchartrain lake

- 39 -

الوصول

عربة يجرّها حصانان أخذتها إلى المزرعة في 7256 Clarendon Road. الحوذي الأسود العجوز كان يرتدي كنزة صفراء وقبّعة صوفاً حمراء اللون. وقف أمامها وهي تخرج من محطة نيو أورلينز للسكك الحديد وسألها أين تريد أن تذهب. قالت: «هل تعرف كلاريندون رود؟» هزّ رأسه وهو يقول نعم، ورفع ثلاثة أصابع. كان يطلب ثلاثة دولارات، واتفقا على دولارين أجرة الطريق. لو قالت لن أدفع لك غير دولار واحد كان يقبل. المزرعة ليست بعيدة جداً وهو يحبّ تلك الطريق. ثم إن الضجة لا تطاق اليوم في جوار محطة نيوأورلينز. ساعدها كي ترتقي العربة بينما أجراس الكاتدرائية تجنّ وعويل النساء يتعالى. المدينة كلها في كرنفال جنائزي مجنون. فرق موسيقى وأبواق ضخمة، وما يشبه جنازة بلا ميت أو على الأقل بلا تابوت ظاهر للعيان. كل أجراس الكنائس تُقرع والناس على الطرقات والعربات الكبيرة المحمّلة الآتية من المرفأ إلى محطة السكك الحديد متوقفة في عرض الطريق يركض بينها أولاد سود يحملون حلوى سكرية غريبة الشكل ويصيحون. النساء أيضاً ملأن الزوايا في ألبسة مبهرجة. كانت السماء زرقاء ساطعة وفوق أبراج الكاتدرائية البيضاء تجمدت ثلاث غيمات بلون الرخام كأنها رُبطت إلى الأبراج بحبال غير مرئية.

مرتا تنفست الصعداء عندما ابتعدت العربة عن الزحمة والصخب المخيف. الحوذي التفت وصار يحكي عن رجل عظيم الشأن ولم تفهم هل مات الرجل المذكور أم رجع إلى المدينة للتو. كانت تبتعد عن ضجة المدينة بينما الشمس تميل في السماء - جاوز الوقت الظهيرة - وهبّ عليها هواء الحقول. كان الحوذي يتكلم عن أزمنة بعيدة، عندما كان عبداً وفرّ من سيده وطاردوه. قبضوا عليه قبل أن يقطع النهر وقطعوا أذنه. أزاح القبعة الصوفية قليلاً ورأت أذنه المشرومة. كلامه يصل من بعيد، يختلط بزقزقة العصافير والحشرات التي بدأت تئز وتخرج من بين الأشجار والأعشاب. الأرض كلها خضراء، مع أن الوحل يُصدر أصواته الغريبة تحت حوافر الحصانين وتحت العجلات الأربع. قال الحوذي إن زوجته تقول مثل هذه الأشياء دائماً - لم تسمع مرتا القسم الأول من كلامه ولم تفهم ماذا يقصد - ثم قال إن السيد توماس كان أسود مثل جميع السود لكنه كان حرّاً، لم يكن عبداً، جمع مالاً واشترى حريته، ثم لاحقاً بدأ يشتري العبيد. لكنه كان رحيماً ولا يسوط عبيده إلا في ما ندر. ومع هذا يُقال إن...

كان الرجل يتكلم ومرتا تصغي والعصافير تطير أمام العربة، تفزع من الضجة وتختفي أعلى الأشجار. بعيداً بعيداً تكرر صدى الأجراس وهي تُقرع في مدينة نيوأورلينز. مرتا شعرت أن قلبها يتوقف وهي ترى اللافتة المغروزة جنب الطريق بين شجرتين قديمتين عملاقتين كأنهما غرزتا هنا قبل قرون:

Clarendon R.

على زاوية اللوح الخشب سالت، بيضاء ورمادية، قاذورات الطيور. استدارت ونظرت إلى اللوح يبتعد، يصير وراء العربة،

والكلمة Clarendon تختفي، لكنها تبقى هناك، تنتظرها - إذا رجعت على هذه الطريق. انتبهت عندئذ أن العرق يبلّها من رأسها حتى أخمص قدميها، مع أن هواءً بارداً يهبّ على الحقول.

كانت على وشك الوصول. أدركت ذلك بينما نبضات قلبها تفقد انتظامها. كان الحوذي يقول.إن الماشية في تلك السنة أصابها الطاعون ومرتا سألت نفسها كيف لا يرى أنها وحدها في الجحيم.

كان يستدير بجذعه ويواجهها بفمه الكبير والشفتين القديمتين الجافتين والأسنان البيضاء العظم الباقية كما هي، كأنه في عزّ الشباب، كأنه ليس عجوزاً. هو يحكي وهي ترى الورق يتساقط ابرياً رفيعاً من الأشجار كورق الصنوبر في الجبل البعيد. سمعت خريراً يقترب ثم رأت نهراً أبيض المياه بصخور مفلطحة بيضاوية، ووراء النهر ترتفع طيورٌ ملونة البطون، سوداء الأجنحة، تدور حول أجمة قصب ثم تختفي وراء عربات خشب مكسرة انتُزعت عجلاتها. كانت العربات مكومة عند حافة الحقول. ضايقها هذا المنظر. بدا نذير شؤم.

طقطقت عجلات العربة وهي تنزل في أخاديد وتصعد. الحوذي استعمل سوطه ونادى بمقاطع صوتية غريبة المخارج مسنّنة الرنين. استجاب الحصانان له والعربة خرجت من الأخدود. بعد ذلك انبسطت الطريق. الريح تراجعت، والسماء سطعت أشد زرقة فوق السهول.

من بعيد بانت شجرة عملاقة ثم أعمدة رخام بيضاء كالملح أمام بيت كبير. كان الدخان يتعالى من شواء في الباحة. أمام الدرج ظهرت مائدة وناس كُثُر يأكلون ويدخنون ويشربون. كان الهواء ساكناً ومرتا رأت الناس قبل أن تسمع ضجتهم: الضحك والكلام وطرطقة الكؤوس والصحون.

- 40 -
المزرعة (3)

دلزي استغربت وقوف العربة عند السياج. العربة صغيرة يجرّها حصانان ولا تشبه عربات الأسياد الضيوف المصطفة الآن أمام الإسطبل، خضراء وسوداء وحمراء، والأحصنة مفكوكة عنها، ترتاح وتأكل العلف وترتوي من المشارب. الصبي يركض إلى وراء الإسطبل ويرجع، يأخذ طعاماً للحوذيين وكلما عاد رأته يضحك. هناك وليمة، وهنا - تحت الشجرة الضخمة التي جلست في ظلّها الأجيال جيلاً بعد جيل - وليمة. مثل كل سنة، في مثل هذا اليوم، امتلأ المكان. نوافذ القصر مغسولة تبرق. الدرج يلمع وحتى الأعمدة الرخام فُركت بالماء والصابون. الأرض كُنِست حتى بان الصخر تحت التراب، وحيث تبقى وحلٌ فرشوا نشارة الخشب لئلا تتسخ الأثواب الطويلة. آل كمبسن (آخر النبلاء) وصلوا أولاً. سيدتها استقبلت العائلة الصغيرة في ثوب أزرق كسماء هذا النهار. تبدل الطقس بينما أجراس الكنائس البعيدة تتردد في الفضاء. كانت السماء رمادية وفي الهواء قرصة برد ثم هبت الريح من الجنوب، من خليج المكسيك، وها هي السماء صافية، والشمس تسطع، والنمل الطيار يطنّ بين الجذوع. دلزي المشغولة مع «الخرقاء» (هكذا تسمّيها منذ طالت أطرافها) ابنة تيريزا الطباخة، بكش الذبان عن صواني الشواء، استقامت لحظة ومسحت العرق عن عينيها وتأملت المرأة في العربة: كانت غريبة،

لم تَرَها قبل ذلك، وفي ملامحها - لكن هل تراها حقاً من هنا؟ - حزن فظيع! لعلها تتخيل، لا تقدر أن تجزم، لكنها امرأة جميلة. من هنا، مع أن المسافة طويلة، ترى عينيها. كانت تنتظرها كي تترجل من العربة لكنها ظلت جالسة تنظر من هناك إلى المائدة والضيوف. وخُيِّل إلى دلزي أن نظرة الغريبة ثابتة على سيدتها أليزابيث (الضوء يخرج من حرير ثوبها الأزرق) وعلى السيد (يرتدي بذلة بيضاء، وذراعه تحيط كتف سيدتها. وعندما يضحك يضحك معه جميع الضيوف).

دلزي متعبة من النوم القليل ومن عظامها التي تشيخ. طالما فكرت أن هذا القصر لن يبقى بعدها. منذ زمن وهو يتداعى: السيدة لا تنتبه لكنها، هي دلزي التي حملت السيدة طفلة وشمّت رائحة مريبة في ثيابها، تعرف. هذه الحيطان الواقفة ليست ذاتها حيطان الزمن القديم. كان السيد الكبير عندما يقف بين الأعمدة الرخام ويطلّ على الحقول أشبه بملك منه بسيد مزرعة.

مع أنه لم يبنِ هذا القصر. وكانت السيدة الكبيرة، قبل أن يهدّها الروماتيزم اللعين، إذا مرت هنا خارجة للنزهة على الطريق، تمرّ مثل ملكة، وحتى الطيور في الأغصان تكفّ عن التقافز احتراماً لسلطتها. لكنه الوقت والوقت يمرّ. دلزي تعرف: هؤلاء الذين يقعدون إلى المائدة ويرفعون كؤوس النبيذ ليسوا الأوائل. قبلهم رأت غيرهم، على هذه المقاعد ذاتها، ولعلهم شربوا من هذه الكؤوس! تتذكر السيد نستور - كانوا يسمونه «لورد نستور»* وكان يعرف لغات كثيرة بينها اليونانية واللاتينية - بشعره الأبيض كالثلج ومعاطفه الطويلة الجوخ، وكيف يتشرب وجهه بالحمرة في نهاية الوليمة، لكنه يظلّ مع

---

* Lord Nestor

ذلك ثابت الجنان، لا تزوغ نظرته، ولا يفرقع كالرعاع بالضحك. كان يأمر بصوت خفيض فتتحرك كواكب السماء تبعاً لإشارته. كيف مرّ الزمن على هذا القصر؟ وكيف لا تتصدع الأعمدة وهذا «السيد» الذي لا تعلم من أين أتى ينام في فراش سيدتها كل ليلة؟ تراه قاعداً في البذلة البيضاء، والآن يرفع وجهه وينظر - هو أيضاً - إلى العربة الغريبة التي توقفت عند السياج وظلت واقفة.

الصبي أتى راكضاً مرة أخرى من جهة الإسطبل (هناك مملكته، ورثها عن أبيه، ودلزي ترعاه من أجل ذلك الرجل: مع أنه كان عنيفاً وفيه شرّ وامرأته ماتت باكراً وصغيرة بسبب شرّه. حتى معها - هي دلزي - كان عنيفاً. ومع ذلك أحبّته. أحبّت القوة فيه. وأحبّت لسانه. كان يعرف أن يحكي. وعندما يرسله الجنرال إلى ممفيس أو باتون الحمراء أو حتى نيو أورلينز القريبة يرجع محمّلاً بأطنان من الأخبار العجيبة... العالم واسع وهي عاشت الحياة كلها بين هذا السياج وهذه الحقول).

كان الصبي يحمل صواني فارغة ودلزي كلّمته بنظرة من دون أن تفتح فمها وهو استدار ونظر إلى العربة الواقفة عند السياج. بينما يذهب باتجاه العربة نادته دلزي: «هات هذه». أخذت منه الصواني فذهب واسع الخطى فارغ اليدين وهو يكاد يقف على رؤوس أصابعه كي يبدو أطول. رأى الحوذي العجوز ينظر إليه لكنه لم يهتم وسدّد نظرته إلى المرأة القاعدة في الخلف على المقعد الجلد الأحمر. لون الجلد تسرب إلى رقبته. كان جمالها لا يُصدّق! ولكن أصعب من ذلك: من جسمها خرجت موجة سوداء قاتلة. أين كانت تنظر؟ التفت الصبي وطارد نظرتها حتى بلغ رأس السهم سيده. جنب السيد كانت السيدة أليزابيث، في ثوبها الأزرق، تتكلم غير منتبهة. لكن الصبي انتبه: كان السيد مفتوح الفم، ينظر.

- 41 -
الوجه

نظرت إليه في البذلة البيضاء. مع أنها لم تَرَه أبداً في مثل هذه الثياب عرفته من النظرة الأولى. كيف لا تعرفه؟ إذا أغمضت عينيها لا ترى إلا وجهه. هذا خليل، زوجها، كيف لا تعرفه؟ عندما رفع رأسه، عندما نظر إليها وهي تراه بعد هذه السنوات الطويلة (تراه أخيراً، أخيراً تراه) هل تعرَّف عليها - هو أيضاً - من النظرة الأولى؟ هل عرفها وهي هناك، على المقعد الخشب المغطى بالجلد الأحمر، والعربة تهتز قليلاً، بينما الأحصنة تهمهم وتتحرك قليلاً إلى خلف ثم إلى أمام مرة أخرى؟

أستطيع أن أراه حليق الذقن مفتوح الفم ويده على الكأس على المائدة. لن يرفع هذه الكأس إلى فمه. ينظر ولا يفهم. كيف وصلت زوجته - مرتا - إلى هنا؟ بينهما محيط وبحر وأراضٍ شاسعة. كيف وصلت إلى هذه النقطة؟ هل هي حقيقية؟ هل يتخيل أنه يراها؟ أتكون امرأة أخرى تُحدّق إليه هكذا من تلك العربة؟ لكنها مرتا! كان الحوذي يرفع سوطه عندئذٍ وسمع السوط يقطع الهواء ثم تحركت العربة.

كانت هي. رأته وعرفته. وهو أيضاً - خليل (جو) حدّاد - رآها وعرفها. لم يقف من مقعده. وهي لم تترجل من العربة. بعد ذلك فرقع السوط في الهواء والأحصنة تحركت والعربة دارت نصف دورة

وذهبت عائدة باتجاه نيوأورلينز. الضيوف ماذا لاحظوا؟ السيدات في الأثواب الزرقاء والصفراء والبيضاء، بالبرانيط القطن والحرير على الرؤوس، بالدانتيلا الناعمة والكشاكش الواسعة خياطة اليد، بالربطات على الشعر، بالجوارب القطن الطويلة والسكربينات التي تشبه التحف، السيدات السعيدات بهذه الشمس وبهذه الصحبة وبهذه المائدة العامرة وبهذا النبيذ المعتّق في الكهف (وبعد قليل تأتي الحلوى: تيريزا مشهورة بفطائرها)، السيدات ماذا لاحظن؟ والرجال، في بذلاتهم المكوية وياقات القمصان المنشاة وسوالفهم الطويلة الممشطة، ماذا لاحظوا؟ تغيَّر وجه الرجل الذي يُعرف باسم جو، كأنه طرح وجهاً على الأرض والآن يلبس وجهاً آخر! ماذا حدث؟

كانت العربة تبتعد على طريق كلاريندون. لم يرتفع من وراء العجلات غبار أحمر. الطريق ما زالت رطبة. ربما بعد أيام، إذا ظلت هذه الشمس الصفراء ساطعة، يتصاعد هنا غبار أحمر.

أستطيع أن أرى الطريق، حمراء ورطبة وتمتد كنهر بين حقول مخضرة. مرتا ماذا رأت وهي عائدة إلى نيوأورلينز، وهي تدخل محطة السكك الحديد مرة أخرى، وهي تحاول أن تفتح فمها، أن تحرك عضلة لسانها في دوامة الزجاج والحديد، وأن تنطق أمام شباك التذاكر كلمات مفهومة... مرتا ماذا رأت وهي تركب القطار مرة أخرى؟ (وقبل ذلك وهي قاعدة بانتظار القطار، كم بقيت قاعدة في ذلك المكان، تنظر إلى ناس يذهبون ويأتون، ناس بوجوه وناس بلا وجوه، ناس يضحكون وناس لا يضحكون، ماذا رأت وهي قاعدة ساعات وساعات وساعات في محطة نيوأورلينز للسكك الحديد في نهاية رحلتها الطويلة التي بدأت قبل دهر في محطة بحمدون؟)

ماذا رأت عندما اقترب منها رجلٌ تلو آخر كي يساعدها على حمل الكيس (هل بدا الكيس ثقيلاً لهم؟ هل كانت تتعثر في خطوتها؟) وهي تشيح بوجهها، تطلب أن تُترك وحدها، تطلب ألا تلمسها يد إنسان.. ماذا رأت بينما البيوت تعبر متباعدة خارج النافذة والأشجار تعبر والحياة القاتلة تعبر والسماء تعبر والشمس الصفراء هي ذاتها تحرق الحقول... هل رأت شمس الصباح الصفراء تتحول بيضاء عند الظهيرة ثم برتقالية ساعة الغروب؟ لم ترَ إلا الأشعة التي تقع على الأرض، بلا لون، لعلها أشعة سوداء، من يرى الأشعة؟ لم تكن ترى شيئاً. كانت ترتعد في كنزتها الصوف ولو استطاعت كانت تصيح. أرادت أن تصيح. لو كانت وحدها في مكان بعيد! لكنها هنا، في قطار كثير الركاب والضجيج. كان جسمها يرتعد في كنزتها الصوف. مع أن الشمس حارة على النافذة، وإذا رفعت يدها - لكنها لن ترفع يدها - ولمست الزجاج تدخل إلى أصابعها ذرات السخونة. أي سخونة تدخل إلى مرتا الآن؟ كان المكان مملوءاً بضوء الشمس. سحبت الستارة فسادت عتمة خفيفة. ثم مضى الوقت وحلّ الليل وأضيئت المصابيح. رجل في ثياب صفراء اللون وقف ينظر إليها ثم ابتعد. أراد أن يقترب لكنه بعد ذلك غيّر رأيه وابتعد. هل كانت تراهم وهم يتوقفون ويفكرون في الاقتراب ثم يذهبون بخطى مترددة؟ كيف تراهم؟ إذا أغمضت عينيها لا ترى إلا ذلك الوجه، وجهه، فوق البذلة البيضاء، تحت تلك الشجرة، وجنبه المرأة بالفستان الأزرق. حتى المرأة لا ترى وجهها، لا تهمها الآن، لا تفكر فيها. لكن خليل! وجه خليل! زوجها خليل! رفع وجهه ونظر إليها ولم يتحرك!

يد - لم ترَ صاحب اليد - امتدت وجذبت الستارة. في الخارج ظهر الظلام يترامى إلى ما لا نهاية. رأت وجهاً منعكساً في الزجاج. كان أصفر، محطماً.

- 42 -

بعد سنوات طويلة، محاطة بالأحبة في حديقة البيت في باسادينا، كانت الذاكرة العجوز لمارثا حداد خالية - أو شبه خالية - من تفاصيل تلك الرحلة الحزينة إلى نيوأورلينز. لكن هذا محجوب في المستقبل البعيد. أما الآن - بينما القطار يتوغل في الظلام - فإن المرأة (التي يتراخى كيس الجنفيص عند قدميها مثل كلبة ميتة أو مريضة) هي أتعس المخلوقات قاطبة: إنها تقطع أسوأ ساعة في حياتها من دون أن يُعدّها أحدٌ لقسوة هذه الساعة اللانهائية. (من يُعد مَنْ؟). ومن دون أن يكون لها سندٌ في العالم... حتى لو في الخيال. كانت وحدها، في أرض غريبة في عالم غريب، مقطوعة من شجرة، بلا أهل، ومنذ هذه الساعة: بلا زوج. سقط الرجل خارج حدود عالمها. تحطم وجهه كلوح زجاج بينما يقعد هناك في بذلته الناصعة البياض وينظر إليها ولا يتحرك.

نزلت من القطار في محطة فيلادلفيا - بنسلفانيا ومضت في خط مستقيم إلى شباك التذاكر. الرجل سألها إلى أين تريد الذهاب؟ أرادت أن تتكلم، أن تقول ماذا؟ نيويورك؟ أوشكت أن تقول «بتاتر»!

لم تقل شيئاً. اعتذرت واستدارت وخرجت من مبنى المحطة إلى الشارع. قبالتها تماماً رأت صفاً من المتاجر وعجوزاً يفرش الأرض ويدخن سيجارة. مشت بلا وجهة تحت سماء بيضاء حتى بلغت عربة «هوت دوغز». كانت بلا قوة. ومع ذلك وجدت السنتات

في ثيابها ودفعت ثمن السندويشة. جلست على حافة الرصيف وأكلت ما دفعت ثمنه. مرت امرأة وسألتها لماذا تبكي على الطريق هكذا؟ كلّمتها من دون أن تتوقف، ومن دون أن تلتفت - وهي تتابع سيرها - أمرتها أن تذهب إلى بيتها.

مرتا نهضت ومشت في الاتجاه المعاكس. انطلق بوقٌ فظيع في رأسها ومالت في اللحظة الأخيرة وقفزت بعيداً من طريق عربة هائجة الأحصنة. رأت سيارة فورد بلا سقف، بيضاء المقاعد، ورأت رجلاً يشير إليها من وراء المقود. ابتعدت وهي تحضن كيسها وقطعت أكثر من تقاطع طرق، باحثة من دون انتباه عن مكان بلا ضجة. عندما لاح لها البرج الحجري العالي لإحدى الكنائس أسرعت صوبه. كانت البوابة الكبرى مقفلة. وجدت باباً آخر صغيراً في الخلف ودخلت. هنا ماتت الضجة. جلست على مقعد خشب يفوح برائحة الصمغ والعرق والبخور. فتحت كيس الجنفيص وتلمست قعره. كانت تبحث عن مسبحة أمها وعبثت أصابعها بكيس «الزهورات» فضاع منها آخر أثر من قوة. لم تستخرج المسبحة. تركت الكيس على الأرض. استلقت على جنبها، على المقعد الطويل البارد، وتركت النوم يأخذها إلى مملكة الربّ غير المرئية. كان ذلك في 7 نيسان (أبريل) 1914.

الجزء الثاني

- 43 -
رسالة وجواب

مرّت أربع سنوات حدثت فيها أشياء كثيرة. وطوال هذه الفترة لم ترَ مرتا زوجها مرة أخرى. مع أنه حاول أن يراها في أكثر من مناسبة وأرسل وسطاء. أحد هؤلاء كان شريكها من نيويورك جوزف أسطفان: أتى يزورها أثناء خريف 1917 فوجدها حيث قصدها: كانت تبيع منذ فترة حرائر وألبسة ومطرّزات في متجر يملكه الأرمني السوري غريغور سكياس وسط «ماين ستريت» في فيلادلفيا. أشرق وجهها حين رأته يدخل. أوكلت أمر المتجر إلى الفتاة التي تساعدها واصطحبته إلى مطعم مجاور. كانت حرّة الحركة، متأنقة بلا تكلّف، أميركية المظهر الآن، وصعب على واحد لم يعرفها في فترة نيويورك أن يتخيل أنها طارئة على أميركا. لم تعد تلبس كنزة طويلة صوفاً. ولا تنتعل مداساً مصنوعاً من السختيان (جلد الماعز المدبوغ). تخلّت عن التنورة السورية الطويلة إلى الأرض. ونزعت المنديل التفتا الذي يستر شعر الرأس. كل ملابسها توحي أنها ترعرعت هنا. حلق الأذنين وساعة المعصم. البلوزة الخفيفة والبرنيطة الناعمة. التنورة القطن الفاتحة اللون والزنار الجلد العريض يحزم الخصر ويُظهر قوامها. الجوارب اللطيفة والسكربينة البيضاء.

بينما تدفع باب المطعم الزجاج وتدخل جذلة الخطوة، أحسّ جوزف أسطفان بالعيون الكثيرة مسلطة عليهما، فاحمرّ وجهه. حتى

في الشارع كانت الرقاب تستدير ويرى النظرات تطاردها. شعر بالخوف عليها وتذكر أحاديث دارت بينهما.

سمّيته «شريكها من نيويورك» لأنه بدءاً من خريف 1915 صار يُرسل إليها بالقطار بضاعة تتولى بيعها بالمفرّق إلى كشاشين وكشاشات يقصدونها في متجر الأرمني سكياس. التاجر الستيني - الذي يراها هدية من السماء - لم يمانع. ثم أن حصة من الأرباح تصل إليه بطريقة غير مباشرة: تدفع له مبلغاً بمثابة إيجار مقابل استخدام المستودع التابع لمتجره.

سألت جوزف عن العائلة فتكلم عن الصغيرة وكيف أنها تولعت أخيراً بقطف الزهور من الحقول والحدائق... أينما ذهبت مع أمها أو أخواتها تفلت كالخروف وتركض إلى حيث الأعشاب. ضحك فسمعت في ضحكته توتراً وقبل أن يتكلم عرفت أنه سيخبرها شيئاً جديداً عن مارون. كانت النادلة واقفة تنتظر وقالت مرتا «سأطلب أنا لك» وطلبت. النادلة التي تعرف مرتا ذهبت إلى المطبخ وجوزف قال: «تطوّع للخدمة العسكرية*. عندي ابن مجنون».

- سيأخذونه إلى أوروبا؟

بدت مرتا خائفة خوف الأم. وهو فتح يديه على الطاولة وقال لا أعرف، لكن لا أظن، سيلتحق أولاً بمخيم تدريب، لكن...

سكت ولم يكمل جملته.. كانا يتكلمان بالإنكليزية والعربية معاً حتى تلك اللحظة. ومنذئذ وحتى نهاية الزيارة انتقلا عفوياً إلى العربية.

سألته هل تستطيع هي المساعدة؟ كانت تتذكر السنة الماضية،

* أعلنت أميركا الحرب على ألمانيا في 6 نيسان (أبريل) 1917.

عندما جاء مارون يزورها مع أحد أصدقائه. لم يأتِ فارغ اليدين: حمل معه صندوقاً مملوءاً بالقماش وعلبة حلوى: بقلاوة عربية «أصابع» معمولة في الحي السوري - نيويورك.

جوزف أسطفان قال إنه لا يعرف ماذا يلعب في رأس هذا الولد، لا يعرف ماذا يفكر، لا يعرف حتى هل يفكر... «أخوت».

الكلمة «أخوت» خرجت كالتنهيدة. لم تكن شتيمة. سمعت مرتا اليأس اللانهائي.

- أمه تبكي لكن هَل يهتم؟ أخته تبكي، هل يهتم؟ لا يهتم لأحد. اسأليه لماذا يريد أن يذهب إلى الحرب واسمعي جوابه.

- ماذا يقول؟

- من يعرف ماذا يقول؟ قلتُ لكِ، لا أعرف.

سألته متى تبدأ خدمته، متى يلتحق بالمعسكر، وأين هو الآن، في البيت؟

جوزف أسطفان قال إنه ما زال ينام في البيت وعلى الأرجح سيبقى كذلك حتى نهاية الشهر ثم...

مرتا قالت أستطيع أن أذهب إلى نيويورك، لن نخسر شيئاً، عندما أتى إلى هنا وتكلمنا أصغى إليّ.

- لن ينفع. سجّل اسمه وعمل أوراقه. الأمر انتهى.

جاءت النادلة ووضعت الطبقين. رائحة اللحم المقلي والبطاطا المقلية ملأت الجو. جوزف أسطفان نظر إلى الصحن، إلى طعامه، وتنهد. بعد ذلك تكلم عن ناس من يوتاه التقاهم في القطار.

مرتا قالت إنها تحبّ هذا المطعم ودلّته بإصبعها إلى الفونوغراف بالبوق البنيّ في الزاوية.

ماذا، سألها.

دلّته إلى الغطاء «التريكو» على الفونوغراف وقالت «هذا من شغلنا». هو ابتسم وهي راقبته يأكل بلا نفس، لئلا تحزن. لاحظت التجاعيد عند طرف عينه. رأسه أيضاً خطّه الشيب في زمن قصير.

رافقته إلى محطة السكك. في دوّامة الحديد والزجاج، وقبل أن يصعد إلى القطار، أعلمها أن جو (خليل) عاد إلى نيويورك وأنه يسأل عنها ويريد أن يراها.

نظرت إلى الأرض وقتاً يختصر سنوات، ثم رفعت وجهها. خرج صوتها حازماً: «قلْ له: مرتا لا تريد أن تراك».

- 44 -

ما جرى

كيف تغيّرت مرتا حداد في أربع سنوات، وهل تغيرت؟ هل نستطيع أن نشير بالإصبع إلى محطات (حوادث) في حياتنا غيّرت من نكون أو عدّلت في شخصيتنا أو نقلتنا من مرحلة إلى أخرى؟ عندما نجلس في نهاية حقبة ونحاول أن نتذكر ونتأمل ونحلّل هل نصل إلى خلاصات حقيقية أم «نتوهم» أننا وصلنا إلى خلاصات؟ هل نعرف حياتنا؟ المعرفة ممكنة؟ الحياة تمرّ بسرعة والفهم يأتي على مهل. قبل ذلك، قبل التأمّل، علينا أن نحكي بعض ما جرى.

في البداية اشتغلت مرتا - كسوريات كثيرات قبلها - «كشّاشة». لم تحمل صندوقاً ثقيلاً على ظهرها، حملت «الجزدان»*: هذه حقيبة كالسلة تُملأ حريراً ومقصات وأمشاطاً وكل ما يُباع لربات البيوت. فيها أيضاً جيوب - بدل الجوارير في «الكشة» - تتسع للأزرار والدبابيس (Pins) ومشكات الشعر (Hair Pins) والدبوس بكلة (Safety Pins) ودبوس الصدر أو البروشات (Brochette) ومغلفات الإبر. (في قصص Grimm's الخرافية التي جمعها الأخوان غريم من أرياف ألمانيا في القرن التاسع عشر يتكرر ظهور البائعة العجوز التي

* التسمية الشائعة له: «جزدان الحرير». أورد ميخائيل أسعد رستم «زجلية» عن محتويات «الجزدان» في ديوانه «الغريب في الغرب» (طُبع سنة 1895 في المطبعة الشرقية - نيويورك).

تحمل سلّة مشابهة؛ مرات تكون هذه البائعة «ساحرة» أيضاً. مرتا حداد لم تحمل في سلّتها تفاحة حمراء تقضمها بياض الثلج فتقع نائمة، ولا مشطاً مدبب الأسنان تزرعه الحسناء في رأسها فتسقط أرضاً. إذا أردنا أن نرى شبيهة لمرتا في القصص الخيالية أسهل أن نتذكر «ذات الرداء الأحمر» Red Riding Hood التي يسميها الفرنسيون Chaperon Rouge فهي أيضاً حملت سلة بينما تقطع الغابة، والذئب يرصدها من وراء الأشجار).

لكن مرتا ليست «ذات الرداء الأحمر». حين وقفت غريبة وبائسة في ذلك المساء البعيد خارج كنيسة عالية الأبراج في فيلادلفيا لا تعرف أين ستقضي الليل، هل كانت ضائعة في غابة؟ أضواء المدينة التي تشتعل مع اقتراب المساء لم تذهب بوحشتها. بل العكس: زادتها تغرّباً. مشت باتجاه محطة السكك الحديد فلم تصل إليها. كانت الطرقات تلتف فجأة في زوايا مخادعة. وخيّل إليها أن المحطة اختفت من المدينة!

المسافة من ذلك المساء البعيد إلى ظهيرة جلوسها في مطعم مع جوزف أسطفان (يأكلان Steaks & Fries ويحكي لها عن ابنه مارون «الأخوت») كيف تُقاس؟ ماذا تعني هذه الكلمة «سنوات»؟ فتحت جزدانها - هذا ليس «جزدان الحرير» الذي حملته قبل ثلاث سنوات أو أربع - وأخرجت مالاً. جوزف أسطفان «الشرقي» (مع أنه وراء الأطلسي منذ زمن بعيد) مدّ يداً يغطيها الشعر وقبض بأصابع قاسية على أصابعها: لن يقبل أن تدفع الحساب حتى لو كانت هي من دعته إلى المطعم. مرتا نظرت إليه وهي تسحب يدها صوب جسمها. جوزف أسطفان استحى فجأة: عيناها الواسعتان نمّتا عن حزن عميق. صارع نفسه وردّ «المصاري» إلى جيبه وقال «طيب». تركها تدفع الحساب.

النادلة ابتسمت لمرتا وهي تأخذ الحساب. كلما دخلت إلى هنا تُسرع كي تخدمها. النادلة لا تعرف كيف كانت مرتا قبل سنوات. نحن ماذا نعرف؟ أرى مرتا، في جيبها سنتات ودولارات تكفيها للوصول بالقطار إلى نيويورك إذا وجدت قطاراً يسافر الآن من فيلادلفيا... إذا لم تجد قطاراً قد تكفيها قروشها لقضاء ليلة في نزل وضيع ويبقى معها ثمن تذكرة تقطعها صباحاً. لكن بعد ذلك، ماذا؟ وفي نيويورك، ماذا تفعل؟ وعندما يسألونها عن نيوأورلينز ماذا تقول؟ لكن من يسألها؟ شعرت أنها ليست هي (هذا أثر الغفوة على مقعد الكنيسة الصقيل البارد؟). شعرت أن الهواء الذي يداعب وجهها لا يشبه الهواء. نظرت إلى مصابيح تضاء في نوافذ بيوت تعلو متاجر واحتارت أين هي واقفة: «أين أنا؟» لعلها سألت نفسها أيضاً بينما المساء ينتشر في دروب المدينة الغريبة: «من أكون؟».

لكنها على الأرجح لم تسأل نفسها شيئاً. ابنة بتاتر التي لم تتجاوز 19 ربيعاً وقفت ضائعة على تقاطع طرق في قلب فيلادلفيا المزدحمة بمليون ونصف مليون نسمة. هدرت القطارات في مكان ما وكان عليها أن تتبع الصوت والصدى إذا أرادت الوصول إلى المحطة. لكنها لم تفعل ذلك. لم تكن واثقة ماذا تريد. هل كانت تريد شيئاً؟ لعلها تمنت أن تتبخر في الهواء. كانت تنظر إلى فتيات يأكلن الآيس كريم على الرصيف المقابل وينظرن إليها. كنّ جميلات الثياب، وعندما سمعت ضحكاتهن استدارت ومضت مبتعدة.

اعترض طريقها شابان خرجا من ظلال زقاق وصلت الظلمة إليه قبل أن تصل إلى الشارع. سألها أحدهما ماذا تحب؟ لم تفهم ماذا يعني. رأت في الوجهين شرّاً وخافت. في البداية لم تنتبه ثم انتبهت. تراجعت واستدارت لكنها لم تركض. عندما شدّ أحدهما

الكيس من يدها صرخت. بلا انتباه صرخت. في اللحظة ذاتها رأت شرطياً على حصان يلتفت ويصيح ويتحرك. عندما اقترب رأت أنه يضحك. وراء ظهرها سمعت ضحكاً أيضاً. الشابان بادلا الشرطي كلاماً ثم ابتعدا. ظلت تسمع ضحكاتهما حتى غابا عنها. الشرطي سألها هل تبحث عن مكان للنوم ثم دلّها إلى نزل مجاور. شكرته ومشت. في ذلك النزل التقت «كشّاشة» سورية.

- 45 -
ما جرى (2)

وديعة صليبي من راشيا فتحت على الفرشة صرّة الزوّادة وأطعمت مرتا حداد معها خبزاً وجبناً وبصلاً. أخبرتها أن معظم السوريين الذين يعبرون فيلادلفيا ينزلون هنا لكنها مع هذا لا تلتقي بهم إلا قليلاً. مرتا حداد أصغت إليها وهي تتأمل أصابعها المملوءة ندبات تكسر خبزاً وتجمع فتات الجبن الأبيض. بينما «الكشاشة» تحكي خفتت ضجة المدينة. خارج النافذة المستطيلة انتشرت الأضواء، حمراء وصفراء وبرتقالية. بعد وقت أخذت تتناقص - نوافذ تغمرها العتمة - وفي هذه الأثناء تضاءلت أصوات النزل (أبواب تُفتح وتُوصد، دعسات على الأدراج وفي الممر، طرطقة أباريق وأكواب، صراخ متقطع بمزيج من اللغات) حتى تلاشت. مصابيح النزل أيضاً انطفأت، ومع هذا تابعت الكشاشة ابنة راشيا الكلام. كانت مشتاقة للحكي ووجدت مرتا صاغية.

- كسرت هيدا* الإصبع وأنا أركب القارب من شط بيروت. النوتية بلا مخ، خبطوا المركب على الصخرة وأنا وقعت. قبل ما أدعس على الباخرة راح إصبعي. رفعوني بالحبل من الشختورة إلى البابور. طوال الطريق على البحر، من بيروت إلى مرسيليا، كنت

---

* هذا.

أحمل هذه اليد على هذه اليد وأبكي. ثم جاء واحد يعرف بالطّب العربي، حوراني، وردّ إصبعي إلى مكانه. أنا سألته لماذا لم يأتِ قبل ذلك وهو من أول الرحلة يراني أسير على ظهر الباخرة وأصيح. ضحك وعمل حركات بيديه في الهواء. كانت الأوشام الزرقاء على رسغه تشبه الحيّات. قال إن الطّب فن الصبر. أنا يا مرتا يا أختي أحببت هذه الجملة وسامحته: الطب فن الصبر.

الآن أقول سامحته لكن في ذلك الوقت كنت أقدر (لولا أنه شفاني) أن أضربه كفاً على أسنانه. زوجي أعطاه ربع ليرة «عثملي». وأخي أعطاه نصف بطحة عرق. بقي معنا في البابور الكبير عندما قطعنا المحيط وكان يخبرنا قصصاً عجيبة. الآن لا أعرف أين أرضه، كان يقول عنده أولاد عم بأيوا وإنديانا، «سايواكس سيتي» يلفظها، ويقصد سيوكس Sioux، في ولاية أيوا.

لأنني جئت إلى أميركا صغيرة تعلمت اللغة بسرعة. أخي وزوجي ظلا وقتاً طويلاً لا يلفظان إلا كمشة كلمات بالإنكليزي، وحتى هذه يلفظانها خطأ. أخي أكبر مني بسبع سنوات، مرض ودبّرنا رجوعه إلى البلاد بصعوبة. رجع إلى بيت أهلي ومات هناك ودفنوه في راشيا. زوجي الله يرحمه كان يكبرني بـ 11 سنة. عشنا في ماساتشوستس ثلاث سنوات ثم مرض بمرض أميركاني لعين وراح وتركني وحدي، أنا وابني فارس. كنت ما زلت أرضعه من صدري والآن عمره 17 سنة ويشتغل مثلي على الطريق وأراه كل شهر مرة أو مرتين: تعلّم مني العربية لكنه أميركي مولود في بوسطن وعنده طباعهم وإذا رآه غريبٌ معي لا يصدق أنه ابني وخرج من بطني. يحكي الإنكليزية أحسن من لينكولن. ولا يخاف إلا ربّه. يبيع في نورث داكوتا ومونتانا أيام الصيف. وعندما يأتي الشتاء ينزل إلى

الجنوب، إلى تكساس وكنساس وأريزونا ونيومكسيكو. مرة علق في عاصفة ثلجية في جبال كولورادو وتجمد وجهه كله. عندما وصل إلى مزرعة وجلبوا له مياهاً ساخنة كي يغتسل عرف أنه نجا بمعجزة. غسل وجهه فوقع أنفه. قطعة متجمدة من الأنف، قطعة لحم كاملة انكسرت بين أصابعه كالخوخة. الآن حين أراه أفكر أن كلباً قضم أنفه. لكنه جميل الوجه يا مرتا. وكلّه نخوة. يريدني أن أقعد وأرتاح، يقول هذا أحسن لي، أن أقعد وأرتاح وأدعه يرعاني، لكنني لا أستطيع، أحبّ أن أعتني بنفسي ولا أحب أن أكون عالة. حتى عليه لا أحب أن أكون عالة. مرة انزلقت على الجليد وكسرت وركي ولم أعد قادرة على الخروج بالكشة والجزدان. وجدت عملاً في منشرة أخشاب، أقعد على الكرسي ويجلبون إليّ الألواح وأنا أصقلها بالفأرة. لهذا ترين أصابعي هكذا كلها. أعرف، الكلّ يستغرب منظرها. بقيت في المنشرة سنة كاملة، وعندما رجعت إلى الطريق كانت أصابعي ترجف طوال الوقت. الآن أكره غسيل الثياب ومرات أدفع لإحدى البنات «دايم»* فتغسل ثيابي. مرة في بورتلاند - ماين هاجمني جاموس. هربت منه وقفزت ووقعت على يدي والإصبع المكسور تحرك من مكانه. أغراضي كلها وقعت على الأرض والجاموس جاء ينفخ وداسها ومزّقها وأراد أن يدوسني. لكنني تدحرجت على الشوك والتراب وهو تركني. الآن إذا اشتقت أن آكل «مجدرة» أزور إحدى النساء من البلد وأطلب منها أن تطبخ لي. أستطيع أن أطبخ بنفسي، لست مشلولة، وأصابعي ترجف إذا تعبت، لكنني أقدر أن أحمل السكين وأقشّر بصلاً وأفرمه رفيعاً للتبولة. لكن المجدرة بلا طعم إذا

* عشرة سنتات .Dime

أكلتها وحدي، وفارس إذا جاء لا يطلبها. يحبّ اللحم، ويحبّه كأهل هذه البلاد مقلياً أو مشوياً، حتى لحم الحصان يأكله. وهو صغير كان يحبّ المحاشي، الآن لا يطلبها.

أنا أشتري من هنا، من «ماين ستريت»، من محل الأرمني معمر باشي، هذا سوري ويعرف بالسجاد أيضاً. أملأ الجزدان ما يكفي لخمسة أيام وأكثر ثم آخذ القطار غرباً، إلى القرى والمزارع. هذا خطي دائماً. وغيري عنده خطوط أخرى، والمُموّن معمر باشي يرسم لنا الخطوط لئلا تبيع إحدانا في منطقة الأخرى. ومعنا رجال أيضاً. لكن هؤلاء يذهبون أبعد. وبعضهم يقطع الميسيسبي إلى الولايات وراء النهر. أنا وصلت مرة إلى سانت لويس ونمت هناك ليلة. رأيت في السماء ألف نجمة. ومئات الجذوع العملاقة تطفو على صفحة النهر آتية من غابات مونتانا في الشمال.

ـ 46 ـ

ما جرى (3)

المرأة التي ينادونها Missus Salibi قامت في الليل إلى الحمام فتعثرت بمرتا وهي ذاهبة ثم تعثرت بها ثانية وهي راجعة. كانت تترنح كالسكرانة. بدت مسرورة. في ضوء المصابيح الغازية المتسرب من نافذة النزل انحنت على الشابة النائمة ورتبت الغطاء على كتفيها. مرتا فتحت عينيها فسمعت وديعة صليبي تقول:

ـ غداً لا تذهبي إلى نيويورك. إبقي هنا.

أخذتها معها في الصباح إلى متجر الأرمني جاكوب (يعقوب) معمرباشي في «ماين ستريت». كان المتجر يلاصق صالوناً للحلاقة فتذكرت مرتا مخزن السيد هرمان في نيويورك. سألها المستر معمر باشي، وهو رجل في أواخر الأربعين خافت الصوت حزين النظرة، لماذا تريد أن تعمل على الطريق وهي تستطيع أن تجد عملاً أفضل، هنا في متجره مثلاً؟ مرتا استحت عندما قال ذلك لأن المرأة التي جلبتها إلى هنا واقفة جنبها تسمع.

أعطاها ديناً الجزدان وبضاعة الجزدان واتفقا أن ترجع خلال أسبوع وتدفع ما تقدر عليه... وهكذا دواليك في نهاية كل أسبوع إذا أمكن.

من أحد الجوارير أخرج قائمة مطبوعة وناولها إياها. هل كانت تعلم وهي تمدُّ يدها وتأخذ القائمة أن هذه الورقة السميكة كالكرتون لن تبلى بين أصابعها؟ لن تبقى مرتا «كشّاشة» ولن تمتهن

«بيع الجزدان» زمناً طويلاً، على الأقل ليس في تلك الفترة. ما باعته توزع على بيوت، القماش يبلى بمرور الأعوام، لا ندري هل تحول أحد أغطية الطاولات قميصاً بعد ذلك... ثم ممسحة، أو فوطة لمسح الغبار، ثم تهلهل ونسلت منه الخيوط وتبعثر. القماش يبلى، لكن تلك القائمة المطبوعة بقيت محفوظة في البيت الكبير في باسادينا (كاليفورنيا):

يردة أطلس ديفال (غطاء طاولة كبير مذهب)	12 دولار
منتل أطلس ديفال (غطاء بيانو)	10 دولار
يردة أطلس سوزني	5 دولار
يردة شاش أنواتو	50 سنت
يردة شاش سوزني	30 سنت
يردة ملس سوزني	50 سنت
مخدة أطلس ديفال	35 سنت
غطاء فرشة غباني على حرير	10 سنت
جوكاتة قصب	90 سنت
صرامي إسلامبولية للنسوان	90 سنت
غطاء فرشة أطلس ديفال	50 سنت
مقص أسود كبير	20 سنت
سبكتكل (عوينات مذهبة)	25 دولار
برسلات (أساور)	دولار
نكلس (عقود)	90 سنت

على الطريق إلى محطة القطارات أخبرتها وديعة صليبي أنها تستطيع أن تبيع أي غرض بضعف ثمنه أو أكثر. أحد الرجال كان

يبصق تبغاً على الرصيف عندئذٍ فعبست وديعة لحظة وأسرعت في خطوها. عندما صار الرجل خلفها ضحكت وقالت إنها في أول شغلها كانت تستحي أن تبيع البضاعة بأكثر من سعر الجملة المطبوع على القائمة وتظن ذلك حراماً.

قبل قطع التذكرة دنت من مرتا عجوزٌ فخمة الثياب مقوّسة الظهر تتعكز على عبدة متينة البنيان تلفت الأنظار بثوبها الحرير الأخضر. سألتها ماذا تبيع، أرادت أن تشتري منها. وديعة صليبي شدّت مرتا من ذراعها وهي تتلفت بعينين زائغتين وتبحث عن شبح. عندما رأت أن المكان يخلو من الشرطة (البوليس)* تركت مرتا تبيع العجوز نصف البضاعة في جزدانها دفعة واحدة!

كانت بداية طيبة لنهارٍ منحوس. ركبتا القطار المتجه إلى «ألنتاون» فبلغتا المحطة ظهراً. حتئذٍ كانت الرحلة جيدة. افترقتا على أن تلتقيا ساعة المساء هنا، في المحطة. ابتعدت وديعة صليبي في الشارع الطويل واختفت. مرتا لم تعرف أين تذهب. جلست على الدرج، في مدخل المحطة. العابرون يتعثرون بها. نهضت وقطعت الطريق وجلست على حافة نافذة. نصف المتاجر في هذه الجهة كان مقفلاً أو مهجوراً، لا تعلم. في الجهة الأخرى أسرع رجال ونساء على رصيف عريض وهم ذاهبون إلى أشغال أو تسلية، لا تعلم. رفعت وجهها ونظرت إلى غربان تتراصف على سلك كهرباء. انتبهت أن الغربان أيضاً تنظر إليها. كانت حالكة السواد ولا تشبه الغربان التي تظهر في سورية. كانت جميلة. نزل غرابٌ وتقافز على الأرض. برق لونٌ كحليٌ في ريش جناحه. مرّت شاحنة قطار بعيداً. أولاد

* صدرت قوانين في بعض الولايات آنذاك تمنع البائعين الجوّالين من العمل داخل المدن والبلدات بلا رخصة. كان الحل بالنسبة إلى الكشاشين أن يبيعوا خارج حدود المدن والبلدات، أو من وراء ظهر الشرطة.

تراكضوا يدحرجون عجلات وكرات قش. بان كلب يقفز على ثلاث قوائم، عينه اليمنى مطفأة. جاءت إمرأة في ثوب أبيض تحمل مظلة بيضاء لإتقاء الشمس، وسألتها ماذا تبيع. نظرت إلى الأغراض بلا مبالاة وذهبت من دون أن تشتري شيئاً. رجل يفوح برائحة دبس السكر وقف قبالتها وقتاً يتأملها. أحسّت بالدم يغلي في أذنيها. أعطته ظهرها كأنها تنظر إلى السيور والمزهريات في نافذة المتجر المقفل. عندما لمحت ظلّه يبتعد على الحائط استدارت من جديد. الشمس تغرب، لا بد أن الساعات قد مضت. قطارات تصفر، تهدر على سكك حديد متقاطعة. عربات مثقلة بالفحم الحجري. عامل يحمل مجرفة وآخر يحمل رفشاً. وقفا يشربان بيرة أو حليباً ثم تراجعا إلى العتمة في مدخل المحطة. هبّ الهواء فطقطق خشب السقوف. رأت طيوراً كبيرة تشبه الدجاج تعبر السماء البرتقالية. سمعت صيحات طويلة كالأنين وشمّت رائحة أطعمة. أضيئت مصابيح البلدية ولم ترجع وديعة. مرتا قطعت الطريق ومشت جنب السكة الحديد، ذهاباً إياباً. قطارات تأتي، أخرى تذهب. أحياناً يمرّ زمن طويل ولا يعبر قطار. ناداها شرطي وتكلم معها. كان لطيفاً لكنها لم تفهم لماذا يتكلم معها. كان يلوك تبغاً ويبصق على الأرض فتذكرت ساعة الصباح، ووديعة جنبها تحكي عن أسعار القائمة. بعد ذلك ذهب الشرطي وظلّت وحدها. كان الليل كاملاً الآن. والهواء يبرد ويصير كالبخار والضباب تحت مصابيح المحطة.

وجدت عربة «هوت دوغز». الشاب الصغير بالشارب الخفيف فوق الشفة قال إنه يُقفل. طلبت منه سندويشة، ولو باردة. كانت جائعة. أعطاها سندويشة وهو يضحك ووجهه يتورد. سألها أين هي ذاهبة؟ كان يُشعل كبريتة ـ بدا أصغر من أن يُدخن سيجارة لكن هذه أميركا ـ ولمع الضوء في عينيه فشعرت بقلبها يسقط. لم ترجع وديعة صليبي.

- 47 -
رسالة من أميركا

إلى أخوتي أبناء قرنايل وعموم أهالي المتن

أسلم عليكم واحداً واحداً وأبوس وجوهكم وأتمنى أن يصلكم المكتوب وأنتم في صحة وعافية. وبعد فهذه الرسالة واجب عليّ ولو تأخرتْ ولكن المسافر معذور والمسافر إلى أميركا معذور مرتين فالسفر إلى إفريقيا مسألة ووصول المهاجر إلى الديار الأميركية مسألة ثانية. وإذا ظنّ واحد في كلامي مبالغة فليسكت لحظة حتى أختم الحديث. أما إذا كان عاجزاً عن السكوت فليس عليه حرج ولا مؤاخذة وليفتح فمه وليلفظ ما يريد. . . هذا لا يضايقني وإن فعل فأنا أتحمل. والذين عرفوني منكم قبل سفري لا بد يتذكرون خلقي الضيق وغضبي السريع وإذا بدوت الآن حليماً لين العريكة فهذا يدلّكم على ما يعرض للإنسان في هذه الأرض وما يتعلم.

طلبت من الخواجة فياض العون على تسطير هذا الكتاب وأنا أقعد الآن في السقيفة فوق غرفته وهو يسمّيها «المكتب» وأنا أسمّيها «التخت». على وجهه ضحكة ومع هذا يكتب ما أقول أو على الأقل هو يحلف أنه يفعل. وراء ظهره كوّة مربعة يستطيع أحدكم أن يدخل منها لكن الخروف المسمّن في نهاية الخريف قد يعلق وهو يدخل منها. الكوّة عليها شبك مخرم يمنع دخول البرغش والبق من مكب

الباتري* وهذا اسم الحيّ وهو على البحر ويقع أسفل مانهاتن المشهورة. وفي المنطقة ناس من زحلة وجبالنا وأنت تعرفهم ما أن تراهم بالسحنة والعيون وحركة أبدانهم. ولا تجد بين أهل هذه البلاد من يشبهنا إلا اليهود والطليان. اليهود أبناء عمنا أما الطليان فشغلهم أكل المعكرونة ونحاربهم بالسكاكين فإذا غلبوا يكون حظهم في السماء أو نكون خرجنا للعراك بعد طنجرة «مخلوطة» حمص وعظم وفول وهذه تذهب بالحيل والقوّة. وبعد فها إبنكم قد أضحككم وأتى وقت الجدّ.

يا أخوتي وأصحابي إعلموا أن طرقات أميركا غير مفروشة بالذهب. وكل من اعتقد بينكم أن المال هنا لا يتطلب مشقات ومتاعب كثيرة فهو جاهل وأبوه جاهل وابنه سيكون مثله. فكل من تعود على راحة جسمه وباله في البلد لا ننصح له أن يأتي إلى هنا لأن العاقبة وخيمة والندم لا ينفع. أعرف ناساً عضّوا أصابعهم حتى ازرقت وما نالهم من ذلك خير. وأعرف آخرين جمعوا الدولار على الدولار ولكن بمشقة تفلج الجمل. ولا أريد أن أثبط عزيمتكم ولكن أقول إذا كان لا بد لكم من المجيء إلى هنا فتعالوا وأنتم عارفون ما ينتظركم وأنا إبنكم وأخوكم أرحب بكم على الدوام.

والذي يأتي منكم بعد هذه التنبيهات يجد نفسه أولاً في الكرنتينا فإذا أفلتوه ولم يعثروا على مرض في صدره أو بطنه أو عينيه يركب القارب الصغير من الكرنتينا إلى المدينة ويكون عليه فور الوصول أن يخلع ملابسه وإلا أضحك عليه الناس. وبعد أن يلبس اللباس الأميركي يأخذ الكشّة ويتغبر على الطرقات ويبيع ما يقدر وله

* Battery.

السنت والنكل وله أن يحدق في وحول الطريق ولن يجد الذهب الذي حكوا عنه. لكن الصبر مفتاح الفرج أو هكذا يقول الواحد منا لصاحبه وهو سهران أمام النار في البرية يسمع زقزقة عصافير بطنه، والبرد يلسع رقبته ككف جدتي وأنا صغير عندما تكبسني أسطو على «الصبّير» في البستان. والطقس هنا يُدعى «وذر» كذا الشتاء «ونتر» والصيف «سمر». وأول ما نتعلمه من لغة البلاد «باي سمتن مام»* ومعناها «إشتري شيئاً يا سيدة» فنحن هنا نبيع للنسوان وأما الرجال ففي المناجم أو المتاجر أو المعامل أو محطات القطارات. ولن تجد واحداً منا ينزل مثلهم للعمل باستخراج الفحم أو الحديد والنحاس من تحت الأرض. والحقّ أنهم هم أيضاً لا يُقبلون على شغل المناجم إنما يتركون ذلك للأيرش والصينيين والروس والمجر و«البولش» والجرمان.

وحول هذه المناجم تنمو بلدات أكبر من مدن سورية ونحن نبيع قماشاً وملابس كثيرة وتعطينا شركة المنجم طعاماً من مطابخها مقابل حسم على السعر، ومرات ننام في مساكن العمال، لكن لا يظن أحدكم أن هذه مثل الكهوف التي نسمّيها مناجم في قرنايل وأرصون وصاليما فهذه المناجم أكبر من البلدات والمدن. وتمتد في بطن التراب مسافة أميال وتوجد فيها مصابيح غاز وسكك حديد للعربات مثل سكك القطار الموجودة فوق الأرض. وهنا صينيون كثر وكلهم صفر كاللقطين والشمام ويحترفون غسل الثياب عُرفوا بهذه الحرفة وهم أكثر من النمل، والأهالي والعمال عموماً يبغضونهم لأنهم يشتغلون بأبخس الأجور ويقنعون بأقل الكسب ولولا يد

---

* Buy Something, Mam.

الحكومة لثار الناس ضدهم وطردوهم من كل البلاد. وأنا الآن أشمّ رائحة مُخدرة تدخل من كوّة الخواجة فياض وهذا دخان الأفيون يَخرج من شبابيك الحيّ الصيني في الجوار.

وبعد فقد مات كثير من المهاجرين السوريين في هذه البلاد وبعضهم مكث مدة طويلة وحين أراد المفارقة وصعد إلى الباخرة مات. ويُظن أن السبب تأثير الطقس ومتاعب هذه الحياة فلحظة الحر شديد ولحظة الطقس جليد ولا تعلمون كيف تتجمد هنا البحيرات والشلالات والأنهار وحتى الشوارب تصير كالزجاج وتتكسر والشرف يضيع من غير انتباه. ولا أحد يعلم كم واحداً منا قضى هنا بالمرض أو بالقتل عمداً أو صدفة تحت القطار أو الجياد وما إلى ذلك من الدواهي التي لا يتخيلها النائم في ظل سنديانة عين تراز. والذين ضاعوا في المجاهل كثر، عدا الذين اقترنوا بسيدات أميركيات، وأقول هنا ـ وأقطع قطعاً ـ أنني لا أظن من المناسب لنا الزواج بأجنبيات، أولاً لتباين العوائد، ثانياً لأنه يصعب على السوري أن يكون تحت أمر زوجته، وثالثاً «زوان بلدك ولا قمح الغريب». ومع أن الذين تزوجوا بأميركيات يظهر أنهم عائشون مع زوجاتهم بوفاقٍ، ومع أن عدد الذين طلقتهم نساؤهم قليل، فالذي مثلي ينتظر بفارغ الصبر ساعة رجوعه إلى الجبل الحبيب كي يذهب ويطلب يد بنت الحلال.

وددت أن أنهي هذا الكتاب بأخبارٍ طيبة خصوصاً للأقارب الأحبة آل هلال وآل معضاد لكن لا شيء من ذلك يخطر على بالي الآن وفي المقابل أفكر في حوادث مكدرة رأيتها فذات يوم قبل جمعتين فقط مرت عجلة الترام في الشارع الرابع في هذه المدينة على ولد عمره خمس سنوات فقطعت يديه فأغمي على والدته المسكينة

وحمل والده المسكين يدي ولده بيديه وأخذ يرقص بها كمن أصابه جنون بمحضر ألوف من الناس حتى أبكاهم جميعاً وأنا بينهم. ثم عمد إلى تسلق العربة لينتقم من المدير فصده رجال البوليس ثم دفعت له الشركة خمسة آلاف ريال تعويضاً. وهنا ترى كثراً من مقطوعي الأرجل بسبب القطارات والكارات (Cars) والله الواقي. ودمتم.

ـ 48 ـ

الليل في المحطة

يصيبك الرشح وأنت تنظر إلى مرتا قاعدة في الليل قبالة سكة الحديد. الصيف بدأ في الجنوب لكن الشتاء يجرجر أذياله هنا. مياه مصقعة تملأ تجاويف دماغك بينما مرتا تلف ذراعيها على جسمها. أظنها تزن 49 أو 50 كيلوغراماً. تشكو من فقر الدم على الأرجح. المحطة أقفرت أو تكاد. ثمة غرفة تشبه صندوقاً خشباً مكعباً وأمام الغرفة إشارة حمراء: هذا عمود المحطة. من مدخنة أعلى الصندوق يتصاعد دخان. نوافذ البيوت ـ على طول الشارع الذي يقسم البلدة نصفين ـ مضاءة. لا أعرف إسم هذه المحطة ولا إسم البلدة التي نبتت كبلدات أخرى كثيرة على حافة السكة الحديد. السكة كالنهر تجلب ناساً وحياة إلى أماكن قصية. بين فيلادلفيا وألنتاون، في نقطة ما وسط حقول الذرة المملوءة بالخرير ونقيق الضفادع، تقعد ابنة بتاتر على حجر وتنتظر ابنة راشيا التي جلبتها إلى هذا المكان كي تبيع مثلها ـ من جزدان ـ قماشاً.

لماذا لم ترجع المرأة كما وعدت؟ لعل الشمس غربت عليها وهي في بلدة مجاورة. . . هناك، وراء ظلمة السهل والحقول، تبين بلدة مضببة بأضواء منتشرة كقوس، تعلو وتهبط. لماذا ترتفع الأضواء هكذا وتهبط؟ بسبب المسافة؟ بسبب الرطوبة؟ مرتا تشعر بالبرد. الهواء يبلّ شعرها. تصغي في الليل عندما تسمع دعسات: يخيل إليها

أن وديعة قد تظهر في أي لحظة من أعماق الظلمة. مرّت عربة تقرقع. ثم عربة أخرى. لعل وديعة تجيء في إحدى هذه العربات. نبحت كلاب في مكان غير بعيد وأجابها نباح من وراء السكة، من أعماق الحقول المتشحة بالغموض وما يشبه ضباباً أبيض. أضواء البلدة انطفأت واحداً بعد آخر. الناس يخلدون إلى النوم.

ليست أمها وليست أختها فلماذا تنتظرها؟ لكن ماذا تفعل؟ أقدر أن أراها ماشية ذهاباً إياباً جنب السكة. هل تشعر بعد وقت بالنعاس؟ تستطيع أن تقرع باباً ـ أي باب ـ وأن تسأل عن غرفة للنوم في الجوار؟ ربما تستقبلها عائلة مكونة من أب وأم وأربعة أطفال، عائلة ألمانية تسكن هنا، الأب عنده متجر في طرف البلدة، الأم ربة بيت تخبز خبزاً وحلوى وتغلي على النار حليباً وتعمل جبناً. الأولاد يتحلقون حولها، البنت الصغيرة شعرها أصفر بربطة فراشة حمراء، ناعسة شبه نائمة إلى المائدة. الرجل قال لها «أدخلي»*. قبل ذلك نظر إلى زوجته والزوجة الطيبة جلبت كرسياً كي تجلس مرتا إلى الطاولة. ناولوها خبزاً طازجاً وصحناً فيه شوربة. أحد الأولاد سألها من أين هي؟ قالت «من سورية». سألها: «هذه في الهند؟» قالت «لا، في تركيا». بعد الطعام سألتها المرأة هل تحبّ أميركا أم تنوي الرجوع إلى بلدها؟

الرجل كان يدخن سيجارة عندئذ ويطلّ من النافذة على طريق البلدة. الكلاب تتحرك حيث برميل النفايات. في السماء تتباعد الغيوم ويطلّ هلالٌ أصفر. إذا عبر القطار في نصف الليل تهتز النوافذ ومرات تستيقظ جميع حيوانات البلدة دفعة واحدة... أعطوا مرتا

---

* Come in.

بطانية. قالت «معي بطانية» وأخرجت الغطاء من قعر الجزدان. كيس الجنفيص تركته أمانة عند المستر معمرباشي في فيلادلفيا. لم تُبقِ معها إلا ورقة إليس أيلاند.

لكن هذا كلّه غير حقيقي ولم يحدث. لم تترك مرتا مكانها جنب السكة. اتفقت مع وديعة على اللقاء هنا وتخشى إذا فارقت الموقع أن تأتي المسكينة ولا تعثر عليها. قضت الليل جالسة على الحجر. وعندما ترى قطاراً يقترب من بعيد تنهض وتقف على تلة قريبة وتنظر إليه يعبر. بين قطارين مرّ رجل يحمل أغراضاً في يديه، متعجل الخطى، يبدو مهموماً. ألقت عليه تحية المساء فالتفت ورمقها بنظرة غامضة من طرف عينه. هزّ رأسه كأنه يصرفها عنه ولم يتوقف. تركها واقفة في الظلام ونادمة لأنها ألقت عليه التحية.

عجوز أحمر الوجه أطلّ رافعاً مصباحاً من نافذة بدرفة واحدة في العلبة الخشب وسألها ماذا تريد؟ قالت إنها تنتظر صديقتها. سألها هل هي بردانة؟ قالت أنا بخير. قالت شكراً لك. أشاح بيده كأنه يطرد حشرة غير مرئية ثم اختفى داخل العلبة مرة أخرى.

الإشارة الحمراء توجّ ونقيق الضفادع لا يتوقف. رأت حركة في الظلام وظنّت أنها وديعة. كانت إمرأة فعلاً لكنها مقوسة الظهر وتجرّ خلفها بحبل قصير بقرة بيضاء الوجه ضخمة الجثة: أكبر بقرة رأتها مرتا في حياتها. نظرت إلى مرتا وبدت قصيرة النظر غير قادرة أن تميزها. مرتا شعرت أن المرأة تنظر عبرها، كأن النظرة تخترق مادة العظم واللحم المجموعة في جوف الكنزة. لم تكن إلا نظرة واحدة ثم تابعت المرأة طريقها. البقرة لم تستدر برأسها: لعلها تتحرك وهي نائمة. لم ترَ مرتا عين البقرة. لعلها كانت مغمضة.

كانت تعبانة وذقنها يقع على صدرها وهي جالسة، عندما عبر

قطار الفجر السريع وهزّ المحطة. ضغط الهواء دفعها إلى خلف ففقدت توازنها ووقعت على جنبها. بعد ذلك قامت ومشت على طول الشارع حتى نهاية البلدة. سمعت أصواتاً من داخل بيوت. ناس يستيقظون للتو، نوافذ تضاء الآن بعد ليلة طويلة. رجعت على طول الشارع الخالي ورأت مخبزاً يفتح أبوابه وشمّت رائحة خميرة.

- 49 -

ناس الطريق

كانت جديدة على المهنة ولا تعلم أن ناس الطريق لا تربطهم مواقيت ولا ساعة. مستر معمرباشي طمأنها عندما وقفت أمامه في المتجر في فيلادلفيا: أخرج من جارورة دفتراً ضخماً وفتحه على الصفحات الأولى وقال أنظري، هذا الرجل اشترى مني بضاعة بثلاثين دولاراً في 3 آذار (مارس) 1907، ليس اشترى، أخذ مني ديناً (credit)... قال سيرد المبلغ كاملاً في نهاية فصل الربيع. بعد ذلك، أنظري هنا، في 29 آذار، صحيح، الشهر ذاته، عاد وأخذ بضاعة بسبعين دولاراً، من دون أن يدفع شيئاً. وأعطيته... لماذا أعطيته؟ قال عنده مصاريف، ماذا أقول له؟ إذا لم أتعامل معه يذهب إلى غيري، في هذا الشارع فقط أربعة متاجر تبيع للسوريين... أنظري، رجع في نيسان مرتين، دفع مرة واحدة، ثم في أيار، أخذ بضاعة بضعف ما دفعه قبل ذلك، ثم في حزيران، أنظري هذه أكبر دفعة، بضاعة بـ 325 دولاراً، أخذ صناديق، حمّلها في عربة بحصان، من الربيع إلى الصيف وهو يقول مصاريف واشترى عربة وبغلاً، أنا أجادله وهو يقول «في آخر الصيف». حمّل البضاعة، إذا قلت لكِ إنني ساعدته بالتحميل صدقيني، لست حماراً لكن ماذا أفعل؟ الزبون ملك والكشّاش ملك أيضاً. أعطيته وذهب وانتظرته ذلك الصيف ولم يأتِ. والصيف الذي بعده ولم يأتِ. صرت أقول

للآخرين هذا صاحبكم فلان الفلاني أين هو ولماذا لا نرى وجهه؟ سمعت أنه في إنديانا، بعد ذلك أنه في مينيسوتا. أنظري، هنا (قلب مستر معمرباشي صفحات الدفتر حتى بلغ الصفحة التي يبحث عنها)، في 1912، كم سنة تأخر حتى يرجع؟ وردّ لي من كل ما أخذه مئة دولار فقط، وقبل أن يخرج ماذا قال لي؟ «إنتظرني حتى نهاية السنة». ذهب ولم يرجع. أخبروني أنه يتاجر في فالون ـ نيفادا*. ماذا أوصله إلى تلك الصحراء المقطوعة، لا أدري!

بينما يحكي زال عنها الهم. لم تعد مشغولة البال على المرأة. بعد ليلة المحطة المرهقة قرعت أبواباً في الجوار ودخلت بيوتاً وباعت بضاعة. كانت تبيع واقفة في الأبواب أيضاً وعينها على الطريق. قضت النهار تبيع وهي ترجع بين فينة وأخرى إلى مدخل المحطة. قبل أن تبدأ البيع دخلت ذلك المخبز الذي تفوح منه رائحة العجين والكعك والخميرة. اشترت خبزاً وأكلت. ثم اشترت جبناً عندما فتحت المحلات، وصنعت سندويشات تكفيها النهار، وبدأت العمل. كان هذا نهارها الأول. وتمنت أن ترى المرأة إبنة راشيا في نهاية النهار، ساعة الغروب الأحمر، عائدة هي أيضاً وقد باعت كل بضاعتها. حلَّ المساء ولم ترجع وديعة صليبي. أكلت مرتا السندويشة الأخيرة وأحصت ما جنته وابتسمت. هل ابتسمت حقاً؟ هل رآها ولد (يحمل كيساً مملوءاً بالفواكه ويمرّ من هناك) تحسب أرباح النهار وتبتسم؟ عندما قطعت تذكرة عائدة إلى فيلادلفيا كي تملأ الجزدان من جديد لم تكن تعلم أنها منذ الآن صارت تاجرة.

لم تجد المرأة إبنة راشيا واقفة في انتظارها على الرصيف أمام

---

* Fallon - Nevada.

متجر السيد معمرباشي تفتح ذراعيها ضاحكةً وتقول: «لماذا تأخرتِ هكذا؟ انشغل بالي عليك!». دخلت المحل وحكت للخواجة الأرمني. قال إن ذلك دائم الحدوث وأخبرها أن ناس الطريق دائماً هكذا: لا يعرف الواحد ماذا يحدث له أو يطرأ عليه وهو على الطريق، يتنقل من بيت إلى بيت في البرّ*. سكب جاكوب معمرباشي ماء ثم حكى لها عن حياته:

ـ أنا وأخي جئنا إلى أميركا سنة 1891. اشتغلنا في نيويورك، نبيع سجاجيد وبسطاً شرقية. كنا إذا جاء الليل نستأجر فرشة واحدة في أي مكان نكون فيه وننام جنباً إلى جنب متلاصقين كأننا شخصٌ واحد كي نوفر أجرة الفرشة الثانية. كنّا نشتري رغيف خبز ونقطعه نصفين. نأكل القليل ونلبس الحذاء حتى يرق النعل وتصير الأرض تفرك بطن القدم. ناس الطريق أقدامهم معمولة من مسامير. أنتِ يا مرتا لستِ لهذه المصلحة. إقعدي هنا أحسن لكِ. أخي كان يفهم بالسجاد، أنا لا أملك معرفته. قبل أن نأتي إلى أميركا اشتغل مع جدي. جدي كان يُصلح سجاداً، أصابعه طويلة ومعقوفة، ويجلبون له السجاد من مدن بعيدة ويصلحها وترجع جديدة كأنها الآن حُبكت. بعد نيويورك تاجرنا في بنسلفانيا وأوهايو. السجاد ثقيل، حمله

---

* تُقسم أرض أميركا إلى ثلاثة أقسام: أولاً المدن والقرى وهي القسم المعمور ميدان التجارة والصناعة. ثانياً السهول الفسيحة المستعملة (ميدان الفلاحة) وهنا البيوت المتفرقة على بعد ميل وأكثر ويسمّي الباعة هذه السهول برًّا وأحواله تستدعي تجولهم فيه لبعده عن المخازن ومحلات البضائع. ثالثاً الأرض الخاوية الخالية من السكان وترغب حكومة البلاد تعميرها وإسكانها وتبذل جهداً مع الفلاحين الذين يغنمون من الأخشاب وقطع الأشجار التي توهب لهم عند إمتلاكهم الأرض وهذا القسم غابات وآجام ملتفة (الغريب في الغرب).

أصعب من حمل «الكشّة»، وأنا أردت أن نشتري عربة وحصاناً. أخي قال لا. كان عنيداً. بعد ذلك تعاركنا، هو ذهب يتاجر وراء النهر وأنا بقيت في هذا الجانب. سنة 1896 افترقنا. بعد سنتين رجع مريضاً، اعتنيت به حتى تماثل للشفاء، هو الذي فتح هذا المتجر، جمع مالاً من تجارته في ميسوري ووايومينغ ودنفر، ومن دون أن يخبرني اشترى هذا المكان وعبّأه بضاعة. أوقفني على الرصيف ونحن نمرّ من هنا وندخن وقال: «موقع هذا الدكان مناسب». لم أفهم ماذا يقول. كيف لي أن أعرف أنه اشترى الدكان وأن الدكان مسجل باسمي؟ ترك أميركا وعاد إلى قريتنا... بعد وقتٍ قصير وصلني خبره.

- 50 -

ناس الطريق (2)

شرب جاكوب معمرباشي ماء وأشعل إحدى سجائره البنّية الرفيعة. كان صوته شجياً، لا يشبه أصوات الباعة. تكلّم بلا عجلة، شارد النظرة كأنه يتأمل غروب الشمس. ظفر خنصره اقتفى أثر منمنمات شبه خفية نقرها قاطع القماش في خشب المنضدة.

ـ أندم الآن كلّما تذكرت أنني تعاركت معه وافترقنا من أجل عربة وحصان. قبل أن يركب الباخرة عائداً إلى البلاد أوصاني وصية واحدة. أتى خبره فذهبت إلى الكنيسة وأضأت شمعة ثم ركبت القطار إلى فرزنو التي يسمّيها الأميركيون «مدينة الأرمن». بينما القطار يندفع غرباً والقرى والسهول تكرّ شرقاً رأيت أخي خارج النافذة، شبح أخي، يركض حاملاً السجاد، قاطعاً نهر الميسيسيبي إلى ميسوري. كان يحبّ «العَبّارات»: يقف غير بعيد من المرجل وينظر إلى العمال يجرفون الفحم ويرمونه في النار. يمدّ يديه كي يتدفأ وهو يبتسم. في فرزنو بحثت عن فتاة أتزوجها. أرادني أن أعود إلى البلاد أو أن أبحث هنا عن فتاة تعرف الأرمنية وتحترم العادات والتقاليد التي تربّينا عليها. قال إنه سيغضب إذا تزوجتُ فتاة ليست أرمنية. في فرزنو بحثت حتى تعبت، الرجال الأرمن لم يتركوا أرمنية. بقيت الصغيرات فقط أو العوانس المتجاوزات الأربعين. وفي اليوم السادس دلّوني إلى الفتاة التي صارت زوجتي. في

السادسة عشرة، معلمة، تعرف الأرمنية والإنكليزية وبعض التركية. الكاهن سارويان زوَّجنا في كنيسة سانت بول الأرمنية الشرقية. كانوا انتهوا من تشييدها قبل فترة قصيرة. وروائح البناء ما زالت فيها. بعد «الإكليل» وقفنا على الدرج وتصوّرنا. عائلة زوجتي كبيرة وفي الصور ترين رايات وأعلاماً ترفرف في الطريق لأننا تزوجنا في 6 تموز وزينة العيد* ما زالت معلقة. عندما جئت بها من كاليفورنيا إلى هنا بكت حتى احمرت عيناها. كانت تشتاق إلى أهلها. بعد ذلك، وهي تساعدني في المتجر، تعوّدت على فيلادلفيا وأحبّت ناسها. بعد البنت الأولى ارتاحت في البيت. الآن تُخيّط، وتهتم بشؤون البيت وتربية البنات. عندي ثلاث بنات وكلّهن في المدرسة. علَّمتهن الأرمنية بنفسها. أختها الكبرى نُكبت في زلزال 1906: زوجها دُفن تحت حائط في سان فرانسيسكو. عندما أخرجوه بعد أيام من تحت الركام كان مهشماً. عرفوه ـ بين الجثث ـ بساعته المنقوشة الغطاء. زوجتي سافرت إليها وساعدتها في محنتها. كان رجلاً محترماً، أُرسل له البضاعة التي يطلبها بالقطار ولا تتأخر مرة الحوالة. لا أتذكر أنه تأخر في الدفع مرة واحدة. استضافنا في عيد الفصح سنة 1904 وعرض أمامي بساطاً قديماً توارثته عائلته جيلاً بعد جيل طوال أربعمئة سنة، وكل جيل يُغيِّر في النسيج ويزيد قطعة إلى البساط الملون. أربعة ألوان: البنيّ والأصفر والأبيض والأسود، بحسب أصواف الخراف التي تربى وترعى في سهوب أرمينيا. أخبرته عن قريتي وعن أبي وجدي وأنا أتذكر وجه أخي وهو يوصيني وصيته قبل أن يركب الباخرة ويقطع المحيط... الآن صغرى بناتي تذكرني

---

* 4 تموز (4th of July): عيد الاستقلال الأميركي.

بأخي. عيناها كعينيه وعندها حركة تعملها بيدها كأن الحركة انتقلت منه إليها. وتحبّ الحساب والأرقام وتظلّ تسألني عن أثمان الألبسة. أمها أيضاً أحبّت المتجر عندما عملت فيه: تلك الرفوف هناك، هذه فكرتها. وإلى الآن عندما تمرّ عليّ وهي ذاهبة إلى السوق أو عائدة، تنظر إلى الرفوف وتقول: «Good Shelves».

ابتسم مستر معمرباشي وهو يدلّ مرتنا إلى الرفوف على يمين المدخل. نفض رماد سيجارته في المنفضة الخشب ثم أكمل:

ـ في نيويورك كنّا نلتقي ـ أنا وأخي ـ كشّاشاً أرمنياً من قريتنا. نلتقيه هكذا صدفة على الطريق فنذهب معاً إلى أي مكان ونضع أحمالنا على الأرض ونأكل لقمة. نشرب شيئاً ونتبادل القصص عن مغامراتنا على الطريق، إسمه إيلي والآن يعيش في سالت لايك سيتي*، أرض المورمون. هل تعرفين هؤلاء؟ مسيحيون وليسوا كذلك، يتزوجون كالمسلمين أكثر من إمرأة. مع أن القانون الأميركي لا يقبل تعدد الزوجات. صلته بأخي لم تنقطع وقبل سنوات قليلة جاء إلى هنا وأخبرني أنهما تاجرا معاً في تلال كولورادو. بينما يُعزّيني برحيل أخي مرة أخرى شعرت بالحزن: ليس لأن أخي مات وصار بعيداً عني ولن أراه مرة ثانية، ليس لهذا فقط، لا... حزنت لأنه تاجر مع إيلي في تلال كولورادو وأنا وحدي أجول دروب إلينوي وويسكونسن: أقطع السهول من مزرعة إلى أخرى وأفكر فيه وأتمنى سماع صوته كلّما ارتميت على الأرض ساعة النوم. كم مرة استلقيت في حقلٍ أخضر رطب وأنا أتمنى لو أراه وأصالحه في هذه اللحظة! وفي النهاية جاء هو وصالحني واشترى لي هذا المتجر. كل «كشّاش»

* Salt Lake City.

هذا حلمه: أن يُدخر مالاً يكفيه لفتح دكان. الحياة على الطرقات، بلا سقف فوق الرأس، صعبة. أعرف ناساً تجمدوا تحت الثلوج وماتوا والكشّة كتلة جليد على الظهر*. يلتصق الصندوق بالجسم ويصير الواحد مثل الجمل. أنا عندي عظمة ناتئة هنا (أدار جسمه وراء المنضدة ورفع يداً وضغط بين رفشي الكتفين). مرات تؤلمني وأنا نائم. هذا تشوه في العمود الفقري. مع أنني لم أبقَ كشَّاشاً وقتاً طويلاً.

* كشّاشان سوريان من حاصبيا تجمدا في عاصفة ثلجية في ساوث داكوتا ودُفنا مع الصندوقين الملتصقين بهما. («مذكرات نجيبة إبراهيم»، ساو باولو، البرازيل، 1908).

- 51 -

Spring Valley

أميركا. وطقس أميركا الغريب. في أي لحظة ـ حتى في عزّ الصيف ـ تظهر الغيوم السوداء من العدم، تبرق السماء وترعد ويصير لونها الأزرق جزءاً من الماضي الخُرافي. وبينما العين ترمش ينهمر سيل المطر. مرتا تمدّ يدها مفتوحة، تلتقط الحبّات حارة في راحتها. حارة! كانت في مكانٍ بعيد من العيون، في نقطة ما من سهول أوهايو أو إنديانا، حيث تترامى السماء شاسعة لا نهائية، خيالية لا تشبه سماء سورية، بلا تلال ولا جبال ولا حدود، أوسع من المحيط الأطلسي... ثيابها تلتصق بجسمها من غبار الطريق وعرق النهار المشمس الطويل. أينما تلفتت لا ترى نفساً بشرية. وقفت تحت الأمطار وغسلت رأسها وجسمها. غسلت ثيابها ولبست أخرى ناشفة من الجزدان ونشرت الثياب الرطبة من أغصان شجرة. كانت شجرة عملاقة، ورقها يشبه ورق التين، ملتفة الأغصان، وكل غصن بضخامة شجرة. في ظلّها الدائري كانت الأرض جافة، متشققة. وقفت في الدائرة المسحورة، حيث لا تصل قطرة مطر، تنشف على مهل من حمامها. خارج الدائرة كان المطر ينهمر، غزيراً وساخناً ورمادي اللون إلى أبيض، من هنا إلى نهاية العالم.

أخرجت سندويشة (خبز أميركي ولحم جامبون بارد) وجلست على جذر الشجرة الخارج كمقعد من الأرض. كان صقيلاً، لامعاً،

وحدست أن كثراً جلسوا عليه من قبل، على مرّ السنين. استدارت بجذعها ونظرت إلى حقول وسهول، إلى البراري العجيبة تنبسط صوب الأفق كالمنام. مع القضمة الأولى شعرت أن صفحات المطر تتحرك، ترتفع ثم تهوي، والهواء يحمل إليها البلل. ظهرت سناجب من أوكار غائرة في جوف الشجرة. تراكضت فوق رأسها. وعندما قطعت من سندويشتها قضمة صغيرة ورمتها على التراب والورق اليابس انزلقت السناجب على طول الأغصان وقفزت من الرؤوس الخضر المهتزة وتنازعت قطعة الخبز. الأقوى بينها، سنجاب بندقي اللون على ظهره وذيله خط أبيض ثلجي بعرض إصبعين، حصل على وليمته ووقف على قائمتيه الخلفيتين، حاملاً «الخبزة» بيديه، يأكلها بأسنانه العجيبة وينظر بعينين واسعتين ذكيتين إلى مرتا: ماذا يريد أن يقول لها؟ هل تمنحه قضمة أخرى؟ كان يأكل بسرعة، قضمات صغيرة لكن خاطفة، واختفت اللقمة في جوفه. قفز قفزتين وصار أقرب. ثم انتصب مرة أخرى، بحجم قطة صغيرة، ويتلفت كإنسان. بعد ذلك ذهب يشرب عند طرف الدائرة.

أسندت ظهرها إلى الجذع الجبار ونامت قاعدة. من دون قصد نامت. هدهدها المطر، تسلل النعاس إلى عينيها، غفت مثل طفلة. لم تكن طفلة، أيام وأسابيع وشهور وهي تسير على طرقات تبدأ في «ماين ستريت» ـ فيلادلفيا ثم تتشعب من شبكة سكك الحديد إلى أمكنة بلا عدد: أخذها «جزدان الحرير» إلى كليفلاند ـ أوهايو، إلى فورت واين ـ إنديانا، إلى سبرينغ فالي ـ إلينوي (هناك التقت مرة أخرى «عرابتها» وديعة صليبي رياشني)، إلى سيدار رابيدز ـ أيوا، وراء نهر الميسيسيبي، وإلى ماكاتو ـ مينيسوتا، الولاية التي يخرج منها النهر العظيم، دافقاً من بحيرة بيضاء كاللبن، والأشجار ترتفع

من الجانبين، قديمة، شاهقة العلو، سوداء وخضراء، شديدة الرهبة.

بلغت في صيف 1914 سبرينغ مالي Spring Valley على ضفة نهر إلينوي الذي يربط منطقة البحيرات الكبرى (ميتشيغان) بالميسيسيبي، قاطعاً ولاية إلينوي من شمالها إلى جنوبها بالمراعي تسطع خضراء عند ضفتيه. في سبرينغ فالي ذات البيوت الخشب الحمراء المتدرجة على هضاب زيتية اللون مزروعة قمحاً وكرزاً، التقت بوديعة صليبي مرة أخرى، ورأت «راشيا صغيرة» نابتة كبستان غريب، ومدهش، في قلب أميركا. الحي السوري في نيويورك قصة، لكن هذه قصة أخرى: ماذا جلب أبناء راشيا الوادي، من جنوب الجبل اللبناني، إلى هذه الأرض النائمة على ضفة نهر إلينوي في الديار الأميركية! حتى شجر التوت، الذي لا ينبت في تربة أميركا، زرعوه هنا! للزينة، للذكريات، للإلفة! لن يربوا دود قزّ في أميركا.

في سبرينغ فالي باعت مطرزات (Broderie) إلى سوريات! كانت تبيع لربّات بيوت من سورية! وجدت ذلك مفرطاً في الغرابة: أكلت على موائدهن طبيخاً ساخناً و«يخنة» باللحم والخضر لم تذق مثلها منذ تركت البلاد البعيدة. تحلّت بطبق مهلبية بالحليب يفوح برائحة ماء الزهر والبرتقال، ثم بسطت على الطاولة «أشغالها»: النساء تكلّمن حول رأسها بالعربية، باللغة التي لا تسمعها إلا قليلاً الآن، وهي شعرت أنها ليست نفسها، كأنها تحيا حياة شخص آخر!

لم تبقَ في سبرينغ فالي طويلاً. أولاً أزعجتها أسئلة الأختين بشارة عن زوجها. ثانياً المكان مملوء كشّاشين وكشّاشات. هذه أرض الكشّة في إلينوي. وليس لائقاً أن تبيع هنا. مع ذلك فرغ جزدانها في يومين أو ثلاثة. أخذت بضاعة من متجر يقابل محطة السكك ويبيع أيضاً خضراً وخبزاً ولحماً بـ«الكوبونات» المطبوع عليها

شعار «الشركة»* لعمال المناجم، ثم انطلقت غرباً، أبعد فأبعد. بعد أسابيع أو شهور، وهي عائدة إلى المكان الذي صار مقرها في فيلادلفيا، نزلت ليلة أخرى في سبرينغ فالي. نامت عند وديعة صليبي (عندها غرفة الآن في مؤخرة دكان يملكه أقارب من قريتها). استمعت إليها مرة أخرى ليلة كاملة (المرأة تحكي وتسكر بالكلام، ثم حين تنهض من نومها مترنحة كي تقضي حاجتها في الخارج تتعثر بمرتا مرتين)... غادرت مع صياح الديكة.

* شركة الفحم Spring Valley Coal Company، وهي التي أنشأت البلدة سنة 1884 مع شركة سكك الحديد المسماة Chicago and Northwestern Railroad.

- 52 -
الحساب

أزعجتها مطاردة الأختين إميليا وكاميليا بشارة: تلقت أسئلتهما المباغتة كأنها تُلطم بالحجارة. لكنها في القطار، بينما تضع الولايات بينها وبين سبرينغ فالي، توازنت من جديد. قالت لنفسها إن الناس إذا سألوا لا يقصدون الأذى. ثم حاولت أن تصرف المسألة كاملة من ذهنها. كانت تصعد وتهبط وتجرب قدر استطاعتها أن تتوازن. نظرت إلى المحبس في إصبعها، ثم نظرت خارج النافذة.

زارت نيويورك في ذلك الصيف. واستقبلها جوزف أسطفان على الغداء في بيته في هارلم. تعرفت إلى عائلته. وجوه بناته حامت حولها، باسمة. كانت تتذكر زوجته والبنت التي رأتها بمعطف أحمر وقبعة حمراء في «بيت الحاجة ماري». التقت ابنه للمرة الأولى. مارون أسود الشعر، بنيّ العينين. وجهه يميل إلى بياض، ولا يبدو سورياً. كلّمها بالإنكليزية فردّت عليه بالإنكليزية. قال لها إنها تتكلم الإنكليزية بسرعة كأنها تعلمتها وهي صغيرة. وسألها هل تقرأ جرايد أميركا أيضاً؟ أخبرته أنها تفعل ذلك أحياناً لكن ليس كثيراً فالوقت لا يسمح لها. سألها ماذا تفعل إذاً وهي في القطار؟ ضحكت من سؤاله ـ كان يندفع في الكلام مثل صبي صغير، مع أنه كبير الجسم وفي طول أبيه ـ وأخبرته أنها «تشتغل» وهي في القطار أيضاً.

ـ تبيعين للركاب؟

أخبرته أنها تُطرز المناديل، هكذا ترتفع قيمة المنديل من عشرين سنتاً مثلاً إلى دولار أو اثنين. كما أنها تشتغل بالصنارة أيضاً.

زوجة جوزف أسطفان قالت لها إن ابنتها الكبرى تحبّ الحياكة أيضاً. البنت احمرَّ خداها عندئذٍ وهربت من الغرفة. أختها ضحكت ومرتا لم تفهم لماذا فرّت البنت ولا لماذا ضحكت أختها (ما قيمة ذلك؟) لكن إحساساً دافئاً استولى عليها. نظرت إلى العائلة السعيدة في البيت الأزرق الستائر وشعرت بسكينة لا تُصدق. تمنت أن تمتد اللحظة.

عند رجوعها إلى فيلادلفيا سألت المستر معمرباشي هل يعرف أحداً في الجوار ـ في هذا الشارع مثلاً ـ يمكن أن يؤجرها دكاناً صغيراً؟ الرجل لم يتفاجأ. وطلب منها أن تنتظر يومين وهو يسأل. في اليوم التالي مباشرة قال لها «تعالي معي»* وأخذها إلى أحد أصحابه: أرمني أيضاً، إسمه غريغوري سكياس.

السيد سكياس أعلمها أنه لم يحسم أمره بعد: بنى متجراً جديداً بطبقتين ويفكر أن ينقل بضاعته كلّها إلى هناك وإذا فعل ذلك فهذا الدكان سيخلو وعندئذٍ يُمكن أن يتفقا. كان صوته مبحوحاً كأنه قضى الليل يصرخ في الهواء. رأته يُخرج مسبحة «كوربا» صفراء الحبّات، طويلة، 99 حبة، مرة تلو أخرى من جيب سترته، ثم يودعها الجيب من جديد. كان يُسبّح بحبّاتها وهي في جيبه. شمّت رائحة توابل تجيء من مطعم مجاور وصلّت أن تحصل على المحل.

سيتأخر ذلك. الربّ يستجيب لصلواتنا، لكن ـ أحياناً ـ بعد

* «Come With me».

وقت. في هذه الأثناء كرّر مستر معمرباشي عرضه القديم والدائم: أن تعمل عنده. شكرته كالعادة وقالت الكلام الحلو الذي يحبّه (لن تنسى فضله عليها: ألم يُطلق شغلها على الطريق؟ ألم يمنحها الجزدان والبضاعة بلا مقدم ولا كفيل؟ وحتى الآن تترك عنده ما تجنيه أمانةً... وقبل كل خروج ينصحها، ويبسط الخريطة على المنضدة ويدلّها إلى المحطات ويقول لها في أي اتجاه تذهب، ونحو أي بلدات، ويختار لها ـ دائماً ـ منطقة مناسبة لا ينافسها فيها كشّاشون كثر، مناخها مقبول وأرضها سهلة). كانت تأخذ استراحة قصيرة، كي تسترد قواها. استأجرت غرفة ضيقة في نزل. تحمّمت طويلاً وجلست على الفراش. اتخذت قراراً وهي تحسب أرقاماً على قفا كرتونة مربعة مطبوع على وجهها هذه العبارة:

Snow Candles

وتحت العبارة رسم شموع وثلج وبيت، قمر وسماء ونجوم.

في الصباح كوت ثيابها بمكوى مملوء جمراً استعارته من النزل. رتبت نفسها وصفّفت شعرها ثم طلت شفتيها بأحمر شفاه. كان عليها أن تمرّ على أكثر من نقطة في ذلك اليوم، وفي كل نقطة وجب أن تتصرف بهدوء وذكاء، وبلا توتر. نجحت. عندما خرجت عند الظهيرة من Bank of Philadelphia وهي صاحبة حسابٍ بنكي (الحاجب رفع قبعته وفتح لها الباب الزجاجي الدوّار) كان جسمها يضجّ بالفخر والقوّة. لم ترتجف أصابعها وهي تخطّ اسمها بالإنكليزية ثم تُوقّع بقلم الحبر السائل على الأوراق. لم تشعر بالخوف أمام رجال المكاتب في قمصانهم البيضاء الناصعة وربطات العنق السوداء. أدهشها كيف عبرت كل ذلك بيسرٍ، وبأي سهولة أنجزت خطتها. كي تحتفل دخلت مطعماً وجلست إلى طاولة جنب

الزجاج وطلبت صحن Steaks and Fries مع Ketchup. استخدمت الشوكة والسكين وأكلت بأناة، متمهلة. تدفقت صلصة البندورة، حمراء وكثيفة وسكرية الرائحة، على الصحن الأبيض. بينما تلتقط قطعة بطاطا أخرى بالشوكة شعرت بحزنٍ غريب وغير قابل للفهم. مع ذلك لم تدع الحزن يفسد احتفالها. عند العصر دخلت متجراً كبيراً يواجه كنيسة عالية الأجراس واشترت ثياباً جديدة وحذاء متيناً. في اليوم التالي ملأت «الجزدان» بضاعة وركبت القطار إلى نيوتن ـ أيوا. لن تتلهى. من الآن وحتى يقرر السيد سكياس، عليها أن تعمل وتعمل وتعمل. اشتغلت مرتا كثيراً في تلك الأيام وقبل تساقط الثلوج أرسلت إلى بتاتر مئتي دولار وفكت الرهن عن جلّ التفاح وراء الساقية الشّتوية.

ـ 53 ـ
جزدان الحرير

الصقيع وضع حدًّا لحياتها على الطريق. تجمَّد طرف تنورتها وشطب كاحلها كحد السكين. عندما خلعت الحذاء رأت أصابعها زرقاء، متيبسة. مسحت دماً عن قدمها فانبثق الألم كشعلة نار في رأسها: شعرت بطعنة بين عينيها وخافت أن تموت. لكنها لم تمت. في الأسبوع الأول من كانون الأول (ديسمبر) 1914 اقترح عليها السيد غريغوري سكياس أن تدير متجره مؤقتاً ـ لم يقرر بعد هل يريد التخلي عنه ـ وهكذا وجدت مكاناً تعمل فيه وتنام: وضعت فرشة في المستودع ـ بين الرفوف والصناديق ـ وأنهت حياتها ككشّاشة.

استقرت في فيلادلفيا. وخلال أيام اكتشفت أنها طوال الشهور الفائتة كانت تحيا خارج العالم: بينما تعبر الولايات شمال نهر أوهايو، قافزة من محطة إلى أخرى، ومن بلدة إلى بلدة، تبيع المنسوجات والمطرزات والحرائر، لم تنسَ نفسها وأحزانها فقط؛ نسيت أيضاً أن العالم موجود. بلى، تذكرت في إحدى اللحظات أن ترسل مالاً إلى سورية كي تفكّ الرهن عن جلّ التفاح. وبلى، كتبت رسالة قصيرة إلى خالها (اشترت ورق المكاتيب من مخزن يقابل محطة نيوتن ـ أيوا). لكنها في المقابل تابعت هروبها: لم تكتب لخالها شيئاً عن رحلتها إلى نيوأورلينز. فقط طمأنته أنها بخير وأنها تجني مالاً من مطرزاتها. (جزدان الحرير حرَّرها).

استعملت عنوان السيد معمرباشي البريدي. بعد ذلك انتظرت ردًا على رسالتها. عندما أخبروها أن الردّ قد لا يأتي قريباً بسبب حالة الحرب رفعت حاجبيها مستغربة: إلى هذا الحد كانت خارج العالم!

أثناء جولاتها بين بلدات إنديانا وأيوا ونبراسكا ومونتانا (تشتري من المتاجر الكبرى وتذهب وتبيع في القرى والمزارع البعيدة عن المخازن. . . طوال الوقت تُبدل أمكنتها كأنها تفرّ من ظلّها؛ كأن الغيمة السوداء ستهبط من السماء وتبتلعها إذا كفّت لحظة عن الحركة)؛ بينما الشمس تدور في الأعالي وتُبدل قوسها يوماً بعد يوم؛ بينما القمر يكتمل ثم ينقص ويراها هاجعة بين أكوام تبن أو في ظل شجرة سيكويا أو تحت شرفة بيت خشبي؛ طوال الفترة الممتدة من نيسان (أبريل) 1914 إلى كانون الأول، كان العالم يتحرك على محورٍ يهتز وهي تتحرك على محورٍ يخصّها. في إحدى مزارع إلينوي، في مكان بعيد عن العمران، وسط حقول حمراء محروثة تنتظر أن تُزرع ذرة وحبوباً، سمعت من راديو خشب يشبه الصندوق في مطبخٍ يفوح برائحة الخوخ المجفف والبراندي، شيئاً عن حرب بين ألمانيا وفرنسا. ظنّت أنهم يتكلمون عن أمورٍ قديمة. عزّز ظنّها أنها سمعت بعد ذلك، خارج مقهى في منيابوليس، كلاماً عن حربٍ أخرى بين روسيا وتركيا. خالها حارب في تلك الحرب، تتذكره يحكي للمرحوم أبيها عن جليد القُرم وكيف كانت المياه تتجمد في بطون الأحصنة فتقتلها. لم تتخيل أن الحرب دائرة الآن في أوروبا، بينما تملأ جزدان الحرير بضاعة ثم تفرغه وتقبض السنتات والدولارات بين أصابعها الطويلة. (بعد وقت، عندما عرفت أن الأضواء أُطفئت في أوروبا خوفاً من القصف والغارات تذكرت مصابيح فرنسا في تلك الليلة البعيدة وهي تقطع السهول من مرسيليا إلى مرفأ الهافر في الشمال). هل كانت لا مبالية؟ أظن أنها كانت

نصف حيّة نصف ميتة. لكنها بينما تسير على الطرق التراب، بين الحقول الخضر، باحثة عن مزرعة أخرى وإمرأة أخرى تشتري منها قماشاً أو ألبسة داخلية أو مشدات، أخذت رويداً رويداً تسترجع ما فقدته: النصف الحيّ بدأ ينتشر فيها، والنصف الميت يتقلص. هل هذا حقيقي؟ هل هذا ما حدث حقاً في تلك الشهور؟ إننا نحاول أن نتخيل ما حلّ بها، ولعلنا لا نقدر. عندما قبلت عرض السيد سكياس كانت تنجو بجسمها البردان من الجليد القاتل. في ذلك الأسبوع ذاته من كانون الأول 1914 اجتاحت العواصف الثلجية نورث داكوتا ومونتانا ودفنت قطعان الماشية في المراعي. ثلاثة رعاة كانوا في العراء تجمدوا كالتماثيل واقفين ولم يتحركوا بعد ذلك. عرض السيد سكياس أنقذها.

في كل رحلاتها لم تذهب جنوباً. كانت لويزيانا مثل بقعة سوداء في جسمها، وعليها أن تزيح عنها على الدوام وإلا اختنقت. حتى سماع الإسم يضايقها. محتها من خريطة الولايات المتحدة. في سبرينغ فالي، عندما أزعجتها الأسئلة الفضولية للأختين بشارة، غمرتها مرة أخرى رائحة الطمي والمستنقعات وقصب السكر وسمعت أزيز البق والحشرات على طريق كلاريندون. شعرت أنها عاجزة عن التنفس. لم ينقذها إلا الخروج إلى الشرفة المشمسة كي تتأمل الجلول المزروعة توتاً وكرزاً. أرادوا أيضاً أن يزرعوا زيتوناً. بولس بشارة ـ هكذا أخبروها ـ سيبني على التلة المواجهة قلعة حجراً، بيتاً دائرياً من الحجر المقصب نسخة طبق الأصل عن قلعة راشيا الوادي.

في فيلادلفيا، وهي تطوي الأقمشة وتوزعها على الرفوف، بدأت رحلة رجوعها إلى العالم.

- 54 -

علي جابر (2)

تركنا علي بشير جابر في الجزء الأول واقفاً أمام أضواء نيويورك يرتجف مبلول الثياب. هذا الكتاب لا يتسع لسيرته. سأروي هنا ما يهمني فقط. حياة علي جابر مملوءة فجوات. المعلومات المتوفرة عنه (والمستقاة من الإرث الشفهي للعائلة) تنسج صورة مغامر مقبل على الحياة كثير المخاطرات ميّال إلى الضحك. لا أعرف كيف وصل إلى معمل الجلود في لونغ أيلاند لكننا نجده هناك قبل شهور من اندلاع الحرب الكبرى في أوروبا. ماذا يشتغل؟ يحمل الجلود من العربات إلى أحواض المدبغة. أين يسكن؟ وراء المقبرة، في مستودع مهجور لشركة السكك الحديد (كانوا يخزنون الفحم الحجري هنا قبل نقل الخط إلى الجهة البعيدة) حيث ينام عشرات العمال من خليط جنسيات عجيب: أسبان وطليان وأفارقة وروس وأتراك إضافة إلى برتغاليين وبولنديين. هؤلاء عشرات؟ لعلهم مئات، المستودع أوسع من منجم، وعلى سطحه فرشات أيضاً. لا أعرف قوانين المكان لكن زنجياً سرق بطانية مرة فضربوه حتى نزف من جنبه.

كم قضى علي جابر في المعمل المذكور؟ على الأرجح لم يصمد طويلاً. كانت رائحة الجلود تقتله وكذلك الظلمة في المكان العميق المملوء مياهاً راكدة تنضح مواد ملونة. المعمل ضخم، وفي

وقت الراحة يقعدون تحت الأشجار في الخارج ويأكلون زوّادتهم ويشربون البيرة. أميركا علّمته شرب الشعير والكحول لكنه لم يتعلم مضغ التبغ وبصقه على الأرض. كان يلفّ سكائره مثل الخواجات في البلاد البعيدة ويدخن وهو ينفخ دوائر أنيقة إلى فوق، صوب الربّ الساكن في المملكة اللامرئية. أثناء العودة إلى المسكن الجماعي (المهجع المفعم بغبار الفحم الحجري) يسلك مع أصحابه درباً مختصرة: يقطعون بين شواهد المقبرة. تعلّم الحروف الإنكليزية وهو يقرأ الأسماء على ألواح الرخام. وجد الحياة غريبة، محصورة بين تاريخين (ولادة ثم وفاة) مع «شحطة» في الوسط. وأين حياتهم؟ على شاهد رأى صورة فوتوغرافية لرجل طويل السالفين مربع الوجه، بالأبيض والأسود، يغطيها زجاجٌ بلوري يمنع عنها أثر الشمس والعفن. كان يرى هذا الوجه الباسم كل مساء، وهو عائد من معمل الجلود منهكاً وعرقان الثياب إلى المهجع. ذات ليلة انفجر بالضحك، ضرب أقرب رفاقه إليه، ولفظ جملة خالدة: «الموتى يحيون أحسن منا!».

أحد أصحابه ـ هذا إيطالي ـ ردّ بالإنكليزية المحطمة التي يتكلمونها جميعاً أن هذا غير صحيح وأن حياتهم ـ حتى في هذا المكان الفظيع ـ أطيب من حياة الموتى: هؤلاء يأكلهم الدود تحت التراب أو يحترقون في جهنم. علي جابر الذي لا يميل إلى اللاهوت أسكته بضربة على الكتف ودعا الجميع إلى برميل بيرة على حسابه. اشترى البرميل وملأوا الأكواب وجلسوا على «الدكات» الخشب خارج المهجع ينظرون إلى أضواء نيويورك ويتبادلون السجائر والشتائم والقصص: لا يعرف أحدهم أين الصدق وأين الكذب في ما يسمع، ولا يهمهم الأمر كثيراً ما دام الكلام يُسلي. تلك الليلة

أقنعهم علي جابر أن هذه الحياة في معمل الجلود سيئة بكل المقاييس. استمر في الحكي حتى أنهكهم وعند الفجر كان بينهم سبعة على استعداد للرحيل معه إلى بوينس أيرس.

الأسبان الثلاثة بين هؤلاء السبعة زرعوا الفكرة في رأسه أصلاً. أحدهم عنده أقارب سبقوه إلى بوينس أيرس. يعملون في حوض السفن. وفي مزارع في الداخل. يقولون الحياة سهلة هناك، بيسرٍ تجني النقود، والأراضي مشاع تُعطى لمن يحرثها ويزرعها.

علي جابر وجد هذا أقرب إلى طبيعته: المهم المدى المفتوح؛ سيفقع قلبه إذا حمل الجلود مرة أخرى (كانت ثقيلة على كتفيه، رائحتها فتّاكة، كأنه يحمل جثثاً... ومرات تزلق بدمها وأوساخها ويكون عليه أن يلتقطها من جديد وهو يلعن الماشية وساعتها). من أقنع من بالرحلة إلى الأرجنتين؟ هذا لا يُغير شيئاً. كانت حياتهم وراء مقبرة لونغ أيلاند لا تُطاق. أهلكتهم البطاطا الفاسدة التي يسلقونها في قدور سوداء مع عظام ينالها أحد أصحابهم الطليان حسنة من جزّارٍ صقلي يمت له بصلة قربى. وأهلكتهم رطوبة المحيط: كانوا يقعدون دقيقة تحت أشعة الشمس لئلا يتعفن الجلد على أبدانهم، وفي دقيقة واحدة تصيبهم نزلة صدرية. هذه مبالغات بالتأكيد، لكن هكذا روى علي جابر مغامراته (حياته؟) لأخيه محمد بعد سنوات.

ركبوا باخرة إلى مُنتيفيديو. قشّروا بطاطا وبصلاً. نظّفوا المطابخ والمراحيض. ألقوا فحماً وحطباً في المراجل. لسعت النار الشعر الأسود على صدورهم فصاح الإيطالي شاتماً «التركو» الذي ورطهم هذه الورطة. «التركو» (Ali) ضحك وهو يكسر ثمرة جوز هند سرقها من المطبخ. الأسبان الثلاثة تراشقوا بالفحم وضحكوا أيضاً.

- 55 -
المتجر

المتجر أعطاها قوّة. البيع والشراء. الوقوف وراء المنضدة وتأمل الزبائن داخلين خارجين. الأقمشة ورائحتها. العربات التي تعبر خارج الزجاج. الهواء البارد. سلك السخّان الكهرباء. رائحة الأطعمة. بائع الهوت دوغز الذي يمرّ بعربته في الوقت ذاته كل يوم، ويقف أمام الباب تماماً وينظر إليها نظرة أليفة. الشرطي الذي يعبر وهو يخبط عصاه على فخذه. العجائز الذاهبات إلى الكنيسة. بنات المدرسة خارجات من الباب الكبير، يتراكضن في الزيّ الأزرق المقلم بالرمادي ويتضاحكن، والجدائل تطير في الهواء. صف الرجال الصغار تحت الأعمدة، في الجهة الأخرى، يأكلون سندويشات أو يدخنون سجائر ويشربون مرطبات. هدير الترامواي. العجوز في ثيابه المهلهلة يحمل بطانية على ظهره ولا تدري ماذا جمع في جوف البطانية. كل الناس يعبرون خارج زجاج المتجر، خارج الواجهة بالملابس المعروضة (على رفوف خشب) والأقمشة الملفوفة، لفة جنب لفة، وعندما يدخلون تحفظ مسافة غائبة بينهم وبينها: هذه المنضدة، عرضها متر تقريباً. الوقوف وراء المنضدة ردّ إليها شيئاً فقدته على طريق كلاريندون. كانت تبتسم للشاري أو الشارية لكن من دون ضعف. هنا، في المتجر، وُلدت من جديد. ولعل الولادة بدأت فعلاً على الطريق وهي تبيع من «جزدان الحرير».

الجزدان أخذها إلى عالم البيع والشراء. القطعة التي تأخذها بدولار من تاجر الجملة وتبيعها بدولارين أو ثلاثة. ومرات، وهي قاعدة أو واقفة، تطرز على القطعة حرفين ويتضاعف سعر القطعة. هذا عالم غريب! ووجدت جيوبها ملآنة.

ماذا كان ذلك يعني بالنسبة إليها؟ في المتجر وجدت حُرية جديدة: كانت آمنة، لا تخاف أن ينزل عليها الليل وهي وحدها في العراء في البريّة الشاسعة. هذا الأمان ردّ إليها أحاسيس قديمة. ساعة العصر، وهي ترى ناساً عائدين من أشغالهم إلى بيوتهم وعائلاتهم في «ماين ستريت»، كانت بلا انتباه تتذكر بتاتر وأجراس القطعان (الأغنام والماعز) عائدة من الوادي قبل المساء. الجرس يرنّ في رأسها وهي تنعس كأنها قاعدة على الطراحة في باب البيت البعيد.

سألت خالها في الرسالة عن صحته وأحواله هو وزوجته وأولاده وهل يحتاجون شيئاً؟ لكن الردّ لم يأتِ. جوزف أسطفان أخبرها عندما رآها أن مرفأ بيروت مقفل وأنه صار محطة لغواصات الألمان وأن الرسائل لا تصل من سورية، البريد ممنوع والتجارة ممنوعة، والبواخر الحربية تسدّ الموانىء في كل المتوسط. مرتا سمعت ذلك من الراديو في المطعم المجاور أيضاً. كان المذيع الإنكليزي يحصي مرافىء أوروبا التي تخرج منها غواصات ألمانية وذكر فجأة الإسم الغريب: Beirut.

شعرت أنه يتكلم عن مكان لا تعرفه. في اللحظة ذاتها شعرت أنها لا تعرف إلا ذلك المكان. من هناك خرجت في هذه الرحلة!

كانت تسمع عن الحرب وتستغرب. عند المساء، حين يأتي السيد سكياس، تنظر إلى الجريدة. يحملها معه إلى البيت. يقرأ فيها أثناء النهار، ثم يأخذها إلى البيت مساء. مرتا تلقي على الجريدة

نظرة بينما يفتح دفتر المتجر ثم يحصي النقود. في البدء كانت تراقبه. بعد ذلك كفّت. يتجهم كأنه غاضب بينما يحصي المال (الأوراق أولاً ـ الدولارات ـ ثم الصرافة: العملة المعدن) لكنه حين ينتهي يرفع وجهه إليها باسماً. دعاها في يوم العطلة إلى بيته كي تلتقي زوجته وأولاده فشعرت بالحرج: كانت مريضة. مع ذلك لم تقل شيئاً. أخذت معها هدية: غطاء طاولة «تريكو» شغل يدها. عندما دخلت البيت رأت ساعة بطول رجل يخرج منها عصفور الكوكو ويصيح كلّما مرّت ثلاثون دقيقة. سمعت العصفور يصيح مرة واحدة. لم تتمكن من البقاء واعتذرت وذهبت. بعد ذلك، بمرور الوقت، ستكتشف أفراد عائلة سكياس وطباعهم واحداً واحداً. كانت عائلة غريبة يصعب التعاطي معها مجتمعة (يخيم عليهم الصمت) لكن التعاطي يسهل إذا التقيت أحدهم صدفة في الطريق أو المتجر. حتى زوجة سكياس التي تكبرها بثلاثة عقود صادقتها، مع أنها نادراً ما رأت أرمنية تصادق غير أرمنية. باتت تعرفهن جميعاً: أرمنيات فيلادلفيا. مستحيل أن تبتاع إحداهن ذراع قماش من غير متاجر الأرمن في «ماين ستريت». تعلمت بمرور الوقت كلمات قليلة. كان السيد سكياس يضحك ويقول إذا سمعها تلفظ كلمات أرمنية: «كأنكِ من زارا». أخبرها عن قريته*. كان مرات وبلا وعي يترك الإنكليزية وهو يحكي عن أهله ويكمل كلامه بالأرمنية فتظل ساكتة. دلّها إلى صورة في الجريدة: باخرة تغرق. قرأت تحت الصورة اسم الباخرة: Audacious. فرقاطة حربية إنكليزية غرقت بلغم بحري ألماني قبالة سواحل إيرلندا.

---

* «I Krekorian (Gregory) Sekias, son of Tumas and Marrow Sherinian Sekias, was born an Armenian in the town of Zara, state of Sivas, Country of Turkey, on...».

- 56 -
المتجر (2)

اكتشفت أنها تحبّ هذه الساعة وتنتظرها: هو يحصي النقود ويراقب الأرقام الداخلة في دفتر المحل ويعمل جولة سريعة على الرفوف (لا تتضايق؛ في البدء أزعجها ذلك، ثم نسيت الأمر: الرجل كبير السنّ ويفعل الأشياء بطريقة لا تزعجها)... وهي تقرأ في الجريدة. (يملك اشتراكاً في صحيفة Philadelphia Public Ledger. وأول عملها هنا كان الصبي يجلب الجريدة إليها ملفوفة بالخيط وهي ترسله إلى عنوان المتجر الجديد الذي يبعد عشر دقائق مشياً، ودقيقتين بالترام). تحسنت قراءتها للإنكليزية، وصارت في وقتٍ غير طويل، تقرأ أكثر من صفحة واحدة قبل أن ينتهي السيد سكياس من «الجردة» اليومية. كانت تمرّ على أخبار الحرب مروراً سريعاً وتهتم أكثر بأخبار أميركا. يبدو ذلك غريباً لكن هذا ما فعلته. في المقابل بدا واضحاً ـ من الصفحات المدعوكة ـ أن السيد سكياس مختلف الأولويات. كانت تعرف من وجهه، وهو يدخل المتجر، ماذا قرأ اليوم عن الحرب.

أظن أن السيد سكياس كان بالغ التأثير في مرتا آنذاك؛ في تطور شخصيتها. أشخاص كثر نلتقيهم في حياتنا، في مفارق ومحطات محددة، ولا نعلم مدى تأثيرهم في مسيرة تحولاتنا العقلية والنفسية إلا بمرور السنين. مرتا أيضاً لن تكتشف إلا بعد سنوات

(ربما وهي تساعد أولادها في الدروس الإنكليزية أو في الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية) الدور الذي لعبه السيد غريغوري سكياس في تكوّن شخصيتها الجديدة (الأميركية): أثناء الشهور الأولى من سنة 1915 صار يقرأ «نيويورك تايمز» بسبب تغطيتها للنكبة الأرمنية على الجبهة القوقازية (ساحة الحرب بين روسيا وتركيا). كان يدخل المتجر قبيل المساء مقوس الظهر كأن أخبار التهجير والمذابح كسرت ظهره. يحصي النقود من دون تركيز ويمرّ بنظرته على الدفاتر وعلى الرفوف بوجه أبيض. مرتا تجلب له الشاي الساخن. يشرب ويشكرها. تجلب له بسكويت الزنجبيل أيضاً من المقهى المجاور. صار يتأخر هنا حتى الترامواي الثاني، ولا يخرج إلى الثلج والهواء البارد إلا بينما مصابيح الشارع البرتقالية تضاء. يتكلمان. هو يتكلم أكثر. هي تصغي. عندما يقوم واقفاً ويلتف بالمعطف والشال العريض الصوف والقبعة ذات الأذنين كأذني الأرنب تسبقه إلى الباب. تراه يلبس القفازين ثم يلتقط المظلة بينما توارب الباب كي يتغير الهواء قليلاً ولا يصفقه البرد دفعة واحدة ويمرض. يتأنى وهو خارج ويقول لها كلمة طيبة ثم يلقي تحية المساء. يخرج بينما الترامواي يدنو والضوء يبرق مكسّراً على رقائق الثلج. من أثّر فيها؟ هو؟ أم الأخبار التي كانت تقرأها (وجدت الجريدة متعة بحد ذاتها)؟ أم الجو (الكيمياء)؟ ماذا حدث في تلك الأماسي في ذلك المتجر في «ماين ستريت»؟ لم يحدث شيء؟ كان يؤثّر فيها، بلا شك. هل أثّرت هي فيه؟ هل غيَّرت شيئاً في حياته؟ في نفسه؟

عندما مرض في ذلك الربيع (ربيع 1915) افتقدته. صار إبنه يأتي بدلاً منه. هذا الكبير، كيفورك (سمّاه على إسم القديس) يشبهه كأنه نسخة عنه، ولكن بفارق ثلاثين سنة. بينما يحصي النقود عاقد

الحاجبين تأملت العربات. ابتسم وهو ينظر إليها ثم أخبرها أنه قرأ في الجريدة عن رجل في الحي السوري في بوسطن ضرب زوجته فاشتكته إلى البوليس. جاؤوا وجروه إلى الحبس وهو يضربهم ويقول «لا تتدخلوا بيني وبين زوجتي». ضربوه عندما ضربهم وكسروا أضلاعه وأنفه وأصابع يده اليمنى. أخبرها القصة ثم جلس محتاراً.

كانت تعرف أنه يملك معملاً صغيراً للأحذية. أرادت ـ قبل أن يخبرها قصة السوري وزوجته ـ أن تسأله عن عمله. لسبب لا تعرفه ظلّت ساكتة. نهض وهو يضع النقود في جيب معطفه. ألقى تحية المساء وخرج. هي أقفلت الباب وتراجعت إلى مقرها في المستودع. بينما تفرد بطانية شعرت بالغضب. ماذا أغضبها؟ لم تكن متأكدة.

صارت تشتري الجريدة وتقرأها أثناء النهار. كان الشغل سهلاً، المحل له زبائن، وكل يوم يأتي زبائن جدد. غيّرت الواجهة. وسّعت مساحة العرض، ووضعت ـ حيث العين ترى ـ أجمل ما في المتجر. علّقت أيضاً قبعات بريش في المدخل، وكتبت على لافتة:

10 Percent OFF

ومن دون أي جهد إضافي امتلأ المتجر.

المتجر (3)

خرج السيد سكياس من مرضه الطويل نحيلاً، أشد نحولاً من أي وقت مضى، وعظام وجهه بارزة. عندما رأته يترجل من الترامواي انقبض قلبها: بدا على حافة الموت، شديد الضعف الجسماني، وركبتاه تعجزان عن حمله. في خيالها رأته يسقط إلى أمام وذقنه تطرق الرصيف. أسرعت كي تساعده فأصابتها الدهشة عندما سمعت صوته، عارم القوّة، حاداً، ولا يشوبه الوهن إطلاقاً. فتح ذراعيه وضمّها إليه ضمّة قوية. فزعت عندما فعل ذلك. ثم استراحت حين وقف يتكلم عن الواجهة وكيف صارت عريضة وجذابة ومن بعيد يراها الراكبون في الترام. كان يبتسم. رأت أسنانه الباقية في فمه. فاحت من ثيابه وشعره وذقنه رائحة الكولونيا. بينما يدخلان تأمل القبعات القليلة الباقية (باعت الشحنة كلّها) وهزّ رأسه معجباً بالخط الأنيق في اللافتة: 10 Percent OFF. أخبرها أن هذه هي التجارة الحقيقية. وللمرة الأولى ضحك وهو يفحص «الدفتر» ويرى أنها باعت من دون تنزيلات!

حين اكتشف أن أرباح المتجر في فترة مرضه تضاعفت ثلاث مرات مسح رقبته بالمنديل ـ كان يعرق تحت الياقة الصوف السميكة ـ وقال «المرض مربح». ضحك وسألها عن صحتها. كان البخار يتصاعد من كوبي الشاي ورائحة البسكويت الساخنة تملأ المكان. قالت إنها بخير وسألته عن العائلة. أخبرها أن زوجته ـ والطبيب

أيضاً ـ أهلكاه في البيت. منعا عنه أشياء كثيرة، خصوصاً الجرايد. غابت ضحكته تماماً وهو يقول «الجرايد». بعد ذهابه فكرت مرتا أنها لم تَرَه هكذا أبداً من قبل.

أثناء خروجه، وهو يلف الشال، تأمل اللافتة مرة أخرى وسألها: «خطكِ؟». هزّت رأسها ورمشت برموشها الطويلة.

في مساء اليوم التالي أخبرته عن جوزف أسطفان. سمعها من دون أن يقاطعها. عندما انتهت قال إنه موافق وتمنى لها التوفيق. هو ذهب وهي قضت ليلتها تتقلب على الفراش بانتظار طلوع الصباح. لم تتوقع أن يقول السيد سكياس «نعم» بهذه السهولة. ليس عليها الآن إلا أن تتصل بجوزف أسطفان وتطلب «الشحنة». رتبت المستودع واستعدت. علّقت لافتة بالخط العربي في الواجهة وتعمدت ـ قبل تعليقها ـ أن تزور مستر معمرباشي وتعرض أمامه مشروعها. هو أيضاً تمنى لها التوفيق. ووعدها أن يساعد مقدار استطاعته. «مع أنكِ ستسرقين مني ناس الطريق»، قال بوجهٍ جاد. لم تعرف هل هو غاضب أم أنه يداعبها. فيما بعد اكتشفت أنها فعلاً سرقت منه الكشّاشات والكشّاشين! والغريب أنه كان يرسلهم إليها، يدلّهم إلى المتجر ويُسهل تجارتها. الشحنة الأولى التي أرسلها جوزف أسطفان من نيويورك بالقطار وصلت في تشرين الأول (أكتوبر) 1915. قبل نهاية الشهر وجدت مستودعها فارغاً. لم تكن الشحنة الثانية وصلت بعد!

يوم الأحد ركبت القطار إلى نيويورك كي تزور «شريكها» جوزف أسطفان في بيته الجديد. في تلك الفترة شاع انتقال السوريين من «مانهاتن التحتا»* (كما سمّوها) إلى بروكلين وجوارها حيث

* Lower Manhattan.

الأرض أرخص وأوسع. جوزف أسطفان واحد من هؤلاء: اشترى قطعة أرض في طرف «هنري ستريت» وبنى متجراً بطبقتين. سكن مع عائلته في الطبقة العليا. الدرج الذي يصل بين الطبقتين تحول بسرعة مستودعاً آخر للبضائع. الزوجة عارضت في البدء لكنها سرعان ما تحولت تاجرة: صارت تنزل إلى «تحت» وتقضي النهار مع الزبائن ولا ترجع إلى «فوق» إلا كي تطبخ للبنات قبل رجوعهن من المدرسة.

مرتا لم تعرفها عندما دخلت المتجر: كانت تلبس تنورة كحلية طويلة وتربط شعرها بمنديل مثل السوريات مع أنها أميركية! وما أضحكها أكثر رؤية طنجرة على الأرض وراء المنضدة، ولوح خشب تفرم عليه البصل والخضر بين زبون وآخر.

قبل أن يتناولوا الطعام أوقفها جوزف أمام رفّ المدفأة كي تقرأ الكلمات المنقورة في «الرخامة»:

Abramowicz Jichlinski Cansinos

أخبرها أن الإسم هولندي أو بولندي أو إسباني. خلال شهور الصيف وهو يبني البيت والمتجر ويتأخر في إرسال البضاعة إليها (ضحك بينما يقول هذا) عثر على هذه «الرخامة» في سوق للأثاث المستعمل. أخبرها أن أحد السوريين دلّه إلى المكان فهناك يعثرون أيضاً على أجران حجرية صالحة لدقّ الكبّة. كانت مرتا تلمس الحروف المنقورة في الرخام عندئذ، وأخبرها جوزف أن زائراً قد يجيء على الغداء.

- 58 -
المتجر (4)

للوهلة الأولى شعرت بالخوف. لم يذهب عنها الإحساس المباغت بالضيق - كأنها وقعت في فخ - إلا عندما تكلم جوزف من جديد. قال إن هذا الرجل من أقدم معارفه في نيويورك، إسمه حنانيا برباري، أرمل عنده متجر في «الحي الصيني»، السوري الوحيد الصامد هناك، قصير القامة مثلهم ومن عِشرتهم صار أصفر الوجه... زوجة جوزف أسطفان كانت آتية من المطبخ وهي تحمل سكين الخبز الطويل: ضحكت عندما سمعت كلام زوجها وقالت «Hannania is Chinese»*. عرفت ماذا يقول. حفظت من العربية كلمات كثيرة: تعرف الألوان جميعاً، أصفر Yellow. أحمر Red، أبيض White، أسود Black، أخضر Green. سألها جوزف أين مارون؟ قالت إنه سيأتي، لن يتأخر. ثم اختفت مرة أخرى.

وصلا معاً: مارون والضيف. لم يكن أصفر البشرة كما وصفه جوزف، ولكن مطفأ اللون، كأنه قضى زمناً بين الحيطان، لا يخرج. زاد من انطباعها هذا الوجه الآخر الذي أطلَّ معه: كان مارون يضحك وهو يدنو ويمدّ يده ويصافحها. تشرَّب وجهه حمرة تُفرح القلب وهو يلفظ إسمها. على المائدة، بينما يشربون ويأكلون فيما بروكلين كلّها تشرب وتأكل، روى السيد حنانيا:

---

* «حنانيا صيني».

ـ عمي حنانيا (أنا سُمّيت على إسمه) كان بين أوائل السوريين الذين أتوا إلى أميركا. نحن في الأصل من قرية صغيرة في الجبل تُسمّى «العطشانة»، لأنها بلا ماء. لا ينابيع ولا آبار ولا سواقي، نجمع مياه الأمطار، ونعيش من خدمة الدير. الدير يملك القرية، يملك الأرض والبيوت، وأهلي عندما كانوا يريدون أن يبنوا قنًّا للدجاج كان عليهم طلب الإذن من الخوارنة. ومرات كان «أبونا» يقول لا، ولا يبنون للدجاج قنًّا. أنا لا أذكر القرية إلا في صور بعيدة متفرقة. أذكر مثلاً الوادي، والطريق إلى كعب الوادي، حيث ساقية قليلة الماء نأخذ منها ما نشربه، وجنبها «الفرن»، عبارة عن «صندوقة» كبيرة من الطين نشعل تحتها الحطب، وكل القرية تخبز عجينها «تحت»، في كعب الوادي، ثم نحمله إلى فوق، لماذا لا يخبزون أمام البيوت، لا أعرف... أنا جئت إلى هنا صغيراً، عمي أرسل وجلبني ولولا عمي كنت أموت صغيراً كما مات أخوتي قبلي. أنا خسرت أربعة أخوة وأنا صغير: بولس وسليم والياس وعيسى. وخسرت أختين: ميليا وهيلانة. لم يبقَ لي أخوة. وبعد وصولي إلى أميركا ماتت أمي ثم عرفت أن أبي سيتزوج ثم جاء «المكتوب» وفيه أن أبي توفى وهو راجع من «الحقلة»: كان يحمل سلّة «مقتي» (هذا نزرعه «بعل»، مثل الخيار ولا يحتاج إلى سقاية) ووقع على الطريق في النقطة نفسها حيث وقع جدي (أبوه) من قبل ومات أيضاً. الخوارنة الذين أرسلوا «المكتوب» إليّ كتبوا أيضاً أنه مات وفي رقبته دين: ثلاث ليرات ذهب عثملي! لماذا استدان أبي من الدير هذا المبلغ، لا أدري. عمي هو الذي دفع ثمن «الناولون» كي أجيء إلى هنا. أنا سهرت أكثر من ليلة أفكر في ذلك الدين المستحق: حين قرأت «المكتوب» مزقته ورميه. عمي لم يقرأه. كان على الطريق،

يذهب ولا يرجع إلا بعد شهور. لم أعمل معه إلا وقتاً قصيراً، كنت معتل الصحة، فكان يتركني عند إمرأة يعرفها، نصف إسبانية نصف هندية، في «إيسترن هارلم». كانت بلا أولاد، زوجها ذهب إلى كويبك في كندا يتاجر بالفراء على طول الهدسون ولم يرجع. عندها ثلاث بقرات، تربي البقرات وتبيع حليباً وتقطع جبناً، تعمل لبنة أيضاً، عمي علّمها، وأنا صرت أساعدها. كنا نعلق كيس اللبنة من غصن الشجرة وأنا أحرسه من الغزلان والقطط. في ذلك الوقت كنت ترى الغزلان تخرج من بين شجرات «السنترال بارك» عند المساء وتمرّ في «الفيفت أفينيو». المرأة إسمها «فاني»، هكذا كان عمّي يناديها، طوال الوقت تدخن، حتى وهي تحلب البقرات، وتقول إن البقرة تسترخي عندما تشمّ رائحة تبغها. كنت أساعدها، أغسل البقرات، وأغسل الدلاء الحديد، تعلمت منها الإنكليزية والإسبانية وما تعرفه من لغة الهنود. عاملتني معاملة جيدة وعندما تحسّنت صحتي وصرت أخرج مثل عمي حاملاً الكشّة وأجني ما يكفيني، بقيت أرجع إليها من حين إلى آخر، نتعشى وتفرش لي وأقضي الليل. عمي أيضاً كنت ألتقيه عندها مرات، وحين نخرج معاً كي نبيع وينتبه أنني صرت أتكلم الإنكليزية أحسن منه بدرجات يقول لي: «البقر يُفيد». كان يضايقني عندما يضحك ويضربني على ظهري، ضربته تهدّ. وكنت لا أحبّ كيف يتحدث عنها. الغريب أنه عاش في أميركا سنوات طويلة ولم يتعلم من اللغة إلا بعض الجمل والعبارات. لم يأخذ من طِباع هذه البلاد شيئاً. مع ذلك كان الوحيد الباقي من عائلتي وكنت أحترمه وأفكر دائماً في فضله عليّ وعندما يطلب مني نقوداً أعطيه أكثر مما يطلب. لم يكن سيئاً لكنه لم يكن جيداً أيضاً. عندما حكيت له عن المنام الذي أراه ضحك مني. كنت أرى دائماً

مجموعة من الأشخاص يقتربون مني وهم يلبسون لباس الخوارنة ويعقدون الزنانير على بطونهم، لا يتكلمون معي ولا أعرفهم وحتى وجوههم لا أراها لكنني أستيقظ من المنام وأنا متضايق ورقبتي عرقانة. قلت لعمي إنني أريد أن أرسل إلى الدير في سورية دين المرحوم أبي. قلت إنني ادّخرت بعض النقود لكنني لا أعرف كيف أرسل الليرات الثلاث الذهب إلى الدير، ولا أعرف كم تساوي هذه بالضبط في العملة الأميركية. قلت له إنني سألت وإنني أعرف أن معي الآن ما يكفي ويزيد. سألني هل أنا أخوت؟ سألني كيف أصدق الخوارنة؟ وسألني حتى لو صدقتهم كيف أرسل لهم فلساً واحداً؟ أخبرني أنه هو وأهلي وأهل أهلي (أي أهله) وأجدادي جميعاً عاشوا الحياة كلّها عبيداً عند الخوارنة، يزرعون الزيتون والقمح والشعير للدير، ولا يأخذون إلا ما يمنع عنهم الموت جوعاً. سألني أين عقلي؟ أنا كنت صغيراً في ذلك الوقت وعندما قال هذا سكت ولم أفتح الموضوع أمامه مرة أخرى. لكنه بعد فترة جاء وحده وسألني هل ما زلت أفكر في دين الدير؟ قال إن واحداً من البلاد عائد إلى هناك، ويمكنه أن يرسل الليرات إلى الدير إذا كنت ما زلت مصرًّا. أعطيته ما جمعته. وذهب. بعد فترة التقينا وأخبرني أنه أرسل المال لكنني أخوت. أنا صدقته. لكنني بقيت أرى ذلك المنام. وعندما رأيته مرة أخرى وطلب مني نقوداً فهمت أنه كذب عليّ وأنه لم يرسل الليرات إلى سورية. مع هذا لم أقل شيئاً. أعطيته ما يطلب وافترقنا مرة أخرى. بعد فترة، كنت أسأل وأتعلم، أرسلت الليرات الثلاث إلى الدير. مرّت شهور ثم جاءني «مكتوب» وفيه يقول الخوارنة أن الليرات الثلاث وصلت. بعد ذلك لم أرَهم في المنام.

مرض عمي في بطنه ومات في بيت المرأة التي اعتنت بي وأنا

صغير. طال احتضاره أسبوعين أو ثلاثة، وأنا لم أكن لا في «إيست هارلم» ولا في ولاية نيويورك كلّها. كنت أتاجر بين النهرين، لم أترك بلدة على ضفة «ميسوري ريفر» إلا وبعت فيها قماشاً. رأيت مرّة «عبَّارة» تغرق في المسيسيبي، حمّلوها حمولة زائدة، انكسرت. رأيت الماشية تسبح وتغرق وتسبح ونزلت إلى الماء مع الذين نزلوا وأنقذنا أولاداً ونساء. لطمني حيوان وأنا في الماء، ثور أو حصان لا أعلم، وبقي جنبي مبقّعاً بالأزرق طوال شهور. عمي مدفون في نيويورك وجنبه المرأة «فاني». سمّيت ابنتي الكبرى على إسمها.

- 59 -
المتجر (5)

تكلم حنانيا برباري بالإنكليزية والعربية. في لحظات محددة من قصته انتقل إلى العربية. مرتا أصغت وهي تحمل السكين بيد والشوكة بالأخرى. بنات جوزف أسطفان أيضاً أصغين بلا حركة. عندما انتقل الرجل إلى لغة لا يعرفن منها إلا كلمات قليلة بدا على وجوههن الضيق. وعندما رجع إلى الإنكليزية لم يتبدد الضيق تماماً (ماذا ضاع من الحكاية؟). زوجة جوزف أسطفان كانت تأكل وهي تتلفت مسرورة. فكرت مرتا أنها سمعت القصة من قبل. مارون أيضاً بدا مرتاحاً. كلّما نظرت صوبه رأت أنه ينظر إليها: كانت نظرته هادئة، محبّة، وتبعث في النفس إحساساً دافئاً. استغربت أنه يُسبب المشاكل لأبيه. لم يظهر عليه أنه طائش أو عنيد. على الأقل ليس في تلك الساعة على المائدة.

بعد الطعام انسحبت الفتيات وبقيت مرتا مع الرجال الثلاثة. زوجة جوزف أسطفان غابت وقتاً أيضاً. كانت تسمع صوتها في الداخل، وضحكتها وهي تتكلم مع بناتها، وسط قرقعة الصحون تحت الماء. جوزف أسطفان أشعل غليونين وناول واحداً لضيفه. مرتا تراجعت في المقعد الوثير وهي تنظر إلى مارون يكشح الدخان من أمام وجهه ويعبس. في تلك اللحظة فقط، عندما شوّهت العبسة ملامحه، بدا قادراً على أفعالٍ غير متوقعة.

كانوا يشربون القهوة المرّة من فناجين الخزف «الشفّة» التي لا تجد مثلها إلا في بيوت السوريين، عندما أظلمت النوافذ فجأة وانهمر المطر غزيراً. لم تكن الشمس غربت بعد لكن تبدل الطقس أشعرها أنها تأخرت كثيراً وأن القطار سيسبقها عائداً إلى فيلادلفيا. للحظة وجيزة تنازعتها رغبتان: أن تذهب الآن وبسرعة؛ وأن تبقى هنا، أكثر من هذه الليلة حتى، وألا تترك هذا المكان، هذه الغرفة، هذا المقعد قبالة المدفأة.

تكلموا عن العمل. غرقت في تفاصيل وأرقام مع جوزف لكنها في إحدى اللحظات سمعت الحديث الدائر بين مارون والسيد حنانيا: كان مارون يقول شيئاً عن قيصر ألمانيا ويليام الثاني ووافقه السيد حنانيا الرأي ثم عارضه بشدّة. لم تفهم ماذا كان سبب الخلاف بالضبط؛ لم يكن ذلك مهماً بالنسبة إليها. بعد ذلك تشعب الكلام وتحدث جوزف عن الحرب.

في القطار، بينما تفتح الجزدان وتُخرج الجريدة المطوية، تذكرت نتفاً من الحديث وشعرت بالنعاس. مرّرت لسانها على أسنانها وسقف حلقها واستعادت طعم النبيذ الأحمر واللحم المطبوخ طويلاً على نار خفيفة. ماذا قال جوزف عن الجراد؟ قال إنه قرأ في «الهدى» (جريدة عربية تُطبع في نيويورك) إن الجالية السورية تجمع تبرعات كي ترسل مساعدات إلى جبل لبنان حيث نزل الجراد وأكل المحاصيل. مرتا سألته متى حدث هذا، في الصيف، قبل الحصاد؟ أجابها إن الأحوال سيئة في البلاد، الجراد أكل المحاصيل قبل جنيها، يقولون هناك جوع والناس يذهبون إلى حوران لشراء القمح والشعير، وما يزيد الطين بلّة أن العساكر التركية تصادر الدواجن والمواشي والحبوب بينما «الحلفاء» يسدّون البحر. سألته هل تصل

البوسطة (البريد) من سورية؟ رفع ذقنه وقال لا، منذ شهور والأخبار مقطوعة، لكن صاحبي «الهدى» عندهما علاقة بوزارة الخارجية الأميركية وهذه تأتيها الأخبار بالتلغراف من القنصل في بيروت. كان مارون واقفاً إلى النافذة ينظر إلى الأمطار تتساقط على أبنية بروكلين وشوارعها. ظلال المطر انعكست قاتمة وسائلة على صفحة وجهه. استدار بعد كلام أبيه باسماً. وراء الزجاج نفخت مدخنة غيمة رمادية. قال مارون شيئاً عن خطوط التلغراف والغواصات الألمانية والسفن التجارية التي تتبع الدول المحايدة والألغام في بحر الشمال. ذكر السفينة لوسيتانيا* أيضاً. مرتا سمعت كلامه من دون أن تفهم بالضبط مغزاه. كانت مشتتة الذهن، مرهقة، تفكر في الجراد وفيلادلفيا معاً، وفي أشياء أخرى أيضاً: للحظة رأت الجلول مزهرة وراء البيت في بتاتر، رأت شجرة التين التي طالما أكلت ثمارها، رأت البيدر تحت كرخانة الحرير، ورأت جلول التوت تتدرج خضراء مورقة حتى تبلغ البحر الأزرق. كل ذلك بان أمامها رمشة عين ثم تبدّد وهي ترى النار تتراقص فوق الحطبات في المدفأة. لكنها، بينما القطار يأخذها إلى فيلادلفيا، استعادت تلك اللحظة فغمرها الحزن: وجه خليل حدّاد خرج من الظلام، من مكانٍ خفيّ. وهي رأته ينظر إلى هذه الجهة ولا تتبدل ملامح وجهه: كأنه لا يراها! أو كأنه يراها ولا يعرفها!

* Lusitania. سفينة ركاب بريطانية عابرة للأطلسي تتبع شركة British Cunard Line أغرقتها غواصة ألمانية بتوربيدو في 7 أيار (مايو) 1915 قبالة ساحل إيرلندا. من 2200 راكب غرق 1198 راكباً بينهم 128 أميركياً. اعتذرت ألمانيا للرئيس ويدرو ويلسون، ورغم الصدمة ظلّت أميركا على حياد.

المسافة من نيويورك إلى فيلادلفيا ليست طويلة. مع ذلك رأت غروب الشمس ثم صعود القمر، أصفر ومكتمل الدائرة، إلى قبّة السماء. كانت السهول تنبسط حمراء وصفراء وخضراء، مغسولة بالمطر، شبه برتقالية عند الغروب، ثم لامعة بضوء البدر مع انقشاع الغيوم. رأت قطيعاً ضخماً من الخيول البرّية يتراكض في الظلام ويوشك أن يغطي مساحة السهل. نَعِست وتركت الجريدة في حضنها ولم تقرأ حتى العنوان العريض. نامت وقتاً قصيراً وعندما فتحت عينيها رأت هالة الرطوبة تتحلق حول القمر، ورأت سرب بط يعبر فوق السهل الفضي ثم يختفي وراء جسور وأنهار وشجر. كان العالم مسحوراً، قديماً، ولا يُصدَّق. في الممر المضاء عبرت امرأة تحمل طفلاً زاعقاً بالبكاء.

- 60 -
المتجر (6)

جمعت كرم السيد معمرباشي إلى دقة السيد سكياس ونجحت في وقتٍ قصير أن تتحول إلى «مموّنة»* لعدد كبير من الكشّاشات والكشّاشين. (ما زلنا في 1915، لكن بعد نهاية الحرب الكبرى، وخلال الأعوام التي أعقبت تجدد الهجرة من سورية إلى أميركا مع فتح البحار والمحيط، ستغدو مرتا أهم «مموّنة» لأهل الكشّة في فيلادلفيا وجوارها: شريكها جوزف أسطفان صار يرسلهم إليها «طازة» بالملابس السورية من مرفأ نيويورك، وهم لا يعرفون من الإنكليزية غير كلمتي «مورننغ» و«مستر»، ومن رقابهم تتعلق كرتونة كتب عليها بالحبر: Martha Haddad، كي تعرفهم عند نزولهم من القطار وتأخذهم.

كانوا يأتون إليها وقد حفظوا اسمها وعنوان المتجر من آخرين. تملأ كشّاتهم وتتحدث معهم وتعمل لهم قهوة. مرات تجلب لهم شيئاً يأكلونه. ذات صباح بارد، بينما سيدات «الكويكر»** يرفعن زينة الميلاد على شجرة عارية الأغصان في الجهة الأخرى من الشارع، أطلّ عليها وجه تعرفه: كان هذا قاسم عبد الباقي. خلفه ظهر آخرون. كانوا مجموعة كبيرة ودخلوا عليها كالعاصفة.

---

* Supplier.

** Quaker.

الأصوات العربية اختلطت وارتفعت في ضجيج، وسيدات «الكويكر» الهادئات كالماشيات في نومهن، التفتن ونظرن إلى هذه الجهة بينما الأنفاس تخرج بيضاء من فتحات الوجوه. كان البرد قارساً ومع هذا وقفت مرتا مع ضيوفها على الرصيف يتكلمون ويضحكون ويرتجفون. المتجر كان يعجّ بالزبائن (منذ أسابيع عندها فتاة تساعدها على البيع. في فترة الميلاد يكثر الطلب على القماش والثياب؛ النساء يعتريهن جنون). قاسم عبد الباقي دلَّها إلى أحد الواقفين جنبه، وعلى رأسه طربوش. كان الرجل يداعبها، يضع الطربوش ثم يخلعه ويسألها ألا تتذكره؟ لم تتذكر اسمه لكنها تذكرت وجهه. كان مع المجموعة السورية على «إليس أيلاند». تذكرته وقالت إنه كان يقف مع الرجل الذي سمّوه «قمر الدين» ولم يدخل أميركا.

قالت إنها راجعة بعد لحظة. تركتهم وخطفت رِجلها إلى فرن مجاور. رجعت محملة بالأكياس. رائحة الكعك والحلوى سبقتها إليهم. ارتفعت ضحكاتهم وهم يُخرجون الكعك الساخن من أكياس الورق ويلقون القطع في أفواه واسعة. مرتا قالت: «هذه من الشام». قاسم عبد الباقي دمعت عيناه وهو يتقافز والسكر يجري في دمه. كانت ضحكاتهم تهزّ الفضاء كأنهم في احتفال، في عيدٍ باغتهم على حين غرة.

ضحكوا جميعاً وهم يأكلون الكعكات المغطاة بالسمسم؟ أظن أن بعضهم كان ينظر إليها مرفوع الحاجب ولا يفهم. كانت تبدو أميركية! تلبس كأميركية الآن وتتحرك كأميركية وتشتري كأميركية! مع هذا تقف بينهن وتبتسم وتقول بالعربية لقاسم عبد الباقي «كلْ هذه الفطيرة، فيها فواكه مجففة».

أتوا ثم ذهبوا ولم ترهم بعد ذلك. كانت السكة تأخذهم إلى

مدنٍ أخرى وولايات أخرى وبعضهم يرجع وبعضهم لا يفعل. كم مرة ملأت كشّة بضاعة ولم يرجع إليها دولار واحد؟ مع ذلك ظلّت تملأ الكشّات والجزادين. وحين يرجع كشّاش ويقول إنه سيتأخر في الدفع شهراً، تقبل وتبيعه على الحساب من جديد ـ لكن كمية أقل أحياناً ـ وتصلّي أن يعود. وعندما يعود ويدفع ما عليه تعرف أن السيد معمرباشي أفضل عليها. ألم يُعلّمها هذا بالضبط وهو يحكي لها عن ناس الطريق؟

كانت سنة تنتهي وأخرى تبدأ. أخذت الفتاة التي تساعدها إلى المطعم المجاور واشترت لها وجبة. بعد ذلك، وهي تدفع أجرتها الأسبوعية، زادت لها «عيدية». الفتاة شكرتها وهي تحمرّ كالشمندر: وجهها تورد، ورقبتها اصطبغت باللون نفسه. مرتا رأت ذلك وشعرت بالحزن. بينما تغتسل قبل النوم أحسّت بتعبٍ شديد.

اختصرت طقوسها الليلية ونزلت تحت البطانيات. كانت تسمع ضجة في الشارع، وراء الصناديق والجدار. عادة لا تسمع ضجة في هذا الوقت. هذه الليلة مختلفة*. أغمضت عينيها وحاولت أن تنام.

---

* ليلة رأس السنة 1915 ـ 1916.

- 61 -
رسالة

كان الوقت صباحاً. السماء زرقاء باردة وعمال الترام يجرفون الثلج عن الخط. ساعي البريد الذي يمرّ أمام الواجهة من دون أن يلتفت توقف هذه المرة ودخل وهو يسعل. بعد خروجه، مهتزاً بالسعال كما دخل، فتحت الرسالة. عرفت من أرسلها من الإسم على الظرف. فتحتها وهي لا تعرف ماذا تتوقع. فرنشيسكا مكرزل إبراهيم كتبت لها من بروكلين رسالة قصيرة بالإنكليزية تبدأ بتمنيات سعيدة مع حلول السنة الجديدة وتنتهي بذكر «زوجكِ خليل»*. كانت رسالة غريبة، لا بسبب الكلمات العربية التي تتصدرها فقط ـ «باسم الآب والإبن والروح القُدس» ـ ولكن أيضاً بسبب الإختيار المنمق للكلمات: بدت فرنشيسكا مكرزل إبراهيم تاجرة وراهبة في اللحظة ذاتها. باركت لمرتا أعمالها الجديدة وذكّرتها بالقطع التريكو التي اشترتها منها قبل سنتين حين كانت تقيم في مانهاتن (نيويورك) بواسطة «صديقنا المشترك» (mutual Friend) جوزف أسطفان. ثم تمنّت عليها باسم المحبة المسيحية الخالصة والرباط المقدس بين الزوج والزوجة أن تقبل دعوتها وأن تنزل عليها ضيفة في الأحد الأخير من هذا الشهر (كانون الثاني (يناير) 1916) في بيتها في

* Your husband Khalil.

«هنري ستريت» ـ بروكلين، حيث ينزل منذ يومين «صديق زوجي وعائلتنا زوجكِ خليل».

قرأت الرسالة ثلاث مرات ثم طوتها ووضعتها في الجارور، تحت دفتر المحل. دخلت امرأة وباعتها. ثم دخلت أخرى وباعتها ما تطلب أيضاً لكن من دون أن تركز أو تنتبه. بعد ذلك، وقد صارت وحدها مرة أخرى، فتحت الجارور وأخرجت الرسالة وكرَّرت القراءة. عند الظهيرة لم تخرج إلى المطعم المجاور. سخّنت شاياً على البابور وشربت كوباً مع سكر كثير. كانت ترجف غضباً، وقرأت الرسالة مرة أخيرة ثم مزقتها نتفاً ورمتها. بعد الظهر، وهي تملأ كشّة سوري من زحلة بينما يخبرها عن الثلوج والعواصف في سفوح الأبالاتشي*، ندمت لأنها مزقت الرسالة: ودّت لو تقرأها مرة بعد.

خرج الكشّاش وقفز فوق بركة ثلوج ذائبة ثم اختفى. كان قوي البنية، وخطر في بالها أن الذين يحملون الكشّة ملآنة ويقفزون هكذا لا يهربون ويختفون. مرّ الترامواي في تلك اللحظة كأنه ينزلق على القشرة البيضاء وأخذ خاطرتها معه. في متجر مواجه أضاء أحدهم مصباحاً غازياً ثم أطفأه؛ كان يفحص المصباح أو يُنظفه. فتحت دفتر المحل كي تشغل نفسها ثم فتحت الدفتر الآخر الذي تسجل فيه حسابات أهل الكشّة ثم أغلقت الدفترين وأقفلت الجارور ودارت من وراء المنضدة وخرجت من المتجر ووقفت على الرصيف. لم تنتبه أنها جائعة ولم تفكر في الأمر. شعرت أن شيئاً يقطعها نصفين، ولا تعرف ماذا يكون. كان حاداً كسكين، كقاطع رسائل أو قاطع قماش، لكنه لا يُلمس ولا يُرى. شعرت أنها تقع، كأنها تدوخ. رجعت إلى

---

* Appalachian Mountains.

داخل المتجر وجلست على مقعد ونظرت إلى يديها. لم تنتبه إلى المحبس في إصبعها (صار أضيق بعض الشيء) ولا إلى أظافرها المقلمة ولا إلى الخطوط. نظرت إلى يديها كأنها تنظر إلى قطعتين غريبتين عنها ومتصلتين بالرسغين. كانت تلبس جاكيتة من الصوف الأصفر، ونظرت إلى الزرّ الأسود في كم الجاكيتة وظلّت تنظر إليه وقتاً طويلاً كأنها تتأمل شيئاً لم ترَ مثله من قبل.

أريد أن أنهي مسألة الرسالة* عند هذه النقطة. أود أن أعفي مرتا مما يأتي في الأيام الفاصلة عن الأحد المذكور. لكن لا بد من هذا: قضت وقتاً غريباً مضعضعاً. تابعت العمل، تبيع وتقبض وتسجل في الدفترين، لكن حين تبقى وحدها ترجع إلى الدفتر مرة أخرى وتتأكد من الأرقام. هل حاسبت خطأ؟ كانت مشتتة، ضعيفة كما لم تكن ضعيفة منذ زمن بعيد. منذ متى؟ ما ضايقها أكثر من النهارات ساعات الليل، حين تأرق. ولكن أيضاً حين تنام وتباغتها منامات غير مفهومة. رأته مرة أخرى في المزرعة على حافة «كلاريندون رود» ينظر إليها واقفاً جنب إمرأة غريبة في ثوب أزرق. هذه المرة حدّقت إلى المرأة. خيّل إليها أنها ترى وجهها. كانت هي: مرتا! على المائدة رأت ناساً كثراً تعرفهم: مستر معمرباشي كان يأكل ويبتسم ولا يتكلم. في الصباح، عندما تذكرت المنام وهي

* بعد ذلك ستصل رسائل أخرى، بالمحتوى ذاته تقريباً (زوجكِ خليل؛ الرباط المقدس؛ المحبة المسيحية)، ولو تبدل المُرسل. من يكتب لها غير فرنشيسكا مكرزل إبراهيم؟ الست حنّة يافت؟ الحاجة ماري؟ جوزف أسطفان نفسه؟ لا، جوزف لا يكتب، لكنه يحمل نفسه من نيويورك إلى فيلادلفيا ويذكر الموضوع عرضاً وبانتباهٍ شديد. جوزف باقٍ في صفها. ولن تستمر مسألة الرسائل طويلاً. الرسالة الأخيرة تصل أواخر 1918، ولن يكتبها شخص تعرفه.

تشرب القهوة، بكت غيظاً. لم تفهم ماذا يحدث لها.

تكرّر المنام أكثر من مرة، رأت على المائدة صحوناً وصناديق (لماذا صناديق بين أطباق الطعام؟). وبينما تنظر إلى الوجوه رأت ناساً من قريتها، ورأت أباها. بحثت عفوياً عن أمها أيضاً لكنها لم تعثر عليها. أثناء النهار حاولت أن تتذكر كيف بدا أبوها في المنام (مسروراً؟ حزيناً؟ غاضباً؟) لكن الأشياء ظلّت غائمة لا تقبل التحديد.

حلَّ الأحد. كان يوم «الجردة» الإسبوعية بالنسبة إليها، ويوم الغسيل والكوي أيضاً. لكنها فعلت كل ذلك بلا نفس. طوال الوقت استمرت الأغراض تقع من يديها. ارتطمت بحافة صندوق. لطمته. بينما أجراس القداس تُقرع بلغ توترها أقصاه: ماذا رأت في خيالها؟ هل رأت بيتاً بعيداً في «هنري ستريت» ـ بروكلين يحتشد بالناس والطعام والكلام؟ هل رأت مقعداً فارغاً؟ كيف ظنّت الست فرنشيسكا أنها تقدر أن تذهب وتحضر القداس الصباحي ثم تتناول الغداء مع رجلٍ هجرها؟ الرباط المقدس؟ ودّت أن تكتب إلى الستّ مكرزل ردًّا. لكنها عرفت أنها لن تفعل ذلك. عند الظهيرة خرجت ووقفت على الرصيف. هل انتبهت أنها كانت تنتظر؟ ماذا تنتظر؟ هل انتظرت أن يأتي خليل حداد بحثاً عنها كما ذهبت هي وبحثت عنه؟ لعلها انتظرته.

لعلها بعد ذلك نامت على أمل: غداً الإثنين يأتي. اليوم لن يلحق، كان ينتظرها ولم تأتِ. غداً يركب القطار من نيويورك إلى فيلادلفيا. هل مرّت هذه الخاطرة في بالها؟ هل تخيلته آتياً إليها من البعيد، يقف في باب المتجر حيث علّقت اللافتة بالخط العربي الذي يشبه رسماً، وينظر إليها في بلوزة بيضاء وزرقاء، واقفة وراء المنضدة

تسجل رقماً في دفتر مجلد؟ لكن ماذا حدث للمرأة الأخرى في نيوأورلينز؟ هل تأخذ مكانها؟ لم تعرفها. لم تتكلم معها. تذكر أزيز الحشرات على الطريق. والحوذي الأسود العجوز كفّ عن الحكي. في المنام رأت أنها صارت تلك المرأة ذات الثوب الأزرق! ألم تتحول إلى أميركية؟ ماذا يُميّزها عن الأميركيات الآن؟ رأت نظرات الكشّاشين إليها. رأت وعرفت ماذا يفكرون. هي ماذا تفكر؟

لم يأتِ خليل حدّاد.

ـ 62 ـ
إد (Ed)

كشّاش صغير من زحلة، فتى في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، كبير الجسم بالنسبة إلى عمره، استقدمه خاله طوبي قزما الخوري «بوسكين» (قبل أيام من دخول العالم الحرب) إلى أميركا كي يجرب حظه. أعتقد أن ذلك حدث في بحر سنة 1914، في نقطة ما فاصلة بين إعلان ألمانيا الحرب على روسيا* ودخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا. لماذا جُلِب الفتى إلى «العالم الجديد»؟ هو طلب ذلك. مرة تلو أخرى أفسد أماسي أبيه وأمه ـ في البيت العقد الراسخ على ضفة البردوني الأبيض المياه ـ وهو يكرر الطلب. الأب عنده تجارة في زحلة، هذه عاصمة سهل البقاع، ملتقى القوافل منذ عقود. كل تجارة دمشق ـ بيروت تمرّ من هنا. لكن الزمن يتغير والتجارة بارت: القوافل انقضى عهدها والأب يبيع أراضيه قطعة بعد أخرى. الفتى يرى المهاجرين العائدين من أميركا يلبسون الجوخ وعلى

---

* أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في الأول من آب (أغسطس) 1914. في 3 آب أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا. في 4 آب أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا. في 6 آب أعلنت النمسا ـ هنغاريا الحرب على روسيا. في 23 آب أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا. في 24 آب دخلت الجيوش الألمانية فرنسا. في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) 1914 أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية.

صديرياتهم تتدلى ساعات بسلاسل ذهب. واحد منهم جاء من مرفأ بيروت في عربة تجرها أربعة أحصنة: من العربة أنزلوا صناديق ثقيلة مملوءة نقوداً! قيل إنه كان ينقل أمانة. لا أحد يعرف ماذا يُدّل ذلك: الصبي (اسمه عيد*) رأى الصناديق بعينيه الاثنتين وهي تُنزل. سمع خشخشة الليرات الذهب. ورأى ما يشبه شعاعاً أصفر يخرج من ثقوب الصندوق، من بين ألواح الخشب.

الأم بكت وهي تودعه: هو يسير مبتعداً في الطريق إلى بيروت حيث البحر والبواخر الذاهبة إلى أميركا وهي تناديه: «لا تكسر قلبي يا ابني، إرجعْ يا عيد، لا تفعل بأمك هذا». وعدها قبل الذهاب أن يعود. قال أنظري إلى خالتي ما أجمل أثوابها، حين أرجع أشتري لك قماشاً ثميناً ونُخيط أجمل ثوب في زحلة، لكِ أنتِ. كانت أمطرت ذلك الصباح، والعشب أخضر بليل يلطخ أسفل الشروال بالرطوبة. أسرع في خطواته كي يختفي الصوت الذي يناديه. أبوه لم يبكِ. صافحه وقال: «أنت كالرجل الآن، إنتبهْ لنفسك». لكن صوته تهدّج.

كانت مرتا قاعدة في المتجر تقرأ الجريدة وتشرب شاياً ـ هذه لحظات راحتها. دخل إد ممزق الثياب، وعينه سوداء مخضوضة. كان يكابر مانعاً نفسه من البكاء. أسرعت إليه وأنزلت «الكشّة» عن

* انظرْ «طريقي إلى أميركا» لنعمة سركيس المطبوع في نيويورك مطلع القرن العشرين (بلا تاريخ نشر). وسيرة محمد (إد) العريان إبن جبل حوران كما أملاها بالإنكليزية على زوجته الأميركية في سنة 1972: «رحلة من سورية إلى سمينول ـ تكساس». و«سبعون» (الجزء الثاني) لميخائيل نعيمة المنشور سنة 1960. وفيه قائمة بأسماء تتغير عند قطع الأطلسي: «هيكل» يصير «هاري» و«ملحم» يصير «وليم» و«دعيبس» يصير «دايفيد».

ظهره. سألته ماذا جرى. كانت ـ منذ شهور ـ تبيعه. لم يقل شيئاً. لم يفتح فمه. جلس على الكرسي الذي جلبته وبقي ساكتاً يمسح الدم عن أصابعه ويفحص ركبته المجروحة: البنطلون تمزق. سألته هل وقع وهو يقفز من القطار؟ قالت ذلك وهي تعرف أنه لم يقع. أرادت فقط أن يتكلم. لم ينظر إليها. سكبت له ماء. شرب الماء وبينما يشرب بصق نصف ما شربه على الأرض ونهض واقفاً. رأت ساقه ترجف. ثم رأت أغرب مشهد في حياتها: صار يخبط الأرض ويدور على نفسه كأنه يرقص، لكن بلا فرح. كان يبكي، لم تعرف ماذا تفعل بجسمها وهو يبرم هكذا أمام عينيها... بعد ذلك جلس على الأرض. مرتا مدّت يدها ووضعتها على كتفه. استمرْ ذلك وقتاً. ثم كفّ عن البكاء.

لم تعرف من اعتدى عليه ولم تعرف كيف انتهى الأمر ولا ماذا جرى. بينما يبكي قال «يا أمي!»، شعرت بقلبها يتقطع عندما قال ذلك. كانت تعرف أنه صغير السنّ: سمعت أن خاله الملقب «بو سكين»* ندم لأنه دفع ثمن «الناولون» وجلب الصغير إلى أميركا. سمعت أنه أراد أن يرسله إلى «البلاد» (عيد ـ إد ـ هو الذي طلب: أفسد أيام خاله وهو يلحّ طالباً الرجوع إلى زحلة، إلى بيت أهله. لم يتحمل طرقات أميركا)، حتى أنه ذهب إلى شركة البواخر كي يقطع تذكرة. أخبروه أن ذلك لن ينفع. لا يمكن الوصول بالبحر إلى مرفأ

* على وجه طوبي قزما الخوري ندبة من ضربة سكين قديمة تعود إلى ليلة شغب في خريف 1905. جرايد نيويورك كتبت عن تلك الليلة: السوريون اشتبكوا بالسكاكين في مانهاتن السفلى. «نيويورك تايمز» (عدد 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1905) ردّت الخلاف إلى سببين: إنقسام ديني (بين الموارنة والأرثوذكس) وإنقسام مناطقي (بين سوريي مانهاتن وسوريي بروكلين).

بيروت. الغواصات الألمانية تُغرق جميع البواخر، ألا تسمع الأخبار؟

عَلِق عيد (إد) في أميركا. جلس مهشم الركبة أمام مرتا في المتجر في «ماين ستريت». جلبت قطعة قماش وبلّتها بماء فاتر من إبريق الشاي ونظّفت جرحه. كان يتنهّد كطفل. جلبت خيطاً وإبرة وخيّطت البنطلون المثقوب. قال: «أنا أفعل ذلك، أعرف كيف». قالت: «أنت اشربْ الشاي».

رجع بعد أسابيع. حمل لها من نيويورك هدية: كيلو «كشك». قال إنه دار على بيوت الحيّ السوري بيتاً بيتاً حتى وجد إمرأة تبيع «الكشك». قال إنه في زحلة كان يفضل هذا الطعام على جميع الأطعمة. «لا أحد يطبخ الكشك مثل أمي». مرتا أخذت الهدية وشكرته وقالت تعال غداً في الصباح ونأكل كشكاً. قال إنه ذاهب الآن إلى فرجينيا. ملأت كشّته. دفع ما عليه. ذهب ولم يرجع.

- 63 -

دعوة إلى عرس

كانت فترة ملآنة بالوجوه والأخبار. تدريجياً تكاثرت الأسماء في دفترها. «ناس الطريق» اكتشفوا الطريق إلى متجرها. مستر معمرباشي قال لها ضاحكاً إنها تزيد أسماء في دفترها بمقدار ما «يشطب» من دفتره. قبل حلول شتاء 1916 ـ 1917 زارتها وديعة صليبي آتية من سبرينغ فالي (إلينوي) وأخبرتها أن إبنها فارس سيتزوج ودعتها إلى العرس. مرتا قالت إن ذلك صعب جداً، فالعمل إلى فوق رأسها، ولا تستطيع أن تترك المتجر ساعة واحدة. وديعة صليبي ألحّت، قالت العرس في العطلة، قالت أنت صديقتي الوحيدة في أميركا، قالت أشياء كثيرة، قالت أنتِ مثل إبنتي وأختي، قالت لن أقبل ألاّ تأتي... غمرت مرتا بالكلمات واللمسات وقالت لا تكسري خاطري يا مرتا، أنا ليس عندي أحد، أقاربي في سبرينغ فالي ليسوا فعلاً أقاربي، والعرس سيكون صغيراً، فارس لا يحبّ الهرج والمرج، ولن يضايقك أحد.

رضخت. كان ذلك مزعجاً جداً بالنسبة إليها ومع هذا وعدت وديعة أن تحضر. بعد ذهابها سألت نفسها لماذا رضخت؟ كانت تُخرج أقمشة من صندوق وتوقفت نظرتها عند البقعة حيث جلس إد (Ed) وبكى. نقط الدم تركت أثراً أسود على خشب الأرضية. حاولت إزالة الأثر بالماء والصابون. لم تنجح. لماذا تفكر فيه الآن

وهي تفكر في عرس فارس إبن وديعة؟ طوال شهور، وفي كل مرة تطبخ كشكاً أو تأكل بالخبز كشكاً وزيتاً، كانت تتذكره وهو يخبط الأرض بيديه وتتساءل أين هو الآن وتصلي أن يُوفقه ربّنا. تعمدت أن تترك جزءاً من الكشك الذي جلبه في مرطبان على حدة. أرادت أن تطبخ له حين يجيء. مرّت الشهور ولم يرجع. حدّست أنه لن يأتي مرة أخرى. يوم الأحد، وهي تصلّي في كنيسة صارت كنيستها (هناك نامت ساعة في 7 نيسان (أبريل) 1914)، وتسأل نفسها لماذا تباعدت أوقات صلاتها في بيت الربّ، شعرت ببرقة في ظهرها. في اللحظة ذاتها رأت حبّات المسبحة تكرّ على الأرض.

هذه الحادثة ستبقى منحوتة في ذاكرتها. خيط المسبحة انقطع بعد برقة ظهرها أم العكس؟ لعلها رأت الحبّات تنفرط فبرق ظهرها! هذه مسبحة أمّها، أثمن ما حملته من بتاتر عندما جاءت إلى أميركا قبل سنين. (ورسائل خليل؟)

جمعت الحبّات. تدحرجت تحت المقاعد لكنها جمعتها. رأت الأيدي تحمل إليها الحبّات. في الأحد لا تفرغ كنيسة. مع أن هذه الكنيسة نادراً ما تزدحم. لم تنتبه لوجود الناس حقاً إلا في تلك اللحظة. بينما تصلّي يغيب العالم. الآخرون يختفون. المكان كبير أصلاً، وبعض الذين يصلون يحبّون الاختفاء وراء الأعمدة. اقتربت منها عجوز بيضاء الشعر، تلبس كنزة من الصوف الأخضر وتحمل مظلة خضراء. أعطتها إحدى الحبّات المفقودة. عدّت ما في كفّها. كانت تشكر الناس وتحصي الحبّات مرة أخرى. شعرت أنها صغيرة، شعرت أنها ـ من جديد ـ تضيع في غابة. لم تفهم كيف تقع هكذا في لحظة. بَرَقَ ظهرها كأنه انقطع. وعندما زال الألم بقيت الذكرى، مثل طعم في الفم.

تساقط المطر غزيراً على سقف القطار الذي حملها إلى سبرينغ فالي (إلينوي). صحت السماء وانقشعت الغيوم بينما نهر أوهايو يظهر ويختفي وراء الشجر. . . لكن ذلك دام وقتاً قصيراً ثم بانت غيوم جديدة ومرة أخرى انهمر المطر. لم تكن العواصف تأتي وتذهب. كان القطار يجري من ولاية ماطرة إلى بقعة مشمسة ثم إلى أمكنة ماطرة من جديد. مرتا ظلّت منشرحة الصدر، مسرورة، طوال الرحلة (كانت محملة بالهدايا، انتقتها بعناية، للعريس والعروس وأم العريس). جلبوا طعامها على صينية فضية. أكلت متمهلة وهي ترفع وجهها بين فينة وأخرى وتراقب البيوت المتباعدة وسط السهل الواسع كبحر. عند الغروب خرجت غزلان من غابة وتراكضت في الاتجاه المعاكس. خارج إحدى البلدات وقف أولاد في صفٍ طويل يرمون الحصى على جنب القطار ويكشفون بطونهم. تراجعت عندما طرقت حصاة إحدى النوافذ، وضحكت. نزل الليل عليها وهي ما زالت مرتاحة. أخرجت من جزدانها صنّارة الصوف. تركت «الكبكوب» في الجزدان. كانت تخيط شالاً. النسيج يكبر والخيط يخرج من بطن الجزدان وهي تبتسم. لماذا تبتسم هكذا؟ ما سرّ هذه السعادة؟ من أين ينبع هذا الفرح الداخلي؟ كل ذلك كان غامضاً ولم تفكر فيه. نامت وقتاً على المقعد ثم فتحت عينيها ورأت في الليل مدناً، بلدات، قرى، مصابيح تشع وتنتشر ثم تتراجع إلى الظلام. عندما بلغت المحطة الأخيرة، وقبل أن تنهض كي تُنزل العلب الملفوفة عن الرفّ، غدرها تعبٌ غامض مقدار غموض سعادتها أثناء الرحلة.

لن تنسى العرس أبداً. وقفوا في الكنيسة وبينما الكاهن يتلو النذور رأت رجلاً ينظر إليها ويبتسم. كان هذا علي جابر.

ـ 64 ـ
على تقاطع طرق

إنتابها شعورٌ غير مفهوم: كأنها تعرفه! كأنها رأته! لم تسأله هل رآها من قبل. كانت تعرف أن ذلك لم يحدث وأنها هي أيضاً لم تنظر إلى وجهه قبل هذه الساعة في كنيسة سبرينغ فالي التي سمّاها السوريون «راشيا الصغيرة». نظرت إليه ولم تستطع أن تبعد نظرتها. كان يحدّق إليها ولم تتضايق. الحرارة في بطنها لم تزعجها. الدفء في الحجاب الحاجز. كأنه لا ينظر إليها: كأنه يراها وهو يغمض عينيه. وسألت نفسها من يكون؟ لم تعرف من قبل مثل هذا الإحساس. ظهر أمامها، في سحابة من البخور، وجهٌ لا تعرفه ثم ابتعد وتلاشى. هل فكرت في خليل عندئذٍ؟ في الليالي البعيدة كالخُرافة في بتاتر الضائعة ـ المنكوبة* ـ وراء المحيط والبحر واليابسة؟

خرجوا إلى باحة تغمرها الشمس. كانت الأشجار تتحلق في نصف دائرة وتذكرت حديقة تحبّها في فيلادلفيا. لم تكن تعلم عندئذٍ أنها ستفتح متجراً بعد عامين في «بارك ستريت» الممتد بمحاذاة الحديقة المذكورة. ولا كانت تعلم أنها ستقضي بسبب ذلك آحاداً

---

* أخبار ترد متقطعة، غير قاطعة، من جبل لبنان: الجراد أكل الأخضر واليابس؛ والمجاعة ضاربة.

طويلة وهي تصغي إلى عزف الفرقة الموسيقية العسكرية خارجاً من بين أشجار البارك*.

وديعة صليبي كانت تقفز من هنا إلى هناك مثل أرنب سمين. حضنت مرتا أكثر من مرة. وبعد كل عناق تعتذر لأنها تدعك ثيابها. هل أقول إن مرتا كانت تشع كالقمر في ذلك اليوم البعيد؟ هل أقول إن العيون نظرت إليها ولم تنظر إلى العروس والعريس؟ هذا كلّه غير ضروري. اقترب فارس بالبذلة وهو يسحب العروس بفستانها وتكلم معها. قال أمي تذكركِ دائماً. كلّمها بالإنكليزية. شكرها على الهدية والعروس شكرتها أيضاً. سألها كيف كانت رحلتها؟ التفت بينما تتحدث (أحدهم كان يلكز كتفه) وردّ بجفاء ثم استدار وتابع الإصغاء إليها. هي وجدت هذا (صوته الجاف) طريفاً جداً. بعد ذلك، عندما رأته يضحك لدى اقتراب الرجل الذي ملأ بطنها حرارة، شعرت بالسرور. لم تسأل نفسها شيئاً. كان جرس الكنيسة يُقرع، بعيداً وقريباً، منذراً بأشياء آتية. حرَّك الهواء أوراق الشجر، قلبها على هذه الجهة وتلك، بدّل لونها من أبيض إلى أخضر إلى أبيض. أشعة الشمس ملأت جسمها. قال الصوت ـ ليس جافاً الآن، تغيّر ـ «هذا صديقي علي جابر»**.

بعد ذلك سمعت ضحكات قوية. كان يضحك ضحكة لم تسمع مثلها منذ زمن بعيد. عيناه الواسعتان تكلمتا معها. لم تخف. لعلها اضطربت، لعلها خافت أيضاً. من يعلم؟ عندما صافحها أخبرتها اليد شيئاً. ماذا قالت يده؟ في تلك اللحظة ظهر آخرون،

* إحدى حدائق فيلادلفيا العامة. كانت تتوسطها آنذاك بحيرة اصطناعية مملوءة بالأسماك النادرة. أُزيلت الحديقة في خمسينات القرن العشرين.

** «My Friend, Ali Jaber».

تحركت الأجسام، والرجل صار مفصولاً عنها. مرّت الدقائق، اختفى، بحثت عنه بنظرة تائهة ولم تجده. لكنه عثر عليها. سمعت صوته وراء ظهرها والتفتت وسمعته يُكلّمها بإنكليزية مفككة. لفظ كلمات أسبانية. ضحك وقال هذا الإسبانيولي لا ينفع أيضاً. (لا الكلمات مهمة ولا معناها. هل تكلم بصوت عالٍ أم منخفض؟ كيف تحرك جسمه؟ الآخرون الذين يتأملون الإثنين ماذا أحسّوا في إيماءات جسمها، في إيماءات جسمه؟)

كان يحمل علبة تبغ في يده. رأته يقلب العلبة الفضية بين أصابعه وهو يسألها عن فيلادلفيا. لماذا يسألها عن ذلك، لم تفهم. كان يقول أشياء ويسأل، وانتبهت أنها لا تسمع. كانت فقط تنظر إليه. ماذا حدث لها؟ لا أعلم. إحدى النساء زغردت وراء ظهرها. كانت زغرودة طويلة، عالية، وكلّما تقدمت ارتفعت أكثر، كأنها طائر يهاجر فوق قرى من جبل إلى آخر... هل شعرت بالحنين إلى بيتها البعيد في تلك اللحظة؟ (هل تفكر أنه ما زال بيتها؟ أين بيتها؟ عندها بيت، مرتا؟)

حلَّ عليها تعبٌ. كأنها أرهقت جسمها وهي تمشي وتمشي وتمشي. أرادت أن يسكت العالم، أن يذهب هؤلاء الآن، وأن يتركوها وحدها.

ـ 65 ـ
علي جابر (3)

هذا كل شيء. التقيا ثم افترقا. ناس أكثر من الغنم وهي قالت إنها ستتأخر عن القطار. قالت شيئاً عن قطار، ثم اختفت... فردة قفاز سقطت منها. انحنى وخطف الفردة الصوف عن الأرض قبل أن تدوسها الأقدام، وعندما انتصب من جديد لم يجدها. كأنها تلاشت في الهواء! لكنها بقيت في رأسه. هل هذا صحيح؟ أوقعت فردة من قفازها؟ لعل شيئاً لم يقع، لعلها تلاشت بلا أثر، مثل فراشة. هذا كلّه غير مهم: بقيت في رأسه.

لكن ماذا أوصل علي جابر إلى سبرينغ فالي ـ إلينوي؟ تركناه على باخرة مبحرة إلى مونتفيديو. عندما رست الباخرة نزل مع أصحابه وتسكعوا في أرجاء المدينة. شربوا عصيراً تحت لافتة مكتوب عليها: URUGUAY. بعد ذلك ركبوا عبّارة ملطخة وحلاً قطعت النهر الفضيّ (Rio de la Plata) إلى بوينس أيرس. هنا، في متاهة شوارع متقاطعة وباحات بأبواب حديد مطرقة، عثروا بينما الظلام يهبط على معارف. أحد الأسبان الثلاثة أجهش بالبكاء مثل ولد وهو يعانق أقاربه. علي جابر أراد أن يضحك لكنه لم يفعل. وضعوا لهم طعاماً وأكلوا. جلبوا لهم بطانيات وناموا.

في الصباح الباكر ذهبوا جميعاً إلى حوض السفن. حمّلوا بضائع حتى بلّلهم العرق من الرأس إلى أخمص القدمين. بينما يقفون

في الصف عند المساء كي يقبضوا الأجرة اليومية نظر علي جابر إلى رقبة صاحبه حمراء كالدم وقال «في ضيعتك كنت مكّاراً تسوق البغل، هنا صرت بغلاً». الإيطالي (إسمه خوليو) استدار وهو يمسح العرق عن وجهه وقال «كلّنا بغال». كانا بلغا عندئذٍ الرجل الذي يدفع النقود للشغيلة. مدّ خوليو يده مفتوحة فأسقط فيها الرجل ثلاث قطع معدنية، مطفأة اللون. قال خوليو: «الذي قبلي أخذ خمسة، لماذا أنا ثلاثة؟». الرجل ردّ بلامبالاة «أنت جديد». خوليو أكمل طريقه أسود الوجه. علي جابر بعده. فتح يده وانتظر. الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة. قال للرجل: «أنا لست صاحبي، أريد خمسة». الرجل ردّ وهو ينظر إلى العينين الواسعتين: «أنت جديد مثل صاحبك. الجديد يأخذ ثلاثة». علي جابر لم يرمش له جفناً. قال: «أنا مكانك، أعمل مرة استثناء». الرجل ضحك من الإنكليزية المحطمة الممزوجة بإسبانية محطمة أكثر منها. لعله ضحك كي يبعد عن نفسه الاضطراب. الكلمات بلا قيمة. بدا الحمّال الجديد الواقف أمامه مثل تمثال غير قابل للحركة من دون قطعتين بعد. أعطاه قطعتين أيضاً وقال: «لكن غداً تأخذ ثلاثة. وبعده تأخذ أربعة. ثم تصير أجرتك خمسة كل يوم، مثل الباقين». علي جابر أودع النقود جيبه وهو يقول: «إذا رأيت وجهي غداً».

تلك الليلة قضاها يقنع أصحابه أن هذا العمل ليس لهم. «لو أردت أن أحمل صناديق كنت بقيت في مرفأ بيروت». تكلم عن الأراضي المشاع في توكومان. حفظ الإسم Tucuman: بينما يحمل صناديق أثناء النهار تكلم مع آخرين. سألهم أين هي هذه الأراضي التي توزعها الحكومة على الناس؟ هل صحيح أن الواحد يقطع الأشواك والأشجار، يوسع مكاناً في الغابات، يحرث الأرض

ويزرعها وتصير له؟ هل صحيح أن حطب الأشجار ملكه أيضاً؟ ومن خشب الأشجار يمكن له بناء بيت؟ وماذا تأخذ الحكومة في المقابل؟ لا شيء؟ معقول؟ هل الحكومة أمُّنا؟ كان آتياً من عالم بعيد وفي يومٍ واحد حفظ الإسم San Miguel de Tucuman وقرر أن يذهب إلى هناك.

أصحابه استمعوا إليه كما فعلوا دائماً. لكنهم في هذه المرة بدوا مترددين. قالوا ننتظر قليلاً، أسابيع قليلة كي نرتاح. ضحك وقال: «نرتاح؟». أحد الأسبان الثلاثة ـ هذا أصغرهم، يدعى ميغيل ـ قال: «أنا أذهب معك حتى لو ذهبنا وحدنا». كان حنطي اللون، في مثل سنّه، عيناه صغيرتان كمسمارين، ولا أحد يسبقه في الركض أو في لف السكائر: كأنه خرج من بطن أمه وهو يفرد الورقة ويملأها تبغاً ويركض. علي جابر قال «أعرف»، وتابع إقناع الآخرين. تدخل أحد الإسبان الذين استقبلوهم وشرح له بينما يشرب شاياً مرًّا يسمّونه «ماتي» أن الأرض في الشمال ليست كسهل البامبا* هنا... البامبا خصب التربة، تقطعه من جهة إلى أخرى ولا تجد حصاة واحدة. لن تجد في السهل صخرة تربط إليها حصانك. لكن في الشمال لا تنفعك الأرض شيئاً. كلّها صبّار وصخور. ولهذا يأخذها الحمقى بلا ثمن.

علي جابر سكت أمام الرجل، (أولاً لأنه لم يفهم نصف كلماته. ثانياً لأنه كبير في السنّ. ثالثاً لأن الرجل أعطاهم بطانيات وملأ أطباقهم فاصوليا). لكنه أعلم أصحابه أنه في الصباح يُسافر.

نام على أساس أنه ذاهب وحده فجراً. أيقظوه قبل أن تشرق

---

* pampa.

الشمس وقالوا: «علينا أن نتحرك». وهكذا ذهبوا إلى توكومان. كانت رحلة طويلة. توقفوا في أكثر من محطة. كانت هناك مناطق بلا سكك حديد ترعى فيها أعداد مخيفة من الماشية. وهذه قطعوها على الأقدام أو راكبين عربات تجرها ثيران أو أحصنة. في بعض الأوقات اشتغلوا في مد سكك الحديد، ثم تابعوا الرحلة قبل وصول القطار. بلا بوصلة أضاعوا الدرب مرات. دخلوا البرازيل ثم خرجوا منها. بعد شهور بلغوا توكومان. لن يستقروا هنا. لن يعطيهم أحد أرضاً هنا لأن المكان ـ بعكس ما قاله الأسباني العجوز ـ ليس صحراء: أدهشتهم الأنهار وحقول الرز، سهول التبغ وقصب السكر. لن يستقروا هنا. ستحدث أشياء كثيرة وبعد وقت يتفرقون.

- 66 -

الرجوع إلى المتجر

وجدتْ السيد سكياس في إنتظارها. قال إنه يريد منها خدمة. مرتا سألته كيف تستطيع أن تساعده؟ أخبرها عن آشا. قال إنها يتيمة، أهلها ماتوا، قريتها على الحدود التركية ـ الروسية، أحرقوا القرية، لم يبقَ فيها بيوت، هدموها كلّها والناس دفنوهم «فوق بعضهم» في حفرة كبيرة. آشا كانت عند أقارب في قرية أخرى ونجت. ممرضة في الصليب الأحمر أنقذتها. أخذوها إلى أستراليا. والآن هي في بيته. صلة القربى بينهما بعيدة، لكنه يريد الإعتناء بها. مرتا ظنّت أنه يريد أن يأخذ المتجر. لسبب لا تعرفه ظنّت ذلك. كانت على خطأ: أرادها فقط أن تأخذ آشا تحت جناحها وأن تعلمها «المصلحة». بدت مترددة. بينما يتكلم تخيلت نفسها تترك هذا المتجر الذي اعتادت عليه. لم يضايقها ذلك تماماً: تستطيع أن تفتح متجراً يخصّها. منذ فترة تدخر مالاً. لم تكن منزعجة ومع هذا وجدت نفسها متعلقة بالمكان. عندما أنهى السيد سكياس حديثه كانت لا تزال شاردة في أفكارها. سعل وغطى فمه بمنديل ثم أردف: «إذا كان ذلك صعباً بالنسبة إليك...». قاطعته مرتا: «بالعكس، أنا بحاجة إلى من يساعدني». السيد سكياس ارتاح عندئذٍ. لكن ارتياحه لم يدم إلا لحظة... ثم تكلم: «المشكلة أنها لا تحكي، هذا ما أردت أن أقوله لكِ».

العلاقة اليومية بالفتاة البيضاء الساكتة أعطتها إحساسين متناقضين: الدفء والبرودة. لم تكن بلهاء، كانت ذكية. وفي وقت

قصير تعلمت أن تخدم الزبائن. وقت الراحة، بينما تشربان الشاي وتأكلان كعكاً، تحدق الفتاة إلى الطريق، إلى السيارات والعربات، تترقب مرور الترامواي بعربته الحمراء ذات البريق... أحياناً تسحب عن المقعد الجريدة التي تركتها مرتا وتنظر إلى الصور... صور صغيرة معتمة، فيها جرحى، أو غابات محروقة، أو سيارة بيضاء وحول السيارة يتجمع أولاد يحملون البالونات. لا تقرأ، مع أنها تعرف الإنكليزية. لكنها لا تقرأ الجريدة. مرتا رأتها تنظر إلى الصور ثم ترد الجريدة إلى مكانها وتنهض وتقف إلى الزجاج. أحياناً ترسم على وجهها الأبيض شبه المستطيل ابتسامة، بينما تأكل شيئاً (تجلب طعاماً معها من البيت ومرات تذهب مع مرتا إلى المطعم المجاور)... إذا فعلت هذا، إذا ابتسمت، تشعر مرتا أن المسافة بينهما تضاعفت مرتين. كأنها لا تبتسم، كأنها لا تطيق مرتا! لا تطيق أنها هنا! لكن هذا قليل الحدوث. ما يحدث أكثر هو أن تتحرك كأنها نائمة. أن تقضي اليوم كلّه نائمة وهي تتحرك وتخدم الزبائن وتطوي الألبسة والأقمشة من جديد وتردها إلى المكان المخصص لها على الرف من دون خطأ، كل ذلك وهي شاردة في مكان آخر لا أحد يعلم أين هو. كأنها ليست حيّة! كأنها شبح! وفي هذه الأوقات ـ وهذا مبهم إلى حد ـ تشعر بها مرتا قريبة، أليفة، كأنها جزء من المتجر... كأنها كانت دائماً هنا!

في مرات نادرة خرجت الفتاة البيضاء الساكتة (آشا) عن عاداتها. كانت تجيء في الصباح الباكر (في البداية كان السيد سكياس أو ابنه يوصلها... بعد ذلك صارت تجيء وحدها ماشية وهي تحمل مظلة بيضاء). تقضي النهار في المتجر وتغادر عند الغروب. إذا أرادت ظهراً أن تأخذ نَفَس هواء تخرج إلى الرصيف. وتبقى في النقطة ذاتها ولا تبتعد. في إحدى المرات مرّ عجوز يبيع ذرة واشترت منه. كان ذلك غريباً جداً. مرتا نظرت إليها تأكل الذرة

كالسنجاب واقفة تحت مصباح البلدية المطفأ فابتسمت لا شعورياً. بعد قليل فاجأها حزنٌ. هذا المزاج المتقلب كان ينهكها.

جاء مارون أسطفان مع صديق له من نيويورك. كان يحمل لها بضاعة من مخزن أبيه وهدية اختارها بنفسه من أحد أفران الحي السوري. ظهر فجأة في باب المتجر ـ من غير توقع ـ ضاحك الوجه، وألقى التحية باللغة العربية التي يتكلمها على طريقته.

صديقه وقف مرتبكاً أمامها ثم أمام آشا التي ضاعفت ارتباك الجميع. ضحك مارون بصوت عالٍ وهو يصف كيف أضاع الطريق من المحطة إلى هنا ثلاث مرات. ربّت على ظهر صديقه وقال «المسكين» Poor Man. كان صديقه متين البنية، تكفّل بحمل الصندوق الثقيل، وترك لمارون حمل علبة الحلوى. مرتا شكرت الاثنين وهي تخطف مقصاً من تحت المنضدة وتقطع خيط العلبة المربوط على شكل فراشة. رائحة البقلاوة ملأت المكان. وآشا اقتربت خطوة كي ترى.

أخبرها مارون وهو يقف على الرصيف أنه سيترك البيت ويذهب إلى كاليفورنيا. سألته ماذا سيفعل في كاليفورنيا؟ قال إنه لا يعرف بعد. سألته ما رأي والده؟ كان سؤالها بالإنكليزية. من تلك اللحظة استمر الحديث بالإنكليزية. أقنعته أن يؤجل هذا وقتاً. ما دام يقدر أن يذهب إلى أي مكان من دون معارضة حقيقية فلماذا يترك البيت؟ ليس مضطراً إلى ذلك. هزّ رأسه وهو ينظر إليها. أراد أن يقول شيئاً لكنه استحى. رأت ذلك في عينيه. سألها كيف تجد فيلادلفيا، هل تحبّ المكان؟ مرتا تذكرت علي جابر. السؤال ذاته. تقريباً.

- 67 -

علي جابر (4)

المسألة تبدو مضحكة لكن هذا ما حدث لهم: كانوا يبحثون عن أرض وعرة يستصلحونها ويستقرون عليها فوجدوا غيرهم سبقهم إليها! (لكن لماذا يطلبون أرضاً؟ لماذا تركوا أوطانهم إذاً؟ هنا أحسن؟ الأمكنة أوسع؟ المعارف أقل؟ الأقارب أبعد؟ لم يملكوا أرضاً هناك ـ في الجانب الآخر؟). أود أن أتخيل وجوههم وهم يرون الخضرة تنتشر حتى الأفق بينما علي جابر يقطف برتقالة من شجرة ويقول: «وصلنا». داروا في المدينة التي تتوسط السهل الأخضر يسألون عن أراضٍ مشاع. أحد المارين التفت وقاسهم من فوق إلى تحت ثم أشار بإصبعه إلى سلسلة الجبال المكلّلة بالأبيض، وراء صف الأبنية الصفراء: «في رأس الجبل». مضى ضاحكاً على طرفته. علي جابر لم ييأس. ذهب إلى متجر يبيع أكياساً مملوءة بحبوب لم يرَ مثلها من قبل (كانت الأكياس مفتوحة أمام الدكان، تفوح منها رائحة طيبة عارمة القوّة) وسأل الرجل الواقف يأكل خبزاً أسود اللون ماذا يوجد هناك، في الجبال، هل توجد أرض للزراعة؟ الرجل ردَّ واجماً: «مناجم».

علي جابر اقترح الصعود إلى الجبال، لا للعمل في المناجم ولكن على سبيل «الفرجة». وربما وجدنا أرضاً. هذه المرة لم يقبلوا. بدوا جيشاً مهزوماً وهم ينظرون مرة أخرى إلى مياهٍ تجري زرقاء في حقول الفواكه والشمندر وقصب السكر. كم أرادوا أن

يصنعوا هم هذا! وصلوا متأخرين! اشتروا خبزاً وأكلوه هكذا، وحده، في ساحة يبيع فيها الهنود زعتراً وإكليل الجبل ونباتات غريبة يقطفونها من المرتفعات. ذهب علي ساعة ثم رجع يحكي عن البرازيل: «إذا قطعنا الحدود نجد الأرض». كانوا يتحركون شمالاً فقال ميغيل «إذا تابعنا هكذا سنجد الأرض في نيويورك». علي جابر ضحك وكذلك فعل الباقون. كانت الشمس تغرب ومشوا على ظلالهم الطويلة حتى سكة الحديد. عثروا على مخزن متداعٍ، تتبعثر فيه صناديق مكسرة وسخة، وأكوام أتربة، ومعدات محطمة. أشعلوا ناراً وتحلقوا حول النار. عندما تمددوا أخيراً كي يناموا قال أحدهم: «المناجم فكرة». ركلوه بالأقدام ثم غرقوا في نوم عميق. عند الصباح انطلقوا بحثاً عن عمل في المدينة. في الساحة حيث يتجمع بيضٌ وهنود وخلاسيون وجدوا عربة تبيع حلويات مقلية. اشتروا منها وأكلوا. كانوا على حافة الجوع، على حافة التضور جوعاً. ابتسم لهم الحظ ذلك النهار وقضوا الوقت حتى المساء في مزرعة خارج المدينة يقطفون الفاكهة. ملأوا عدداً ضخماً من السلال وأكلوا حتى شبعوا وأخذوا بينما الظلام يهبط أجرة يومهم.

انتفخت بطونهم وميغيل قضى نصف الليل في العراء، مقعياً كحيوان، يئن. عند طلوع الفجر ذهبوا إلى المزرعة وحدهم، سيراً على الأقدام. والناظر عيَّن لهم بقعة للقطاف وسألهم هل يحتاجون إلى متّة وتبغ. كانوا يجهلون ذلك: هنا يُعطى الواحد ـ إضافة إلى أجرته اليومية ـ حصة تبغ وحصة متّة (maté).

هكذا تعلم علي جابر شرب المتّة (المهاجرون السوريون إلى تلك البلاد عادوا إلى أوطانهم يحملون أكياس المتّة. هذه العشبة اليابسة تحولت إلى جزء من حياة الجبليين في بلاد الشوف: يشربونها كل صباح، كل ظهيرة، وكل مساء. ولعل علي جابر بين أوائل من

أدمنوها إدماناً كاملاً. صار يشربها في جميع الأوقات. ولا يذهب إلى أي مكان من دون صرّة المتّة والقرعة ـ الكأس ـ والبومبيجة bombilla التي تُشرب بها في جيبه). وهكذا مضى عليهم الصيف ثم الخريف (قطفوا عنباً أيضاً) وهم في مقاطعة توكومان. لكنهم مع اقتراب الشتاء شعروا بالبرد. كانت الثلوج تنحدر على سفوح الجبال حيث المناجم. رأوا أعداداً ضخمة من العمال تنزل من فوق. كانت عيونهم غائرة في وجوههم، بيضاء، ومن أجسامهم تفوح رائحة الأرض والنحاس. بدوا أقرب إلى الأشباح في ضوء الشتاء.

علي جابر ذهب في إحدى جولاته الطويلة وعاد عند المساء وسأل أين إبريق المتّة؟ سخّنوا الإبريق وبينما يبلّ المتّة في قرعته بماء فاتر أخبرهم: التقى رجلاً سمساراً يعمل في سكك الحديد، يجمع العمال لمدّ السكك ويقبض على كل رأس عمولة. الرجل مشهور في المدينة، يستطيع أن يدخل أي زقاق في أي أرض وأن يخرج وخلفه 30 أو 40 عاملاً! يجمع الرؤوس ويقبض عليها ويقول للجميع صراحة أنه يفعل ذلك، ويأخذ من العمال أيضاً حصة. كان يشرب مع آخرين أمام الحانة، لا داخل الحانة، وجاء واحد يحمل شارة ومسدساً وفرض عليه غرامة. وهذا الرجل (جامع الرؤوس) أخرج من جيبه رزمة أموال ودفع للشرطي ـ من دون أن يفتح فمه ـ ورقة واحدة.

سألوه ماذا حدث بعد ذلك؟

علي جابر قال إنه تقدّم من جامع الرؤوس وتكلم معه وقتاً. جلسا وشربا وأكلا بزراً. تكلّما عن أشياء كثيرة وأماكن أكثر.

ـ «وبعد ذلك؟»، سألوه.

علي جابر أخذ وقته قبل الجواب. عندما فرغت قرعة المتّة من الماء وأصدرت قرقرة، قال: «أحسن أن نرجع إلى أميركا».

- 68 -
علي جابر (5)

ملأ القرعة ماء حاراً وردّ الإبريق إلى مكانه على النار ثم شرح لهم أن الأراضي المشاع الباقية في بلاد الأرجنتين لا تصلح إلا لإقتلاع الحجارة. جامع الرؤوس أعلمه أن الغابات الجيدة الباقية كلّها في البرازيل لكنها ملآنة ثعابين، وكل ثعبان كالتنين يفطر على ثور ويتعشى ثوراً. وإذا وجدوا في البرازيل غابة معقولة واستصلحوا الأرض لن ينبت فيها إلا الكاكاو وهذا لا يقدر على زراعته إلا أهل البرازيل لأنهم يعرفون مواقيت الصحو والمطر. . . وحتى هم تخرب بيوتهم من موسم إلى آخر. إذا طال الصحو ييبس الموسم. وإذا زاد المطر يخرب الموسم. الغابات الباقية في الأرجنتين حور وسرو وسنديان وأرز، هذه تحميها الحكومة وإذا قطعت منها يقطعون يدك. جامع الرؤوس قال الكلّ يهاجر شمالاً الآن إلى كاليفورنيا. الحكومة الأميركية لا توزع الأراضي مجاناً لكن بالدَيْن: نأخذ الأرض سلفة ونزرعها ونسدد بعد كل موسم دفعة وهكذا، إلى أن تصير الأرض لنا. هنا حتى لو وجدنا أرضاً وزرعناها لن نضمن أن تبقى في يدنا. هذه بلاد يحكمها الجيش، إذا مرّ ضابط وأعجبته مزرعتنا يأخذها منا، هكذا، بلا إذن ولا دستور. كاليفورنيا خصبة التربة كالبامبا هنا، كل شيء ينبت فيها، وطقسها أحسن طقس في العالم، إلى هناك علينا الذهاب.

ميغيل قال ماذا لو حبسونا في «إليس أيلاند» هذه المرة؟

علي جابر شرح له أنهم لن يدخلوا أميركا بالبحر، هناك طريق بريّة، عليهم أن يستدلوا بالنجم القطبي الشمالي، هذا سهل، وإذا مشوا بما يكفي بلغوا ريو غراندي، نهر يفصل بلاد المكسيك عن أميركا، فيه مراكب تقطعه تحت جنح الظلام، وهكذا يدخلون بلا المرور على الجمرك.

مثل كل مرة لم يقتنعوا. قال علي جابر «أنا قررت»، ثم خرج كي يُبوّل. لحقوا به واحداً بعد واحد. اصطفوا إلى الحائط وأفرغوا على الطين ما شربوه من متّة. ميغيل ضحك وشتم البخار. رفع وجهه إلى السماء وأخذ يغني. تلك الليلة، بينما يخرج من بيت دعارة زهري اللون في إحدى ضواحي توكومان، ارتطم بشخص نصف سكران واشتبك معه. الآخر شتمه وأخرج سكيناً. تلقى ميغيل الطعنة في بطنه ووقع على التراب. حملوه على بغل إلى الحبس. نزف ومات. عند غروب اليوم التالي دفنوه في المقبرة.

علي جابر وقف أحمر العينين يواجه الشمس. خلال أيام وجد أن البقاء بينهم صعب. عندما اقترح عليه صاحب مزرعة أن يذهب مع فريق رعاة إلى مزرعة على الجانب البرازيلي من الحدود كي يساعد في جلب قطيع من الثيران إلى هذه الجهة، قَبِل المهمة وأعلم أصحابه. أخبروه أنهم قرروا السفر إلى بوينس أيرس. هزّ رأسه ثم صافحهم واحداً واحداً، وهو يلفظ أسماءهم على صوت عالٍ. وهكذا صار وحده. كان بلا حصان لكن الرعاة جلبوا له حصاناً. بينما يمتطيه استعاد أيام الجبل القديمة وفكر في أبيه وفي أخيه. هنا الركوب أجمل: السهل يمتد شاسعاً والحصان يطير وحده. بينما الحوافر تقرع الأرض ملأه الفرح ونسي ميغيل السريع كثعلب. لكنه

في ذلك المساء، قبل أن يغمض عينيه بعد صحن الفاصوليا واللحم، تذكر ضحكة ميغيل الواسعة وشعر بمخلب خفي يسحق قلبه.

توالت الأيام. في عيد الميلاد، قبل أيام من نهاية 1915، قطع النهر المكسيكي ووجد نفسه في أميركا. في كولومبوس ـ نيو مكسيكو اشتغل في مزرعة تملكها عائلة برتغالية. كان أقوى من ثور. بينما يساعد في إصلاح سقف الإسطبل أنقذ أحد الرجال من موت محقق: الرجل انزلق وكاد يدقّ رقبته لكن علي مدّ يداً والتقطه. على العشاء سكبوا له صحناً مملوءاً بالفاصوليا السوداء، صغيرة الحبّ دسمة شهية الطعم، مطبوخة بثلاثة أصناف لحم. السيدة التي أنقذ ابنها من الموت كانت تبتسم له كأنها أمه. كرّمته وغاصت بيدها في الطنجرة وأخرجت أجمل قطعة لحم ووضعتها أمامه. أكلها. كانت غريبة. مضغها على مهل، وشكر المرأة. أخبرته أنها شاكرة له إلى الأبد وكل ليلة ستذكره في صلاتها. هو في المقابل سألها ماذا أكل للتو.

ـ أذن خنزير.

لم يشرح لها أن هذا ممنوع في دينه. لكنه بعد نوم الجميع خرج ووقف في العراء ويده على بطنه. كانت النجوم أكثر من حبّات الرمل على شط البحر. نورها الفضّة سطع فوق صحراء من القصعين والرمل.

في الصباح انطلق صوب كاليفورنيا. بعد أسابيع، وهو يطلّ على سان فرانسيسكو المنتشرة على سبع هضاب وخلفها البحر الفاتح الأزرق، سمع أن متمردين مكسيكيين يقودهم بانشو فيلا هاجموا الحدود وقتلوا ناساً ثم رجعوا إلى المكسيك. هذا النبأ بعث فيه نشاطاً غير مبرر. قطع طريقاً طويلة ماشياً من دون أن تمرّ عربة

واحدة. تورمت قدماه في الحذاء وتذكر رجلاً أخبره مرة أنه يحتفظ في كيسه دائماً بحذاء ثانٍ أكبر نصف نمرة.

بلغ بلدة تبعد بضعة أميال عن المحيط الباسيفيكي. كانت تتدرج على تلّة. بحث عن أقرب حانة ودخل وطلب كوباً من البيرة. كان العرق ينضح منه. بينما يلف سيكارة ثم يبلع بلعة بيرة كبيرة شعر أنه مراقب. التفت فرأى رجالاً يلعبون ورقاً. لم ينظروا صوبه. على طاولة في الزاوية رأى شخصاً ينظر إليه. كان حنطي اللون، أسود العينين والشعر، سوري الملامح. جنبه على الأرض استقرت «كشّة»: صندوق بسيور. شرب بلعة أخرى وأشعل سيكارة. قبل أن ينفخ على الكبريتة التفت مرة أخرى. كان الرجل ينظر. ترك مكانه وذهب إليه مع كوب البيرة وقال «مرحباً».

الكشّاش ابتسم وقال «مرحباً». كان غريب اللهجة، مثل أميركي يتكلم العربية!

هذا فارس صليبي. تصادقا. لم يشترِ علي جابر أرضاً في كاليفورنيا. اشترى كشّة وصار ـ مثل صاحبه الجديد ـ كشّاشاً.

قبل أن يحلّ الشتاء وجد نفسه في سبرينغ فالي (إلينوي) يحضر عرس صاحبه ويرى ـ تحت سقف كنيسة ـ إمرأة تأسر القلب.

- 69 -
زيارة جوزف (خريف 1917)

عَبَر الشتاء. كانت الثلوج تذوب وتذكرت مرة أخرى الرجل في سبرينغ فالي. أثناء الربيع مرّت الفرقة الموسيقية العسكرية في الطريق. الواجهة الزجاج ارتجفت، صنوج وطبول وأبواق. عادت إليها ذكرى المحطة في نيو أورلينز. الراديو يُذيع مارشات حماسية. البرامج تغيّرت. الحكومة استولت على الإذاعات. في صالات السينما يعرضون أفلاماً قصيرة ـ بين الأفلام ـ عن الحرب في أوروبا. رجال من واشنطن. يعتلون منصات في الساحات العامة ويدعون الشباب إلى التطوع وخدمة الوطن. عُلِقت بوسترات كبيرة:

Your Country needs You

رجل أبيض الذقن يعتمر قبعة تُمثّل العلم الأميركي، يسدّد إصبعه إلى المارين أمامه. ينظر مقطب الحاجبين ويبدو مصرًّا. ترى البوسترات أينما ذهبت. تكاثرت الصور أثناء الصيف. غطت الحيطان. في محطة السكك رأت امرأة حمراء الثوب تنام بحمرة على خديها.

WAKE UP AMERICA!

لم تتخيل أن الحرب هناك ـ وراء المحيط ـ قد تصل إلى هنا. حتى عندما قرأت في الجرايد عن البواخر الأميركية التي تُغرقها طوربيدات ألمانية، لم تتخيل. بدا لها المحيط شاسعاً وبلا نهاية.

كانت تتذكر رحلتها وتفكر أن هذا العالم لا علاقة له بذاك العالم. . . مع أنها جاءت من هناك إلى هنا! كانت الأمواج تتورم في رأسها وتشعر أن شيئاً في جسمها يتغير كلّما دنت مرّة من ساحل الأتلانتيك.

زارها جوزف أسطفان في الخريف. أشرق وجهها حين رأته يدخل. أوكلت أمر المتجر إلى آشا واصطحبته إلى المطعم المجاور. كانت حرّة الحركة، تلبس تنورة قطنية فاتحة اللون وبلوزة خفيفة. الزنار العريض البنيّ يحزم خصرها ويُظهر قوامها. بينما تدفع باب المطعم أحسّ جوزف أسطفان بعيون كثيرة مسلطة عليهما. في الشارع أيضاً تستدير الرقاب. جلستْ مواجهةً الطريق. رأتْ عبر الزجاج ملصقاً جديداً ملوّناً على حائط الكنيسة:

UPHOLD OUR
HONOR
FIGHT
FOR
U.S.

إمرأة بيضاء الثوب وراء ظهرها العلم الأحمر الأبيض والأزرق ترفع ذراعاً عارية وتشير إلى الكلمات: UPHOLD OUR HONOR. كان جوزف يحكي عن إبنته الصغرى عندئذٍ ومرتا ابتسمت. (نعرف ماذا قال. هذا حديث سمعنا أجزاء منه في الفصل 43).

حين أخبرها أن مارون تطوّع في الجيش الأميركي تغيّر لون وجهها. أرادت أن تفعل شيئاً. أن تتكلم مع مارون. «إذا ذهب إلى الجبهة يقتلونه، عليك أن تمنعه». لم تقل هذا لكنها فكرت فيه. جوزف أسطفان طوى المنديل مئة طيّة:

ـ قلتُ له أن يذهب إلى ديترويت. يريد أن يستقل، يريد الخروج من البيت، أوكي، أفهم هذا، صار رجلاً... لكن كل أولاد أصحابنا في بروكلين ذهبوا إلى فورد*... خمسة دولارات في اليوم لـ 8 ساعات عمل... سنة واحدة ويدّخر ألف دولار بسهولة. وأنا أدعمه ويفتح مصلحة. نحن انقطعت ظهورنا قبل أن نفتح محلاً. هذه فرصة ذهبية، المعامل بحاجة إلى عمال، الكلّ يؤخذ إلى الحرب غصباً عنه وهو يستطيع أن يبقى هنا، لكنه يتطوّع!

جلبت النادلة «البفتاك» والبطاطا المقلية. مرتا رأت فتية ببرانيط كاكية ونساء بمعاطف خضر يحملون ملصقات. واحد تسلق سلماً. آخر ناوله سطلاً وفرشاة. دهنوا الحائط صمغاً. وفردوا الإعلان إلى أعلى:

Beat Back The HUN

With

LIBERTY

BONDS

جندي ألماني يحدق بعينين مظلمتين إلى قرية محروقة. من رأس الحربة يقطر دم. (السيد سكياس قال إنه اشترى من هذه

---

* جذبت مصانع فورد (Ford Motor Company) السوريين من أنحاء أميركا عندما رفعت أجورها، فنمت الجالية السورية في ديترويت ـ ميتشيغان من 417 سورياً في 1910 إلى خمسة آلاف سوري في منتصف العشرينات من القرن العشرين. أنظرْ كتاب غريغوري أورفللي عن «العرب الأميركيين» وكتاب أليكسا ناف (Becoming American) وشهادة أحمد لاري في جريدة «الهدى» المترجمة بعد ذلك إلى الإنكليزية والصادرة في نيويورك سنة 1939: «Two Syrians, Two Stories» by Ahmad Larry.

السندات*. أخبرها ذلك وهو يستقل الترامواي عند المساء. على جنب العربة الحمراء رأت ملصقاً آخر: HELP OUR BOYS.

بينما جوزف يقطع شريحة اللحم انتبهت إلى التجاعيد الطارئة على وجهه. رافقته إلى محطة السكك الحديد. في دوّامة الحديد والزجاج، وقبل أن يصعد إلى القطار، أعلمها أن جو (خليل) عاد إلى نيويورك وأنه يسأل عنها ويريد أن يراها. نظرت إلى الأرض وقتاً يختصر سنوات ثم رفعت وجهها. خرج صوتها حازماً:

ـ قلْ له: مرتا لا تريد أن تراك.

* ليبرتي بوندز: «سندات الحرية». أصدرتها الحكومة الأميركية لدعم المجهود الحربي. السند الواحد بخمسين دولاراً.

ـ 70 ـ
شامل دميان

كشّاش لم ترَه من قبل، دخل والورق اليابس الأصفر والأحمر يتطاير في دوّامات صغيرة أمام البوسترات التي غطت الحيطان. فكّ سيور «الكشّة» وهو يلقي السلام بالعربية ثم بالإنكليزية. عندما دنا من المنضدة فاحت منه رائحة «العطوس». ذكّرتها الرائحة بمحطة بحمدون، بخالها، بالقرية البعيدة، بزمنٍ آمنٍ قديم. كانت على خطأ.

في سياق الحديث، بينما تسأله من دلّه إلى المتجر، ابتسم مكشّراً عن لثة صفراء:

ـ زوجكِ.

خرج الصوت من بين أسنانه بشعاً، خبيثاً. تراجعت إلى خلف كأن حضوره يؤذيها، أو يوشك على ذلك. سألته وهي تضغط ماسورة القياس بين أصابعها:

ـ أنت تعرفه؟

نقر بأصابعه على المنضدة ناظراً إلى علب الأزرار تحت مربع الزجاج ثم رفع عينيه:

ـ إذا كان إسمي شامل دميان فأنا أعرف جو حداد. لا تخافي عليه: عنده سبعة أرواح.

سألته لماذا يقول هذا؟

رفع حاجبيه ثم غمزها وسألها متى رأته آخر مرة؟

كان ذلك فظيعاً. شعرت أنه ينتهكها، كأنه ليس آدمياً، كأنه من الوحوش.

جرّ لفّة القماش على المنضدة وفتحها ولمسها بأصابع متشققة جافة كجلد جاموس ثم أخبرها ـ وهو يفرك القماش بيده ـ أن جو يتدرب على الحرب في أوكلاهوما... سجل اسمه للخدمة بحسب القانون الجديد فسحبوا ورقته بالقُرعة. حظه بائس جو، والآن يزحف على الوحل في معسكرات أوكلاهوما.

سألته هل سيدفع مقابل البضاعة الآن؟

أجابها إنه ثقة، سيذهب ويبيع ثم يرجع آخر الشهر ويدفع لها، ألا تثق به؟

هزّت رأسها وقالت هذا أكيد، لا مشكلة، وبدأت تعرض أمامه أدنى ما تملك قيمة. اكتشف ما تفعله. رفع وجهه ونظر إلى رفٍ عالٍ وقال تلك الأثواب بالكشاكش، هذه تحبّها الأميركيات وأبيعها بسهولة.

استدارت إلى حيث يشير. قبل أن ترتقي السلم رأت بطرف عينها آشا رابضة كالقط في الزاوية ترمق الرجل شزراً. شامل دميان لم يلتفت صوب الفتاة القابعة وراء المنضدة. نظر إليها متفحصاً، في بداية حديثه، ثم طردها من عالمه. كانت صغيرة الحجم، صامتة، نحيلة كالقصبة الممصوصة، وبلا قيمة.

بدأ يتكلم مرة أخرى. قال إنه يعرف جو منذ سنوات، في ذلك الوقت كنت أبيع في فيرجينيا، التقيته على الطريق وصرنا صديقين. تاجرنا معاً في ساوث كارولينا. مستحيل أن يدخل إلى بيت ولا يبيع صاحبته كل ما يريد بيعها، مستحيل.

بينما تفرد ثوباً على المنضدة سألته متى رآه آخر مرة؟

ـ منذ أسبوعين فقط، قبل أن يأخذه القطار مع الآخرين. وأخبرني أنكِ هنا. وقال لي عندما تراها قلْ لها زوجكِ سأل عنكِ، هذا ما قاله بالضبط.

كانت تطوي الكمّين إلى بطن الثوب من جديد ومدّ يده كأنه يتفحص القماش ولمس يدها. سحبت يديها ثم نظرت إليه. اشتبكت نظرتها بنظرته. رمش بعينيه واستدار ودلّ بإصبعه إلى رفٍ عليه صرامي إسطمبولية وسألها مرتبكاً هل يقدر أن يأخذ أيضاً القليل من هذه؟ مرتا تكلمت بالإنكليزية عندئذٍ. كان صوتها ناشفاً، حازماً كما لم تسمعه آشا من قبل. وقفت واقتربت من السيدة التي أخذتها تحت جناحها وهزّت رأسها علامة الإيجاب. مرتا أخرجت نقوداً كثيرة من الجارور وأعطت الفتاة ثمن الطعام وأمرتها أن تذهب وترجع بسرعة لأن السيد سكياس وإبنه لن يتأخرا. آشا أخذت المال وخرجت.

شامل دميان تبدّل صوته. سألها هل تريده أن يعود في وقتٍ آخر؟ إذا كانت مشغولة الآن وعندها ضيوف يقدر أن يأتي غداً.

مرتا قالت لا، لا أريد أن تتعذب، إملأ «الكشّة»، وعندما ترجع آخر الشهر نتحاسب.

حشا الصندوق. مدّ يده كي يأخذ الثوب المكشكش عن المنضدة فقالت «هذا لا». كانت عبارتها مسننة، تثقب الهواء واللحم. أقعى على الأرض وضغط الصندوق بركبته ثم أقفل «البكلات» وتأكد من السيور ورفعه إلى ظهره. كتبت على الدفتر أرقاماً وعملت الحساب. لفظت الثمن الكامل. كانت تعرف أنها باعته ضعف ما تبيع الكشاشين الجدد. وهو خرج من المتجر محنياً تحت الثقل وهو لا يصدق أنه خدعها: لن يرجع أبداً!

كانت تعرف، وتمنت ألا ترى وجهه مرة أخرى.

- 71 -

أخبار من البلاد

أمطار غزيرة تساقطت ثم هبّ الهواء الذي يسبق الثلوج وهجمت العاصفة. من جديد ظهر عمال الترام يجرفون ما تكدس على الخط. كانت تمشي ملتفة بالمعطف والشال بمحاذاة أشجار «البارك» البيضاء، وشمّت رائحة غريبة: استدارت ورأت عربة بعجلتين كبيرتين ـ كعجلات العربات التي تجرها الخيول ـ ورجلاً خمسينياً يدفع العربة بكل ما فيه من قوة والعربة لا تتزحزح. كان يحاول إخراجها من زقاق، مستواه فوق مستوى الشارع. وزاد الصعوبة الثلج المتكوّم. لم تعرف ماذا يبيع. كستناء مشوية؟ كانت الرائحة شبيهة برائحة الكستناء لكنها ليست هي. تأملت المنظر لحظة أخرى ثم تابعت طريقها. الأنفاس الخارجة من أنفها وفمها بيضاء كالثلج، دافئة. قبل أن تبلغ المتجر رأت ثلاثة كشّاشين في انتظارها، يبتسمون، وينفخون في أيديهم.

تعرفهم واحداً واحداً وباعتهم من قبل. سألتهم لماذا يقفون في البرد والمتجر مفتوح وآشا في الداخل. قالوا إنهم يحبّون الهواء وكانوا في إنتظارها. ضحكوا بينما يخبرونها عن بيت سكنوه قبل سنوات، بيت في سيدار رابيدز*، كان بلا سقف تقريباً، وعندما

* Cedar Rapids - Iowa.

يجرفون الثلج إلى خارج البيت يأتي صبيان الحيّ للفرجة. كلّنا في غرفة كبيرة واحدة لها سقف، كنا ثلاثين واحداً، نفرش على الأرض وننام، ومرات مع الضيوف نصير أربعين أو خمسين، وإذا كان أحدنا مع زوجة نضع له ستارة «جنفيص» وهكذا تنتهي المشكلة. الغرف الأخرى كارثة، ولكن المطبخ جيد. أجمل يوم الأحد: نجتمع في المطبخ، نتدفأ ونطبخ ونأكل كأننا في البلاد ولم نتركها، حتى كبّة بالصينية كنا نطبخ. وفي العيد الكبير نخبز الكعك بالتمر والمعمول بالجوز.

عملت لهم الشاي حلواً كما يحبّونه وأرسلت آشا إلى الفرن. شدّدوا عليها ألا تفعل. لكنها قالت «هذا لزوم الضيافة». استحوا عندئذٍ وسكتوا. هي لاحظت شيئاً غير عادي: كأنهم سمعوا ـ خبراً!

سألتهم عن أخبارهم؟

الأكبر بينهم تكلم. كان ينفخ على كوب الشاي من دون أن يشرب. وأخبرها:

ـ يوسف طنوس من عكار قال في «ركتور ستريت»، أولاد عمه في «ركتور ستريت»، قال إن الجراد لم يترك في الجبل قمحة ولا حبّة شعير. الناس ماتوا بالألوف. وحتى الذين معهم فضة وذهب، ماتوا. صار الذهب بلا قيمة. الناس أكلوا ما لا يؤكل، ومع هذا جاعوا وماتوا، أنا لا أصدق أن هذا يسمح به ربّنا لكن يوسف طنوس يقول إن الجبل كلّه تخرّب. القرى مات أهلها، باعوا الأبواب وخشب الشبابيك كي يشتروا مكيال حبوب ولم يجدوا. يقول إن قريته في عكار لم يبقَ فيها أحد! كلّهم جاعوا وماتوا! الذين وصلوا إلى طرابلس زحفاً وجدوا ناساً جوعانين مثلهم. كانوا يأكلون من الزبالة، قشور الفواكه، ثم لم تعد توجد زبالة كي يأكلوا. هكذا

قال يوسف طنوس. لكنه يقول إن الجوع الأقوى ضرب في الشمال وأن الناس في المتن والشوف لم يموتوا كلّهم. وفي زحلة أيضاً لم يموتوا كلّهم، هكذا يقول. كانوا يذهبون في الليل والثلج إلى حوران ويجلبون الحبوب. لكن حتى في حوران جاعوا... يوسف طنوس قال إن الجوع في بيروت كان فظيعاً، والأولاد انتفخت بطونهم بشرب الماء قبل أن يموتوا، هو رآهم بعينيه قبل أن يخرج.

مرتا لم تفتح فمها. شرب الرجل شاياً وبينما يشرب تابع الأوسط الكلام:

ـ الأميركان في الجامعة ببيروت عندهم فريق إسعاف وأطباء، وهو كان يشتغل معهم، يسوق البغال المحملة... نزلوا لمساعدة جرحى أتراك في صيدا ونزل معهم. عندما تابعوا الطريق إلى يافا قرر أن هذه فرصته. هرب في الصحراء حتى وصل إلى مصر. على الطريق جاع وكاد يموت. البدو أنقذوه. أطعموه ولولا البدو كان مات عطشاً وجوعاً. لكنه عندما وصل إلى الديار المصرية لم يجد إلا العسكر. ضربوه وحبسوه. ظلّ يبكي ويقول إنه لا جاسوس ولا من يحزنون حتى فهموا عليه. قال إنهم لا يفهمون العربي.

دخلت آشا عندئذٍ محملة بالحلوى من الفرن. الرائحة الشهية الحارة ملأت المتجر. ردّت خلفها الباب فظلّ الهواء البارد في الخارج. مرتا أخذت منها ما جلبته ووضعته أمام الثلاثة من دون أن تتكلم.

الأصغر بينهم أكمل الحكاية ناظراً إلى الكعك:

ـ يوسف طنوس عنده أقارب في الإسكندرية، أعطى العسكر الأسماء وذهبوا، سألوا ورجعوا مع أقاربه. لولا أقاربه في الإسكندرية كان مات في الزندان. لا يعرف كم بقي في الحبس لكنها

شهور. يقول الجراد نزل على جبل لبنان مثل السحابة السوداء في ربيع سنة أول* وأنه عندما أخذوه إلى الإسكندرية وسألهم عن التاريخ اكتشف أنه أضاع الوقت وهو في الحبس. أقاربه أخبروه أن تجارتهم ضُربت، متاجرهم أحرقها زعران، ولو لم يضطروا للتأخر في السفر بسبب البواخر القليلة كان تخَّ في الحبس: كانوا مسافرين إلى مرسيليا، مهاجرين! بكى عندما أخبروه، فأخذوه معهم بالبحر. كان ذاهباً إلى مرسيليا وهو لا يعرف ماذا سيحدث له لكن الباخرة دارت وغيَّرت طريقها: غواصة للألمان كانت تطاردها! وعندما نزل يوسف طنوس من الباخرة رأى نيويورك!

---

* نزل الجراد على جبل لبنان يوم 15 نيسان (أبريل) 1915.

- 72 -
أخبار من البلاد (2)

انهمكوا بتغميس الكعك بالشاي. كانت إيماءاتهم طفولية فرحة، ومرتبكة حزينة، في وقتٍ واحد. الأكبر كفَّ أولاً عن الأكل. شكر وهو يمسح أصابعه على بنطلونه وشرب مزيداً من الشاي ثم تكلم:

- الرجل ارتجّ عقله، يقول أشياء ثم يقول غيرها، وكل الحيّ السوري، لم يبقَ واحد في الحيّ إلا وذهب إليه في بيت أبناء عمه في «ركتور ستريت»، ودائماً يقول: هذه القرية أيضاً جاعت. الخواجة حوماني، أنتِ تعرفين الخواجة حوماني، عنده المطعم في بروكلين، ذهب إليه وقال اسم قرية غير موجودة، اخترع الإسم من رأسه، وقال ليوسف طنوس: هل جاعت هذه القرية؟ قال جاعت، لم يبقَ فيها أحد!

الأوسط مسح أصابعه على بنطلونه وشكر وسكب مزيداً من الشاي ثم قال:

- أنا سألته عن عاليه وبحمدون. وسألته عن ظهور الشوير. أختي الكبيرة في عاليه هي وعائلتها، لكن أبي في ظهور الشوير. قال جاعت أيضاً لكن الكثير نجا. هو قال ذلك. جلبوا قمحاً من حوران.

الأصغر تكلّم وهو يمسح أصابعه:

ـ في الجبل الجوع أسهل من الساحل، في المدن لا توجد أرض مزروعة. ابن الجبل يظلّ يجد شيئاً يأكله حتى لو جرد الجراد كل ما على الأرض. يحفر التراب ويجد جذراً يؤكل. أنا جدي أخبرني وأنا صغير عن الجراد. يعرفه وجاع بسببه لكنهم ذهبوا إلى الأحراج وأكلوا البلوط، طحنوه وخبزوه، وفي السنة التي بعدها امتلأت الأرض بالأخضر وكل النبات الذي يؤكل لأن الجراد الكثير الذي قتلوه صار سماداً للأرض.

الأكبر نظر إلى آشا قاعدة في الزاوية تُطرّز منديلاً كما علّمتها مرتا. بدا حزيناً وعلى وشك البكاء. كان يتجنب النظر إلى مرتا في تلك اللحظة. حلَّ عليها السكوت: كأنها هي أيضاً أصابها خرس! كأن مرض الأرمنية اليتيمة انتقل إلى سيدتها بالعدوى!

الأوسط كفَّ عن شرب الشاي. كانت لحظة ساكنة. خارج الزجاج تساقطت رقائق الثلج، خفيفة، ناصعة البياض، صامتة.

مرتا لم تفتح فمها. كانت تبكي.

- 73 -
أخبار من البلاد (3)

تستطيع رؤيتهم، هؤلاء الثلاثة، خارجين من المتجر، والكشّات ملآنة. جزماتهم تطبع أثراً عميقاً في صفحة الثلج. أجسامهم مثقلة والأنفاس تخرج من فتحات الوجوه، بيضاء، دافئة، سكرية الرائحة. ماذا يشعرون؟ كانوا مسرورين بعد البسكويت والشاي والكعك؟ رأوا المرأة الجميلة تبكي وخرجوا حزانى من عندها؟ أستطيع رؤيتهم وهم يتوغلون في الدانتيلا البيضاء ـ الرمادية التي يغزلها ندف الثلج. هذا النسيج عجيب، لا يتمزق بينما يخترقون ستارته من جهة إلى أخرى... في لحظة ما يختفون، تأخذهم الدروب إلى حيث تأخذهم، ويقعون خارج الكتاب.

مرتا ماذا فعلت بعد ذهابهم؟ ماذا فكرت عندما قال الصوت إنه سأل يوسف غنطوس عن عاليه وبحمدون؟ ماذا فكرت عندما قال الصوت إن الجبل تخرَّب والقرى مات أهلها... ماذا رأت في خيالها؟ خرجوا ودخلت إلى حيث تنام وجلست بين الصناديق. هل فكرت أنها ستموت حزناً؟ هل شعرت أنها لن تعيش؟ عاشت وتحملت.

استقلت القطار إلى نيويورك. بينما تخرج من «الغراند سنترال» وهي تشدّ زنار المعطف ناداها صوت. التفتت ورأت رجلاً لا تعرفه يبتسم لها ويهرع صوبها. كانت حركته غريبة، كأن مفاصله مصابة

بالصدأ. سألها ألم تعرفه؟ قالت لا. كان أميركياً، يميل إلى البدانة، في الثلاثينات من عمره. نزع البرنيطة الطويلة الأذنين عن رأسه وقال لها: «والآن؟»*

قالت إنها آسفة.

قال أنا هنري أوزبورن، من ترنتون ـ نيوجرسي، التقينا قبل سنوات في القطار وتحدثنا، كنتِ ذاهبة إلى نيو أورلينز أظن، اصطدم القطار بأبقار كسرت سياج السكة، توقفنا في الليل وتكلمنا، ألا تتذكرين؟

تذكرته عندئذٍ. قالت له إنها أحياناً تنسى الوجوه. كانت تكذب. وهو ضحك وقال إنه ازداد سمنة في الفترة الأخيرة ولهذا لم تعرفه. سألها أين هي ذاهبة؟ قال إن عربة تنتظره ويستطيع أن يوصلها إلى حيث تريد. قالت إن عربة تنتظرها هي أيضاً. أعطاها بطاقته. سألها أين تقيم الآن؟ كان صوته طيباً، حارًّا، وكذلك إبتسامته. عبرت خلفه أعداد من الجنود والمارينز. أعطته عنوانها ـ عنوان المتجر في فيلادلفيا.

ابتعدت في الزحمة ثم أوقفت عربة وقالت «ركتور ستريت، بليز» (Rector Street, Please). الحوذي ساط الحصان وهو يشتم الجنود كأنه تعارك معهم قبل لحظة. الحصان انطلق خبباً كأنه لا يجرّ عربة.

سألت عن يوسف غنطوس وعثرت عليه. جلست معه. صاحبة البيت جلبت قهوة مرّة ومع الفناجين على الصينية صحن السكر والملعقة الفضة. قالت إنها منذ وصول يوسف صارت تعرف جميع

* «And now?».

السوريين في أميركا، وابتسمت. مرتا ردّت ابتسامتها وانتظرت ما سيقوله يوسف غنطوس. كان يردد «بتاتر، بتاتر، بتاتر» كأن دمدمة الإسم ستُخرج إليه من أعماق الذاكرة الجواب المناسب. في النهاية سألها أين تقع هذه بالضبط، جنب جزين؟ قالت لا، تلك إسمها باتر، هذه قريبة من بحمدون. بينما تقول بحمدون شعرت أنها أخطأت. (لماذا لفظت «بحمدون» بالذات؟) انتظرت جوابه. لكنه ظلّ ساكتاً. بعد ذلك قالت شيئاً وهو سألها متى جاءت إلى أميركا؟ وهي قالت قبل سنوات، في 1913. وهو قال إنه في تلك السنة كانت المواسم وفيرة في الجبل، خصوصاً الزيتون، لكن في السنة التي بعدها، في سنة الأربعتعش كان المحصول سيئاً، والناس كانوا ينتظرون محصولاً جيداً في الـ 15 لكن جاء الجراد وأكل الأخضر واليابس. وبعد الجراد جاءت رياح الخماسين من الصحراء وأيبست ما تبقى. ثم أتى الشتاء، أقسى شتاء يمكن أن يأتي، الجليد وحبّات البَرَد، كل حبّة كبيضة الدجاج، والناس جاعوا وماتوا. سكت وصار يحدق من النافذة إلى بناية بعيدة عالية، تقف مستوحدة في الفراغ. اتسعت عيناه وبدا مصاباً بمرض غامض وينتظر أن يقع ويقضي في أي لحظة الآن.

في الباب، وصاحبة البيت تودعها، سمعته مرة أخرى يحكي وحده في الداخل. المرأة ابتسمت لمرتا وقالت إنه لا ينام جيداً في الليل: لم يبق له أحد في القرية، يقول كلّهم ماتوا أمام عينيه. أراد أن يرجع، نزل إلى بيروت كي يجلب لهم طعاماً. الدكاترة الأميركان يعرفونه، يشتغل عندهم، وكانوا يوزعون «إعاشة» مساعدة. لا أعرف ماذا حدث بالضبط، لكنه لم يقدر أن يرجع إلى عكار... وهكذا...

شكرتْ المرأة على القهوة. وعندما عانقتها المرأة وباستها ثلاث مرات أحسّت بوترٍ يمتد من بطنها إلى زلعومها يوشك أن ينقطع. نزلت الدرج الذي يفوح برائحة البطاطا والدهن المطبوخ ثم خرجت إلى الشارع البارد. كان المطر يتساقط رذاذاً وبوسترات الحرب تتقشر عن الحيطان. مشدودة العصب، مقوسة الظهر قليلاً، مضت مرتا حدّاد في «ركتور ستريت».

- 74 -

رسالة إلى ماري

ماري أسطفان. كبرى بنات جوزف أسطفان. والأقرب إلى أخيها مارون. زيتونية البشرة. عسلية العينين. شعرها كستنائي، طويل ومستقيم. أخذت عن أبيها ملامحه الشرقية* وعاطفته، وعن أمها الخُلُق البروتستانتي والولع بالقهوة الأميركية و«البايغل» بالسمسم مع Cheese Cream. عندما تزوجت وخرجت من البيت لم تغادر كنف العائلة: سكنت وزوجها في الجهة الأخرى من الشارع ذاته (هنري ستريت) على بعد أمتار فقط. مارون ضايقه ذلك: ودَّ لو سكنت بيتاً أبعد كي ينتقل للإقامة معها. لكن «هنري ستريت» عالم صغير ولن يخرج من دائرة السيطرة. هذا سرُّه: كان يمقت أباه مقتاً شديداً. وكونه باطنياً أفلح في إخفاء موقفه (شعوره) عن الجميع.

أُخِذَ مارون في تشرين الأول (أكتوبر) 1917 إلى معسكر

---

* في 15 أيلول (سبتمبر) 1915 أثارت قضية «داو ضد الولايات المتحدة» (Dow V. The United States) في محكمة الاستئناف (Circuit Court of Appeals)، المهاجرين السوريين في أميركا. جمعت الجالية في نيويورك مالاً واستأجرت محامياً دافع عن حقوقها القانونية في التجنس، وكتب في الجرايد: «الرئيس ويلسون يقول السوري عرق أصفر وصيني ونحن نسأله هل كان يسوع المسيح المولود في سورية صينياً؟» انتهت المحكمة إلى اعتبار السوريين من العرق الأبيض (Caucasian) وساميين. وهذا سهّل حصولهم على الجنسية الأميركية.

تدريب في نورث كارولينا. وعد أخته أن يكتب لها لكن الرسالة الأولى تأخرت أسابيع. في هذه الأثناء انشغل بال العائلة عليه. الحياة اليومية في المتجر ـ والبيت الذي يعلو المتجر ـ تغيّرت: كأن محوراً انكسر! كلّما دخل زبون تحركت العيون صوب الباب ولم تجد ما تبحث عنه. لكن رسالة وصلت أخيراً في كانون الأول (ديسمبر) بينما الجليد يبرق على صفحة «إيست ريفر»: اكتشفوا أنه لم يعد في نورث كارولينا! المجندون نُقلوا إلى معسكر آخر في غارنت ـ كانساس (Garnett - Kansas). لم تصل الرسالة إلى عنوان الأهل. وجَّه الرسالة إلى عنوان أخته. ماري قرأتها وحدها، في المطبخ، قبل أن تنقل الأخبار التي طال انتظارها إلى الجانب الآخر من «هنري ستريت».

«العزيزة ماري،

ها أنا جندي في الجيش الآن، أقعد في خيمة صغيرة الحجم وأكتب لكِ من «مدينة الجيش» في غارنت ـ كنساس* بينما المطر يعزف فوقي على قماش الخيمة. لا تدريبات اليوم، مُنحنا عطلة تنتهي عند المساء (يبدو أننا سنتعرض لكبسة هذه الليلة: نوع من التمرين، يقوم المدربون باقتحام خيمتنا ونحن نيام ويكون علينا أن نلبس وننتعل جزمنا بينما يطلقون الرصاص داخل الخيمة... بعد ذلك نركض إلى الخارج ونزحف حتى ساحة المعسكر على رأس التلّة. لن أخبرك كم صعب على الإنسان أن يزحف على أرض غير

* Dear Mary, Here I am a soldier in the Army now. I am sitting inside our little tent and writing to you from «Army City» in Garnett...

مستوية، لكن أنت تعرفين وأنا أعرف أن الواحد لا يختار الأرض التي يزحف عليها)... بما أن الوقت في يدي هذه الساعة فكرت أن أكتب إليك كي أخبركِ عن أحوالي: أنا بخير وأنتبه لطعامي وصحتي قدر الإمكان، وإذا كنت فقدت شيئاً من وزني فهذا بسبب التمارين فقط، والآن لياقتي البدنية عالية، ومهارتي في التسديد تليق بجندي إيطالي. أقول «إيطالي» لأن الجميع هنا ينادينى ماريو. لسبب غريب ظنّوا في البداية أنني إيطالي. سمّوني ماريو. وهكذا صرتُ: ماريو! الإنطباعات الأولى مهمة في هذه الأماكن ومتى ما علّقوا عليكِ إسماً لا يمكن الإفلات منه. عندي أصدقاء ونتعاضد. هناك فرقة من السود في المعسكر، مع ضباط بيض يقودونهم هنا كما في المعركة*. يتدربون مثلنا لكنهم يأكلون على حدة. رائحة أجسامهم قوية، صاعقة، لكن هكذا حالنا نحن أيضاً... لا نقدر أن نتحمم دائماً بسبب أعدادنا. وفي هذه الظروف نتحول إلى نصف ـ حيوانات. لكنهم أخيراً جلبوا المزيد من الماء إلى المعسكر. هذا كلّه مقصود، يُقال لنا، والهدف منه أن نتعود على ظروف الحرب، وعلى نقص المواد الأساسية...

... معظم الجنود هنا من الفرقة الخامسة والثلاثين وكانوا أصلاً من الحرس الوطني للحدود في ولايات ميسوري وكنساس وتكساس لكن توجد كتيبة مؤلفة بالكامل تقريباً من بولنديين ـ أميركيين وهم يطالبون بفرقتهم الخاصة، على عكسنا نحن السوريين (لكن تذكري: أنا إيطالي!) الذين نحارب بيدنا ورِجلنا كي ننخرط في المجتمع الأميركي. لعل هذه الحرب تكون عمادتنا بالنار... أردت

* «here as well as in battle».

أن أقول إنني أفعل هذا لأنني أؤمن به. أعطتنا أميركا الكثير ولا بد من أن نعطيها في المقابل شيئاً، ليس صحيحاً أخلاقياً أن نظل نأخذ ونأخذ، كأننا نحلب بقرة... أنا أعرف أنك لا توافقينني الرأي: ستقولين لي أنني أقدر أن أقدم الكثير من دون أن أذهب إلى الحرب وأتعرض للخطر... لكن هل أنتِ واثقة؟ في أحيانٍ عديدة أشك بمعتقداتي وقراراتي لكنني أستغرب أنك لا تفعلين الأمر نفسه: لماذا تظنين دائماً أنك محقة؟... هل تتذكرين للويد صديقي من فيرمونت؟ هل تعرفين أن أخاه الكبير تخرج من هارفارد في نهاية 1913 وما أن اجتاحت ألمانيا بلجيكا وبدأت الحرب ترك مكتبه الجديد للمحاماة والتحق بالفرقة الأجنبية الفرنسية... إنه يقاتل على «الجبهة الغربية» منذ أربع سنوات تقريباً! كان في فردان طوال الشهور العشرة الماضية. لا تصلهم منه رسائل لكن تصل بطاقات بريدية، بطاقات الجيش. وما زال مؤمناً أنه اتخذ القرار الصحيح وأن من لا يقاتل في هذه الحرب لا يهمه مصير العالم ولا حرية الإنسان. أنا لا أفهم الجيل السابق؛ جيل الآباء يبدو لي منفصم الشخصية، يتصرف بحسب دفترين، دفتر يخفيه في الجارور ودفتر يكشفه أمام المحكمة، أمام الضرائب، أمام الشرطة، وأمام الآخرين! خصوصاً الجالية السورية، وعلى الأخص في نيويورك! ألا يبدو لكِ هذا الوضع غريباً؟ ألا تشعرين عندما تتكلمين مع أحدهم أنه صاحب وجهين، أنه هنا وليس هنا في الوقت ذاته. أنا لا أقول إنهم كذبة وأدعياء، لكنهم يضعون قدماً هنا ويتركون القدم الأخرى هناك، وراء المحيط، في «البلاد» التي خرجوا منها. أما نحن، الجيل الثاني، فنعرف ماذا نريد. هذا هو الفارق: نحن من هنا، ألا تظنين ذلك؟ ولهذا نهتم بهذه الحرب: لأنها على نحو ما قد تساعدنا، وقد تكشف أمامنا شيئاً

أيضاً، لا؟ مع ذلك أشعر بالغرابة عندما أسمع من معي ـ وهم أصدقاء، لا تسيئي فهمي ـ يتشوقون لعبور الأطلسي كأنهم ذاهبون في نزهة، كأننا لن نجد القنابل والغاز والرصاص والموت عندما نبلغ الجانب الآخر! كأن أوروبا ليست مدمرة والغزاة الألمان ليسوا على أبواب باريس! بلى، أشعر بالغرابة وأنا أسمعهم، ومرات أسأل نفسي هل أخطأت عندما سجلت إسمي وهل كنتم أنتم على حق؟

. . . لم تكن خطتي أن أكتب رسالة طويلة هكذا ولكن يبدو أنني أفعل هذا تكفيراً عن ذنوبي فأنا وعدت أن أكتب وتأخرت. . . عليكِ أن تعرفي أن الجندي لا يملك وقته ولا حياته. إنه قطعة صغيرة في آلة ضخمة جبّارة، وحتى الجنرال ينتابه هذا الشعور وكذلك القائد الأعلى، إنه «برغي» في آلة. . . أطيل لأنني قادر على هذا الآن، وأكتب بحرية كاملة. أما بعد العبور إلى أوروبا فالأمر مستحيل لأن المكاتيب تمرّ على الرقابة العسكرية ثم تُرسل عبر بريد الجيش والبحرية ولهذا سيكون علينا أن نُقنّن في الكتابة والتعبير. أيضاً الورق أقل «هناك» ومثله الحبر. أنا أحاول تعويدك على المرحلة الآتية وأريدكِ أن تكوني أنتِ وأمي والباقون على ثقة أنني أفعل ما أؤمن به. البعض هنا طلب أن يُعطى إجازة لقضاء ليلة الميلاد ـ هذا الميلاد ـ في بيته مع أهله وعائلته قبل أن نركب البواخر. . . لكن يجوز أن نؤخذ إلى الجبهة قبل الميلاد ولا شيء مؤكد. . .

. . . كما قلت أنا بخير وصرت أنتعل جزمتي وأنا نائم وهكذا لا تزعجني «الكبسة» التي نسمّيها «طابور إزعاج». أقوم جاهزاً وأركض. . . الأمر الوحيد الذي يضايقني هنا هو اللغة التي يستعملها الجميع، والمدربون خصوصاً. المفروض أنهم جنود قدامى، وهم جنود قدامى فعلاً بمعنى أنهم خدموا في الجيش زمناً وبعضهم حارب

في المكسيك أيضاً. . . لكن لن تتخيلي الشتائم التي تخرج من أفواههم. مقابل كل كلمة نسمع عشرين شتيمة. معاملة فظيعة واحتقار. كأننا من فصيلة أدنى، من عرق مختلف. . . ولا فارق بيننا وبين السود في هذه المعاملة، كلّنا سود هنا، وبالنسبة إليهم نحن أسوأ من السود. لا أعرف لماذا، لكن هذه الشتائم مسألة أعاني في التأقلم معها. غيري يعطيهم الأذن الطرشاء. لكن أنا أخشى أن أنطح واحداً وأنتهي في الزنزانة. قبل أيام رأيت جندياً جديداً يتصارع مع عريف. بطحه على الأرض وركب عليه وضربه على رأسه بحجر حتى فتح جمجمته. أنا آسف على كتابة هذه الأشياء، لكنها حدثت. حاكموه محاكمة عسكرية، لا أدري هل قرأتِ عن ذلك في الجريدة أم لا. هل تُكتب هذه الأشياء؟ هذه الرسالة سأضعها بنفسي في البريد وأعرف أن أحداً غيركِ لن يقرأها، لكن إذا أردتِ أن يقرأها غيركِ فهذا يرجع إليكِ ولا مشكلة عندي. سأحاول أن أكتب رسالة أخرى قريباً. أردت أن أكتب لأمي لكنكِ تستطيعين أن تقولي ما تعتقدين أنه يُناسب الآن، وأخبريها أنني سأكتب لها رسالة كاملة عما قريب، وأنني بخير وصحتي جيدة وآكل فواكه بإنتظام. أيضاً كل من يسأل عني من العائلة ومن خارج العائلة قولي لهم إنني أرسل إليهم السلام وأتمنى لهم ميلاداً مجيداً ـ هذا إذا لم أتمكن من إرسال رسالة أخرى قبل عيد الميلاد.

أنتِ تعلمين يا ماري موقعكِ عندي، وإذا كنتُ في سنٍّ يصعب فيه على المرء أن يعبّر عن شعوره بإستقامة، فأنت لستِ بحاجة إلى تصريحي كي تعرفي كم أشعر بالحزن عندما أتذكر وجهكِ وأنت تأخذين مني هديتي قبل أن أصعد إلى القطار. أنا أهديتك ذلك الكتاب لأنه يذكرني دائماً ببعض أجمل ذكرياتي، تلك الأيام وأنتِ

تقرأين لي قصصاً قبل أن أنام. طالما إعتبرتك أماً ثانية لي، وهذا لا يمكن أن يبدّله الوقت. أنا حزين لأنك حزينة بسبب دخولي الجيش. لكنني أطلب منك ألا تحزني، وإذا كانت الصلاة تساعد فعليك الصلاة من أجلي، وسرعان ما تمضي الشهور وتجدين أخاك أمامك مرة أخرى، و«تزعجينه» مقدار ما تشائين.

- 75 -
الذهاب إلى الحرب

لن تعرف مرتا إلا بعد شهور أن خليل سجّل إسمها في «بيان الخروج». قبل ركوب البواخر من ميناء نيوبورت نيوز ـ فرجينيا أعطوا الجنود إستمارات تُملأ وتُوقّع وتُختم ثم تُحفظ في الأرشيف. جو (خليل) حدّاد وقّع الإستمارة لكنه لم يُعبىء الفراغات بيده. ترك صديقه (لا يُرى من دونه في المعسكر) جيفري ثورنتون يفعل ذلك. كان واقفاً في مدخل الخيمة يحلق ذقنه بالموس، عاري الصدر مع أن الهواء لاسع البرودة. جيفري كان قاعداً على صندوق خشب في قلب الخيمة، جنب وجاق الحطب الذي يخرج دخاناً أكثر مما يخرج دفئاً (ثمة قسطل لكنه مسدود دائماً). أمامه، على صندوق خشب آخر، وضع إستمارته جنباً إلى جنب إستمارة جو. كلّما كتب شيئاً في الخانة على هذه الورقة رفع رأسه وسأل جو ماذا يكتب في خانته. كان يدخن غليوناً ويلقي على كتفيه وساقيه شالاً أسود ضخماً مثل إمرأة عجوز.

جو نظر إلى ثيران تجرّ حطباً، في مربع المرآة، ثم استدار وهو يمسح الموس على بنطلونه العسكري: «اكتبْ مرتا حدّاد، زوجة، 23 ماين ستريت ـ فيلادلفيا». جيفري ثورنتون الذي كتب في إستمارته قبل لحظة جيفري ثورنتون سينيور (أب)، صندوق بريد

157، أوماها ـ نبراسكا*، بدا مريضاً بإمساكٍ مُزمنٍ وهو يملأ البيانين متجهم الوجه.

جو ضحك وسأله لماذا يعبس هكذا؟

جيفري ردّ إنهم يطلبون العنوان لسببٍ واحدٍ فقط.

جو قال لا تقلق، سنذهب ونرجع من دون خدش (Without a Scratch).

يتكلم الإنكليزية مثل أميركي الآن. كيف أجاد اللغة هكذا؟ الآخرون في الخيمة لا يصدقونه عندما يقول إنه قبل سنوات قليلة فقط كان فلاّحاً في أراضي التوراة، في سورية البعيدة. سمّوه جو دونت وورِي (Joe don't worry) لأن هذا ردّه المفضل على جميع الطلبات والأسئلة (لا تقلق: Don't Worry). تصادق وجيفري سريعاً: كانا ينامان في الخيمة ذاتها، مع سبعة آخرين، جنباً إلى جنب. جيفري أيضاً صاحب مهارات. عنده طرق خاصة للحصول على الويسكي والدخان كما على مؤن مختلفة من خارج المعسكر: أجبان، خبز شوفان طازج، سجق، سمك، بيض، فطائر بالفاكهة، إضافة إلى المجلات. لن يفقد قدرته بعبور الأطلسي.

نفض القلم بقوّة ثم سأل جو عن رقمه. أجابته ضحكة هادرة وأصابت وجهه قطرات ماء وصابون. ضحك هو أيضاً ونهض إلى الفرشة حيث ينام صاحبه «التركو». من تحت «مخدة» (كيس حُشِي تبناً وورقاً يابساً) استخرج «التذكرة» المعدنية. كانت قرصاً من الألومينيوم، قطره أربعة سنتمترات، على الجندي تعليقه من رقبته ليل

* Jeffrey, Thornton Senior (Father), Omaha - Nebraska, P.O. Box 157, U.S.A.

نهار. رجع إلى الصندوق الخشب، ونسخ الرقم المنقور على القرص:

619729

سُمع بوق في تلك اللحظة. قُرعت أجراس ومرَّ رجال يتصايحون. جو تبادل الكلام معهم ثم استدار وقال لجيفري: «غداً صباحاً».

جيفري وضع القلم ونهض وخرج من الخيمة. كان المكان يفور كخلية النحل. سمع قرقعة قدور ورأى الشاحنات تتراصف خارج السياج وجنبها يقعد السائقون ويشربون قهوة. كانوا في زي غير عسكري واستغرب الأمر.

جو مسح بقايا الصابون عن وجهه بالمنشفة وقال: «ستمطر». كانت السماء زرقاء وفي الأفق تظهر غيمة صغيرة واحدة. جيفري ردّ: «ستمطر في الصين». وعاد إلى جوف الخيمة. طقطقت ألواح الخشب تحت جزمته. كان الصقيع يخرج من تحت الألواح، من قلب الأرض المتجمدة.

جو لبس قميصه وعلّق السلسلة التي تحمل القرص (إذا رآه العريف بلا قرص يرميه في السجن) وأخذ البرنيطة والسترة ومضى. ناداه جيفري قبل أن يبتعد وطلب منه أن يرجع ويأخذ الصحنين لأنه لا يريد أن يخرج. كان وقت الطعام (توزيع الحصص) يقترب. جو استدار ضاحكاً وقال عليك أن ترفع صوتك فأنا لم أسمعك. جيفري كرّر كلماته وهو يشتم ويسحب الطبقين المعدنيين من وراء الصندوق ويطرطق بهما، لكن جو لم يرجع. رفع يده مودّعاً ومن دون أن يُبدّل إبتسامته قال:

ـ Don't Worry!.

- 76 -

رأس السنة

خلال الأيام القليلة الفاصلة بين ليلة الميلاد 1917 وعيد رأس السنة لم تأتِ آشا إلى المتجر. حضر أحد أبناء السيد سكياس وأعلم مرتا أن الفتاة مريضة. سألته هل عليها حرارة؟ قال إنها مريضة «هنا»، ووضع إصبعاً على صدغه. كانت إيماءة غريبة، وبقيت منطبعة في ذاكرة مرتا.

انشغلت بعد ذهابه بفتح الصناديق الآتية من نيويورك وإفراغ البضاعة. في فترة راحتها، بينما تأكل سندويشة جبنة وتشرب شاياً، قرأت مرة أخرى رسالة جوزف أسطفان القصيرة. كانت سطوراً قليلة لكنها تثير حزناً لا يُصدق. لماذا تقرأها مرة بعد مرة إذاً؟ أدركت تماماً مقدار خوفه: يخشى ألاّ يرى إبنه بعد الآن. أُخِذوا قبل الأعياد. ووصلت بطاقة أنه على الساحل الفرنسي. البطاقة عليها ختم الجيش ولا تقول شيئاً آخر: فقط أنه بخير.

في اليوم الأخير من كانون الأول (ديسمبر) دخل إلى المتجر كشّاش لم ترَه من قبل. كان مبلولاً تماماً، مثل كلب يركض في العاصفة في بريّة بلا نهاية. اعتذر مئة مرة، بلغتين أو ثلاث لغات (عربية؛ إنكليزية؛ وهندية ـ إنكليزية غريبة يتكلمها بعض الكشّاشين الآتين من ولايات أقصى الشمال، من الحدود مع كندا). كان يفكّ البكلات والسيور المبلولة بأصابع متخشبة ولا ينجح في مسعاه. في هذه الأثناء اتسعت البركة تحت قدميه. كأن المياه تنبع من عظامه.

جلبت له منشفة كبيرة، وجوارب ناشفة، وبطانية. سكبت له قهوة ساخنة وأضافت إليها قطرتين من قارورة معدنية شبه مستطيلة. كان يرتجف برداً ويكاد يحرق يديه على المدفأة. القبعة الفرو التي نزعها عن رأسه كانت مبلولة كالممسحة وتفوح برائحة الدخان. أخبرها أنه يتاجر مع الهنود الحمر، يبيعهم ويشتري منهم، ويُسبب مشاكل لا تُحصى لشركة الهدسون*. كشّر عن أسنانه وهو يقول Hudson وقال إنه سعيد مع هذا. مرتا ابتسمت وسألته ماذا يشتري من الهنود الحمر؟ «هذه»، قال. ودلّها إلى القبعة التي طرحها جنب المدفأة. فتح «الكشّة» وأخرج قبعات أخرى، كلّها من الفرو. قال إن الهنود يتصيدونها والهنديات يقمن بالخياطة. «شركة الهدسون» لا تحبّ هذا: تحبّ أن تأخذ الفرو خاماً ومن دون خياطة وبأبخس الأسعار. مرتا أخذت إحدى القبعات وتفحصت القطب. كان الخيط أبيض اللون. سألته ما هذا الخيط؟ حرير؟ قال لا، أين يجدون حريراً، هذا صوف أرانب.

ـ أرانب؟

قال إنهم يحلّون فروة الأرانب البريّة كما يُحلّ صوف الخروف. في منطقة البحيرات الكبرى، وفي الغابات شمال منبع الميسوري، توجد أرانب لم يبقَ مثلها على الأرض. يصيدونها. فقط الأكبر حجماً، لئلا تنقرض. الهنود ليسوا مثلنا. إذا صاد الهندي من النهر سمكة ووجدها صغيرة يردها إلى الماء قبل أن تختنق.

قال الكشّاش هذه كلّها فراء ثعالب، الخيط من الأرانب والفروة من الثعلب.

ابتسم متعباً وهو يشرب قهوته الساخنة. سألته هل أكل اليوم؟

---

* Hudson River Company.

قال «أكثر من هيك، عيب».

كان ينظر إلى الجوارب التي أخذها ولبسها بعد تردد. تركته لحظة ودخلت إلى حيث تنام ثم رجعت تحمل خبزاً ومربى. فتحت رغيفاً بالسكين وملأته مربى. فاحت الرائحة، عطرية طيبة، كأنك تسير في بساتين الفاكهة تحت شمس الصيف. أخذ الرغيف وهو يحمرّ خجلاً. قبل أن يقضم منه قال إنه من قبّ إلياس، ليست بعيدة من زحلة، في سهل البقاع.

قالت أنا من بتاتر، قريبة من بحمدون في الجبل.

قال أنا أعرف أين هي بحمدون، يمرّ فيها قطار دمشق - بيروت، صحيح؟

قالت هذه هي.

قال «لكن لا أعرف بتاتر».

قالت هي صغيرة وبعيدة عن سكّة القطار، فيها ثلاث عائلات كبيرة، وعائلة أو اثنتان أصغر، كلّها على بعضها أربعون بيتاً، ونصف هؤلاء من عائلتنا: حدّاد.

سألها هل سمعت أخبارهم في السنوات الأربع الأخيرة، هل تعرف عنهم شيئاً؟

رفعت رأسها إلى فوق ولم تقل شيئاً.

قال «ولا أنا». أخبرها أنه تزوج وخرج من البلاد، ثم رجع مرة واحدة وبقي حتى حبلت زوجته، ثم سافر من جديد. وكان ينتظر كي يسمع ماذا وضعت، صبياً أم بنتاً، لكن بدأت هذه الملعونة (الحرب) ومنذ ذلك الوقت لا أعرف ماذا حدث لهم.

- 77 -
رأس السنة (2)

ابتلع الرغيف بقضمات كبيرة وعندما رآها تفتح رغيفاً ثانياً بالسكين قال «لا، لا». لكنها فتحت الرغيف وهي تبعد يده بنظرة وملأته بالمربى. قالت هذا ليس أكلاً، لكن الخروج صعب الآن.

كان المطر يسوط الزجاج والهواء يهزّ الظلّة فوق الرصيف ويكاد أن يمزقها. الترامواي توقف عن السير لأن الشارع حال نهراً متدفقاً. مرّت شاحنة على ظهرها غزلان قُتلت للتو، قرونها كالعظم الأسود تحت خيوط المطر. (قوانين الولاية تسمح بصيدها في أوقات محددة. تكاثرت إلى حدٍ غير مسبوق في الآونة الأخيرة. مرات تدخل إلى البيوت في أطراف المدينة وتأكل الطعام عن طاولة المطبخ. مرتا قرأت في الجريدة عن طفل تأذى في إحدى هذه «الغزوات» المسائية).

سألها الكشّاش عن أهلها في سورية. قالت عندي خالي وعائلته، أهلي ماتوا وأنا صغيرة، وعندي... قطعت جملتها وشعرت بالثقل، كأن قلبها يتحجر ويغوص في بحيرة. لكنها هي الحجر، هي الصخرة التي تغوص.

الكشّاش أنقذها، لفظ إسم كشّاش آخر، من بعبدات ـ المتن، تبيعه منذ فترة ودائماً يدفع ما عليه ولا يتأخر. قال هو دلّني إلى دكانك وقال لي إنك تحبّين هذا الصنف من البضائع.

مرتا شعرت أن الهواء يدخل إلى رئتيها من جديد بينما ترفع قبعة أخرى من الكشّة المفتوحة وتتلمس «التخاريج» شبه الخفيّة. كانت خياطة بديعة يندر أن تجد مثلها في السوق. قلبت القبعة على قفاها وسألته كم يريد مقابل هذه كلّها، كل ما يحمله في كشّته؟

قال إنه يأخذ ما تدفعه، وإذا أرادت لا تدفع له سنتاً، وهذه البرانيط لها.

كانت فاتحة تجارة طويلة بينهما. قبل أن تكتب إسمه (بولس عزيز) في دفترها أخبرها عن حياته القديمة:

ـ أبي أصابه مرض في جنبه وأنا عمري 7 سنوات. بقي على الفرشة ثلاث سنوات، إذا أتى الصيف نجرّه إلى المصطبة، إذا سقط المطر نجرّه إلى تحت السقف. 3 سنوات ثم مات وهو نائم في الليل. كان عندي أخوتي وأخواتي، نحن تسعة في البيت، ستة ذكور وثلاث إناث، وأمي. أمي كانت تشتغل بالأرض معنا وتذهب إلى زحلة أيضاً وتبيع هناك ما تُخيطه في الشتاء. شغل القمح صعب: كنت أحمل «الخشبة» (وهذه ثقيلة) وأضرب السنابل، شغل البيدر ليس للأولاد: أذيت ظهري وإلى الآن ما زلت أتألم من ظهري عند النوم. وإذا وقفت طويلاً من دون مشي أشعر بعمود ظهري ينقطع. وإذا مشيت كثيراً من دون أن أقعد وأرتاح يحدث هذا الشيء. أمي خافت عليّ عندما صرت أصيح من وجع ظهري وأنا نائم بالبيت. أخذتني إلى الحلاّق شكيب سعادة في زحلة وباست يديه حتى شغّلني عنده. تعلمت أن أقصّ شعر «الزبونات»، أن أقلع الأسنان، أن أصنع القهوة التركية. كان يعطيني خمسة متاليك في آخر النهار. وأنام في الدكان. أكنس وأمسح وأنظف ويترك لي في الدكان ـ قبل أن يُقفله من الخارج ويذهب ـ كسرة خبز وإبريق الفخار فيه ماء. أمي لم تتركني عنده طويلاً. كانت تُخيّط لإمرأة زحلاوية عندها عشرات

النساء وكلّهن يخطن لها وهي ترسل شغلهن بالبابور إلى أميركا. . . الله يُوجّه لها الخير، عملت معي «منيح»، قالت لأمي إبنك صغير ويتعلم بسرعة. . . أعطتني ثمن «الناولون» وجئت إلى أميركا. لكن قبل أن أجيء زوّجتني أمي بنت عمي، من خوفها عليّ لم تقبل أن أسافر بلا زواج. كنت ولداً لا أحلق ذقني بعد ولا أعرف في هذه الشؤون. عندما رجعت إلى قبّ الياس وأنا أحمل هدايا من أميركا رأيت أمي تبكي للمرة الأولى في حياتي. حتى عندما أنزلنا أبي عن الفرشة وهو ميت لم تبكِ. مع أنها كانت تحبّه وتعتني به كأنه إبنها. تزوجتُ بنت عمي، وأمي من قبلي تزوجت ابن عمها. كان يشبهها شكلاً أيضاً، المرحوم أبي.

قالت مرتا:

ـ أنا كمان تزوجت إبن عمي.

كان صوتها ضعيفاً، لعل الكشّاش لم يسمعها.

ـ مرة في منطقة الغابات في نورث داكوتا كنت أسير وأركض كي أبلغ القرية وراء الغابة قبل غروب الشمس. كانت الأشجار كثيرة، شبه متلاصقة، والطريق حمراء اللون يغطيها العشب وأنا أعرق في «الكبوت» (أشار بحركة من رأسه إلى المعطف المبلول الذي علّقه في المدخل فوق سلّة الشماسي)، وألهث. لصوص خرجوا من بين الأشجار وواحد منهم وحياة مريم العذراء يشبهني كأنه أنا! هربت منهم وتسلقت شجرة وربطت نفسي بالزنار إلى الجذع كي لا أقع، ونمت فوق. كانوا ينتظرونني حتى أتعب وأنزل لكنهم ناموا. نزلت وهربت.

- 78 -
الذهاب إلى الحرب (2)

المعنويات منخفضة ـ كدرجة الحرارة ـ بين جيوش «الحلفاء» على «الجبهة الغربية». توقعنا في العدد السابق* تحسن المعنويات الفرنسية والإنكليزية والكندية بوصول الأميركيين من وراء المحيط لكننا لم نتوقع أثر خروج روسيا من الحرب على «الجبهة الشرقية». البلاشفة نفذوا وعيدهم ومع تراجع القتال على تلك الجبهة يُتوقع أن تحول ألمانيا كامل قواها إلى فرنسا. تتسارع الأحداث (من كان يظن قبل شهور أن لينين ورفاقه سيخلعون القيصر الروسي عن عرشه؟) ويخشى الجنرال فوش أن تشن قوات «المحور» هجوماً شاملاً قبل أن يتمكن الأميركيون من تقديم أي مساعدة حقيقية، بسبب نقص الأعداد والعتاد والذخيرة ولكن أيضاً لنقص التدريب. وأستطيع أن أقول من مقابلاتي مع الجنود الأميركيين في موانىء بريطانيا وفرنسا أن الوضع لا يُبشر بخير. الجيش الأميركي لم يقاتل في خنادق من قبل. إنه معتاد على الهجمات والهجمات المضادة في سهول وأراضٍ مفتوحة.

---

* مقالة نشرتها مجلة Madrid الإسبانية أثناء شتاء 1917 ـ 1918. تُرجمت إلى الإنكليزية ونُشرت في Punch البريطانية بعد حذف مقاطع من النص الأصلي. بقيت أسبانيا على حياد أثناء الحرب العالمية الأولى. لعبت صحافتها دوراً بارزاً في تغطية أخبار الإنفلونزا خلال الفترة الأخيرة من الحرب فسُمي الوباء Spanish Flu.

لكن أين نجد له مثل هذه السهول في خنادق «الجبهة الغربية» وبين أسلاكها الشائكة؟

قائد القوات الأميركية (AEF)* الجنرال بيرشنغ أُعطي صلاحيات مطلقة من قبل حكومته. قبل أن يخرج من البيت الأبيض ويركب الفرقاطة Nantucket وجَّه إليه الرئيس ويلسون أمراً واحداً: «أطلب منك أن تذهب إلى أوروبا على رأس قواتنا، وأطلب منك أن تعود». المقربون من الجنرال الأميركي يقولون إنه غير مستعد لإعارة جنوده إلى الفرنسيين والبريطانيين ويريد أن يقاتل بجيش أميركي مستقل تحت إمرة الضباط الأميركيين. هذا يسبِّب الخلاف مع قائد القوات الحليفة الجنرال فوش. والمقربون من بيرشنغ يتوقعون أن تحشد أميركا من الآن وحتى نهاية 1919 نحو ثلاثة ملايين جندي على الساحل الفرنسي، وبعد ذلك يبدأ الهجوم الشامل على برلين. لكن الجنرال فوش وكذلك هايغ Haig الإنكليزي لا يوافقانه الرأي، إذ يستحيل مواصلة القتال حتى ذلك الوقت أمام الشراسة الألمانية!

أدى سقوط المعنويات وإنهاك الجنود الفظيع خلال الشهور الفائتة إلى حوادث فرار وتمرّد مقلقة في صفوف الجيش الفرنسي. في ميسي ـ أو ـ بوا (Missy - aux - Bois) احتلت كتيبة فرنسية البلدة وأعلنت تشكيل «حكومة» معادية للحرب. قبل السيطرة على التمرد سقط مئات القتلى. أعدمت القيادة 438 جندياً بالرصاص بعد محاكمات عسكرية ميدانية صاعقة السرعة. ولولا تعيين الجنرال بيتان قائداً للمنطقة ولولا التدابير الخاطفة التي اتخذها (ضاعف فترات الراحة وحصص الطعام والتبغ المخصصة للجنود والإجازات home leave) لأمكن القول أن جزءاً كاملاً من الجبهة كان سينهار وأن

* American Expeditionory Force.

الألمان كانوا اجتاحوا باريس! في هذه الأجواء الملبدة ـ وبينما العواصف الثلجية تحجب الرؤية تماماً ـ يصل الأميركيون إلى الجبهة وهم يجهلون حال الأرض. لقد قال لي جندي أميركي من ألاباما ـ وهو يتخذ وضعية القرفصاء على ألواح خشب تطفو في خندق موحل في قطاع أسنوفيل Asnauville البعيد بضعة أميال من الخط الألماني الهجومي ـ جملة معبرة تختصر الوضع: «رجال الأربع دقائق لم يخبرونا عن هذه العصيدة». الجملة بحاجة إلى شرح: رجال الأربع دقائق* إسم يُطلق في أميركا على الأشخاص المكلفين بالدعاية للحرب. هؤلاء يظهرون في صالات السينما أثناء فترة الاستراحة ويلقون خطباً حماسية تدعو الشباب إلى التطوع والدفاع عن البلاد. (الدقائق الأربع هي المدة اللازمة لتتغير «بكرات» الفيلم). أما «العصيدة» أو الشوربة السميكة (حساء الذرة أو حساء العدس المطحون) فحتى القراء الأسبان يعرفون المقصود منها: إنها وحول الخنادق.

الدبّابات أيضاً ـ سلاح تشرشل الثوري الجديد ـ تبدو عاجزة عن قطع هذه الخنادق. الإنكليز يجربونها لكن الألمان يردون بغاز الخردل، بالألغام، بالقنابل الجهنمية زنة 420 باونداً كالتي استخدمت في Verdun، وبقاذفات اللهب. كل الأسلحة مسموحة في هذه الحرب المخيفة. المدفعية الثقيلة أحالت الجبهة الممتدة من سويسرا شرقاً حتى البحر غرباً إلى أرض ـ لا ـ أحد - No - Man's) (Land: القرى والبلدات والحقول وسكك الحديد والطرقات، كلّها كتلة واحدة من الدمار والوحل، تلال وأودية من الوحل، وحيثما

* Four - minutes - men.

نظرت لا ترى إلا الجثث والأشلاء والأطلال، الأحصنة والأشجار والماشية المقطعة بالقنابل والرصاص. طبقات جثث* فوق طبقات، والطبقة تدفن الأخرى، بالهجمات العقيمة والهجمات المضادة الأشد عقماً على مدى السنوات الماضية... والآن وصل الأميركيون إلى المجزرة أيضاً.

* قتلت الحرب الكبرى تسعة ملايين جندي وخمسة ملايين مدني.

- 79 -
«أنا بخير»

خرجت آشا من حياة مرتا بلا صوت كما دخلت. السيدة سكياس هي التي مرّت على المتجر، ملتفة بالفرو وعلى رأسها قبعة صوف مربوطة بعقدة تحت الذقن. كان أنفها أحمر، متورماً كحبَّة شمندر. قالت لمرتا إن صاحب مصانع السجاد والكيمونو عمود الطائفة الأرمنية في سياتل ماثيو بابكيان أتى من آخر أميركا وأخذ الفتاة اليتيمة زوجة. مرتا سألتها: «أليست صغيرة؟». كان سؤالاً عابراً، يُلفظ بسهولة بينما ملعقة السكر تدور في كوب الشاي.

«ليست صغيرة إلى ذلك الحد»، ردّت مسز سكياس، «عندما أتى كريكوريان وأخذني من بيت أهلي في زارا كنتُ أصغر منها».

اختفت آشا كما ظهرت. لكن على مرّ السنوات الآتية ستظل تظهر في خيال مرتا، بيضاء وساكتة وتسير على مهل، كلّما قرأت أو سمعت عن مذابح 1915 الأرمنية: كانت تراها بين أرتال البشر الذين تهجروا من قراهم ونُقلوا برًّا عبر الصحاري والجبال والوديان، تحت حراسة البواريد التركية، من أرمينيا إلى دير الزور في سورية. كانوا يقعون كالذباب على الأرض، ينهكهم التعب أو الثلج أو حرّ الشمس، والجوع يهدّهم... قرأت عن رجل كان يحمل أباه العجوز مسافة مئة خطوة ويضعه على التراب ثم يرجع ويحمل أمه العجوز، وهكذا دواليك، مئة خطوة بعد مئة خطوة، عبر ربيع أو صيف

1915. بلغوا خيم دير الزور المضروبة بين الصبير والشوك عند الخريف. فقدوا نصف القافلة على الطريق بغارات البدو والأكراد. أجلس الرجل أباه وأمه على صخرة بيضاء كالملح ثم ذهب وجلب دلو ماء من البئر. صياح فظيع ملأ رأسه. لماذا يصرخون؟ ماذا يُبدّل ذلك؟ جندي اعترض دربه وطلب ماء. سقاه ثم أكمل الطريق إلى الصخرة البيضاء. كان لونها يدلّه. سقى أباه وأمه. بعد ذلك شرب وجلس على الأرض. مالت الشمس بين غيوم الخريف. شعر بألم في صدره وكتفه. مات بالسكتة القلبية وأهله عاشوا من بعده. نزحوا إلى بساتين برج حمود (الأب والأم وعدد من أبناء القرية ذاتها) وعندما مرض الأب أخذه المرسلون الإنجيليون إلى المستوصف التابع لهم في رأس بيروت.

الطبيب الذي عالجه سمع منه قصة النزوح الإجباري من الحدود التركية ـ الروسية إلى سورية. نقلها إلى صديقه الأستاذ في الكلية السورية (الجامعة الأميركية في بيروت لاحقاً) فرانكلين مور المولع بالتصوير الفوتوغرافي. الدكتور مور وضع آلته ذات الأرجل الثلاث أمام سرير العجوز الأرمني والتقط له صورة. عندما انتهت الحرب وخرج الأتراك من سورية ونزل فيها الإنكليز والفرنسيون أرسل مور الصورة المذكورة مع مقالة طويلة إلى جريدة «نيويورك تايمز». مرتا قرأت «حكاية الأرمني الذي وصل إلى بيروت من دون إبنه» وهي تسأل نفسها ماذا جرى لآشا في سياتل؟ لن تعرف الجواب.

لكن الحرب لم تنتهِ بعد ومرتا ما زالت عالقة في الشهور الأولى من 1918. أقول «عالقة» لأنها مرضت في تلك الفترة والمرض أعطاها هذا الشعور. استولت عليها نوبات سعال ووجدت القوّة تخرج من جسمها. صار صعباً عليها أن تقوم بأشغال المتجر

ومرة أخرى طلبت مساعدة جويس بيكroood ـ الفتاة التي ساعدتها من قبل في فترات الزحمة أثناء الأعياد.

اكتشفت أن الفتاة تغيرت. عندها صديق الآن، تقول إنها ستتزوجه إذا رجع من الحرب. تتلقى منه رسائل وبطاقات وتكتب له. أحياناً تسأل مرتا أن تساعدها في تهجئة الكلمات... مع أنها هي الأميركية المولودة في فيلادلفيا.

ذات صباح دخلت تحمل كيسين ورقيين. قالت إن أمها عملت هذه الدوناتس Donuts من أجلها. أخرجت الحلوى الطازجة من الكيس ثم جلست وهي تحضن الكيس الآخر. بعد ذلك أخرجت منه البطاقات والرسائل وبدأت تتكلم:

ـ هذه أرسلها من نيويورك. أنا في حياتي كلّها لم أخرج من فيلادلفيا. في هذه يقول إنه وصل إلى نيويورك عبر «التيوب»، النفق تحت نهر الهدسون. يقول نيويورك ملآنة بحارة وجنوداً. وشاهد في السينما «وحش برلين» Beast of Berlin. ونام مع أصحابه في عنابر المرفأ. هذه البطاقة كتبها من مكان ما في الأطلسي. أنظري: هنا يكتب أنهم حقنوه إبرة كزاز على ظهر الباخرة، لئلا يتحول أي جرح طفيف إلى إصابة قاتلة. وهذه الرسالة من ليفربول. يقول النساء الإنكليزيات جلبن لهم طعاماً وزهوراً. وهذه البطاقة من الهافر La Havre. هذه من بطاقات الجيش Field Service Post Card وممنوع الكتابة عليها. فقط يكتب عنواني. ويوقّع إسمه والتاريخ. وعليها سطور مطبوعة. هذا السطر تركه: «أنا بخير»*. وشطب السطور الأخرى. أخاف من هذا السطر: «أنا في المستشفى». أخاف أن يرسل بطاقة ويشطب كل السطور ويترك هذا السطر... أحببتِ الدوناتس؟

* I am quite well.

- 80 -
جو حدّاد

أنهكها السعال وسحقتها الحرارة. كانت الثلوج تذوب في الخارج والعصافير تزقزق على الأشجار لكنها قبعت في الداخل غارقة في رائحة المرض والأصواف. عَلِقت في حمى مقفلة كقفص لا ترى ماضياً ولا مستقبلاً. استعانت بفناجين النعناع المغلي لعلها تقتل الجرثومة التي فتكت بصدرها. بينما تنحني وتسعل مخلعة الأوصال في فيلادلفيا كان إبن عمها جو (خليل) حداد يُصارع من أجل الهواء في الطبقة الثالثة تحت سطح البحر، في مكانٍ ما من المحيط الأطلسي... عدد لا يُحصى من الجنود يتكومون في بطن الباخرة؛ باخرة تعقب باخرة، قافلة بواخر تحرسها الفرقاطات وطائرات الاستطلاع والقوارب المدرعة خوفاً من الغواصات الألمانية التي تتسلل إلى مياه أميركا (جربوا إطلاق توربيدات على مرفأ نيوبورت نيوز حيث تُصنع بواخر حربية الآن... والجواسيس الألمان في أميركا ـ هكذا كتبت إحدى الجرايد ـ حاولوا تفجير معامل الذخيرة في نيوجرسي مرة أخرى... نجحوا مرة من قبل وعندما انفجر المصنع تحطم الزجاج وراء النهر، كل مانهاتن السفلى تساقطت نوافذها، دوي الانفجارات سبّب ذعراً شاملاً: ظنّ كثر أن الغزو الألماني بدأ!)

أشعلوا مصابيح في جوف الباخرة التي تخيف الحيتان. جو

حدّاد الخائف مثل الجميع من غواصات الألمان القاتلة دار بين الصفوف والفرشات، يبحث بين عددٍ لا نهائي من الوجوه والأقنعة عن صديقه جيفري ثورنتون. قبل أن يعثر عليه التقى ثلاثة سوريين من ماساتشوستس*. أخبروه أنهم يبحثون عن رفاقهم، معظمهم من قرى الكورة السبع، وصلوا إلى أميركا قبل سنوات قليلة، ورحلة الأطلسي ما زالت ماثلة في ذاكرتهم، لم ينسوا ضيق الصدر والهواء القليل والشعور أنك في زريبة، خروف بين الخراف، بلا حول ولا قوة. جو حدّاد ضحك وهو يقول لا تقلقوا سنعثر على رفاقكم وأنتم ساعدوني أيضاً ونادوا إسم صاحبي: «جيفري». صاح وأفزعهم وأفزع من حوله لكنهم ضحكوا بالعدوى وصاحوا مرة معه، ثم انتشروا بين الصفوف والفرشات والوجوه يكرّرون الإسم مرة تلو أخرى، كأنهم ينشدون في كورسٍ كنسي: «جيفري!». لن يعثروا عليه. لكنه سيرى صديقه من جديد بعد شهور، ولولا الصدفة لم يتعرف عليه: كان مشوه الوجه الآن، محروق الأذنين والأنف والرقبة.

حدث الأمر هكذا: في 28 أيار (مايو) 1918 خاض الأميركيون معركتهم الأولى الحقيقية على الجبهة الغربية: أربعة آلاف أميركي من الفرقة الأولى*، الكتيبة الـ 28 كاملة العدد تقريباً (البعض سقط قبل بلوغ Cantigny)، تقدمت بحماية 12 دبابة فرنسية ـ

---

* 322 سورياً من ماساتشوستس وحدها اشتركوا ضمن صفوف الجيش الأميركي في الحرب العالمية الأولى. كانوا مجنسين وغير مجنسين والذين عادوا أحياء حصلوا على الجنسية الأميركية. (أنظرْ «رسائل من الجبهة» (1919) لبيتر موسى، ومقالة وليام كول المنشورة سنة 1922: «السوريون في ماساتشوستس»).

* 28th Regiment - 1st Division.

الدبابات في المقدمة والجنود يسيرون خلفها ـ بعد قصفٍ كثيف «متدحرج» شارك فيه 368 مدفعاً ثقيلاً. هذه التقنية المتطورة في القصف كانت تهدف إلى حراثة الأرض أمام المهاجمين ومطاردة المدافعين الذين يحاولون الانسحاب فتتعقبهم القنابل. لم تتمكن تحصينات كانتيغني من الصمود. ونجح الأميركيون في احتلال القرية. لكن المعركة لم تنتهِ عندئذٍ. كانوا يجلسون إلى وجبة سريعة في أحد البيوت التي لم تتهدم تماماً عندما بدأ القصف الألماني وانفجرت قنابل. صاحوا «Gas» وأخرجوا الأقنعة المطاطية ولبسوها. في اللحظة نفسها حطمت رشقة رصاص من مدفع لويس Lewis نمسوي الأكواب على الطاولة. ناجون ألمان ثبتوا المدفع على حافة النافذة وأطلقوا النار إلى الداخل. كانوا سيئي الحظ لأنهم لم يلبسوا أقنعة الغاز قبل ذلك: قتلهم الغاز الألماني!

جو حدّاد خرج زاحفاً وابتعد قدر ما أمكنه عن الغيمة الصفراء ثم نزع القناع الخانق. كان يلهث، ويرى الأشياء وردية وحمراء أمامه. عندما انتبه أنه يغوص في الماء استولى عليه الذعر لا خوفاً من الماء ولكن من الغاز ذاته: اكتشف خلال الشهور الماضية أن الغاز يتجمع حيث الأجسام المائية: البرك، الأنهار، خزانات مياه الشرب. . . ارتدى قناعه مرة أخرى وزحف تحت رصاص انهمر من ثلاث جهات دفعة واحدة. سقط في حفرة صنعتها القنابل وبقي في الحفرة. كان المكان ضيقاً بسبب الأشلاء والجثث المتخشبة لكنه بقي جامداً. هذا كلّه لم يعد صادماً بالنسبة إليه. هل ربى جلد تمساح فوق جلده خلال الشهور الماضية؟ حارب تحت إمرة الإنكليز في بيكاردي Picardy عندما بدأ الهجوم الألماني مطلع الربيع. كان في فرقة أخرى عندئذٍ ورأى النار التي تهجم كالبركان وتأكل الخندق كاملاً. فرّوا من الخندق كالأرانب البريّة التي تُطرد من أوكارها

بالدخان وإحراق القش. الرصاص يحصدهم وهم يفرّون من نافثات اللهب. صارت هذه رعبه وتطارده إذا نام لحظة. نجا ولم يعرف كيف. تعفنت قدماه وهو يغوص في الوحل لكنه ظل حيًّا. في كانتيغني، بينما يبلع جرعة ماء من مطرته راقداً بين جثثٍ ألمانية وفرنسية وأميركية، جثث قديمة وجثث أحدث عهداً في أوصالها حرارة، صلّى أن يخرجه الربّ سالماً من هذه «الجورة»، ثم من هذه القرية المدمرة على الهضبة السوداء، ثم من هذه الأرض اللعينة التي تُسمى «الجبهة». . . صلّى أن يبقى حيًّا. أزاح القناع عن وجهه. رأى جسماً يقع فوقه. يده بحثت عن الحربة وانتزعتها من حيث هي وغمدتها في الجسم الذي سقط عليه. هذا ألماني، عرفه من زيّه الرمادي وقبعته المسطحة. قلبه جانباً ثم برم الحربة إلى هذه الجهة وتلك وأخرجها. متى تدرب على هذا؟ في أميركا البعيدة وهو يهاجم فزّاعة الحقول في معسكر يشبه ألعاب الأولاد؟ كانوا يطعنون دمى القش والمدرب يصيح ليس في الظهر، تحت، في الكلية. ولا تدخلوا النصل كلّه وإلا لن يخرج. ولا تشدوا هكذا بل إبرموا الحديد، اللعين يُقتل والنصل يخرج. لم يتعلم في المعسكر شيئاً. هنا، في الخنادق، بينما الرصاص يرمي الخوذة عن رأسه، تعلّم. هل تعلّم شيئاً؟ تعلّم ما يكفي للبقاء؟ انحسر الرصاص بينما المساء يهبط. سمع نداءات رفاقه. كانوا يبحثون عن بعضهم البعض. أطلّ بعينيه ورأى ثلاثة ظلال وميّز الزي البروسي الأزرق. سدّد بندقيته وقوّص. سقط ظلّ واحد، ذاب في عتمة المساء، ورفيقاه توغلا بين أطلال مظلمة. قسطل البندقية لسع أصابعه وهو ينزل إلى مقره من جديد. تفحص الجثث بحثاً عن شيء لا يعرف ماذا يكون. اكتشف جريحاً: كان يئن بلا صوت تقريباً، في زيّه الأخضر والأزرق. هذا بلجيكي. أعطاه ماء كي يشرب وسأله عن إسمه.

- 81 -
جو حدّاد (2)

«جان ـ جاك»، قال البلجيكي، «جان ـ جاك سيمون». ثم أغمض عينيه. بعد ذلك لم يتحرك. (إسمه منقور على النصب التذكاري ـ بين 526 إسماً ـ في مدخل كانتيغني: نصف هؤلاء قُتلوا في المعركة والنصف الآخر قُتل بالغاز بعد إحتلال القرية).

ـ «أنا جو، جو حدّاد»، قال للبلجيكي.

لم يعرف أنه ميت إلا بعد وقت. أخرج رأسه من الحفرة ورأى ظلالاً تتجمع، سوداء. بعيداً، في الأفق، تشتعل السماء بالأحمر. القصف لا يتوقف لحظة. المدفعية تدوي، والأفق يلتهب. لكن كانتيغني ـ لهذه اللحظة على الأقل ـ صامتة. ضرب يده على أذنه اليمنى كي يتوقف الطنين فانتقل هذا إلى الأذن الأخرى. كل رأسه يطنّ ولا يعرف من هؤلاء الذين يتجمعون أمام الكاتدرائية المحطمة: صديق أم عدو؟ رجع إلى «الجورة» فسمع صوتاً. كان الصوت يتحدث إليه، وخيّل إليه أنه يضحك:

ـ أنا إسمي ناثان، أنا أسترالي.

اكتشف أن الرجل يمدّ يده ويريد أن يصافحه. مدّ يده وقبض على الأصابع القاتمة. كانت لزجة، ورأى أن الدم يسيل من ذراعه وصدره. في الليل الذي ينتشر كالحبر ويملأ الحفرة سمع الضحكة تتقطع: «Water». لم يكن يطلب يده بل مطرة الماء.

سقاه. بينما الرجل يسعل ويبصق دماً من رئتيه المصابتين بالغاز تجددت الإنفجارات. الألمان تأكدوا أن القرية سقطت وبدأوا القصف؟ أم العكس: الهجوم فشل والآن يقصف «الحلفاء» كانتيغني؟ في الحفرة لم يكن مهتماً بمعرفة الجواب.

الأسترالي قال له، عندما لاحظ حركته: «Stay». أراد أن يبقى معه. امتلأت رئتاه بالماء وكفّ عن التنفس. جو حدّاد رأى القمر، أصفر، كامل الدائرة. عند حافة الحقول المقصوفة السوداء وقفت شجرة: كانت بيضاء، مزهرة، تشبه لطخة في هذا السواد. اشتعل الأفق مرة أخرى، يلتهب ثم يخبو... كان الدوي فظيعاً ومع هذا سمع نداء من آخر الحفرة. كانت تتصل بحفر أخرى. عندما وقعت قنبلة قريبة تقطعت الأشلاء متطايرة وغطاه التراب. لكنه لم يصب بأذى. تلمّس أعضاءه وعرف أنه حيّ. من جديد سمع النداء. رجل يسعل، يتغرغر بالدم كأنه يغسل فمه بالماء والملح، ويناي. زحف صوب الصوت. كان هذا أميركياً، مثله، وأخبره أنه من الكتيبة الثامنة والعشرين. جو حدّاد قال أنا أعرفك. والرجل طلب ماء. سقاه ففرغت المطرة. طلب الرجل شوكولا. عثر جو على لوح شوكولا في ثيابه وكسر له قطعة. فتح الرجل فمه وجو ألقى القطعة بين أسنانه. بعد ذلك استند بظهره إلى حائط الحفرة. عندما تدفق ضوء القمر فوق الجثث رأى شخصاً آخر يتحرك. كان في اللباس الأزرق. زحف إليه وسدّد المسدس إلى رأسه. قبل أن يطلق النار قال الألماني:

- Kamerad!

هل كان يستسلم؟ ماذا كان يقول؟ دائماً يسمع هذه الصرخة عندما يجتاحون خندقاً. دخل مرة خندقاً ألمانياً مهجوراً للتو، ورأى

مائدة في غرفة محصنة تحت الأرض، بأكواب قهوة وخبز وجبن ولحم وعلبة سيجار من الصنف الفاخر. في زاوية عثر على صندوق فيه تفاح وبرتقال وليمون حامض. نظر إلى الفاكهة ولم يصدق. كان آتياً للتو من خندقٍ موحل تطفو عليه الجثث، برائحة الأحصنة المتحللة تسحق دماغه، ورأى الفاكهة والحياة العادية في غرفة تحت الأرض، وبخاراً يرتفع من أكواب القهوة! خرج راكضاً إلى النفق يطلق النار مثل أخوت. الألمان تساقطوا رافعين ثياباً داخلية بيضاء. كانوا يهتفون بتلك الصرخة الغامضة «كومراد» ويقعون على جهتي النفق.

ناداه صوت. زحف ورأى أميركياً من فرقته. عليه أن يضرب التحية العسكرية: هذا يعلوه رتبة. قبل أن يضرب التحية قال الجريح:

ـ تستطيع أن تحملني؟*

بدا كأنه يسأل عن مقدار قوّته وحسب، مثل ولدين يلعبان في الساحة. جو هزّ رأسه ومدّ ذراعيه وجذب الرجل من كتفيه جذبة قوية. صاح الرجل تلقائياً كأنه ضُرب. كان نصف جسمه (ظهره) مسحوقاً تماماً، ذائباً وممتزجاً بالمادة السوداء التي تملأ أرض الحفرة. جو تركه وقال إنه سيرجع.

زحف أبعد فأبعد ثم أطلّ برأسه. داخل الكاتدرائية المحطمة رأى جنوداً يتحلقون حول نار صغيرة. لم يستطع أن يميز لا اللباس ولا الوجوه. كانوا بعيدين، واللون الأحمر الغامض يغزو عينيه من جديد. مسح جبهته وتأكد أنه لا ينزف. مرة أخرى تكاثفت

---

* Can you carry me?

الإنفجارات وغطى الدخان وجه القمر. ساد الظلام الحفرة وسكن الأنين. شعر بحركة. التفت ورأى رجلاً محروق الوجه. كان وجهه يسيل وعندما رفع يده رأى أن أصابعه تسيل أيضاً. ثم هوى أرضاً. خرج جو من الحفرة ومشى إلى الكاتدرائية ودخل بلا سلاح وألقى التحية. كانوا أميركيين، يبلّون البسكويت العسكري بالماء الفاتر ويُعدّون طعام العشاء.

لم يفقد الوعي إلا لحظة. ثم فتح عينيه من جديد ورآهم ينتشرون وراء متاريس أعدها الألمان ثم تركوها. قال يوجد جرحى في الحفرة. قبل أن ينهي إقتراحه إنفجرت قذيفة في مدخل الكاتدرائية وحطمت التمثال الأخير الباقي للربّ يسوع المسيح. أحدهم أعطاه ليمونة كي يمصّها ويبعد العطش.

«الماء تلوّث بالغاز»، قال الصوت وهو يبتعد.

كان المكان ضخماً، مثل قصرٍ بُني بأقواس وقناطر وعقود. لا بد أنهم عمّروا هذا الصرح قبل قرون. في أميركا نادراً ما يرى عمارات قديمة إلى هذا الحد. لم تعد الانفجارات تبلغه. كان يبتعد، والأرض الحجرية تتحرك، تسيل كالماء، وهو ينزلق. . . انزلق حتى بلغ الخندق حيث تتكلم الجثث مع الجرحى وحيث يطلب الجرحى ماء وشوكولا وحليباً، ويقول الذي يموت «إبقَ معي» ويمدّ أحدهم يده ويطلب المطرة. انزلق أبعد ورأى شجرة الكرز النابتة في قلب الجحيم. وانزلق أبعد ورأى جبلاً أخضر وعصافير وعشاً مملوءاً بالبيض. سمع السقسقة. ثم هوى التراب على عينيه وأنفه. هل يُدفن حيًّا؟ سمع رصاصاً غزيراً في جوف الكاتدرائية. . . رجعوا؟ ماذا يحدث؟ أين قوّته؟ فتح عينيه وعثر على بندقيته (ألم يأتِ من الخارج بلا سلاح؟) وأطلق النار على الرجل الذي فتح النار على الجميع.

هل أصيب بالجنون تحت هذا القصف؟ هل يُطلق النار على رفاقه الآن؟ كانت الحرارة تسحقه وعندما عرف بعد دهر أنه يُحمل على محفة أدرك أنه لن يموت.

في المستشفى الميداني ـ غرف عميقة تحت الأرض ـ خاف أن يختنق. كان الهواء قليلاً ورأى رجلاً مبتور الذراعين يقف جنبه وينظر إليه. سعل وبصق شيئاً أسود. اقتربت امرأة تلبس زي الصليب الأحمر وقالت إنه تنشّق قليلاً من الغاز، لا يكفي كي يقتله لكن يكفي كي يأخذ إجازة ويذهب إلى الخطوط الخلفية ويرتاح. كانت تبتسم وتلفظ كلمات اعتادت عليها بمرور الوقت. (خلفها كانوا يحقنون، تحت القناديل، جرحى).

وهكذا، في مستشفى فوق وجه الأرض، وراء الخطوط الخلفية، التقى جو حدّاد صديقه جيفري ثورنتون مرة أخرى. تبادلا الأخبار. دخّنا تبغاً. ثم افترقا إلى الأبد.

- 82 -

جو حدّاد (3)

جيفري قفز على ساقٍ واحدة إلى باريس*. وجو رجع إلى الجبهة. في الطريق إلى هناك توقف القطار الحربي أكثر من مرة. نزل في إحدى المحطات ـ كانت السكة محطمة ويعاد مدّها ـ ودخل مقصفاً لا يرتاده إلا الجنود. شرب نصف قنينة نبيذ وهو يلف تبغاً ويدخن سيكارة تلو سيكارة. في جيب معطفه عثر على بطاقة للجيش لم يكتب عليها أحد شيئاً. Field Service Post Card. تذكر راهبات دير سان مارتن حائمات كالدجاج حوله. كان يستلقي على ظهره، وعلى بعد سريرين يحقنون أحد الجرحى بالمورفين ويغزو الأبيض عينيه بينما يتلاشى. كانت هذه اللحظة من أغرب ما عرفه في حياته: شعر أنه يخرج من جسمه ويطفو فوق الأسرة. ينظر إلى الوجوه ويتعرف إليها وجهاً وجهاً ـ كأنه عرفهم دائماً ـ ويتكلم معهم... مع أن معظمهم نيام. (تذكر الجثث التي زحف فوقها ونام عليها طوال الشهور الماضية؟ كانوا ينامون في خندق قريب من الخطوط الألمانية وتساقطت عليهم القذائف. أحدثت حفراً مرعبة وأخرجت من تحت الأرض جثثاً متعفنة).

كان غارقاً في غيمة تبغه. نهض خارجاً من الظلمة واقترب من

---

* لا نراه بعد الآن ولا أعرف ماذا حدث له بعد ذلك.

الرجل الذي يسكب الكؤوس وسأله هل عنده قلم؟ الرجل استدار وأجاب بالفرنسية:

ـ Ah, Oui!.

أخرج قلماً من تحت المنضدة وقبل أن يعطيه إياه اشترط عليه أن يرده. هزّ جو رأسه، قال «Sure, Don't Worry»*، وأخذ القلم. عاد إلى طاولته. انفتح الباب ودخل جنود وميكانيكيون ملطخون بالشحم. دخلت معهم رائحة الحرائق: كانوا يشعلون أشياء لا أحد يعرف ماذا تكون في الخارج (مثل رائحة العظم وهو يحترق). شرب ما بقي في القنينة ثم كتب عنوان مرتا في فيلادلفيا على البطاقة وقرأه كي يتأكد أنه لم يكتب خطأ. بعد ذلك وقّع إسمه ورفع رأسه وصاح يسأل عن تاريخ اليوم. أجابته الأصوات من جميع الجهات لكن التواريخ وصلته متشابكة ومختلفة كأنه يعيش في اللحظة ذاتها أكثر من يومٍ واحد. شتم وضحك. والآخرون كرّروا ما فعله كأنهم اتفقوا علىٰ ذلك مسبقاً. كانوا مثل وحشٍ حزين واحدٍ بعددٍ لا يحصى من الرؤوس المحطمة.

ساكب الكؤوس دلّه وهو يفرك كأساً بفوطة إلى الروزنامة المعلقة على الحائط. ذهب إليها ونقل المكتوب وهو يشعر بدوخة خفيفة. سأله الفرنسي بلكنته المضحكة من أين يأتي وإلى أين يذهب؟ كانت إنكليزيته بائسة لكنها تكفي كي يفهم جو ما الذي يتكلم عنه. أراد أن يضحك ولم يفعل. كان جيفري أمامه في تلك اللحظة يقفز على الساق الباقية ويشتم ويخبط بيديه. لماذا يفعل ذلك؟ لم يسأله في حديقة المستشفى. كان يصلّي أن ينجو ويرجع إلى أميركا ويرى

* بالتأكيد، لا تقلق.

مرتا ويتكلم معها. لكن شيئاً غريباً حدث له بينما ساكب الكؤوس يبتسم ويمدّ يده ويطلب القلم: شعر أنه مات وأن هذه هي النهاية. لم يرسل البطاقة.

بعد ذلك قاتل مع الفرقة الثانية الأميركية في Soissons ثم في Fère - en - Tardenois* التي احتلها الألمان في غزوة الربيع قبل أربعة شهور. أحد رفاقه طار في الهواء وسقط حيًّا. حمله إلى المستشفى في المؤخرة ثم رجع إلى القتال. هذه الحادثة تكررت ثلاث مرات وعندما انتهت المعركة كان يلهث كأنه يركض منذ سنوات. العريف طلب له وساماً وعندما تأخر الوسام طمأنه أنه سيأتي بالتأكيد. جو أصغى إليه بلا اهتمام وطلب منه ألا يقلق ثم أدى التحية وانصرف. في قرية سيرجي Sergy أصابه الحرس البروسي برصاصة في يده. عالجوه في مستشفى ميداني على ضفة نهر Marne وحمل البندقية.

كانت إصابة طفيفة ولم تؤذِ عصباً. سار في مرج أسود ثم في مرج أصفر ثم في مرج أخضر وبينما يقطع المروج ويرى الرصاص يحصد السنابل والرؤوس شعر أنه لا يُقهر. في إحدى القرى المجاورة لـ Ypres رأى أسرى من الألمان حُبسوا في قفص مغلولين بالحديد كالحيوانات وركبهم تغوص في الوحل. كانوا كأفراس النهر، نصفهم السفلي تحت الوحل والعلوي في الهواء الأزرق البارد. شعّت الشمس بينما يقترب منهم وينظر إلى عيونهم الملونة ويحاول أن يستوعب شيئاً. أحد رفاقه أخرج من معطفه وساماً وقال: «أنظرْ». «ما هذا؟» سأله.

---

* المقبرة هناك فيها شواهد لستة آلاف جندي أميركي إضافة إلى نصب تذكاري لـ 241 اسماً بلا قبر.

. Victoria Cross _

وأخبره أنه وجد صندوقاً مملوءاً بالأوسمة في الخندق والآن يوزع منها على الجميع. كان يضحك وأخذ يسعل ويضرب على صدره ويقول شيئاً عن الفلاندرز Flanders.

نقلوا جو إلى كتيبة أخرى وحارب في سان ميهيل St Mihiel. كان هاجماً وتعثر ووقع، ومن دون أن ينتبه غرق في النوم. كان القصف يفتك بالجميع والمدافع الرشاشة تحصد وتفرم وتقطع لكنه ظلّ نائماً. بعد المعركة طلب المزيد من الحبوب لأن يده تؤلمه. لم يُعطَ حبوباً. «هناك نقص في المواد الطبية». فقد خوذته في Meuse - Argonne لكنه غنم أخرى من ألماني. قالوا له: «هذا خطر جداً، لا تلبس خوذة العدو». لكنه لبسها. وقع على الأرض في هجوم وعلق بأسلاك ونزف. أعطوه إجازة وأرسلوه إلى بيوت مدمرة في Chateau - Thierry حيث دارت معركة عنيفة قبل وقت.

مشى بين جرحى توزعوا الأطلال يشربون الكحول ويدخنون. كان الطعام كثيراً هنا لكنه وجد نفسه عاجزاً عن الأكل. منظر الجنود السكارى أثار فيه شعوراً مقلقاً. حاول أن يحدد شعوره ثم أدرك أن عقله صار في مكان آخر وأن تفكيره لم يعد مربوطاً بما يحدث له ولا بما يحدث حوله.

رجل رآه من قبل اقترب وسأله بالإنكليزية: «أنت جو دونت ووري، لا؟». هزّ رأسه ولم يقل شيئاً. أخبره الرجل أنه كان في معركة Belleau Wood وأنه رأى عدداً لا يحصى من القتلى يتعلقون من أشجار الغابة مثل القرود. انتظره كي يضحك لكن جو أبعده من دربه ومشى من دون أن يفتح فمه. أين كان خليل حدّاد ذاهباً عندئذٍ؟ ماذا كان يرى أمام عينيه؟ ماذا نسي وماذا تذكر؟

- 83 -

اضطرت للخروج وهي مريضة كي تحرّر بضاعة من محطة السكك الحديد. كانت رحلة سهلة وبينما هي عائدة تحت الشمس الساطعة عطست وشعرت أن المرض خرج منها. اشترت سندويشة «هوت دوغز» وهي تشعر برطوبة عينيها. في الأيام التالية استرجعت نشاطها وصارت تخرج في وقت راحتها وتتنزه في «البارك»، بين الأشجار الخضراء، وتتأمل الأولاد يلعبون. فتيات في ثياب جديدة تراكضن على العشب وقفزن على الحبل وأنشدن أغنيات لا تعرفها. وقفت على مسافة قريبة وأصغت إلى الكلمات وحفظت الأغنية. بينما تسير عائدة إلى المتجر وجدت نفسها تدندن اللحن.

اضطرت الفتاة التي تساعدها إلى الرحيل لكن مرتا لم يضايقها الأمر. وجدت طاقتها مضاعفة بعد المرض والسبات الشتوي. أزعجها فقط ألمٌ في ضرسها. والسيد سكياس دلّها إلى طبيب فذهبت وتخلصت منه. كان الطبيب ماهراً، خفيف اليد. فتح كفّه أمامها كي ترى الضرس كما هو، وفي قلبه الأبيض نقطة السوس سوداء.

في تلك الفترة امتلأت الجرايد بأخبار المعارك التي يخوضها الأميركيون مع «الحلفاء» على «الجبهة الغربية». بعد معركة كانتيغني Cantigny نُشرت أسماء القتلى في الجريدة. مرتا قرأت الأسماء وقلبها يقرع في صدرها. سمعت النبض يدوي في أذنيها وخافت أن

يحدث لها شيء. لم تجد إسماً تعرفه. في الشهور التالية، وعند نشر كل لائحة جديدة بأسماء القتلى الأميركيين، كان هذا يتكرر. عندما قرأت في منتصف أيلول (سبتمبر) 1918 إسم هنري أوزبورن بين القتلى لم تنتبه. مرّت على الإسم ولم تنتبه ثم انصرفت إلى أشغالها: استقبلت زبائن وكشّاشين وباعت بضاعة. تفحصت دفاتر الحسابات وسجلت ما تحتاج إليه من نيويورك. لكنها عند المساء، وقبل أن تخلد إلى النوم، شعرت أنها مرّت بلا وعي على إسم تعرفه. التقطت الجريدة متوجسة وقرأت اللائحة مرة أخرى. كان هو، كأنه يلفظ إسمه الآن أمامها: هنري أوزبورن من ترنتون ـ نيوجيرسي.

بحثت ووجدت أكثر من بطاقة له. قارنت الإسم بين البطاقة والجريدة وشعرت بالدموع تتجمع في زلعومها. لم تعرف لماذا تبكي. رجل التقته بالصدفة أكثر من مرة واحدة... هل تبكي عليه؟ أحسّت أنها تختنق ولا تستطيع النوم. لبست ثيابها وخرجت إلى الشارع المظلم ووقفت تحت النجوم تنظر إلى العالم الذي ينام.

الجزء الثالث

- 84 -

Aisne - Marne

العاشرة صباحاً. الإثنين 14 تشرين الأول (أكتوبر) 1918. المتجر فارغ والشوارع أخلتها الأنفلونزا. كانت تشرب كاكاو عندما دخل ساعي البريد لابساً الكمامة. أعطاها الرسالة وخرج مسرعاً. كان ظرفاً غريباً رمادي اللون، بلا طوابع بريدية، وفي زاويته الختم الأسود للجيش الأميركي (US Army). فتحت الظرف فوقع منه قرصٌ معدني ورنّ على الأرض. كانت صفحة واحدة سوداء الحروف، مطبوعة على آلة كاتبة. في الأعلى قرأت إسمها .Mrs Martha Haddad. كانت الكلمات تتحرك على الورقة.

We are very sorry to inform you of the death of your husband. Private Joe Khalil Haddad was Killed while Fighting in the Field of honour for his country on the Western Front. He was buried by his fellow Soldiers of the AEF in the Marne Cemetery north of City of Paris on the 29th of September 1918.

«نحن آسفون جداً لإبلاغك بموت زوجك. النفر جو خليل حداد قُتل أثناء القتال في ميدان الشرف من أجل وطنه على الجبهة الغربية. دفنه رفاقه الجنود من قوات الحملة الأميركية في مقبرة مارن شمال مدينة باريس في 29 أيلول 1918».

لن تعرف مرتا ـ الربّ رحيم ـ شيئاً عن الأيام والساعات الأخيرة لجو خليل حدّاد. الكلمات الإنكليزية في رسالة الجيش الأميركي إليها تختم حياته. ترجمتنا العربية بلا قيمة. والكلمات الإنكليزية، أين قيمتها؟ ما قيمة الكلمات؟

كان يركض مع آخرين ويطلق النار. ثم هدأت المدافع الرشاشة وسكتت الصرخات. كانوا يتقدمون على مهل الآن بلا خوف. الخط الذي يتعرض للهجوم أخلاه المدافعون عنه. كان يتقدم والبندقية في يمناه واليسرى تتحرك جيئة ذهاباً. الطاقة تعجّ في أعضائه وبينما يتحرك هكذا ارتطمت قبضته بفخذه وشعر بحرارة غريبة. كأن اللحم لمس اللحم، كأنه لا يلبس بنطلونه. نظر ورأى قماشة البنطلون ممزقة، تحت الحزام تماماً. ثم رأى السائل الأسود. إستغرب ذلك. لم يشعر بالرصاصة! ركع على ركبة واحدة. ألقى البارودة على الأرض كي يحرّر يده ويخرج ضمادة من الكيس على ظهره. قبل أن ينجز ذلك لسعت النيران جنبه. مال وفقد الوعي.

استيقظ في مكانٍ غامض ورأى وجوهاً غريبة ثم غاب مرة أخرى. كلّما أوشك أن يستيقظ شعر بألم في جنبه ـ كأنه يُحقن بأبر ضخمة الرؤوس ـ ثم تلاشى من جديد. عندما إستيقظ أخيراً رأى نور الغروب البرتقالي يتدفق من نوافذ عالية مستطيلة ويملأ قاعة بلا بداية وبلا نهاية. كان العطش يحرقه. نادى طالباً الماء لكن الصوت لم يخرج منه. رأى إبريقاً وأراد أن ينهض. استجمع أنفاسه وشعر بطاقة خيالية تتدفق في جسمه. قفز فسقط على البلاط وخبط أنفه الأرض. نظر إلى ساقيه فلم يعثر على الجزء السفلي من جسمه. كان هذا غير معقول. عندما استوعب دماغه ما حدث صاح غاضباً. كان يصيح ويمدّ ذراعيه ويحاول أن يتمسك بالسرير المجاور. فرّت الدموع من

عينيه وهو يصرخ ويصرخ. كان مقهوراً وغاضباً مثل ولد صغير وبينما يصرخ فقد الوعي.

خدَّروه بالمورفين. وكلّما تراجع مفعول المخدر دبّ الحريق في صدره وحوضه وبطنه. كان ألماً لا يُحتمل. زادوا الجرعة مرة ثم مرتين. كان يفتح عينيه ويصرخ. دام هذا أياماً قليلة ثم ضاعفوا الحقن مرة أخيرة. وهكذا لفظ الروح. حدث ذلك في 28 أيلول (سبتمبر) 1918 في مستشفى كان من قبل ديراً على ضفة نهر مارن.

- 85 -

الرحمة

جدّتي زهية جابر* نجت من مجاعة الحرب العالمية الأولى. عاشت حتى سنة 1985. هذا يعني أنها نجت أيضاً من الحرب العالمية الثانية، ومن إحدى أقسى محطات الحرب الأهلية اللبنانية: «حرب الجبل» (1983). عاشت حياتها كلّها في القرية حيث وُلِدَت: كفرنبرخ ـ الشوف، الواقعة في القسم الجنوبي من جبل لبنان. (خط بيروت ـ الشام، حيث مرَّت الطريق الفرنساوية ـ العثمانية لعربات الديلجانس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحيث مرّ قطار بيروت ـ الشام في أواخر القرن المذكور ثم في العقود الأولى من القرن العشرين قبل أن يتعطل ويخرج من الخدمة... هذا الخط «الخيالي» يفصل جبل لبنان إلى قسمين، جنوبي هو بلاد الشوف وإقليم الخروب، وشمالي هو بلاد المتن. بتاتر ـ قرية آل حدّاد ـ تقع على هذا الخط مع أنها تعتبر تابعة لبلاد المتن).

كان شعرها أبيض، ناصع البياض، وطويلاً. كانت تجدله كالهنود الحمر وتخفي الجدائل الطويلة كحبال حرير تحت المنديل الدرزي الأبيض. أتذكرها ـ وأنا طفل أنام جنبها على سرير حديد

---

* زوجة محمد بشير جابر الذي نراه بعد فصول ذاهباً من جبل لبنان إلى أميركا لرؤية أخيه علي جابر.

قديم لا أحد يعرف عمره ـ تستيقظ قبل الجميع في الفجر المعتم تحت قناطر البيت العقد الذي بناه أجداد العائلة. قبل النهوض لإشعال النار وتسخين إبريق المتّة تبقى في الفراش، جالسة تحت البطانية، تفك الجدائل وتمشط شعرها. أتذكر أيضاً «كتاب الحكمة» تُخرجه من البيت الجلدي الذي يحفظه. لا تنام إلا وهو تحت مخدتها. تفتحه بخشوع بعد أن تُقبِّله. تقرأ فيه كلمات مخطوطة باليد (يُمنع طبع هذه الكتب المقدسة). أسمع الصوت الخفيض تحت قوس العقد العالي ولا أعرف ـ كنتُ صغيراً ـ أن جدتي أمّية، لا تقرأ ولا تكتب. لم تتعلم يوماً أن تفكّ الحرف، لكنها تنشد ما حفظته من صلوات وأدعية. أما فتح «الكتاب» فصلاة وبركة. أتذكر أيضاً التواريخ المكتوبة على ورقة سمراء شبه منفصلة في نهاية «كتاب الحكمة»، وبخطٍ يشبه خط «الكتاب» ذاته (ليس الأمر غريباً: ناسخ «الكتاب» يوسف جابر، أحد أسلاف العائلة). هذا خط جدّي محمد الهاجع عندئذٍ على السرير المجاور، ينام على جنبه الأيمن ويُصدر من حين إلى آخر شخيراً متقطعاً. (كان يُدخن ثلاث علب سيدارز ـ تبغ وطني ـ في اليوم. ومع هذا لم يشكُ يوماً من مرض أو اعتلال. مات بعد جدّتي بسنة. لم يتحمل). التواريخ ـ إذا تأملتها ملياً ـ لم تُدوَّن بخطٍ واحد ولا بحبرٍ واحد. (التواريخ العتيقة ـ حبرها أقدم وغريب اللون، أخضر إلى بنفسجي، وفيه برقة عجيبة مع أنه أقدم ـ لم يكتبها جدّي. من كتبها؟ أبوه بشير جابر صاحب الوصية في الفصل 2؟ لكن بشير جابر لم يكن يقرأ ويكتب. شخص آخر من الأقارب أو المعارف كتب تلك التواريخ. وكتب الأسماء أيضاً. هذه شجرة العائلة. سجلها. يحفظ أسماء اختفت، تواريخ زيجات ووفاة وولادة. مرّات لا تجد تاريخ الوفاة. هذه حال علي جابر مثلاً).

حكاية العسكري التركي الذي حاول أن يسرق من جدتي دجاجتها أثناء المجاعة، تشبه شيئاً سمعتُه قبل قرون لا عقود. كانت وحدها في البيت ورأته من النافذة يفتح بوابة القنّ (شبه الخالي: ما زالت توجد دجاجة) ويمدّ يده. على الحائط بارودة الدكّ. التقطتها وركضت إلى الخارج وصاحت بالتركي أن يترك دجاجتها: «تروك الدجاجي»! كانت صغيرة لكن التركي خاف من صوتها ومن البارودة.

هناك حكاية أخرى عن شجرة التين، على المصطبة وراء البيت: غطّوا أغصانها ببطانيات الصوف فلم يتمكن الجراد من أكلها. عندما ذهبت السحابة المرعبة السوداء عن الجبل كانت هذه التينة الخضراء هي الوحيدة الباقية. عاشت هذه الشجرة عبر القرن العشرين وأكل منها الكبار والصغار، جيلاً بعد جيل، وما زالت حيث هي، حيّة. (نسوة العائلة، جيلاً بعد جيل، اشتكين منها: تتساقط ثمارها الناضجة على المصطبة الحجرية، وكذلك أوراقها. كل يوم لا بد أن تُكنس الأرض مرة ومرتين وثلاث مرات... إحدى «الكنّات» اقترحت قطعها و«ستّي أم شاهين» قالت: «يُقطع رقبتك!»).

حكايات جدي مختلفة. كان صغيراً ومع ذلك يسوق البغال ويذهب إلى سهل البقاع وإلى جبل حوران ويرجع. في الصيف (الشمس حامية وضربتها تقتل) وفي الشتاء (الثلوج تتراكم وإذا وقعت في «منسف» ثلج تموت بسرعة) يتكبد مشقة الطريق (ثمة لصوص أيضاً، بلا رحمة، يسرقون ويقتلون بلا تردد) كي يجلب شعيراً وقمحاً. أكثر من مرة كاد يقضي نحبه في هذه الرحلات الخطرة. مرة أوشك أن يقع في قبضة الجنود الأتراك ولو حدث ذلك كانوا ساقوه هو والبغال إلى «الجبهة».

- 86 -

الإنفلونزا الأسبانية

لم ترَ مرتا زوجها مبتور الساقين يؤخذ إلى حفرةٍ في حقلٍ بمساحة بتاتر على ضفة نهر مارن شمال باريس. لم ترَ القبور تتراصف متوازية، وتلال الوحل الصغيرة تغطي الجنود الذين قدموا من أطراف العالم كي يفقدوا أرواحهم في هذه النقطة. ماذا رأت؟ الرقم المنقور على القرص المعدني والمنسوخ أيضاً في زاوية الرسالة: **619729**

في ذلك اليوم الخريفي ـ 28 أيلول (سبتمبر) 1918 ـ وبينما خليل حدّاد يلفظ الروح في مستشفى كان من قبل ديراً، وقفت مرتا حداد على الرصيف تحت ظلّة المتجر الصفراء تتفرج على الحشود تقطع شوارع فيلادلفيا: كانت هذه «مسيرة الحرية»*، مهرجان موسيقى وأعلام وأناشيد ودعم للمجهود الحربي. ربع مليون شخص من سكان المدينة تجمعوا في الطرقات وغنّوا وأكلوا وشربوا وأصغوا إلى خطب حماسية. بعضهم كان يغطي وجهه بمنديل: منذ أيام تنشر الجرايد أخباراً غريبة عن «إنفلونزا قاتلة» ظهرت في بوسطن وفي كوينز ـ نيويورك. إذا كانت التقارير صحيحة فهذا «الرشح» مرعب.

* The Fourth Liberty Loan Drive - Parade.

خلال ساعات قد يتحول إلى «ذات الرئة» Pneumonia ويختنق المريض بالدم الخارج من صدره.

شابٌ ينفخ في بوق مواكباً أغنية تشتم القيصر الألماني وإمبراطور النمسا ـ هنغاريا أزاح البوق لحظة ومسح فمه بكمّ قميصه ثم سأل رجلاً يلبس قناعاً طبيًّا على فمه وأنفه: «لماذا هذا؟».

الرجل قال: «The Flu».

الشاب ضحك هازئاً وخبط الرجل على ظهره وقال: «Afraid of Sneezing!» («تخاف من العطس»!) رفع بوقه مرة أخرى ونفخ. وسيظل ينفخ عابراً الطرقات، من مدينة فيلادلفيا على الساحل الشرقي إلى مدينة لوس أنجليس على الساحل الغربي، ورحلته هذه ـ من أجل أميركا ـ ستنقذه من الموت. . . لكن خلف ظهره، في فيلادلفيا التي يتركها، ستحصد الإنفلونزا الإسبانية خلال شهرٍ واحد 13 ألف قتيل، ثم تختفي.

ماذا كانت الإنفلونزا الأسبانية؟ هذا الوباء الغامض اجتاح العالم* في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقتل في القارات الخمس، أثناء 1918 و1919، أضعاف ما قتلته الحرب الكبرى. بين 20 مليوناً و40 مليوناً قُتلوا بهذا الوباء. إذا كان ذلك حقيقياً فلماذا لا نجد عنه مئات الكتب في المكتبات؟ لا أحد يقدر أن يحصي المؤلفات المتعلقة بالحرب الكبرى. لماذا لا تتجاوز الكتب عن وباء الإنفلونزا الأسبانية ـ في المقابل ـ عدد أصابع اليد! (خمسة كتب؟ عشرة كتب؟ ماذا؟ ألوف الكتب تؤرخ الحرب العالمية الأولى!) لماذا طُرد هذا الوباء خارج الذاكرة البشرية؟ (لاحقاً، في

* لم تنجُ منه غير بعض الجُزر.

نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، سنتذكره، بسبب أوبئة أخرى: «إنفلونزا الطيور» مثلاً). لماذا إذا تذكّره أحدنا بدا راوياً لقصة خيالية؟ عندما نقرأ رسائل أطباء من فيلادلفيا (أو بوسطن، أو مانهاتن ـ كنساس، أو كامب ديفنز ـ ماساتشوستس) La Grippe عاشوا تلك الأيام السوداء ورأوا مرضاهم يحتضرون بالعشرات في كل ساعة، يُخيّل إلينا أننا نقرأ «يوميات سنة الطاعون» (1722) لدانيال ديفو، يوميات «خيالية» عن زمن الطاعون الأسود! تبدو الكارثة أكبر من أن تُصدق: أن يموت في الولايات المتحدة وحدها أكثر من نصف مليون إنسان بـ«الكريب»!* في الهند يموت نحو ستة ملايين! في بريطانيا ربع مليون! في فرنسا نصف مليون! في اليابان ربع مليون! وهكذا... ثم يختفي الوباء وحده، بلا أثر، كأنه لم يكن!

أين بدأ؟ في معسكرات الجنود المكتظة؟ في المستشفيات؟ على «الجبهة الغربية»؟ في المرافىء ومحطات السكك الحديد؟ النظريات كثيرة لكن المؤكد أن الحرب وحركة انتقال الجيوش عبر الدول والقارات، في البواخر والقطارات، ساهمت في انتشاره السريع والقاتل. أغرب ما فيه أنه قتل الأجسام الأقوى: معظم ضحاياه تراوحت أعمارهم بين 20 و40 سنة! عادة تقتل الإنفلونزا ـ إذا قتلت ـ الأطفال والعجائز. هذه المرة، في 1918 و1919، اختلف الأمر.

مهرجان 28 أيلول (سبتمبر) 1918 في فيلادلفيا كان خطأً لا يُغتفر: انتشر الوباء بالعدوى بعد هذا التجمع الكثيف، وعندما رحل عن المدينة في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) تركها منكوبة: بين مدن أميركا وقع في فيلادلفيا العدد الأكبر من الضحايا.

- 87 -

«أخرجوا موتاكم»

كانت الشاحنة الفورد تمرّ والرجل يصيح من النافذة وهو يبعد كمامته:

- Bring out your dead!

رأت شاباً لم يبلغ السابعة عشرة يدنو من الشاحنة التي توقفت ويضع في الصندوق، فوق الجثث المكومة، جثة صغيرة. من يحمل؟ أخوه الصغير؟ كان المتجر فارغاً كعادته منذ أيام وهي تجلس وتقطع قماشاً وتخيط الأثواب لمتطوعات الصليب الأحمر. من بقايا القماش تعد كمامات أيضاً. قبل ذلك خاطت «جاكيتات ذات الرئة» (Pneumonia Jackets) ببطانة مزدوجة تحفظ الحرارة في جسم المريض. كانت تقص وتقطب من الصباح إلى المساء ولا تستقبل إلا المتطوعات الآتيات من المستشفى في الجانب الآخر من الشارع: «مستشفى طوارىء» احتل المبنى نصف المهدم، إلى جوار الكنيسة. في الكنيسة أيضاً أبعدوا المقاعد ومدّوا الأسرة. رأتهم - طلاب كلية الطب - يركبون الأسرة ويجمعونها على الطريق.

المبنى نصف المهدم كان من قبل مستشفى صغيراً تابعاً للمدرسة الطبية. لكن المدرسة اتحدت بجامعة بنسلفانيا، ومبانيها اشتراها مقاول وكان يهدمها لبناء متاجر وبيوت عندما عطّل الوباء أعماله. البلدية جلبت شغيلة أقاموا فواصل خشباً تمنع الهواء والمطر عن الغرف: كان مكاناً مضحكاً في شكله، لكن لا أحد ينظر إليه

ويضحك. المرضى يدخلون إليه وهم يرتعدون ويسعلون. ولا يخرجون إلا على محفة. وضعوا سخّاناً ضخماً على الرصيف لتأمين التدفئة للمبنى. ومدّوا إليه أسلاك الكهرباء وأنابيب الماء من جديد. يبقى مضاء طوال الليل، أصفر النوافذ، يصاحب مرتا في أرقها.

لم تعد قادرة على النوم ليلاً. في النهار تنام وهي تخيط. لا تخشى أن يدخل أحد ويراها نائمة بين الأقمشة. الحياة العادية توقفت. القطارات لا تتحرك إلا الأحد. الترامواي متوقف دائماً. كل التجمعات مُنِعت. المسارح، صالات السينما، حفلات الغناء، القداديس وخدمات الكنيسة، المدارس، المخازن الكبرى... كل هذه مقفلة. الناس في البيوت وإذا خرجوا لابسين الكمامات لا ترى منهم إلا العيون. يعبرون الطريق بخطى متعجلة كأنهم يخشون الهواء ذاته. إحدى المتطوعات أخبرتها عن عائلة ماتت اختناقاً! سدّوا جميع منافذ الهواء وجلسوا حول الوجاق الحطب. حتى ثقوب الأبواب، حيث تدخل المفاتيح، سدّوها بالقطن. لئلا تدخل جرثومة المرض من الخارج. التفوا بالبطانيات وجلسوا حول النار، الأب والأم والأولاد الأربعة. عندما وجدهم رجال الصليب الأحمر كانوا يستندون بعضهم إلى بعض، مختنقين. كيف حدث ذلك؟ لعلهم كانوا نائمين.

لم يأتِ أحد ويدق على المتجر العلامة الزرقاء بالمسامير لأنها لا تسعل، ولا حرارة عليها، وليس في صدرها خرير. ما زال بائع الحليب يعبر ويضع القارورة على العتبة ويلقي عليها التحية. في الجهة المقابلة، أمام بيوت طُرِقت على أبوابها «العلامة»، لم يعد يضع قارورة الحليب. يتجنب حتى المرور أمام تلك الأبواب. كمّامته كبيرة ومرات يزيحها وتتغطى عينه اليمنى ويصير بعينٍ واحدة. إذا أمطرت يركض إلى عربة ترامواي حمراء تُركت متوقفة في نصف

الطريق. يقعد فيها حتى تصحو، ويبدو في جلسته هناك كأنه أحد تلك الرسوم الكثيرة المطلية على جنب الترامواي: رسوم الجنود والبحرية يحاربون وراء المحيط.

كم مرة قرأت الرسالة، كم مرة أعادت قراءة الكلمات كأن تكرار القراءة يشرح شيئاً! صارت تراكيب الجمل صعبة وغامضة، مع أنها تعرف معاني الكلمات جميعاً! كفّت عن فتح الورقة لكنها ظلّت تحمل القرص المعدني وتتلمس الرقم المنقور. كانت الشاحنة تمرّ متمهلة. الدواليب ضخمة تكرج بطيئة، متثاقلة، والرجل يُخرج رأسه من النافذة ويصيح:

ـ Bring out your dead!

عندما يبلغ الرصيف أمام «مستشفى الطوارىء» يتوقف وينتظر خروج المحفات. مرّات يترجل شخص من الشاحنة ويمدّ يد المساعدة. لكن ليس دائماً. أخبرتها ممرضة عن إمرأة ثرية تعيش في الضواحي مع خدمها في بيت كبير، مرضت وماتت في ساعة، قبل أن تصل سيارة الصليب الأحمر. إلى هذا الحد كانت نوبة النزيف سريعة. اختنقت بلا هواء بسبب الدم الغزير الخارج من فمها وأنفها. أخبرتها أيضاً عن إمرأة أخرى مرضت إبنتها فوضعتها في مغطس وغمرتها بالبصل وعصير البصل وصلّت من أجلها والبنت شُفيت! مع أن الأطباء يعرفون أن البصل ليس علاجاً! ولا حتى الويسكي الذي يعطونه الآن في الصيدلية بوصفة طبية. ولا زيت الخروع. ولا حتى الكافور. هذا نحقنه في ساق المريض ويتسارع نبضه ويرجع قلبه ويعيش لكن إلى حين... ثم تأتي نوبة سعال أخرى أو ينفجر الدم من أنفه فجأة ويموت. لن تصدقي كيف يموتون، في لحظة يكونون بخير ثم تسوَد وجوههم وتزرق، من الأذنين إلى الأنف، بسبب نقص الأوكسجين، ويختنقون.

- 88 -
«أخرجوا موتاكم» (2)

كانت تلبس المعطف والكمامة وتخرج وتقفل الباب وتذهب إلى «البارك». تسير تحت الأغصان الخضراء وتنظر إلى البط والوزّ والسناجب والعصافير. يدها في جيب المعطف تتلمس القرص المعدني. المقعد يواجه البركة. تجلس وتنظر إلى الهواء يُغضّن صفحة المياه. يهبّ هواء والأوراق تتساقط وتتدحرج وتقع في البحيرة. ثم يحل السكون. سيارات قليلة تعبر الشارع وراء ظهرها. عربات تجرها خيول أيضاً. حوافر الخيل على الطريق. لا تعرف كم تبقى هكذا، جالسة على حافة الماء. تنظر إلى عجائز في الجهة البعيدة، يعبرون بكمامات ومعاطف وأجسام مقوّسة. يسيرون في جماعات ويتبادلون الأخبار، ومع أنهم يسيرون معاً يترك أحدهم مسافة بينه وبين الآخر. عندما يتكلمون ينظرون إلى تحت، لئلا تبلغ أنفاسهم وجوه الآخرين. كان الصوت يبلغها متقطعاً ثم ابتعدوا بين مساكب أزهار وشجيرات مقصوصة على شكل حيوانات وعندما غاب صوتهم أزاحت كمامتها. عبّت أنفاساً كبيرة من الهواء، جرعات ضخمة من هواء الحديقة النظيف.

في طريق العودة مرّت على فرن واشترت خبزاً وبسكويتاً. البائع كان يلبس قفازاً في يده. فتح اليد أمام وجهها وهو يتراجع إلى خلف فوضعت السنتات على القفاز الصوف. وهو أزاح يده كأنه

يحمل ثقلاً وأسقط السنتات في مرطبان مملوء بالكحول. كل ذلك من دون أن يقول شيئاً، والكمّامة جامدة على وجهه. مرتا نظرت إلى كومة السنتات في مرطبان الكحول ولم تفكر شيئاً. كانت معطلة الدماغ، لا حيّة ولا ميّتة، تعيش بحكم العادة فقط، ولا تعرف من أين أتت ولا إلى أين ذاهبة.

دخلت متجراً آخر واشترت جبناً ولحماً وفاكهة وخضراً. حملت الأكياس على ذراعيها وبينما هي خارجة ناداها البائع وقال شيئاً. كان عجوزاً، كمامته صغيرة ولا تكاد تغطي فمه وأنفه. انتظرت حتى كرّر كلامه ثم انتظرته حتى خرج من وراء المنضدة ودنا منها وأعطاها ما في يده. لم يكن يلبس قفازاً وأخذت السنتات وهزّت رأسها وشكرته. سألها هل هي بخير. قالت شكراً وسألته هل هو بخير. شكرها. وخرجت. بينما تبتعد شعرت به وراء ظهرها، واقفاً، يتبعها بنظرته. كان الشارع فارغاً.

عند العصر خرجت مرة أخرى. كانت تسير بلا هدف ووجدت نفسها في الشارع الرابع والثلاثين. رأت زحمة أمام مدخل بناية بيضاء وعندما رفعت وجهها رأت المستشفى الكبير. ماذا جلبها إلى هنا؟ العرق بلّ جسمها تحت المعطف وكنزة الصوف. ناس يدخلون ويخرجون. سيارات صليب أحمر. عربات إطفاء. سمعت السعال وظلّت واقفة. عبرت إمرأة تبكي بلا صوت. كتفاها يهتزان وكل خطوة تأخذ منها جهداً لا يصدق. عبرت إمرأة أخرى تشدّ فتاة صغيرة خلفها، والفتاة ترفض أن تسير وتقول لأمها شيئاً والمرأة ترد «No» (لا) وتشدها من جديد. سمعت أحصنة تقترب واستدارت ورأت عربة محملة بالتوابيت. كانت توابيت غير مطلية، بفراغات بين ألواح الخشب. أشاحت بوجهها وابتعدت. ناداها أحد الرجال

وسمعت صفيراً لكنها لم تهتم. كم مشت في تلك الأيام؟ كانت تعود إلى المتجر وجسمها يؤلمها، وكل عضلاتها مرهقة ومنقبضة. في إحدى المرات وجدت نفسها على تقاطع الجادة الثانية مع «لوزرن ستريت» (Luzerne St.): رأت الحقول التي سمعت عنها (Potter's Fields) والرجال يحفرون القبور. كانت عربات الموتى مصطفّة في خط مستقيم والغربان تتقافز على الوحول.

إحدى الممرضات أخبرتها أنهم أخرجوا المساجين من الحبس لحفر القبور. في يومٍ واحد مات 1760 مريضاً في فيلادلفيا والمقابر لم تعد تتسع للجثث. المشرحة التابعة للمستشفى العام PGH في الشارع الـ 34 تتسع لأربعين جثة فأين نضع ألف جثة؟ كان المساء يأتي وأزاحت مرتا الكمامة عن وجهها واقتربت من العربات المتراصفة. ماذا تريد أن ترى؟ بعد ذلك، وهي عائدة إلى المتجر، تنفست على مهل وشعرت بالكمامة تترطب وتسخن على فمها. عبرت أمام كنيسة أضاءتها شموع وقناديل. تلكأت لحظة مصغية إلى قرع الأجراس ناظرة إلى الزجاج الملون ثم مشت من جديد. كانت المصابيح تشتعل وأخذ رذاذ خفيف يتساقط. بعد منعطف آخر اعترض طريقها ثلاثة شبان بكمامات كالأقنعة. دفعها أحدهم والآخر حاول أن يضمها. لم تعرف ماذا يريدون. كان عقلها معطّلاً، لا تدري هل هي حيّة أم ميتة. حاولوا جرّها إلى زقاق قريب. رأت صناديق النفايات، الزبالة المكومة، والقطط تقفز من وراء الصناديق. كان أحد الثلاثة يشتمها ويجذب معطفها بقوة. شعرت بالضربة على ظهرها قبل أن تصيبها.

- 89 -

«أخرجوا موتاكم» (3)

صرخت ودافعت عن نفسها. أسقطوها على الأرض. واحد أمسك بيديها. آخر جلس على ساقيها. والثالث حاول أن يفك معطفها. كفّ عن ذلك وهي تنتفض. بحث في الجيوب. صرخت وجمعت طاقتها وانقضت على ذراع قريبة وغرزت أسنانها كلّها في اللحم. شعرت بأسنانها تقطع القماش وتغوص في اللحم. سمعت صراخاً فظيعاً ولم تترك الذراع. تكاثرت الصرخات وهي تلطم وتركل وهم يضربون. ثم ارتفعت الشتائم وسمعت صرخات أخرى وحوافر أحصنة. لم تشعر بالضربة الأخيرة التي أسكتت الأصوات لكنها بينما تغيب أحسّت بالسائل الساخن على وجهها ورقبتها.

كان جرحاً غير بليغ. قطبتان في الجبهة فوق العين اليمنى. ضمدوا رأسها والبوليس أخذوا إفادتها ورجعت إلى المتجر. كانت الحادية عشرة ليلاً. بينما تقفل الباب على نفسها رأت الممرضين يقفون ويدخنون تبغاً أمام «مستشفى الطوارىء» المضاء.

كانت الكمامات تتدلى على صدورهم وهم يتمايلون كالسكارى تحت المصابيح. كانوا منهكين وأحدهم جلس على الأرض ومدّ ساقيه وبدا كأنه سينام على الرصيف. شعرت بالرطوبة على خدها وخافت أن يكون الجرح انفتح من جديد. لم يكن الجرح. كانت الدموع تكرّ غزيرة وحدها، وظلّت تكرّ وقتاً طويلاً، ولم تتوقف حتى بعد أن رقدت في السرير.

صباحاً أيقظتها الصيحة ذاتها:

ـ Bring out your dead!

إغتسلت ووضعت ماء على النار. بينما المياه تسخن أكلت قطعة كعك. فكّت الضمادة أمام المرآة ونظرت إلى الجرح. كان وجهها غريباً، شكله غريب ولونه غريب. طهّرت الجرح محاذرة لئلا تفكّ القطبتين ثم وضعت ضمادة جديدة. كان الإبريق يصفر على النار وبينما ترمي فيه حفنة شاي سمعت بوقاً هادراً وصرخات غير مفهومة: كأنهم يحتفلون!

خرجت إلى المتجر ثم فتحت الباب وخرجت إلى الرصيف. كانت شاحنة الموتى مركونة أمام «مستشفى الطوارىء» مشرعة الباب وسمعتهم يقولون إنها ما زالت فارغة: لم يمت أحد الليلة! أحد الأطباء كان يمدّ رأسه من نافذة على الطابق الثالث ويأمر الناس في الشارع بالسكوت. سائق الشاحنة رفع رأسه وقال له «أنت أسكتْ» ثم كبس يده على الزمور. كان واقفاً في الطريق ومدّ يده إلى داخل الشاحنة وكبس البوق ولم يبعد يده إلا عندما تدخلت الممرضات. بعد ذلك جلس على حافة الرصيف. بدا حزيناً كأنه فقد أفراد عائلته.

عادت إلى الداخل وأقفلت الباب. سكبت شاياً في الكوب ووضعت فيه سكراً. قبل أن تشرب جذبت المعطف عن الكرسي وأخرجت من جيبه القرص المعدني:

619729

مرة أخرى صاح الرجل في الخارج وهو يبتعد بشاحنته. وعندما كبس الزمور مرة أخرى شعرت بالدموع من جديد تفور من رأسها وتتساقط في الشاي.

كانت الإنفلونزا تغادر فيلادلفيا*. جاء السيد سكياس وأخبرها أنه كان مريضاً، وأن زوجته أيضاً أصيبت بالإنفلونزا وكذلك أصغر أحفاده، لكنهم برحمة الربّ نجوا. كان يقف على بعد خطوات ويكلّمها لابساً الكمامة. عندما انتبه إلى الضمادة الصغيرة على رأسها سألها كيف أذت نفسها. لم تعرف ماذا تقول. وفكرت وهي ترى نساء عابرات خارج الزجاج في طريقهن إلى الكنيسة، أنها لم تعد تعرف كيف تتكلم وأنها إذا فتحت فمها الآن وقالت شيئاً لن تسمع صوت البشر بل غمغمة أو برطمة، كالأصوات التي تخرج من الحيوانات أو الطيور. بقيت ساكتة والسيد سكياس إرتبك وظلّ واقفاً ينتظر شيئاً لا أحد يعلم ماذا يكون.

* أنظر كتاب ألفرد كروسبي «الوباء والسلام، 1918» (1976) الصادر في طبعة ثانية عن منشورات جامعة كامبريدج سنة 1989 بعنوان جديد: «وباء أميركا المنسي: إنفلونزا 1918». ومقالة إسحاق ستار ـ عن تجربته في فيلادلفيا 1918 طبيباً متمرناً ـ المنشورة سنة 1976 في المجلة الطبية (Annals of Internal Medicine)، والرسالة المجهولة المؤلف عن «إنفلونزا 1918 في بوسطن» المؤرخة 29 أيلول (سبتمبر) 1918 والمنشورة في عدد 22 ـ 29 كانون الأول 1979 في British Medical Journal.

- 90 -

بعد المرض

إنجلت سحابة الأنفلونزا السوداء مثل كابوس انتهى، وخلال يومين دبّت الحياة في أوصال المدينة من جديد. الترامواي كرج على الخط والقطارات خرجت ودخلت إلى المحطة والبواخر رجعت إلى الميناء. تكاثرت السيارات والعربات. امتلأت المتاجر والمطاعم. فُتحت المدارس والكنائس والمسارح. ذهب الناس إلى دور السينما. كانت عيونهم زائغة وإذا تبادلوا أخبار المرض فعلوا ذلك على عجل ثم ختموا الحديث بإيماءات غامضة وأبعدوا ما مضى عن أذهانهم.

ماذا حدث بالضبط في تلك الأيام القليلة التي أعقبت رحيل الأنفلونزا عن فيلادلفيا؟ الحذر ظلّ حاضراً: المطاعم تركت مسافة بين طاولاتها. المقاهي أيضاً باعدت بين كراسيها. صالات السينما لم تعرف حشوداً إلا بعد أسابيع. البعض ظلّ يلبس كمامة ويتحمل نظرات الإستنكار. تدريجياً عادوا إلى الحياة التي قطعها المرض. احتفلوا في الأماكن العامة من دون أن يعلنوا أنهم في إحتفال: احتفلوا بينما يشترون طعاماً وثياباً من الدكاكين واحتفلوا وهم يشربون القهوة في المقهى أو يتناولون الشاي والعصير والدوناتس والبريتزلز والبايغل على قارعة الطريق.

كانوا يضحكون ضحكاً عنيفاً مهزوزاً إذا ضحكوا كأنهم يستجمعون قوّة متبددة ويركزونها في نقطة واحدة. بدوا مثل وحشٍ

حزين واحد بعدد لا يحصى من الرؤوس المحطمة. كأنهم يتصرفون عفوياً ولكن بناء على اتفاق مسبق أيضاً. كأن في أجسامهم جينة مشتركة، ثابتة وراثياً في تكوينهم البشري منذ أجيال وقرون، تُعدّهم لهذه اللحظة الصعبة (المترددة) التي تعقب الكارثة: حركة خفية اعترت بدن الوحش، مثل موجة تحت الجلد، والوجوه اتحدت في ضحكة واحدة وكشحت بعيداً ذكرى الوباء. منذ تلك اللحظة تعاهدوا ـ من دون أن يلفظوا كلمة ـ على النسيان.

بعد ذلك انقسمت حياتهم إلى فترتين. ما قبل 30 أيلول (سبتمبر) 1918 وما بعد 1 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. الشهر الناقص، تشرين الأول (أكتوبر) 1918، دفنوه تحت التراب مع آلاف الجثث التي لن يطالب بها أحد. كانت هناك جثث دُفنت مكومة، بلا أكفان وتوابيت، في حفرٍ ضخمة حفرها عمال الأوتستراد Highway بالجرافات ووعدت البلدية (City Hall) أن تُستخرج وتُردّ للأهالي من أجل جنازة ودفن لائق بعد ذهاب الوباء. رحلت الأنفلونزا والأهالي لم يطالبوا باسترداد الجثث. والقلة التي طالبت كفت عن ذلك بعد رحلتين إلى مبنى البلدية: كانت الوجوه تستقبلهم مقفلة، قاتمة، شبه مُحطمة بعد الإستفسار الأول، وشبه ميتة. شعروا أنهم يرتكبون خطيئة لا تُغتفر. تركوا الموتى تحت التراب وذهبوا إلى الكنيسة وصلّوا لوالدة الإله أن تصلي من أجلهم، هم الخطاة، ومن أجل خلاصهم، الآن وفي ساعة موتهم وإلى الأبد، آمين. كانوا يشعلون الشموع ويترحمون على الذين ذهبوا وبينما الصلاة تتلاشى مع دخان البخور يسرعون إلى الحياة التي لا تنتظر ويقفزون إلى الترامواي ويذهبون.

سيدات متّشحات بالسواد خرجن من الحي الإيطالي في

الشارع التاسع وحوّلن المدينة إلى غيمة أناشيد وروائح عطرية. مرتا أيضاً أشعلت بخوراً في صحن نحاس في مدخل المتجر الذي سرعان ما ستتركه إلى متجر يخصّها في شارع «البارك».

السيد سكياس سألها لماذا تريد أن تتركه؟ كان يتكلم مصدوماً، وأسنانه نافرة متباعدة في لثته، ومرتا شعرت بالشفقة عليه. شرحت له أنها بحاجة إلى مستودع أكبر ومكان أقرب إلى محطة السكك الحديد. قالت إنها أخذت هذا العمل مؤقتاً قبل سنوات، هل تذكر؟ وابتسمت من أجله. كان الكلام يخرج منها هكذا، من دون أن تفكر فيه. كانت تسير كما تأخذها الطريق. خرجت من «البارك» ذات عصر، تسير كالنائمة وسقسقة الطيور تتبعها، ورأت المحلات الجديدة الفارغة وإعلان البيع على اللوح الخشب العريض. حفظت الأرقام في رأسها وعندما بلغت المتجر أخرجت ورقة وقلماً وبدأت تحسب. وها هي الآن تُعلم السيد سكياس بقرارها. كيف وصلت إلى هذه النقطة بالضبط؟ هذا ما لا نعرفه. كان هذا طبيعياً. والسيد سكياس شعر أنه طبيعي. دامت صدمته هنيهة ثم تراجعت. ما ضايقه بعد ذلك ـ في الوقت المتبقي من الجلسة ـ كان منظر المبنى نصف المحطم خارج الواجهة حيث تباعدت ثياب وبرانيط. كان المبنى فاغر الأفواه، يميل إلى جهة واحدة، ويُثير في النفس فزعاً وقلقاً. لم يفكر أن مرتا تهرب من هذا المبنى الذي استقبل مرضى يحتضرون لكنه تمنى أن يأتي المقاول وينهي مهمته.

المدينة كلّها ارتعشت وهي تعود إلى الحياة وطلبت من العالم أن يستجيب: في 11 تشرين الثاني حدث ذلك.

- 91 -

11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918

كانت معجزة. في الساعة الحادية عشرة صباحاً بتوقيت فرنسا من يوم الإثنين 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 سكتت جميع المدافع على «الجبهة الغربية». في اللحظة التالية ارتفع الصراخ: كانت صرخة واحدة مبهمة امتدت من سويسرا حتى البحر. في أنحاء العالم قُرعت الأجراس ورمى الناس قبعاتهم في الهواء وخرجت النساء إلى الشرفات ورمين الرزّ والورود على المارّين. الحرب انتهت. «La guerre est Finie!» الجنرالات الألمان حضروا صاغرين إلى مقصورة الجنرال فوش في ذلك الصباح ووقعوا أوراق «الهدنة». القيصر الألماني، الذي تخلت عنه البحرية وقبلها الجيش، خلع نفسه عن العرش ونفى نفسه إلى هولندا. كان أبيض الرأس أسود الشارب، بارق الجلد كثعبان، له خاصية الإنسلال عبر الحدود.

مثل نابليون من قبله، ومثل هتلر من بعده (كان هتلر جندياً في جيشه، وأذى الغاز عينيه على الجبهة الغربية)، أحبّ القيصر الألماني النوم القليل واكتفى بأربع إلى خمس ساعات منه في اليوم، مكرساً الساعات العشرين الباقية للاهتمام بشؤون العالم. كان (كالملوك والأباطرة عموماً) يحلم بتغيير العالم إلى ما هو أفضل: يترفع عن الصغائر، يحترم الكنيسة ويقدّر نبيذه وتبغه، ولا يبالي بنزوات الأقل

منه شأناً: من الأركان إلى عامة الشعب. كان يعلم أن التضحيات لا بد منها في سبيل الوصول إلى العالم الأفضل. وحتى هو اضطر للتضحية: كان حفيد الملكة فيكتوريا ويمتّ بصلة قربى إلى العرش الإنكليزي كما إلى القيصر الروسي، ومع هذا رضي أن يحارب الإثنين من أجل العالم الأفضل. كانت ألمانيا تنمو محصورة بين دولتين تعاكسان إرادة التاريخ: روسيا وفرنسا. خطط أن يجتاح باريس بحركة خاطفة واحدة ثم يتفرغ للدب الروسي. لم تجرِ الخطة كما اشتهى لكن التاريخ لم يتخلَ عنه: أعطاه موجة تلو الأخرى من الجنود والجيوش والجنرالات الذين يشاطرونه الحماس والرؤيا، في جهته، وحتى في الجهة الأخرى. زيارة المقابر والنصب التذكارية في فردان وإيبريه وأنتورب ومارن تكفي شاهداً. قبل دقائق من سكوت المدافع والرشاشات استمر أحد الجنود في إطلاق النار حتى أنهى الرصاص في الحزام الطويل. بعد ذلك وقف وخلع خوذته وانحنى في تحية صادقة للجانب الآخر ثم مضى إلى الخطوط الخلفية عائداً إلى بيته في برلين. جندي آخر في سلاح المدفعية الأميركي جرب في ذلك الصباح الأخير قنابل جديدة تصل إلى مدى يتجاوز الألف متر وشعر بالأسى عندما قالوا له «الآن عليك أن تتوقف». نظر إلى الساعة في معصمه وقال «فعلاً». ولم يطلق القذيفة الأخيرة في المدفع. كان يرضخ لإرادة التاريخ.

هل يشبه قيصر ألمانيا هذا الجندي؟ تولستوي ترك شخصياته في الفصول الأخيرة من «الحرب والسلم» وانصرف إلى تأمل التاريخ وإرادة الإنسان. وجد التاريخ أعمى ومبصراً معاً، أما إرادة الإنسان فصغيرة وأصغر من أن تحدد شيئاً، قيصراً كان أم جندياً. كوتوزوف الروسي ـ جنرال تولستوي العجوز «الخيالي» ـ أدرك هذا: كان

يستجيب لروح الجيش. يستيقظ في ساعات الصباح الباكرة ويبقى في كرسيه ولا يخرج ويصدر الأوامر ويرسل الرعية إلى الذبح. لا جنرالات ألمانيا في الحرب الكبرى كانوا مثله ولا جنرالات «الحلفاء». حتى هو لم يكن تماماً كما أراده تولستوي، كما تخيله.

قُرعت الأجراس في مدن أميركا. وظهرت أكاليل الزهور. الجنود عائدون. من مليون جندي أميركي نزلوا على الساحل الفرنسي أثناء 1917 و1918 قتلت الحرب 57 ألفاً وقتلت الأنفلونزا 62 ألفاً. قسم كبير من هؤلاء قضى عند نزوله في مرفأ «برست» Brest أو على الطريق إلى الخطوط الأمامية. البعض وصل إلى الجبهة ناقلاً العدوى في الخنادق إلى جيوش «الحلفاء» و«المحور» معاً. قبل أن يتنحى القيصر الألماني كانت الأنفلونزا بدأت تفتك بجيوشه. داخل ألمانيا بدأت القلاقل قبل الأنفلونزا وأضرب عمال سكك الحديد. رُفعت رايات حمراء على مدن وبلدات وسارت حشود تطلب السلم. هؤلاء أين كانوا بالنسبة إلى عجلة التاريخ، إلى الدولاب الكبير الذي يكرج على الأجسام ولا يتوقف؟ «انتهت الحرب». الجنود من أنحاء العالم لفظوا هذه الجملة بعددٍ لا يُحصى من اللغات. ثم انتظروا البواخر والقطارات للرجوع إلى البيوت. قسم منهم كان مريضاً يحمل في صدره الفيروس. (بعد عقود طويلة استخرج العلماء جثة قديمة متجمدة من الجبهة الروسية وعثروا على الفيروس). وهكذا مع فرقة هندية أو إنكليزية ذهب المرض إلى الهند، ومع فرقة أخرى سنغالية أو فرنسية ذهب المرض إلى أفريقيا...

كانت الأنفلونزا تلهو، تركض طويلة الساقين على خريطة العالم، والناس يتساقطون. لكن في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 اجتمع ناس على الطريق ورقصوا وغنوا، وبينما يفعلون ذلك

انتهت حقبة وبدأت أخرى. بعد هذا لن يسأل أحدهم الآخر أين بدأ المرض، هل بدأ في كانساس، أم بدأ في الصين؟ كان ذلك بلا قيمة، من الماضي، ولا يؤثر فيه البشر. كان ذلك فظيعاً، أقسى من أن يُحتمل، والأفضل رميه خارج التاريخ.

- 92 -

الحياة الغريبة لجندي سوري - أميركي

كانوا ينتظرون رجوعه في «هنري ستريت» وبدلاً منه وصلت رسالة وبطاقة بريدية. البطاقة عليها كلمات بخطٍ غريب: هذا ليس خطّه! قرأتها ماري بسرعة، خافقة القلب، مضطربة. لم تهتم بمناظر باريس المطبوعة فوق بعضها بعضاً (بطاقة مركبة تحمل صورة جادة الشانزيليزيه وصورة برج إيفل وصورة متحف اللوفر). استعجلت كي تقرأ الرسالة أيضاً وتتأكد أن أخاها لم يصبه مكروه. كانت الرسالة مرحة، مثل البطاقة، ولكنها أيضاً ليست بخط يده. أخبرها - في البطاقة لم يخبرها؛ لعله لم يحسب هذا الحساب: أن تقرأ البطاقة أولاً! - أنه يملي الرسالة على صديقه جيم دينكا لأن رسغ يده اليمنى أصيب بشُعر طفيف. لم تنكسر العظمة، لكنهم ربطوا اليد ولا يستطيع أن يحرك أصابعه بسهولة إلا بعد أسابيع. لم يؤذِ يده في الحرب لأن الحرب قررت أن تمرّ جنبه من دون أن تلمسه. «كلّما أرسلونا إلى معركة انتهت المعركة قبل أن نصل»، كتب جيم دينكا بالإنكليزية. وماري سمعت «صوت» أخيها كأنه في المطبخ، أمامها.

لماذا لم يرجع إذاً مع الجنود العائدين؟ كانت البواخر تبلغ مرافىء الساحل الشرقي كل يوم. في بوسطن ازدحم الجنود كالأغنام، وفي فرجينيا تعطلت حركة القطارات بسبب الجنود العائدين من الجبهة. البواخر ترجع فرادى، لا ضرورة للقوافل

المحمية الآن. غواصات الألمان اختفت، الحرب انتهت، ولا أحد يخاف من التوربيدات. المهم أن تأخذ البواخر حذرها من الألغام المزروعة في بحر الشمال. عدا هذا لا خوف. الباخرة «بيكوود» كانت في عرض الأطلسي صباح الإثنين 11 تشرين الثاني (نوفمبر) ذاهبة إلى الحرب، محمّلة بالجنود الأميركيين القادمين من كولورادو (معسكر فورت لوغان)، عندما وصلتها البرقية: «War Is Over - Return». استدارت في عرض المحيط ورجعت إلى مرفأ نيوبورت نيوز. بعض الجنود رمى قبعاته إلى أعلى احتفالاً. وجزء منهم شعر بخيبة الظن: لم يبلغ أوروبا ولم يقاتل! ماري قرأت مقابلات مع هؤلاء الجنود في الجريدة. بينما تقرأ رسالة أخيها التي أملاها على جيم دينكا شعرت بالقلق. حدس فظيع هجم عليها: الحرب لم تنتهِ بالنسبة إلى أخيها بعد! هل حدست بذلك حقاً؟ أم أنها بعد ذلك ـ في الشهور الطويلة الآتية ـ استعادت تلك الرسالة الأولى والبطاقة الباريسية وتوهمت أنها من البداية حدست بما سيأتي؟

لوى رسغه وهو يحمل صناديق ذخيرة ـ رصاص وقنابل ـ في مرفأ ليفربول ثم في مرفأ برست. «هذا ما أتينا إلى أوروبا من أجله»، كتب جيم دينكا عن لسان أخيها، «لا كي نحارب بل كي نكون حمّالين (كشّاشين)! حتى أنهم لم يعطونا بواريد! وعدونا أن نعطى بواريد عندما ننزل إلى البرّ الفرنسي، ولم نحصل عليها. . . هل تعرفين ماذا حدث أخيراً؟ وزعوا علينا بنادق غُنمت من النمسويين. بنادق بلا ذخيرة!».

كانت تضحك بينما تقرأ. من دون أن تنتبه تخيلت الرجلين هناك، يكتبان لها هذه الرسالة، والحرب انتهت، وهما يتسكعان في باريس. يتفرجان على المدينة ويشربان نبيذاً ويدخلان إلى صالات

السينما. . . بانتظار صدور الأوامر. عندما بلغت المقطع الأخير أعتم وجهها. كتب جيم دينكا أن الاحتمال موجود أن تذهب الفرقة الثانية والعشرون إلى قلب ألمانيا لحفظ الأمن. في هذه الحال لن يكون أمامه ـ هذا «صوت» أخيها ـ إلا الذهاب إلى حيث تذهب فرقته، ربما إلى برلين. «جئنا كي نقاتل فإذا بها سياحة!».

لماذا أعتم وجهها عندئذٍ؟ كانت ـ مثل أخواتها جميعاً ومثل أمها أيضاً ـ خائفة على أبيها. تغير جوزف أسطفان منذ فرَّق المحيط بينه وبين إبنه. صار طعامه قليلاً وغضبه سريعاً. عندما نشرت جرايد نيويورك العربية أسماء القتلى السوريين ـ الأميركيين على «الجبهة الغربية» رجع من المقهى إلى المتجر أسود الوجه، مترنح الخطوة. كانت الأسماء كثيرة وعثر بين القتلى على معارف وأصدقاء. «الهدى» نشرت الأسماء على الصفحة الأولى: هؤلاء قُتلوا في المعارك التي خاضها الجيش الأميركي إلى جانب «الحلفاء». بين الأسماء قرأ إسم خليل حداد، جو خليل حداد، وقرأ إسم قاسم عبد الباقي. أقاموا مجالس التعازي في بروكلين وفي الحي السوري ـ نيويورك. عندما مرّ شهران كاملان من دون بطاقة بريدية واحدة من إبنه في أوروبا، صار الصوت يخرج من حنجرة جوزف أسطفان مبحوحاً، كأن أحد أوتاره الصوتية انقطع وهو ينتظر.

بعد ذلك وصلت بطاقة ثم أخرى. كان يكتب أنه بخير. وكان ذلك كافياً، مثل خيط أوكسيجين رفيع يمنع عن الرئة الاختناق. بعد «الهدنة»، عندما وصلت برقية أنه في باريس وأنه راجع إلى الوطن خلال أسبوعين، برق النور من وجه أبيه وعاد برمشة عين إلى الحياة.

- 93 -
أخبار من بتاتر

انتقلت إلى المتجر الجديد في عطلة الميلاد. صارت تملك بيتاً: الطبقة الفوقانية من المتجر. كانت تنزل في الصباح الباكر على الدرج الخشب وتذهب في خطٍ مستقيم إلى الباب وتشرعه. تنظر إلى الشارع الفارغ ـ لم تبدأ الحركة بعد، فقط عربات الحليب والخبز تمرّ الآن ـ وتتأمل الأشجار في الحديقة المواجهة. منذ مات زوجها تشعر بخيوط غير مرئية تربطها بالأشجار: تنظر إلى الأغصان تتشابك وتتعالى صوب السماء، ومن دون وعي تعرف أنها تصلّي، لكن بلا كلام. تصلّي طالبة الرحمة لخليل حدّاد زوجها وإبن عمها. وتصلّي طالبة السماح والغفران، لها هي، التي أخطأت ولم تدرك أنها أخطأت إلا بعد أن فات الأوان: كيف بقيت في العربة ولم تنزل؟ هي التي قطعت الأرض كيف لم تقطع تلك الأمتار القليلة الباقية وتواجه خليل والمرأة في الثوب الأزرق؟ لو أنها فعلت! وبعد ذلك، عندما حاول مرة تلو أخرى رؤيتها، أي كبرياء ـ أي إبليس ـ وضع تلك الكلمات الشريرة في فمها: «قلْ له: مرتا لا تريد أن تراك»! كيف يسامحها الربّ؟ وهي، كيف تسامح نفسها؟ خليل وحدُه فكّ الرباط المقدس؟ هي لم تفكّه أيضاً؟ كان هذا السؤال يعذبها. غارقة في السواد، في ثوب الحداد الذي يضاعف فتنتها، كانت تعبر الطريق إلى الفرن أو دكان الخضر أو دكان الجزارة، ولا تنتبه إلى النظرات

تطاردها. الكشّاشون أيضاً يسلِّطون عليها عيوناً مفتوحة شرهة. مع أنها إذا رفعت عينيها إلى الوجوه تغيّرت النظرة الجائعة في لحظة. كان الحزن يخرج في موجات من كتفيها المبرومين. وعندما يستدير رأسها في زاوية وتنظر إلى شخص يعبر خارج الواجهة يبدو جانب وجهها مصقولاً بالحزن، أرق من ورقة السيجارة. انهمكت بالعمل هاربة من كل ما يعصرها، وبينما تتسلم البضائع وتبيع وتقبض، تحول جسمها إلى قطعة من الزجاج في جوف الثوب الأسود: أدنى لمسة الآن كفيلة أن تحطم هذه الأرملة.

في هذه الفترة الصعبة أرسلت إليها العناية الإلهية نجدة غير متوقعة: رسالة من البلاد. خالها أميّ وكذلك إبن خالها لكن الرسالة منهما: ذهبا إلى رجل يقرأ ويكتب، والرجل كتب إلى مرتا حدّاد رسالة، وعلى الظرف كتب عنوان السيد هرمان تاكر في واشنطن ستريت ـ نيويورك. جوزف أسطفان جاء بنفسه، راكباً سيارته الفورد من بروكلين إلى فيلادلفيا. ترجل من السيارة ووقف بالبذلة والبرنيطة السوداء ذات الإطار الأبيض، وتأمّل الواجهة العريضة المرتبة واللافتة المخطوطة بلغتين... يده اليمنى غاصت في جيب الجاكيتة وربتت بحنان على الظرف كأنها تلاطف الرسالة، كأنها تتأكد من محتواها وتبعد من داخلها أي أذى محتمل. أكثر من مرة على الطريق، بينما التلال تتدحرج خضراء وصفراء وحمراء عن يمينه، فكر أن يركن السيارة ويفتح الرسالة: كان خائفاً على «شريكته» مرتا. الرسائل التي بدأت تصل من سورية كلّها شؤم: موت فوق موت! لم تبقَ عائلة لم تفقد واحداً أو إثنين أو ثلاثة في المجاعة! الحي السوري فيه مجلس عزاء كل يوم هذا الشتاء. مع أن الناس ماتوا قبل سنوات، في 1915 و1916، لكن خبرهم لم يصل إلا الآن، بنهاية

الحرب الفظيعة. حاذَرَ لئلا تلطخ الوحول صباطه وهو يقطع المسافة إلى باب متجرها. كان متماسكاً، مشدود الجسم إلى نقطة في المركز. قبل أيام وصلت رسالة جديدة من إبنه: كتب الرسالة بنفسه، صحته جيدة، سعيد في الجيش، ما زال في باريس، وينتظر الأوامر.

قبّلها على الخدين وشدّ على يدها. وضعت ركوة القهوة على النار وسألته متى اشترى السيارة. قام واقفاً وقال «تعالي» وخرج أمامها. أخبرها عن الفورد (هذه Model T) وهو يدور حولها. كان يؤجل اللحظة ثم أدرك أن هذا لن ينفع. أخرج «المكتوب» من جيبه. قال: «معي شيء لكِ». وشعر بخوف.

كان إسمها مكتوباً على الظرف تحت عنوان السيد هرمان، باللغتين العربية والإنكليزية (تماماً مثل اللافتة المعلقة في الواجهة). أخرجت الهواء من صدرها وتمتمت: «أبانا الذي في السموات ليتقدس إسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض» ثم فتحت الظرف كأنها تقفز من درابزين السفينة إلى هول المحيط.

كانت الأخبار طيبة. القرية عانت في المجاعة لكن عائلة خالها بخير: نجوا جميعاً. إبن خالها أُخِذَ إلى الجندية لكنهم تركوه في بيروت، في مطبخ القشلاق، يطبخ للعساكر. لم يأخذوه إلى الجبهة الشرقية لأنه صغير السنّ. أحد الضباط أشفق عليه، عيّنوه في المطبخ وظلّ في البلاد ونجا من الجوع: كان رئيس المخزن يعطيه حصة إضافية من الحبوب فيأخذها إلى أهله في بتاتر عندما يذهب في إجازته. بينما تقرأ وتُخبر «شريكها» جوزف أسطفان ما تقرأه ارتجف صوتها. انسكبت الدموع من عينيها وارتجّت بالبكاء.

- 94 -
الساعة

«لحظة وأرجع»، قال جوزف أسطفان. خرج إلى سيارته وعاد حاملاً صندوقاً ووضعه على المنضدة.

ـ للمحل ولكِ. من العائلة. ماري صاحبة الفكرة.

فتحت الصندوق وأزاحت أوراق الجرايد ثم رفعت ساعة الكوكو الثقيلة. كان يضحك وهو يراها تصارع لإخراج الساعة من الصندوق.

«سأربطها لكِ»، قال وهو يمدّ يديه. رأت الخواتم في أصابعه وعادت إليها ذكريات بعيدة. كانت ذكرى أشبه بالمنام: يده تخرج من جيبه وتمدّ إليها ورقة وعلى الورقة تقرأ عنواناً (كلاريندون رود) في مدينة نيو أورلينز. متى حدث ذلك؟ في أي حياة؟ كيف عبر الوقت؟ ما زالت مرتا نفسها؟ جلست تسكب القهوة في الفنجانين وتنظر إلى «شريكها» يربط الساعة الجديدة. (خارج المتجر مرّ رجل يصيح وهو يصدر جلبة بآلته: هذا «يجلخ» السكاكين، يسنّها على آلة يحملها على ظهره، آلة بمقعد، يقعد عليها ويُدوّس فتدور العجلة الحجرية أمام وجهه، ويسنّ السكاكين. . . رأته من قبل قاعداً في مدخل «البارك» والنساء يأتين إليه والعصافير تطير عن الأشجار من حوله).

رائحة القهوة غمرتها وهي تقرأ مرة أخرى الرسالة الآتية من البلاد البعيدة. من دون أن تنتبه تكلّمت:

ـ نعوم إبن خالي كان ولداً لا يصل إلى خصري عندما سافرت. . .

سكتت وأطرقت. جوزف أسطفان استدار ليعرف تتمة الكلام لكن مرتا ظلّت ساكتة.

ـ العصفور يصيح كل ساعة.

رفعت وجهها. ورأى أنها لم تفهم ماذا يقول.

ـ عصفور هذه الساعة يصيح كلّما مرّت ساعة.

إبتسمت. وهو ارتبك أمام الضوء الذي يخرج من وجهها. لعله هو أيضاً استعاد ذكرى قديمة. كان يقفل غطاء الساعة في تلك اللحظة ومرتا شعرت أن شيئاً في أعماقها ينتهي وأن شيئاً يبدأ. كان إحساساً خاطف السرعة، غريباً، دام رمشة ثم تبدّد، ولم تفهم معناه. لكنها لسبب غامض نظرت إلى المحبس في إصبعها. ماذا فكرت عندئذٍ؟

أعتقد أنها كانت مضطربة، لا تستقر على صعود أو هبوط. كانت تصعد وتهبط، بلا توازن حقيقي. تحاول أن تبقى عائمة، ووجهها فوق الماء. لماذا لم تستسلم؟ لماذا تستسلم؟ السؤال الأول، كالثاني، بلا معنى. تحملت وعاشت. وعندما قرأت الرسالة مرة أخرى واستوعبت أن إبن خالها يود المجيء إلى أميركا للعمل إذا كان هذا ممكناً، أرسلت إليه ثمن البطاقة (الناولون) وعنوانها وقالت إن العمل ينتظره.

في الليل كانت الساعة تصيح «تحت»، حيث علقتها في صدر المحل، وتوقظها. لم تتضايق. كانت تبتسم عندما تسمع العصفور الميكانيكي يصيح. في الأسابيع التالية بدأ كشّاشون جدد يطرقون

بابها قادمين من «إليس أيلاند» ومعهم توصية من «شريكها» في نيويورك. أثناء ربيع 1919 إمتلأ دفترها! كانت تملأ «كششهم» ولا تأخذ دولاراً واحداً. «في آخر الشهر»، تقول. وكانوا جميعاً يرجعون قبل نهاية الشهر، ويدفعون ما عليهم. مع حبّة مسك. العبارة الأخيرة ليست إنشاء: كثر منهم يرجعون حاملين هدايا. إحدى الكشّاشات جلبت لها هدية طبختها بنفسها: فخارة «قورمة». أزاحت غطاء القماش فرأت الطبقة السميكة البيضاء فوق طبقة اللحم وشمّت الرائحة. فكرت في الكشّاش الصغير إد.

كان وقتاً غريباً، مملوءاً بالوجوه الجديدة، ولكن مع كل وجه جديد ترجع إليها ذكريات من حياة تبدو مطمورة تحت الأرض. ذات مساء، وهي عائدة من نزهة بعد أن أقفلت المحل، التقت صدفة «معلمها» القديم السيد جاكوب معمرباشي. للوهلة الأولى لم تعرفه. سنوات قليلة مرّت فكيف شاخ في هذا الوقت القصير؟ بينما يُخرج إحدى سكائره البنيّة الرفيعة ويشعلها وهو يخبرها عن خطته للانتقال إلى نورث داكوتا، حيث أقارب عندهم مزارع للماشية، تذكرت ما رواه لها قبل سنوات عن أخيه. أرادت أن تقول له أنها كثيراً ما تتذكر تلك... حبل أفكارها انقطع بينما الرجل يسعل ويكشح الدخان بعيداً عنها ويقول إن الطقس يبرد باكراً في هذه الأيام. دعاها إلى المرور عليه في أي وقت. وذهب.

كانت المصابيح تتلألأ عند سور «البارك». رأتها منعكسة في واجهة المتجر وهي تخرج مفتاحها وتفتح الباب. قبل أن تدخل سمعت التكّة التي تعرفها. في اللحظة التالية خرج العصفور الميكانيكي من جوف الساعة وأطلق صيحته. كان يقول لها شيئاً. لم تعرف ماذا يقول، لكن السكينة استولت على قلبها.

- 95 -

بيت يواجه «البارك»

تخلت أواخر صيف 1919 عن لبس الأسود. لكنها لم تنزع المحبس. اشتدت الحرارة في تلك الأيام حتى فرقعت الذرة في الحقول. كان الكشّاشون يدخلون المتجر دائخين. تناولهم الإبريق فيجرعه الواحد منهم كأنه يرشف كوب ماء. بينما يفكون «البكلات» وينزلون «الكشّات» عن ظهورهم ترى أثر السيور الأحمر على رقابهم، بعد ذلك، وهي تقبض منهم وتشطب ديونهم من دفترها الكبير، ينتابها شعورٌ مبهم بالذنب: مع أنها تساعدهم جميعاً تشعر بالذنب!

ذاع صيتها تدريجياً. كانت تعاملهم كأمٍ حنون. تعطف عليهم وتمدّ يد المساعدة. تدلّهم إلى نُزلٍ وغرف رخيصة. تسمح لهم بربط الحصان الذي يجرّ العربة، وراء المتجر، وتزودهم بالعلف والماء للحصان ولا تشترط إلا أن ينظفوا بالرفش والسطل ما يوسخه.

مهاجرو ما بعد الحرب الكبرى بلغوا أميركا نصف أحياء نصف موتى. بعضهم عضّه ناب الجوع فظلّ يترنّح في مشيته بسبب ضعف الركبتين. كانت تعطيهم البضاعة على الحساب. تمنحهم إرشادات الطريق إلى الولايات والقرى والمزارع. ترسم لهم الخطوط. تعلّمهم عبارات إنكليزية مناسبة للتعاطي مع ربّات المنازل ومع موظفي السكك الحديد. أحياناً تسامحهم ببعض الديون أو تؤجلها شهرين أو

ثلاثة. تصغي إلى قصصهم، تنصحهم، وحتى من دون أن تنصحهم يشعرون أنها فعلت ذلك لأنها جلست وسمعت. كانوا مستوحدين في أرض غريبة. كما كانت هي من قبلهم. والآن؟ لم تعد مستوحدة؟ على الأقل الأرض لم تعد غريبة. تتكلم كأميركية وتلبس كأميركية وتمشي كأميركية. حين تسير في الطريق تشعر بالراحة: لا تخاف! وقبل فترة، عندما ركّبت التلفون الـ Bell في المحل فصار رقمها مسجلاً في «دليل فيلادلفيا»، فكرت أن هذا صار الآن بيتها: هذا المتجر بالطبقة الفوقانية ذات السقف المنخفض، حيث فراشها وثيابها وأغراضها، هذا المبنى المواجه للبارك صار بيتها! كان الأمر عجيباً، لكنه حقيقي. حتى أن البيت في بتاتر بدا جزءاً من منام!

ذهبت في عطلة إلى نيويورك وزارت «شريكها». مرّت على كنيسة الموارنة في قلب الحي السوري القديم (تغيّر الحيّ، جزء من بيوته تهدم. . . حيث كان «وكر القمار» ارتفعت بناية شاهقة). صلّت وهي تنظر إلى الحيطان ولا تتذكرها: هل دهنوا المكان بطبقة طلاء جديدة؟ أخرجت من الجزدان ورقة من فئة الخمسين دولاراً وأسقطتها في صندوق التبرعات وخرجت مسرعة. بعد ذلك، وهي تشرب كوب عصير في الجادة الخامسة، ضحكت مثل طفلة. (عادت إليها ذكرى: قبل أن تمرض أمها وتموت بوقتٍ قصير كانت تسير معها في الجلول تحت الكرخانة. أمها دلّتها إلى إمرأة تسقي أشجار الزيتون وقالت أنظري ماذا سأفعل بها. . . صارت ترميها بالحصى من بعيد وتتخبّأ وراء شجرة. المرأة داخت وهي تحاول أن تكتشف من أين تأتي هذه الحجارة التي تضرب تنورتها. أمها صارت حمراء الوجه من الضحك وهي تسدّ فمها بيدها لئلا تفضح مكانها).

في الجادة الخامسة في مانهاتن، بينما تتذكر المرأة تحت

أشجار الزيتون تنظر إلى أعلى كأن السماء تمطر حجارة، شعرت مرتا أنها حرّة. كانت وحدها، بلى، ولم تكن تريد أن تكون وحدها. مع هذا شعرت بالقوّة. كان ذلك يشبه شيئاً عرفته من قبل ثم تخلت عنه أو خسرته من دون انتباه. لم تجرب أن تتذكر متى وأين عرفت هذه الحرّية، هذه الثقة بالذات. كانت تخشى المناطق المظلمة في ذاكرتها وتحاول أن تتجنب الأفخاخ ما أمكن. قطعت الـ«فيفث أفنيو» ودخلت متجراً تعرفه واشترت علبة سكائر فضيّة هدية للسيد معمرباشي.

كانت خفيفة وهي تخطو خارجة إلى الشارع، وتذكرت جوزف أسطفان واقفاً وراء المنضدة في متجره قبل ساعات يستقبلها باسماً ويبدو مرهقاً وحزيناً في اللحظة نفسها. مرة أخرى يشغل إبنه باله: البطاقات البريدية تأخرت وكذلك الرسائل. وعندما وصلت بطاقة أخيراً لم تأتِ من باريس، بل من مانيلا. بحثوا عنها على الخريطة، على الأطلس في «مكتبة نيويورك العامة»، واكتشفوا أن هذه في جزر الفيليبين! بعد ذلك وصلت بطاقة من فلاديفوستوك Vladivostok. بحثوا عنها على الخريطة وعرفوا أنه صار في سيبيريا!

- 96 -
دعوة إلى عمادة

تبدّد شعورها بالقوّة قبل أن تركب الترام. كانت تكافح ضد السقوط في كل لحظة. وعندما تأتي البرهة المباركة وترتفع معنوياتها تنسى أن الوقوع آتٍ. كانت غير محمية. تبحث عن ملاذٍ آمن في صلاتها وكلّما تحسنت بعض الشيء يستولي عليها فرحٌ مفرط سرعان ما يتراجع أمام هجمة الغيوم السوداء. كان يكفي أن يتراجع هذا الفرح المبهم ـ هذا الشعور بالحريّة، بالخفّة ـ حتى يغمر القنوط عينيها وتبدو بائسة ككلب مريض.

في العمل أيضاً وجدت الملاذ: كانت تركز كل طاقتها في شغلها وتحاول أن تنسى العالم، ومكانها في العالم. أين مكانها؟ كانت وحدها. وعندما يقترب موسم الأعياد وتُعلن السنة عن دنو نهايتها بالزينة التي تبرق مع أضواء الكهرباء، ينتاب مرتا حدّاد الإحساس القاتل أنها خارج الحياة، خارج العالم، لا أحد يهتم بأمرها، وإذا قضت في هذه اللحظة تدفنها بلدية فيلادلفيا وينتهي الموضوع. كان هذا فظيعاً! حتى إبن خالها الذي انتظرته لم يأتِ! غيَّر فكره؟ يبدو أن ذلك ما حدث.

انخفضت درجة الحرارة وتساقطت الثلوج. المدارس عطَّلت فرأت الأولاد يتكاثرون في الجهة الأخرى من الشارع ويبنون تمثالاً ثلجاً Snow man في مدخل «البارك». كانوا يتراشقون بطابات الثلج

يضحكون، ويصرخون ويركضون. على رؤوسهم برانيط صوف ملونة وفي أيديهم قفازات حمراء. كان اللون الأحمر يركض ويقفز على الثلوج، والأشجار تنحني وتنزلق عنها القطع البيضاء وتصدر صوتاً حلواً عندما تخبط الأرض. ظهر سرب من الطيور ثم اختفى. أحد الأولاد هرب من رفاقه وقطع الطريق. قلب مرتا توقف في زلعومها عندما رأت العربة تتزحلق على الجليد وتوشك أن تصدمه. لم تصدمه. لكنه خاف وصار يبكي وأصحاب العربة نزلوا منها وهم يصرخون. كانوا خائفين أيضاً، ومرتا هي أيضاً ودّت أن تصرخ إلى ما لا نهاية. بدلاً من ذلك تراجعت إلى جوف المتجر وفتحت دفتر الدكان. بينما تنهي «الجردة السنوية» خطرت في بالها وديعة صليبي والعرس والكنيسة والرجل الذي جمَّدها بعينيه. كانت لحظة إلهام غريبة، فبعد يومٍ واحدٍ فقط، رأت المرأة آتية تحمل طنجرة وتدخل من الباب.

كانت ملتفة بشالٍ أصفر كالعسل، أضخم من بطانية. بدت مثل حيوان إسطوري وهي داخلة والطنجرة نصف مخفية تحت الشال الكبير. كانت ترجف برداً وقالت إن القطار محطم النوافذ، أسوأ قطار في أميركا. جاءت من سبرينغ فالي ـ إلينوي في دوّامة العواصف كي تدعو مرتا إلى حفل عمادة حفيدتها، إبنة فارس صليبي إبنها الوحيد.

شربت الشاي الساخن وفتحت غطاء الطنجرة كي ترى مرتا «طبختها»: هل تتذكر أنها مرة أخبرتها عن «ورق العنب بالزيت»؟ هذه الطنجرة نصفها بالزيت ونصفها باللحم، قالت ضاحكة. وقالت إنها أكلت منها قليلاً على الطريق. «لكنني تركت لك «القاطع»، لم آكل إلا من اليبرق باللحم».

الكلمات القديمة ردّت مرتا إلى زمنٍ خرافي. أبوها كان يقول «يبرق»، لا يقول «ورق عنب». حاولت أن تتذكر ماذا كان يقول عن الأكل بالزيت؟ هل كان يقول «القاطع» أيضاً؟ لم تذكر. مات وهي صغيرة. لكنها تتذكر أمها تستعمل هذه الكلمة، خصوصاً وقت الصيام. «نقطع»، كانت تقول. سألتها أين وجدت ورق العنب في هذا الشتاء؟ وديعة قالت أنا أكبسه في الصيف، عندنا في سبرينغ فالي كروم عنب أكثر من راشيا! كانوا يقولون لن تنبت، لكنها نبتت، والآن نأكل عنباً طوال الصيف! مرتا مدّت يدها وأخذت «حبّة» ووضعتها في فمها. كانت تذوب من دون أن تمضغها وشعرت بالدفء. القطعة باردة ومع ذلك ملأها الدفء.

وديعة صليبي تكلمت عندئذٍ:

ـ نحن نسمع عنكِ، أخباركِ تصلنا، صرتِ مشهورة يا مرتا. أنا كنت دائماً أعرف أنك إذا أردتِ شيئاً يصير في يدك. لماذا كلّما رأيتك أشعر بهذه الحرارة في صدري، لا أعلم. لو تأتين وتفتحين متجرك في سبرينغ فالي. لم لا؟ المكان يتسع. المسلمون يبنون جامعاً الآن، تصدقين؟ مع أننا أكثر منهم، لكنهم سبقونا واشتروا قطعة أرض لمقبرة. معظمهم من جوار راشيا، ومن النبطية وعيتا الشعب. نزورهم ويزوروننا. الدم يحنّ، صحيح يا مرتا. فارس عنده متجر الآن، نصفه له ونصفه لشريكه، أنت تعرفين شريكه، آدمي وطيب ولا يخاف إلا ربّنا: كان راغباً أن يأتي معي كي يراكِ ويُسلّم عليك، لكن...

ـ 97 ـ
دعوة إلى عمادة (2)

شربت وديعة ما بقي في كوب الشاي وتابعت:

ـ الرجل يفكر فيكِ يا مرتا. لكنه درزي. ليس من ديننا. قلت له كيف تفكر فيها يا إبني يا علي؟ أنا أحبّك مثل فارس، أنت عزيز عليّ مثله تماماً، كأنك من بطني خرجت، لكن أنت دين ونحن دين، فكيف تفكر في مرتا؟

مرتا حدّاد سمعت الكلمات وذُعِرَت. كان الأمر صادماً، مباغتاً، مثل بوق شاحنة في الطريق. تراجعت إلى خلف لا شعورياً كأنها تهرب من أذى وشيك. وديعة صليبي سكتت لحظة ثم قالت متمهلة:

ـ لا تفكري في هذا وتُضايقي نفسك. الرجل نيّته حسنة ومعدنه ذهب. تكفي كلمة ويذهب في طريقه. لن يزعجكِ. أنا قلت له أنتِ لستِ في هذا الوارد. أنا قلت له ما زالت تلبس محبسها بأصبعها، مرتا. لكنه قال: «أنتظر».

خرج العصفور الميكانيكي في تلك اللحظة وأطلق صيحته. أفزع وديعة صليبي: كان تركيزها كلّه منصبًّا على متابعة إيماءات مرتا ونظرتها، تراقبها بعين فاحصة مدققة وتحاول أن تعرف كيف تتقدم، أين تنعطف ومتى، ماذا تقول وماذا تستر.

لكن مرتا لبست قناعاً جامداً أخرس. وديعة صليبي ارتبكت

وبدّلت الحديث. لن ترجع إليه. هل شعرت بالخوف؟ أظن أنها خافت. لماذا خافت؟ الجواب نعرفه بعد أيام قليلة، عندما يظهر علي جابر فجأة في باب مرتا ويقول إن المرأة تصرفت من رأسها وأن لا علاقة له وأنه غضب عليها والآن لا يتكلم معها. وحتى فارس غضب على أمه، ولولا ذلك كان يفك الشراكة ويخرج من سبرينغ فالي ولا يرجع أبداً. تدفق بالكلام، أحمر الوجه، وشريان رقبته ينبض. حتى بعد أن سكت رأت الشارب الكستنائي يتراقص فوق شفته: كان جسمه يرتجف غيظاً في ثيابه.

مرتا قالت لا تغضب هكذا، أنا أصدقك.

الكلمات بلا قيمة، لكن نبرة صوتها ذهبت بحنقه. فجأة خرج العفريت منه وسكنت الرجفة.

دعته إلى الجلوس. كان ما زال واقفاً! دخل وفار بما فيه من دون أن يلقي السلام! كأنه أُحرِق بنار!

قال إنه زعل كثيراً عندما سمع بوفاة زوجها. قال إنه أراد أن يأتي ويعزيها لكنه لم يقدر. قال إنه دائماً يتذكرها، وصحيح، تكلمتُ وقلت أشياء عنكِ، أنا أعتبر فارس مثل أخي، ونتحدث، وأمه طيبة، لكن أنتِ تعرفين... تضايق من رجوعه إلى السيرة ذاتها وسكت.

خرج العصفور الميكانيكي من جوف الساعة وصاح. علي جابر رفع رأسه ورسم إبتسامة. مرتا سكبت القهوة في الفنجانين وسألته كيف كانت الطريق، هل تتراكم الثلوج على السكة؟

نظر إليها كما نظر من قبل، تحت سقف الكنيسة في سبرينغ فالي. هذه المرة بدا حزيناً، نحاسي البشرة، قديماً كأنه أتى من عصور بائدة، ووحيداً في هذا العالم، وحدة أصيلة غير مستجدَة. بدا عتيقاً، ولا يشبه أحداً غيره، ولا يطلب أن يشبه أحداً. مرتا خفق

قلبها عندما احتواها بنظرته: كانت نظرة تخفي بحراً من العاطفة. وأدركت أنها تغرق برمشة عين إذا تركت نفسها.

اضطربت وخفضت بصرها. سمعت صوته:

ـ تعالي إلى العمادة، تُغيري جوًّا. لن يزعجك أحد وسنهتم بكِ. لماذا تظلّين وحدكِ هنا؟ تعالي إلى العمادة.

«سنهتم بكِ»، قال، وهي سمعت تحت العبارة معناها: «سأهتم بكِ». ولم يكن يقصد العمادة فقط.

رفعت بصرها متوردة الخدين وعرفت أنها ستقاوم زمناً لكنها في النهاية، إذا استمر في سعيه، تستسلم.

كانت لحظة إلهام أخرى. طاردها علي جابر عامين وفي العام الثالث رضخت. تزوجا في 15 كانون الثاني (يناير) 1922 في الـ City Hall في فيلادلفيا، زواجاً مدنياً، ولعله الزواج المدني الأول بين درزي ومارونية في تاريخ أميركا.

- 98 -
«مرتا الملكة»

لكننا ما زلنا في شتاء 1919 ـ 1920. والمستقبل (مرة أخرى) لا بد من أن ينتظر. في هذه الأثناء يقع حريق في «هنري ستريت»: تصل ألسنة اللهب إلى متجر جوزف أسطفان وبيته، ويُنكب الرجل في ممتلكاته. أستطيع أن أراه واقفاً مع عائلته في الطريق، أمام بيت إبنته ماري، مخضوض الوجه، يحمل بين يديه الأثواب القليلة التي أنقذها. زوجته أيضاً تحمل بعض القماش، والفتيات المتحلقات يحملن ألبسة أيضاً. على وجوههن، في ليل بروكلين المضاء بالكهرباء، تنعكس النار التي أحرقت المتجر والبيت ثم انتقلت إلى بيوت أخرى. كان الهواء يدفعها أبعد فأبعد، وهي مثل وحش لا يريد أن يموت: كانت تنتشر وعربات الإطفاء تجرب محاصرتها وتفشل. عندما هدأ الهواء بعد نصف الليل تمكن رجال الإطفاء من إخمادها.

الفتيات أصابهن الرعب. النار مخيفة. من لم يرَ ناراً خوتاء تدنو من بيته لا يعرف ماذا يكون رعب النار. عندما هجعن أخيراً، على البطانيات التي فرشتها ماري في الصالون، كان ضوء الفجر يطلع ويُبدّل لون النهر.

جوزف أسطفان لم يرَ ذلك: كان جالساً إلى طاولة المطبخ، يحمل رأسه بين يديه ويبكي. خسر كل ما يملك في ليلة واحدة. أين العزاء؟ حتى إبنه مهدد بالموت في تلك الحرب التي لا يفهمها أحد

في نهاية العالم. ماذا تريد أميركا من سيبيريا؟ قرأ الجرايد كي يستوعب ما يحدث، كي يرى متى ستنتهي هذه الحرب الجديدة. لكن الجرايد لم تشرح شيئاً. قرأ عن القوات التشيكية المحاصرة شمال سيبيريا، قرأ عن البلاشفة، قرأ عن الصراع بين الروس البيض والروس الحمر، قرأ عن تحالف أميركا وبريطانيا وفرنسا مع اليابان ضد انتشار البلاشفة، قرأ عن منشوريا، وقرأ عن القوات التشيكية اللعينة مرة أخرى: هؤلاء كانوا يحاربون على «الجبهة الشرقية» وانشقوا عن الجيش الهنغاري ـ النمسوي والتحقوا بصفوف «الحلفاء» أثناء الفترة الأخيرة من الحرب الكبرى. وما حدث أنهم وقعوا في الفخ عندما خرجت روسيا من الحرب وقررت تجريدهم من السلاح. تروتسكي أصدر الأمر وأميركا هبّت لنجدتهم.

كان نور الشمس ينتشر على أكوام الخشب المحروق والرماد الساخن. تفقد الأطلال وهو يقفز: كانت الحرارة تلسعه! الأرض امتلأت سخونة. الرائحة فظيعة. اللون الأسود يقطع القلب نصفين. مرة أخرى بكى جوزف أسطفان وهو يبحث في قلب الدمار عن صندوق لن يجده.

عندما وصلت مرتا في مساء اليوم التالي (تلفنت لها ماري وجاءت في القطار الأول) وجدته أكبر بعشر سنوات: كأن قوّة غير مرئية دفعته في ظهره فاندفع إلى أمام واخترق جدار الوقت وبلغ شيخوخته باكراً. كان مهدّماً، ثيابه واسعة عليه (هذه ثياب صهره)، والبياض كثير في شعر رأسه. أسوأ من كل ذلك النظرة في عينيه. بدا مطفأ العينين، كأن المياه الزرقاء نزلت في الحدقتين... جاءت كي تعزّيه فشعرت بالحاجة إلى من يعزّيها. من دون انتباه فكرت في الرجل النحاسي البشرة: تمنّت أن تحتويها نظرته في هذه الساعة.

استردّت شجاعتها بعد صدمة اللقاء (وبعد منظر الشارع الذي احترق نصفه) وفتحت فمها. بينما تتكلم أدركت أن الكلمات تُغيّر الأشياء. كان هذا سحرياً، وغير مفهوم على الإطلاق، لكنها شعرت به في قلبها كما في الوجوه التي تنظر إليها. جوزف أسطفان رفع وجهه: الدموع تلألأت على رموشه. لم تظن قبل ذلك أنه يبكي. طالما أسندها. لم تتخيل أن يوماً يأتي ويكون عليها هي أن تسنده.

قالت مرتا أنت شريكي وأنا شريكتك. من دونك لم أفتح يوماً تجارة. كل خسارتك نقسمها بالنصف بيني وبينك.

لم يكن كلاماً. كان الصوت الحار والثابت يعني ما يقول.

جوزف أسطفان فتح فمه، أراد أن يقول شيئاً، أن يقول إنه لا يستطيع أن يقبل هذا! لكنها بنظرة يتيمة أسكتته. كانت حازمة، وفي نظرتها تضع ثقل إيمانها كلّه. شهق الرجل ولم يتكلم. «مرتا الملكة»، سمّتها ماري.

- 99 -

الحياة الغريبة لجندي سوري ـ أميركي (2)
(رسالة من سيبيريا)

العزيزة ماري،

وصلتني رسالتكِ وحزنت من أجلكم جميعاً وتمنيت أن أكون معكم وأمدّ يد المساعدة... أستطيع أن أتخيل مقدار الخوف الذي أصاب أخواتي وأمي لكنني أعرف أنكِ وأبي فيكما القوّة لتحمل هذه النكبة... طلبت من «القيادة» تحويل جميع رواتبي إلى حسابكم المصرفي. نُعطى 60 دولاراً في الشهر، ليس مبلغاً مهماً، لكنه يساعدكم. لو عملت في مصنع السيارات كما أردتم كنت أجني الآن ثلاثة أضعاف المبلغ، لكن المال ليس كل شيء. وأنت تعرفين أحسن مني أن على الواحد أن يفعل ما يؤمن به وأنا أؤمن أنني في المكان الصحيح. البرد يقتل هنا (أحد الجنود الأسرى في معتقل مجاور يضم 1500 هنغاري ـ نمساوي، معتقل Krasnaya - Retchka، كان يقرأ كتاباً ويستخدم إصبعه كي يفتح الصفحات من دون أن يشعر بإصبعه لأنه تجمّد تماماً: إنتبه أنه تجمد عندما وقع الإصبع على الأرض!).

صحيح أننا نشعر أحياناً كأننا نقاتل أنفسنا ضائعين في السهوب البيضاء المخيفة، لكن الصحيح أيضاً أننا وصلنا إلى هدفنا: ألم نقطع الأطلسي من أجل هذا؟ هذه ليست «الجبهة الغربية»، أعلم،

و«الهدنة» أنهت الحرب الكبرى، أعلم. لكننا هنا أيضاً نقاتل من أجل أميركا ونقاط ويلسون الـ 14. حق الأمم في تقرير المصير ـ في تقرير مصيرها ـ يعني هذا بالضبط: ألا تسمح للقوي بتحطيم الضعيف. لماذا يُفرض على ناس لا يؤمنون بالشيوعية أن يرزحوا تحت سلطة لينين وتروتسكي؟ أنتِ لا تعرفين كيف يعيش الناس في هذه الأصقاع، ومن أجل الصدق أقول: حتى أنا لا أعرف! «الأتمان» الذي يحكم هذه المنطقة عنده ميل إلى البطش، ويقال إنه متعطش للدماء، وعندما يقع بلاشفة أسرى في يديه يقتلهم على الفور لأنه لا يريد أن يتحمل نفقة الطعام وما إلى ذلك... القوزاق يهاجمون البلاشفة راكبين أحصنة أسرع من الريح، لكن البلاشفة في المقابل يفجرون القطارات وسكة الإمدادات التي من دونها تسقط الحكومة الروسية البيضاء ـ وهذه نحن ندعمها ـ وتسيطر الحكومة الروسية الحمراء تماماً... تبدو الأمور متشابكة، وهي كذلك، وحتى أنا لا أستوعبها تماماً، مع أنني هنا... لكنني أعرف مهمتي: أنا ورفاقي مهمتنا حراسة السكة Trans - Siberian Railway.

هذا أفضل من حراسة الأسرى في Krasnaya - Retchka. لن تصدقي هذا لكنهم في عيد الميلاد نظموا حفلة أوبرا! الضباط الأسرى يشكلون فرقة كاملة طالما عزفت في قصور فيينا. طلبوا الإذن من قيادة المعتقل وحصلوا عليه. كانت جميع الآلات الموسيقية بحوزتهم ولا ينقصهم إلا بوقان bass horns وزوّدهم الجيش الأميركي بهذه، «إعارة» لحفلة الميلاد فقط. هل تتذكرين ما قرأته معكِ في «نيويورك تايمز» عن ميلاد 1914 على «الجبهة الغربية»؟ أعتقد أنني بينما أقرأ عن الضابط الإنكليزي الذي خرج من الخندق وقطع «أرض ـ لا ـ أحد» بلا سلاح وهو يدخن السيجار

وينشد ترنيمة الميلاد، أعتقد أنني في تلك اللحظة طلبت هذا: أن أبلغ «الجبهة» وأن أحارب عدواً يُتاح لي، في لحظة ما، أن أخرج وأقابله وأعطيه سيجاراً ويعطيني لوح شوكولا. نغني ساعة معاً، ندفن موتانا، ثم نرجع إلى القتال. هذا ليس سيئاً. قد تظنين أن جليد Vladivostok بدأ يعطب دماغ أخيك لكنك على خطأ: أولاً أنا في Khabarovsk الآن، أرض الدّببة البنّية، محطة تبعد 300 ميل إلى الشمال ونخشى أن يهاجمها المخربون قريباً. ثانياً الناس هنا يسمّون الجنود الأميركيين «الذئاب» و«الدببة القطبية» لأننا نلبس معاطف مبطنة بالفرو وأقمشة عازلة لا يؤثر فيها الجليد. (حركتنا بطيئة هذا صحيح، لكن أطرافنا لا تتساقط ونحن نأكل البطاطا المطبوخة باللحم). ثالثاً الجليد لا يعطب الدماغ بل العكس: هنا تبدو الأشياء واضحة. أنت لا تتصورين كم هي ضيقة نيويورك. كم هو ضيق هنري ستريت! أشعر أنني أتنفس الهواء العليل للمرة الأولى في حياتي. لست وحدي من يشعر هكذا. معي جندي صار صديقي وفرشته جنب فرشتي جلبوه من تكساس من دون أن يعرف إلى أين يؤخذ: كان في المعسكر وسألوه ماذا تُفضل الرمل وحراسة الحدود مع المكسيك أم الماء البارد والفواكه في Philippines؟ أحبَّ رنين الإسم وطلب هذه الأخيرة. كان يظن أنه سيحرسها ويتخيلها حديقة وبساتين فواكه! أعرف أنك تضحكين وهو أيضاً يضحك عندما يروي القصة. لكنه لم يبلغ مانيلا. نحن الآن في أقصى شرق سيبيريا، على حافة آسيا، وإذا قطعنا الماء نصل إلى اليابان: من هناك تأتي إمداداتنا الآن، ونحن على نحو ما نتبع الجيش الياباني وفي بعض المناطق يحارب الجنود الأميركيون تحت الراية اليابانية. لكن صديقي التكساسي نزل أولاً وراء جبال الأورال، في الغرب، غير بعيد من

فنلندا. هناك رأى التشيكيين الذين أتينا من أجلهم، في مرفأ Archangel الروسي على البحر الأبيض، 600 ميل إلى الشمال من موسكو. إسأليني كيف وصل كلارك من «أرك إنجل» إلى هنا؟ رحلة تطول أربعين يوماً، لا أحد يستطيع أن يقطع هذه المسافة، لا بسبب أودية الجليد وسلاسل الجبال فقط، ولكن أيضاً بسبب المعارك المتنقلة. . . لكنهم أسروه! كانت المدينة في حالة مجنونة: خطفوه وهو يشتري فودكا من السوق وصار أسيراً! بعد ذلك بادلوه مع أسرى بلاشفة، لكن هنا، في هذه الجهة، غير بعيد من فلاديفوستوك! وهكذا قطع سيبيريا من الغرب إلى الشرق! لماذا أخبرك عنه؟ هو مثلي يحبّ هذا المكان. في الليل، الجو من الصفاء الشديد بحيث تستطيعين أن تمدي يدك وتقبضي على نجمة. لا أحد يصرخ هنا، المكان ساكن، وعندما نصرخ نفعل ذلك بسرور ونحن نهجم على العدو. . . نطاردهم عبر السهب ومرّات نقضي عليهم ومرّات يفرون. إذا بلغوا «الإخدود» نتركهم؛ هناك الأرض مرعبة. . . هل تعرفين الشعور الذي يستولي على الواحد وهو يسير تحت المطر الغزير. . . في البداية يخشى البلل، لكنه بعد ذلك، بعد أن يدخل الماء إلى الحذاء وتتكسر المظلة، لا يعود مهتماً، ويصير سعيداً بالمطر. . .

كنت أحبّ عندما يحدث هذا وأنا صغير، في مانهاتن وقبل أن ننتقل إلى بروكلين. . . كنت أحبّ أن أصل إلى البيت وأنزع عني الثياب وأنا أقول: «سبحت في النهر!» وأمي تخاف عليّ من النزلة وأنت تركضين بالمنشفة وأخواتي يرقصن ويصحن كأنهن في حفلة. . . كنت أحبّ ذلك ثم ضاع الشعور الطيب ولم يبق إلا الجدال العنيف، «وهذا جيد»، و«هذا غير جيد»، وفي كل لحظة. . . لا أريد أن أتكلم عن هذا الآن. أردت فقط أن أخبرك أن الحرب

تشبه المشي تحت المطر. وأن حراسة السكة ليست مهمة سيئة: نأكل ونشرب جيداً، نشعل ناراً ونغني أحياناً. في الإجازات نتصيد ثعالب ووعولاً. وفي عيد الميلاد نقعد على الكراسي ونشاهد «أوبرا» ألمانية! الصوت أجمل في هواء سيبيريا النقي، تصعد النغمات إلى سماء مرصعة بالنجوم ويشعر الواحد أنه يريد البقاء هنا إلى الأبد.

طبعاً لن أبقى هنا إلى الأبد. ما تقولينه في رسالتك يبدو لي غريباً: لا أستطيع أن أتخيل جوزف أسطفان باكي الوجه. إذا كانت فيّ قوّة وقدرة على التحمل فهذه أتت منه ومن أجداده. أن تقولي أنه لولا تدخل مرتا حداد ـ كم بالضبط أقرضته مالاً؟ أنت لم تحددي ـ كان سيعجز عن بناء المتجر والبيت مرة أخرى... هذا يبدو غير مفهوم بالنسبة إليّ. في الرسالة الآتية أكتبي اكثر.

ـ 100 ـ

علي جابر (6)

إنتظرها في حفل العمادة ولم تأتِ. شعر أنه طُعِن. هذه ليست إستعارة: في الأيام التالية تحرك كأنه مصاب بجرح في جسمه. أو بحرقٍ: كان يعرف ألم الحرق. مرة أحرق يده وهو صغير. سقط وهو يلعب مع أخيه، وكي يتوازن وضع يده على حافة الموقدة: كان الحجر أحمر كالجمر وأحرق أصابعه وكفّه. دهنوها بالزيت ولفوها بالقماش. وكلّما أرادوا تبديل القماش ولَمَسَها الهواء كان الألم يفتك بقلبه. الآن رجع الإحساس: كلّما مرّت جنبه أم فارس (هذه المرأة كيف فعلت ذلك؟)، ازداد الوجع في صدره وشعر أنه يختنق. لا أستطيع أن أصف الإرتباك الذي أصابه. فسدت علاقته بفارس أيضاً، صديقه و«شريك النصف». سرعان ما أعلمه برغبته في الانفصال. وفارس صليبي اشترى منه حصته بأقل من القليل. علي جابر حزم أغراضه ومضى. لن يرجع إلى سبرينغ فالي أبداً.

أخذته الطريق جنوباً، إلى درامرايت ـ أوكلاهوما*. ولايتا أوكلاهوما وتكساس كانتا تشهدان في تلك الفترة حقبة من الازدهار العجيب بسبب النفط: أينما ظهر حقل نفط جديد نبعت البلدات من بطن الأرض، كأن «الذهب الأسود» يسقي البيوت الخشب والمتاجر

---

* Drumright - Oklahoma.

الخشب وأسواق الخضر واللحم والكحول والدعارة. الناس توافدوا من أنحاء البلاد بحثاً عن عمل وعن فرص للربح السريع. ضاعف كهرباء الجو قانون منع الكحول الذي صدر مطلع عام 1920: بات الأميركي ممنوعاً من صنع المشروبات الكحولية، من نقلها، ومن إستيرادها إلى الأراضي الأميركية. هذا «التعديل الثامن عشر على الدستور» أغاظ عدداً لا يحصى من سكان البلاد لكنه أمَّن لعلي جابر (ولكثرٍ غيره في ولايات الجنوب) مصدر دخل: اشتغل في تهريب الويسكي من المكسيك إلى تكساس. كيف حدث هذا؟ التقى في جوار درامرايت رجلاً سورياً (حلبي الأصل) يدعى مطانيوس هيكل. كانوا يسمّونه «مستر هاري» ويرفعون القبعات عن الرؤوس عند رؤيته. يقود شاحنة صغيرة ولا يُرى أبداً من دون ثلاثة مرافقين. كان داخلاً إلى «البار» في Shawnee الواقعة إلى الجنوب من درامرايت وسمع شتائم باللغة التي نادراً ما يسمعها.

التفت ورأى رجلاً يترنح ويلتقط كيس جنفيص عن الأرض ويهمّ بالخروج. اعترض طريقه والرجل القاسي كشجرة صبّار دفعه جانباً. قبل أن يهاجمه المرافقون أوقفهم بكلمة واحدة ثم نادى وراء الرجل أن يتوقف. ناداه بالعربية والرجل استدار.

ـ أنا مطانيوس هيكل، هنا إسمي مستر هاري، أحتاج إلى واحد مثلك. ماذا يسمّونك؟

علي جابر نظر إليه ولم يرد.

ـ إذا أوقفك «الشريف» الآن، إذا رآك تخرج سكران من هنا تعرف ماذا يفعل؟ يرميك في الحبس حتى لو دفعت الغرامة. لن يرمي صاحب «البار» في الحبس لأن هذا «البار» لا يبيع إلا «الشاي والمرطبات والقهوة». لكن أنت، أنت كالذبابة بالنسبة إليه. هل تريد هذا؟ أن تُمعس وتُضرب من دون حاجة؟

علي جابر سأله لماذا يريد واحداً مثله؟

كلّمه بالإنكليزية لأن الآخر انتقل إلى الإنكليزية، و«السيد هاري» دعاه إلى فنجان قهوة. بينما يتكلمان، وأثر الكحول يزول من رأسه، أحسّ علي جابر أنه انتهى. كان يختبر هذا الشعور للمرة الأولى في حياته: لم تأتِ مرتا حدّاد إلى حفل العمادة وهو لم يخرج من تحت الماء بعد ذلك. غرق في جرنٍ أعمق من بئر ولن ينجو أبداً.

الشيطان أنقذه. قبِل الوظيفة واشتغل بالتهريب على حدود المكسيك. المغامرة والخطر ردّاه إلى شخصيته القديمة. تخلى عن الكحول وعاد إلى المتّة. بينما يرشف القرعة تلو الأخرى، ساهراً في البريّة بانتظار شحنة ويسكي تتسلل على «شختورة» عبر النهر، أحسّ أنه لم ينتهِ بعد. كان يرفع الإبريق الساخن عن النار ويسكب الماء في القرعة بينما الذئاب تعوي في صحاري تكساس. يلف لفّافة تبغ ويشعلها بعود يحترق. بينما النجوم تبرق في سماء سان أنطونيو وطيور الليل تسافر صوب «سانتا في» Santa Fe، سقت المتّة روح الرجل المتشققة والمنكمشة حتى ارتوت وملأت جسمه وثيابه من جديد.

- 101 -
معمل الكيمونو

مرتا حداد قرأت الإعلان في «الهدى». سالم هلال نشر إعلانه في ثلاث جرايد: «البيان» و«الهدى» و«العالم السوري». وخلال أيام قليلة انهالت عليه التلفونات. كان مريضاً في كبده وينوي الرجوع إلى قرنايل (جبل لبنان). هذا صاحب الرسالة في الفصل 47. بعد الحرب الكبرى اجتذب إلى أميركا عدداً من أبناء عائلته. كان طيباً معهم، ولعل هذه الطيبة مرتبطة بالمجاعة. قبل الحرب لم يساعد أبناء عائلته على القدوم إلى «العالم الجديد». سخرية القدر طاردته: عندما امتلأت نيويورك بأبناء قرنايل بدأ كبده يتشمع، فقرر أن يبيع معمل الكيمونو والألبسة الداخلية الذي يملكه وأن يرجع إلى مسقط رأسه قبل فوات الأوان. لكن واجهته بعض الصعاب: كانت البلدية بحاجة إلى قطعة الأرض حيث معمله فتأخرت الأوراق اللازمة ووجد أنه سيقضي قبل بيع المعمل. اختار أسهل حل (ولعله كان الحل الوحيد الممكن): أن يبيع ماكينات المعمل لمن يريد أن يشتري، وأن يبيع المبنى نفسه وقطعة الأرض لمدينة نيويورك. وهكذا فعل. مرتا حداد اشترت ماكينات المعمل.

فرح صافٍ ـ كماء نابع من صخور الجبال ـ غمرها وهي تخرج من «بنك فيلادلفيا» بعد أن حوّلت المال من حسابها إلى حساب جوزف أسطفان في بروكلين قبل شهور... ذهبت وزارته بعد ذلك بوقت قصير ورأت أكوام الرماد المجروف تُرفع إلى شاحنات بينما

المتجر الجديد يظهر مثل السحر: كان متجر جوزف أسطفان أول متجر يبنى في هنري ستريت بعد الحريق. السوريون وجدوا ذلك سبباً للفخر. رائحة الحريق لم تتبدّد من الجو بعد. في المجرور تكدس الرماد المبلول، وهذا يمضي وقت طويل قبل أن تختفي رائحته.

مرتا جلست إلى الطعام في بيت ماري وسألتها عن أخيها. كانت تعرف ـ من الأب ـ أنه يكتب لها دائماً. بينما تتحدثان دخلت إحدى أخوات ماري ووقفت جنبها. كانت في الثانية عشرة، جميلة وطويلة الشعر، عندها غمازتان في وجهها وطوال الوقت تبتسم. على طاولة المطبخ كانت الجريدة مفتوحة، وفي الزاوية الإعلان عن معمل الكيمونو الجاهز بماكيناته للبيع. تحت صورة الماكينات السعر بالدولار. كان الرقم قريباً من المبلغ المتبقي في حسابها. هكذا ستروي القصة بعد ذلك لإبنها الكبير. أخرجت قلماً من جزدانها ونسخت الرقمين ـ السعر ورقم التلفون ـ بينما الفتاة ابنة الـ 12 سنة تبتسم. لم تكن تلبس معطفاً أحمر وقبعة حمراء هذه المرة، ومرتا كذلك لم تكن صفراء الوجه نافرة العظم مريضة في غرفة باردة. بينما تبرم الذراع كي يدفأ خط التلفون (هذه التلفونات اليدوية ستبقى موجودة إلى زمن الأبناء لكن الأحفاد لن يروا مثلها إلا في أفلام السينما)، ثم تطلب الرقم وهي تختار الكلمات التي ستلفظها، شعرت مرتا حداد أنها على طريق صحيح. كان إحساسها مصيباً. الرجل باعها الماكينات بسعر مقبول وهي شحنتها إلى فيلادلفيا. كانت تغامر. بعد دفع إيجار المبنى القريب من متجرها صار حسابها فارغاً أو شبه فارغ. وضعت الماكينات فيه وأعلمت «ناس الطريق» أنها بحاجة إلى «الديون»: كل واحد ـ كشّاش أو كشّاشة ـ قادر أن يسدد الآن ما عليه، يفعل معها جميلاً ستتذكره له. كانت تبتسم وهي تقول هذا، وكانوا يبتسمون أيضاً. يُخرجون ما معهم ويدفعون ويعدون بتسديد الباقي قريباً. اكتشفت في تلك الفترة أمراً شعرت به

ولم تجزم به قبل ذلك: تملك في جيوب هؤلاء أضعاف ما تملكه في حسابها!

تكاثروا ـ أهل الكشّة ـ بعد الحرب الكبرى حتى بلغوا حداً أقصى. في تلك المرحلة ـ بينما مرتا تفتح معمل كيمونو وألبسة داخلية في فيلادلفيا ـ كان عدد المهاجرين يومياً من أنحاء العالم إلى أميركا يتجاوز خمسة آلاف. هذا الدفق، هذا الطوفان المخيف من المهاجرين، سيحرك نقاشاً عنيفاً في الكونغرس ويفضي إلى قانون الكوتا* سنة 1924. بعد ذلك تنحسر موجة الهجرة (السوريون ضربهم هذا القانون بعرض الحائط: مئة مهاجر جديد فقط يُسمح لهم بالدخول كل سنة... عدا الأزواج والأبناء للسوريين المقيمين في أميركا). لكن حتى قبل إنحسار موجة الهجرة في 1924 بدأت مرتا تشعر بتبدل الأحوال: كانت تصغي إلى حكايات الكشّاشين والكشّاشات وتكوّن تدريجياً صورة عما يحدث الآن، هناك، على طرقات أميركا. العصر الذهبي للكشّة انتهى، ولعل زمن الكشّة كلّه أوشك أن ينقضي. المتاجر بلغت أقصى القرى. وحتى المزارع المنفردة في البراري لم تعد بحاجة إلى الكشّاش: صاروا يطلبون بالبريد ما يحتاجون إليه. تصلهم كتالوجات ويرسلون ورقة أو يتلفنون ويصلهم الطرد البريدي. الزمن يتغير. وحتى أخبار الكشّاش لم يعد المزارعون بحاجة إليها: كانوا ينتظرونه من أجل أخباره أيضاً وهم في تلك الأمكنة النائية القائمة خارج حدود العالم الواقعي. جاء الراديو ووضعهم في العالم.

* حدّد لكل دولة نسبة 2 في المئة من عدد مواطني هذه الدولة المقيمين في أميركا أصلاً بحسب إحصاء 1890. خدم بالتالي أبناء أوروبا الغربية وشمال أوروبا وعاكس أوروبا الشرقية وآسيا.

- 102 -
معمل الكيمونو (2)

الكشّاشات سألن مرتا هل تحتاج إلى عاملات؟ مرتا قالت بالتأكيد، هذه الماكينات لن تعمل وحدها. ضحكت وهنّ ضحكن، ولا هي ولا هنّ تخيلن، أن سنوات قليلة تمرّ ثم تشتغل هذه الماكينات وحدها! قبل نهاية سنة 1920 بدأ المعمل يشتغل. مطلع 1921 باعت مرتا حداد الشحنة الأولى من بضاعة معملها. كانت تركض طوال الوقت بين المعمل والمتجر.

لم تقفل المتجر لأنها أرادته واجهة لمنتوجات المعمل. شغَّلت مساعدتين معها وفقدت في وقتٍ قصير سبعة كيلوغرامات. في المقابل امتلأت سعادة لا يمكن وزنها. كانت كتلة من الطاقة الآن، وتحت يدها أكثر من عشرين عاملة، معظمهن سوريات وإيطاليات. عندما ملأت واجهة المتجر بالكيمونوات ظنّت نساء فيلادلفيا أن هذه وصلت من طوكيو للتو. إلى هذا الحد كان الحرير لامعاً والرسوم جميلة.

مرتا قالت لإحدى مساعداتها (صرن أربعاً الآن، الشغل إلى فوق رأسها) أن جبل لبنان كاليابان يُربي دود الحرير منذ زمن طويل. لم تكن تكذب: بالنسبة إلى طفلة من بتاتر، هذا حقيقي. كرخانة بورتاليس تفوح رائحتها الفظيعة آخر الربيع وتغمر بيوت القرية (هذه شرانق القزّ تُرمى في خلاقين المياه المغلية كي تموت الدودة الملتفة

بالحرير). قبل ذلك، قبل أن تُقطف شرانق الحرير عن الوزال وتؤخذ إلى الكرخانة حيث تشتغل أمها، كانت مرتا ترى الدود يسعى على أطباق ورق التوت الأخضر على السقالات الخشب التي تحجب حيطان البيت. طوال الوقت ترى أباها ذاهباً إلى التوتات وعائداً بالسلال الملآنة. في البداية يفرم الورق رفيعاً للدود الصغير. بعد ذلك يكبر الدود، تتضاعف شراهته، ويأكل الورق كاملاً. إبنة بتاتر تعرف الحرير منذ طفولتها ورأت أمها تعود من الكرخانة عرقانة ورأتها في البيت أيضاً تقعد إلى المغزل القديم. لا أريد أن أتوسع بهذا الوصف لأنني فعلت ذلك سابقاً في رواية «الفراشة الزرقاء» التي تدور معظم أحداثها في القرية الجبلية المذكورة. يكفي أن نقول هنا أن مرتا رأت نسيج طفولتها يكرّ أمامها وهي تقف أمام المغازل في معملها الأميركي متأملة آلات الخياطة «ماركة سنجر» تدرز أثواب الكيمونو الزرقاء والحمراء والصفراء، ثوباً بعد ثوب، وكل ثوب أخف من منام.

في العيد الكبير ـ الفصح ـ أقامت وليمة صباحية دعت إليها جميع العاملات: السوريات والإيطاليات والأميركيات. ملأن قاعة المعمل بأصواتهن الضاحكة وهن ينظرن إلى المائدة قبل الجلوس: البيض الملون والخبز المرقوق السوري (مَنْ عجن ورقَّ وخبَزَ؟ السوريات جميعاً اشتركن) وأصناف الأجبان والمربيات. . . إضافة إلى ملك الفصح: المعمول بالجوز والكعك بالتمر. أكلن بين آلات الخياطة وشربن شاياً وقهوة وحليباً وعصير تفاح. (إحدى العاملات اشتغلت من قبل في معمل تفاح وحكت لمرتا كيف يجمعون التفاح في كومة على «صحن» الآلة ثم يضعون القش فوقه وحوله ليكون «مصفاة» العصير عندما يكبس حجر الطحن الثقيل التفاح). كان

المكان يفور بالسعادة في تلك الساعة ومرتا نظرت إلى الوجوه المبتهجة وفكرت في الرجل الذي اختفى.

ذلك المساء أيضاً، وهي تراجع دفاترها قبل النوم، فكرت فيه. منذ ترك سبرينغ فالي لم تسمع عنه شيئاً. أين هو وماذا حدث له؟ هل شعرت عندئذٍ أنها لن تراه مرة أخرى؟ ودّت لو يأتي! ودّت لو يأتي أحد وينقل لها أخباره. . . بعد ذلك انشغلت بأعمالها. في الصباح، بينما تغادر فراشها، إنتابها إحساسٌ فظيع: ماذا لو إختفى إلى الأبد؟

لكن الرجل لن يختفي إلى الأبد. على الأقل ليس في تلك الفترة. طوال شهور قاد شاحنة صغيرة بحمولة مزدوجة (كانوا يُخفون براميل الكحول تحت أكياس الذرة والبطاطا) على طرقات خلفية لا ترصدها دوريات البوليس. ساق الشاحنة إلى بلوغراس ـ كنتاكي، ساقها إلى ردروكس ـ كولورادو، ساقها إلى كولمبوس ـ نيومكسيكو. مرّ على مرأى من نوافذ مزرعة سكنها قبل سنوات أجيراً يمدّ يده على سطح إسطبل وينقذ رجلاً من موتٍ محقق. عبرت الذكريات في رأسه واستعاد ذلك العشاء والنجوم تملأ السماء وكيف تذكر أخاه بينما يرقد. كان شارداً، ورائحة كحول خفيفة تتسرب من تحت المقعد، والرجل الجالس إلى جواره يقول شيئاً للمرة الألف عن هذه الرائحة، «وماذا لو إلتقينا شرطياً الآن»؟ في تلك اللحظة، بينما المزرعة تختفي عن بصره، أدرك أن هذه رحلته الأخيرة وأن الربّ لم يضعه على هذه الأرض كي يُهرّب براميل ويسكي من المكسيك. قبل نهاية 1920 قطع صحراء نيفادا إلى كاليفورنيا. اشتغل في مزارع بورتلاند وسكرامنتو وادّخر مالاً يكفيه (مع المبلغ الذي ادّخره قبل ذلك) كي يفتح متجراً صغيراً. كانت خطته أن يذهب إلى بياتريس ـ نبراكسا التي سمع عنها كثيراً. لكنه بينما يقطع تذكرة القطار اختار فيلادلفيا.

- 103 -
اللقاء

كانت آتية إلى المتجر من المعمل. خطاها واسعة والشمس ساطعة. من «البارك» يخرج صوت الفرقة الموسيقية على غير عادة (يعزفون الأحد، واليوم الخميس). لعلهم يتمرنون لإستعراض عسكري جديد. عبرت الفكرة رأسها ثم تلاشت كأفكار كثيرة. قبل أن تبلغ المتجر رأت رجلاً واقفاً في الباب يحمل قبعته في يده. خفق قلبها. كان هو.

أعطت «المساعِدات» فرصة غداء طويلة واختلت به. كانت بشرته أشد قتامة الآن، كأنه ذهب إلى إفريقيا وعاد بينما تفتح معمل الكيمونو والألبسة الداخلية. في جبهته رأت تجاعيد الشمس، وفي عينيه رأت وحدته أعمق وأقسى وأقرب إلى وحدتها. خرج العصفور الميكانيكي من الساعة وصاح كأنه يرحب به، هو أيضاً.

ماذا قالا عندئذٍ؟ ما هي الكلمات الأولى التي خرجت منه؟ والكلمات الأولى التي خرجت منها؟ موسيقى فرقة الجيش عُزفت في تلك الجلسة؟ لا أظن أنه أخبرها في تلك الساعة عن مغامراته على حدود المكسيك. (ربما لاحقاً، في فترة آتية، يخبرها: ربما بينما تشرح لإبنهما الأول جاك درساً في الجغرافيا والتاريخ: وعدت ألمانيا المكسيك أثناء الحرب الكبرى أن تقدم لها هدية ثلاث ولايات هي تكساس ونيومكسيكو وأريزونا إذا دخلت المكسيك

الحرب إلى جانبها ضد الولايات المتحدة الأميركية. «نحن»، قالت مرتا لإبنها، «قرأنا عن ذلك في الجريدة بعد عيد الفصح سنة 1917. وزير الخارجية الألماني أرسل برقية بالتلغراف إلى الحكومة المكسيكية. لكن الإستخبارات البريطانية اعترضت البرقية وفكّت رموزها وأرسلتها إلى الحكومة الأميركية». لكنه على الأرجح حكى عن كاليفورنيا. ماذا أخبرها عن حياته وماذا أخفى؟ وهل يُبدّل ذلك شيئاً؟ الكلمات بلا قيمة (كم مرة نكرر هذا؟). سطعت الشمس أقوى على واجهة المتجر. نهضا ووقفا على الرصيف: كان يتأمل الأثواب المعروضة وهي تشرح عنها. ثم رفعت يداً ودلّته إلى المبنى غير البعيد (تلك النوافذ الطويلة، هناك). أرادت أن تأخذه كي يرى المعمل لكن في تلك اللحظة شعرت بالخوف: كانت تُنزل أسوارها دفعة واحدة! وماذا لو أنه ليس من تتخيله!

مرّ رجل يبيع سمكاً. كان يصيح بأسماء الأصناف التي يحملها. ويطرق سكيناً على «الحديدة» جنب مقعده. شعرت أنها عاشت هذه اللحظة من قبل، وأن نهاية اللحظة لم تكن طيبة. ابتعد الرجل الذي انتظرته كي يعود، ورأته يتكلم مع بائع السمك. لم تستوعب ماذا يفعل. بلا انتباه تحركت هي أيضاً. من الطريق الأخرى جاءت سيارة سوداء بمقاعد بيضاء، بلا سقف، وأطلقت بوقاً قوياً متقطعاً كأنها تشارك الفرقة الموسيقية عزفها. أدركت أنه يشتري سمكاً ووجدت ذلك غريباً جداً. لكنه عندما استدار وواجهها بضحكة كبيرة نزع عنها خوفها وإرتباكها دفعة واحدة.

أيقنت أنها تريد البقاء معه. تريده أن يظل هنا، في فيلادلفيا. كان البائع يقف عند صندوق العربة الآن ويغسل السمكة الفضيّة الكبيرة في برميل الماء. الحصان صهل ثم سكت. العربة تمايلت،

الشمس برقت على اللون الأحمر في بطن السمكة. مرتا رأت زبائن أمام المتجر فقطعت الطريق إليهم. بينما تسير التفتت ونظرت إليه: كان يتبعها بنظرته، لم يدعها تخرج من مجال بصره لحظة واحدة. باعت بضاعة وقبضت ثمنها. وضعت المال في «الصندوق» ورفعت وجهها. رأته يقف في الباب والسمكة ملفوفة في جريدة. بدا حائراً. ومرتا ضحكت. هو ضحك أيضاً.

قال إنه سيأخذ السمكة إلى الفرن، يشويها ويرجع.

قالت نقليها هنا.

قال هذه كبيرة، لا تصلح للقلي.

قالت طيب، الفرن غير بعيد.

دارت من وراء «الصندوق» وخرجت معه إلى الرصيف وأشارت بإصبعها إلى المحلات عند زاوية سور «البارك». حيث تمثال الرجل على الحصان، وقالت هناك، في نهاية الصف، لكن لا أعرف هل يقبل أن يشوي السمكة.

ضحك وقال نقطعها ونقليها إذاً، ما رأيكِ؟ عرفت ماذا يفكر وعرف ماذا تفكر. أرادا البقاء معاً، لا هي تريده أن يذهب ولا هو يريد ذلك.

- 104 -
الحياة الغريبة لجندي سوري - أميركي (3)

«سباسكو - بحيرة بايكال* - سيبيريا

العزيزة ماري والجميع

وصلتني أخباركم الأخيرة في الرسالة المؤرخة 3 شباط (فبراير) وقرأتها مرة أخرى قبل أن أسطر لكم الآتي: نحن هنا مثلكم تماماً لا نعرف شيئاً عن مواعيد هذه الحرب، لا كيف بدأت ولا متى ستنتهي، والحروب هكذا، لكن صلّوا من أجلنا وتنتهي هذه الحرب أيضاً ونرجع جميعاً إلى الوطن. الشتاء هذه السنة فظيع. درجة الحرارة تدنت إلى تحت الستين والأحصنة ماتت. لكننا بصحة جيدة وعندنا معاطف وأصواف وفرو. وعندنا تدفئة وحطب ونشرب حساء من عظام الغزلان ولحمها خمس مرات يومياً على الأقل. حتى صاحبي جيم دينكا الذي عاد إلى بيته سالماً وأعطوه قبل تسريحه من الجيش جزمة جديدة وبذلة جديدة وراتباً Bonus إضافياً، حتى هو لا يتدفأ مثلي في أميركا الحبيبة هذا الشتاء.

اشتقت إلى نيويورك، وأنا كنت أظنني لن أشتاق إليها أبداً. أرغب أن أرجع اليوم قبل الغد وأسير في برودواي وآكل سندويشة همبرغر من دون التفكير في القوزاق والبلاشفة. الإثنان ألعن من

* Lake Baikal.

بعض. سأخبركم بعض ما حدث معي في الشهور الماضية وأرجو ألا ينشغل بالكم فأنا بخير الآن ويقال لنا إننا سنؤخذ إلى مانيلا قريباً ومن هناك إلى الوطن، فحتى لو استمرت الحرب لا بد من تبديلنا نحن والفرقة الخامسة والثمانين التي تضم متطوعين من ميتشيغان وويسكونسن فكلّهم أصابهم الجليد إصابات بالغة. هم وصلوا قبلنا، آتين من «فورت كاستر» خارج Battle Creek، عن طريق إنكلترا. . . قاتلوا أولاً على «الجبهة الغربية» وكانوا في صفوف الفرق الفرنسية والإنكليزية التي اجتاحت الخط الألماني. . . بينهم أصدقاء لي الآن. أهدوني غنائم ألمانية بينها ولاعة Dresden. كنت أود أن أبلغكم أخباراً طيبة لكن ما العمل؟ مرفقة تجدون صورة لي مع رفاق ـ على أقصى اليمين Fred وهذا من أعزّ أصدقائي الآن ويضع العصبة على عينه كالقرصان على سبيل المزاح فقط ـ والصناديق التي تظهر خلفنا نسمّيها علب البسكويت لكنكم لا تجدون فيها غير البيجامات الصوف، ونحن نلبسها تحت ثيابنا ليلاً نهاراً. . . وصلنا منها مخزون ضخمٌ عن طريق الخطأ، أما الجزم التي طلبناها فتأخر وصولها! الجندي الذي يركع على ركبة واحدة في المقدمة يُدعى جيري كامبسون، قاتل مع سلاح الهندسة في Murmansk. أصيب في إحدى معارك Vologda وعندما أرادوا إرساله إلى أميركا لم يقبل. يقول لا أحد عندي ويقول إنه يحبّ الحرب وعنده لذّة القتال. أخذوه إلى كيوتو وتعالج هناك مع الجرحى اليابانيين وعاد إلى الحرب من هذه الجهة. عندما نزل في فلاديفوستوك كان يحمل سيفاً مثل محاربي الساموراي. لكنه لطيف في المعسكر. وعندما كلّفونا حراسة «المعتقل» استغل الفرصة وأخذ دروساً خصوصية بالألمانية والهنغارية من الأسرى. أنا أيضاً صرت أجيد الروسية والقليل من اليابانية،

وهذه لغة صعبة وحروفها عجيبة كالرسوم ولا يكتبون على الصفحة مثلنا، لكن لا بد من أن أراكم مرة أخرى وعندئذٍ ترون ماذا أقصد.

لقد رأيت أشياء لم أكن أتخيلها. قطار من الأسرى البلاشفة مرّ أمامنا ثم توقف في محطة يسيطر عليها «الأتمان» كالميكوف. هذا رجل قصير سمين يبدو عاجزاً عن إذية نملة لكنه يملك في حديقته قفصاً فيه ثلاثة دببة بنيّة متوحشة. ترك الأسرى في القطار حتى أنهكهم الجوع والعطش والبرد. كانوا يدقّون الباب الحديد المقفل بالسلاسل ونسمع صراخهم وهم يطلبون النجدة ويُمنع علينا أن نتدخل. ثم لماذا نتدخل؟ نعرف أنهم يفعلون مثل هذا بأسرانا أيضاً. لكن «الأتمان» كالميكوف فتح باب العربة وأدخل الدّببة الجائعة ثم أقفل الباب من جديد.

أنا أكتب عن هذا وأعرف أن الرقيب سيمحوه أو يمزق الورقة لكنني لا أهتم. سأكتب غداً رسالة أخرى فإذا لم تصلكم هذه يكون هذا أحسن لكم وفي المقابل أكون أنا ارتحت وكتبت ما أردت أن أخبركم إياه. أعرف الآن أنني أخطأت عندما جئت إلى هنا. لكن في المقابل رأيت هنا أشياء حسنة أيضاً. هل تصدقون أنني التقيت رجلاً سورياً يعيش في قرية صغيرة على ضفة «بايكال» التي يسمّونها هنا «البحر» لأنها أكبر من نيويورك. الرجل أصله من القدس Jerusalem وكان مجنداً في الجيش التركي العثماني. الجيش وقع بأجمعه في الأسر على جبهة القوقاز ورموه في معتقلات سيبيريا. ظلّ فيها من 1915 إلى 1917 ثم أطلق البلاشفة سراحه. لكنه أضاع الطريق وبدل أن ينتهي في أورشليم انتهى في هذه القرية السيبيرية التي لا يستطيع أحد أن يحفظ إسمها الطويل. التقيته في متجر القرية وعرفت أنه سوري من سحنته. تكلمنا وصرنا أصدقاء. أخبرني أنه يتيم وكان

يشتغل خادماً في دير الفرنسيسكان في القدس وكانوا يسيئون معاملته لكنه بقي عندهم لأنه اعتبر الدير بيته. طالما خطط للفرار ثم كان في اللحظة الأخيرة يتراجع. لكنه ذهب إلى السوق يجلب طعاماً للرهبان، والجنود الأتراك لقطوه وأخذوه إلى «الجبهة الشرقية». كان يحارب بالبارودة كأنه يحارب بالعصا لأن أحداً لم يعطه ذخيرة، حلف لي أن هذا صحيح وأنا أخبرته عن بنادقنا النمسوية في 1918 وقلت «حتى في الجيش الأميركي يحدث هذا». تزوج إمرأة روسية ويعيش من صيد السمك والأرانب البيضاء. مرات يجلب إلينا في المعسكر طرائد ونعطيه بدلاً منها تبغاً وشوكولا.

ماذا أخبركم أيضاً؟ بعض الجنود اليابانيين سكروا على الساكي والكرز وأرادوا أن يسبحوا في النهر (Amur River) على الحدود مع الصين، فوجدوا جثثاً تسبح معهم وهي تلبس دروعاً قديمة. خافوا وخرجوا من النهر لكن الجثث اختفت. هناك أسطورة تقول إن الجنود الذين يموتون في سيبيريا حتى لو دُفنوا تحت الأرض يقومون ويرجعون. ثمة سبب لهذا: في الصيف يذوب الجليد، وكثيراً ما نرى جنوداً من أصدقائنا دفناهم، يخرجون من تحت الأرض مع عشب الربيع.

فريد Fred وصلته رسالة من خطيبته في ميسوري تقول إن الهواء الحار هذه السنة عطب محصول القطن. لم تؤرخ خطيبته الرسالة ولا نعرف عن أي سنة تتحدث ولعلها أرسلتها قبل سنتين أو ثلاث سنوات فمنذ وقت لا يسمع منها وكان يظنها نسيته وتزوجت شخصاً آخر».

- 105 -
الحياة الغريبة لجندي سوري - أميركي (4)

أُصيب لكن رفاقه أفلحوا في حمله. ثلاثة غيره وقعوا في الأسر ولن يُعرف بعد ذلك ماذا حلَّ بهم. هو قضى أسابيع هاجعاً على سرير في الباخرة - المستشفى Rosemary في مرفأ فلاديفوستوك. عندما انفجرت قنابل في قلب المدينة أبحرت الباخرة مبتعدة صوب اليابان. الأطباء والممرضات تراكضوا في القاعة ثم انزلقوا وهم يصيحون. لم يفهم ماذا يحدث. حقنوه إبرتين في ساقه وغاب عن الوعي.

استيقظ في المستشفى العسكري في مانيلا. في كوابيسه رأى أنه يُقطع بالفأس ثم يُرمى طعاماً للأسماك. تفقد أطرافه خائفاً وصرخ ألماً عندما أحرقه زنده: الرصاص مزّق المعطف واللحم. جاءت ممرضة وساعدته على الجلوس في الفراش وطمأنته بلغة إنكليزية مكسرة إلى وضعه: إصابته ليست بالغة، وكان مصاباً بصدمة، والآن لا خوف عليه. أحبّ هذه المرأة السمراء القصيرة وهي بادلته الحبّ. عندما تماثل إلى الشفاء ساعدته على الهروب من المستشفى. أخذته إلى غرفة حقيرة غير بعيدة. كان الماء يدلف من السقف والحيطان تتصدع، لونها أخضر وأسود، وعلى الأخضر ينمو عفن أبيض لم يرَ مثله من قبل. كان الجو حاراً هنا وشعر أنه مملوء فرحاً كما لو أنه عاد طفلاً لم يسمع عن العالم شيئاً بعد. المروحة المصنوعة من

سعفٍ خفيفة كالقطن مقطوعة من شجر لا يعرف إسمه، تحركت أمام النافذة وعطَّرت الغرفة برائحة الصمغ النباتي: كانت تحجبها عن الشارع وهي تنزع ثيابها، وهو باغتته رجفة برد. ارتعش كأنه ينزل في ماء آمور اللعين حيث تسبح الجثث مع سمك المنشار، واستمرت ارتعاشته حتى بعد أن أسرعت إليه وغمرته ببطانية. بعد ذلك، عندما ذهبت الرعدة، ساعدته على التخلص من البنطلون الكاكي. لم يقل لها شيئاً وهو يتسلقها ثم يدخل فيها ناسياً سيبيريا. في خياله رأى إمرأة حقيقية موجودة في الجانب الآخر من الأرض. كان يرغبها ويعرف أنها لن تكون له يوماً. اكتفى بالمرأة التي طهّرت جراحه وعانقها كأنه موشك على الموت. أضواء الشارع اقتحمت الغرفة الشفافة العتمة ثم انسحبت. لم يسمع رصاصاً وهو يمسح العرق عن نفسه بعد ذلك ولم يسمع رصاصاً وهو يتناول منها الفواكه التي قشّرتها. شعر أن الرعدة عائدة فتدثر بالبطانية وجذب المرأة إليه.

كان عناقه عنيفاً لكنها لم تتضايق. بل العكس: شدّته إليها وعندما هاجمته الرغبة من جديد طارحته الحبّ كأنها هي أيضاً انتظرت هذه اللحظة سنوات. قبل أن تطلع الشمس لبس ثيابه. كانت تساعد وتركض في أنحاء الغرفة وتعود. استعجلته عندما دخل إلى الحمام لأن النور ملأ الفراغات في المروحة والنافذة صارت بيضاء وإذا لم يصلا إلى «القاعدة» بسرعة تكون كارثة. ضحك وهو يركض معها، قافزاً بين عربات محطمة أو شبه محطمة، يبيع عليها رجال قصار القامة أطعمة مقلية وحلويات وأصنافاً عجيبة من الخضر والفاكهة والطيور. أراد أن يتوقف ويشتري شيئاً لكنها بدت مذعورة وهي تشدّه من قميصه فلم يتوقف. قضى الليلة خارج المستشفى ولم يتلقَ عقاباً لأن أمره لم ينكشف. وكرر ذلك في الليلة التالية لكن في

الثالثة اكتشفوا غيابه. واجهه الضابط المسؤول صباحاً. تلقى تأنيباً شديداً وتهديداً باعتباره فارًّا من الخدمة العسكرية وعُرضة للمحاكمة إذا خرج بلا إذن مرة أخرى. ضرب التحية وركل بصباطه الأرض وقبِل التأنيب. كان يترنح وسأله الضابط عن جروحه. ردّ أنه بخير ويستطيع الرجوع إلى القتال في أي لحظة. الضابط قال «في أميركا».

خرج ضاحك القلب. كان يعرف أن الحرب انتهت وأن الجيش الأميركي خرج من سيبيريا. في رحلته الليلية الثانية التقى جنوداً «مارينز» وأخبروه. اشتروا الساكي الفيليبيني الغريب الطعم وتبادلوا الأنخاب وضحكوا كالمجانين. صاحبته ـ الممرضة التي يناديها «تونا» ـ خافت وتراجعت إلى وراء. كانوا يضحكون بلا فرح، كأن الرياح المثلجة وعضّات الجليد قرضت الأرواح في أبدانهم. كأنهم بلا روح. رأت وجوههم المصنوعة من الخشب وشعرت بالخوف: في المستشفى لا تراهم هكذا!

أرسل بطاقة بريدية إلى ماري كتب عليها أن هذا الميناء يشبه جميع الموانىء التي رآها مذ خرج من الوطن قبل سنوات. كم سنة؟ قال إنه لم يعد يعرف كيف يحصي السنوات، وقال إن الميناء الوحيد المختلف موجود في فيرجينيا وهو الميناء الذي يطلبه الآن: منه خرج وإليه يطلب أن يعود. سأل رجلاً عن تاريخ اليوم وهذا دلّه إلى روزنامة معلقة. في ذلك العصر التقى الضابط المسؤول في الكافيتيريا يأكل البطاطا الفرنسية «البيريه» مع قطعة لحم ضخمة وصلصة صفراء اللون. سأله ما هي الأوراق التي عليه أن يملأها كي يتمكن من الزواج.

- 106 -

الحياة الغريبة لجندي سوري - أميركي (5)

ماري تلفنت لها وأخبرتها. مرتا تفاجأت وعندما وضعت السماعة وجدت نفسها تضحك. كانت مسرورة لأنه عائد: هي أيضاً ظنّت أنه لن يعود. الفرح استولى عليها فطلبت رقم شريكها في «بروكلين». وجوزف أسطفان ردّ عليها بصوتٍ يزقزق كالعصافير. سألها هل أخبرتها ماري؟ قالت: «أخبرتني». قال «انقطع ظهري يا مرتا لكنني الآن بخير». لا هو ولا إبنته كانا يعلمان أن الجندي لن يرجع وحده ولكن مع زوجة التقاها في جزر الفيليبين.

عندما أخبرها أنه يريد أن تذهب معه إلى أميركا أجابت «لن يسمحوا لي». قال «بالتأكيد يسمحون لكِ، ألستِ زوجتي؟».

- أنا زوجتك؟

ضحك من إنكليزيتها المحطمة ومن تعابير وجهها المدهوشة وأخرج الأوراق من جيبه وقال كل ما علينا الآن هو الذهاب إلى أي كنيسة هنا وانتهى الأمر. وإذا كنت لا تحبين الكنائس نتزوج بلا كاهن، لا يهمّ.

لم تفهم شيئاً حتى بعد أن شرح لها. صارت تبكي وسألته لماذا يفعل معها هذا. دام سوء الفهم وقتاً وعندما أدركت أخيراً أنه صادق وهذه رغبته بكت من جديد. منذ تلك الساعة في مانيلا - كان المطر يهطل ساخناً على الأشجار - وحتى وفاتها عن 93 عاماً في

ناشفيل ـ تنيسي Nashville - Tennessee بعد دهرٍ، أميركيةً ومحاطةً بالأبناء والأحفاد الأميركيين، لن يتضاءل حبّها لهذا الجندي الذي سيصير أستاذاً ويناديه تلامذته «ماستر ستيفن». حتى هي ستناديه بهذا الإسم: Steven، وعندما يتضاحكان في الفراش وتقول Master Steven يُقطب حاجبيه.

هو في المقابل كان يبكي كالصغار إذا مرضت. لم يكن يتحمل ـ هو الذي رأى كل ذلك القتل في سيبيريا ـ أن يراها متألمة. كان يصلّي أن يموت قبلها، عارفاً أن في صلاته أنانية لا تُحدّ. بعد ذلك صار يُصلّي أن يأخذهما الربّ في الساعة ذاتها: يمدّ يده ويخطف الروحين معاً.

أرسل إلى ماري بطاقة بريدية من ميناء ليفربول كتب عليها: «هذه البطاقة قد تصل إليكِ بعدي وفي هذه الحالة أتسلمها بنفسي من ساعي البريد». تردد قبل أن يخطّ جملة أخيرة ثم ملأ قلبه شجاعة وكتب:

ـ «لست وحدي»*.

كانت غامضة إلى حد لكنه وجدها كافية لتمهيد الطريق.

في الباخرة التي حملته وزوجته عبر المحيط الأطلسي استمعا إلى عازف بيانو عجوز يغني وهو يعزف. كان البيانو مثبتاً إلى أرضية الباخرة بالمسامير. الباخرة لم تكن عسكرية تماماً، مع أنها تعجّ بالجنود. وقف مع رفاقه عند الدرابزين يشرب بيرة ويدخن. كان العالم غريباً وسرياً وبلا جدوى. الثلج الأبيض حفر الظلام وامتد إلى

* Am not Alone.

نهاية العالم: من هناك جاؤوا، من أطراف الأرض، ولا أحد منهم يعرف كيف ظلّ على قيد الحياة. غادرهم مقفل العينين. كان يحبّ أن يغمض عينيه ويسير هكذا على ظهر الباخرة. عندما استقبلته في الفراش نصف نائمة وساخنة كالخبز لم يخبرها أنه خائف من أميركا ـ ومن لحظة اللقاء بعد هذه السنوات الطويلة ـ كما خاف قبل ذلك من سيبيريا.

أدرك في قرارة نفسه أن أحداً لن يقبل زواجه. لا الأب يقبل ولا الأم ولا الأخوات. كان حزيناً بسبب هذا، وهي لاحظت حزنه. سألته ماذا يفكر. كذب قائلاً إن جرح ساعده ما زال يحرقه. لم تصدق، لكنها سكتت.

عندما سمع الصوت ينادي عليه، في محطة السكك الحديد المحتشدة بالبشر، استدار مذعوراً. هجموا صوبه دفعة واحدة. كان الأب في المقدمة، واسع الخطوة، ضحكته تكبر حتى تغمر وجهه، وذراعاه ترتفعان أمامه، تطلبان الإبن العائد. مدّ يدّه لا إرادياً وأمسك بيد زوجته. كي يتحضر أكثر وضع كيسه الكبير على الأرض. توقع الأسوأ وانتظر. كانت رقبته عرقانة. وسمع نبضة قلبها.

عانقه الأب وبكى. وعانق الزوجة التي لا يعرفها وبكى أيضاً. هو نظر إلى جوزف أسطفان وشعر أنه في منام. كانوا يتحلقون حوله، أخواته وأمه، يلمسونه برؤوس الأصابع ويدفئون قلبه بالدموع. هكذا عاد إلى الوطن.

- 107 -
في فيلادلفيا

كم مهنة غيَّر في أميركا؟ من معمل الجلود في لونغ أيلاند إلى دكان الخضر والفواكه والمثلجات (البوظة) في فيلادلفيا، قطع الرجل طريقاً طويلة. هذه السنوات العشر بين الأميركيتين، وعلى حدود المكسيك حيث الشرطة تطارد ظلّها، كيف بدَّلته؟ ملَّ سريعاً ـ كالعادة ـ من الدكان الذي فتحه. كان يسرق نهاره كلّه ولا يترك له إلا ساعة ظهراً وأخرى عند المساء لرؤية الأرملة التي يحارب للفوز بها. كانا يتشاركان الطعام والأخبار مثل زوجين ومع هذا استمرت في الامتناع عنه. سألها إلى متى تلبس هذا المحبس في إصبعها؟ وحين نظرت إلى يدها ثم إلى الأرض قال إنه يريد أن يتزوجها ويكون معها.

ابتسمت وقالت مداعبة: «أنت لست مسيحياً»! قال «هذا سهل، أدخل إلى الكنيسة وأطلب من الخوري أن يعملني مسيحياً، هل هذه المشكلة؟» هزّت رأسها أن لا وبدت حزينة إلى حد الموت. وهو شعر أن قلبه يُنتزع من بين أضلاعه ويُضرب بالأرض ويُداس بينما وجهها يحزن هكذا وهي تتذكر زوجاً ميتاً.

كانت تلبس ثوباً أزرق، وعظام كتفيها ظاهرة، وكذلك استدارة اللحم. وعلى هذا النحو ـ ساكتة وكئيبة وأجمل من رؤيا ـ ظلّت تسكن خياله في الأيام التالية وهو قاعد في دكانه كالتمثال ممتنعاً عن زيارتها.

كانت معدته تتمزق ويعجز عن ابتلاع طعامه. زبائن يدخلون، يلتقط الأكياس الورق ويضع فيها ما يطلبون. يأخذ منهم السنتات ويهزّ رأسه. ثانك يو. يو أر ويلكام. كوم أغين. Thank You. مرة تلو أخرى. كيساً بعد كيس. You are Welcome. والبوظة يجرفها بالملعقة المخصصة لها ويملأ الكوب الورقي، أو القرن البسكويت، شارداً. Come Again. ثم يخرجون. ومن جديد يتحول إلى تمثال ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه. الترامواي مرّ كالسلحفاة وهو تذكر بوينس أيرس: لماذا لا يذهب إلى هناك؟ عبرت سيدة تحمل مظلة مطوية وتذكر بورتلاند (كاليفورنيا): لماذا لا يذهب إلى هناك؟ أولاد تراكضوا عائدين من المدرسة (هل مرَّ النهار؟) وهو تذكر أمكنة بعيدة. عندما رأى ولدين أخوين يركضان معاً ويقفزان إلى الترامواي المتحرك، أخذه الحنين إلى الجانب الآخر من الكوكب.

لكن الخيط الخفي ظلّ يربطه بشارع «البارك»، حيث المرأة في ثوبها الأزرق. كان يتخيلها خارجة من المتجر داخلة إلى المعمل، وخارجة من المعمل آتية إلى المتجر، واسعة الخطوة، والشمس ساطعة، كما رآها في تلك المرة، عندما تعرَّق في ثيابه وهو ينتظرها.

كان الخيط يعطيه الحياة ويقتله في اللحظة نفسها. مثل المصران في بطنه: بينما يبلع قطعة تفاح، ثم يضع السكين على الصندوق، أحسّ أن الألم لا يُحتمل. هذا كلّه كان غريباً عنه ـ هل نسي الوقت الذي قضاه مسمماً بالكحول في أوكلاهوما؟ ـ وغير مفهوم ولم يتخيل حدوثه يوماً: أن تفتك به إمرأة! ومن دون أن تفعل شيئاً!

انتظرها يوماً بعد يوم وحياته معلقة على هذا الخيط. ولم تأتِ. كان النهار يطول إلى ما لا نهاية، كأنه دهر، كأنه ليس 12 ساعة! وفي الليل يتقلب على الفراش في مؤخرة الدكان، وإذا نام

يراها. لكنها دائماً كئيبة، ولا تضحك، ولا تطلبه. عندما استولى عليه اليأس حمل نفسه وذهب إليها. كان محطماً. دخل المتجر وأخبرته إحدى المساعِدات أنها ذهبت هذا الصباح إلى بروكلين ولن ترجع قبل الغد. قالت شيئاً عن جندي عائد من حرب لكنه لم يهتم وخرج أسود الوجه ومضى في خطٍ مستقيم إلى دكانه. أراد أن يأخذ أغراضه ويذهب إلى أي مكان غير هذه المدينة، لكنه بينما يجمع بعض الثياب في كيس أدرك أنه لا يقدر. جلس وانتظر.

صباح اليوم التالي حلق ذقنه. لبس بذلته وتسلّم البضاعة من «الموزع» ورتب الخضر والفواكه على الرفوف. لم يملأ براد البوظة منذ أيام: الأولاد إذا ضجوا في المكان أزعجوه. كان يحيا على حافة أعصابه ويشعر أنه بلا أمل. لكنه مع هذا انتظرها في ذلك الصباح وأحسّ أنها آتية. «المساعِدة» ستخبرها أنه أتى وسأل عنها. وهي ستأتي. حلَّت الظهيرة ولم يظهر ظلّها. غربت الشمس ولم تأتِ. عند المساء ذهب إليها وبطنه تلتصق بظهره. هل تقوّست قامته، هل التوى عموده الفقري وهو ينتظرها؟

من بعيد، وقبل أن يبلغ المتجر، حدس أنها في الداخل. هل يثق بهذا الحدس الذي يغدره مرة تلو أخرى؟ كان يتحرك بلا إرادة، مثل ميتٍ خرج من قبره، وعندما بلغ الباب ورآها واقفة وراء المنضدة، وحدها، ترفع عينيها وتراه آتياً من المساء البرتقالي - الكحلي، شعر أنه لن يطلب إلا هذا: رؤيتها!

رآها تتحرك، تدور من وراء المنضدة، وتدنو كأنها تسبح على غيمة غير مرئية. عانقته وشدّته إليها وللمرة الأولى في حياته شعر أنه محبوب كما يريد أن يُحبّ. كان ذلك خيالياً وغير مؤكد وعندما قالت له دامعة العين «انظرْ» وفتحت أمامه يدها رأى أنها نزعت المحبس.

- 108 -

مرّت الأيام وحلّ الموعد الذي علّمته على الروزنامة. في «السيتي هول» طلب منهما رجلٌ خفيف الحركة كبائع جوّال أن يحلفا، كلٌّ على حدة، أن لا مانع قانونياً يحول دون هذا الزواج. (على الطاولة استقر «الكتاب المقدس». كان سميكاً، ثقيل الوزن، مجلَّداً بالأسود، وفي مركزه نُقِرَ صليبٌ ذهبٌ أصغر من راحة اليد). بعد ذلك قال الرجل المخوّل بحسب قوانين الولاية تحرير عقد الزواج: «أنا سعيد من أجلكما». وهكذا خرجا إلى الشارع، زوجين، في السراء والضراء.

علَّمها شرب المتّة، بدل القهوة، في الصباح الباكر. وعلّمته أن يحبّ البقاء في مكانٍ واحد. كانت تستيقظ أحياناً قبيل الفجر. في النور الواهن المتسرب من مصابيح الشارع، تتأمل نومه العميق وشعره الأسود. هل تتساءل كيف حدث هذا، كيف صارت زوجة مرة أخرى، من أين خرج لها هذا الرجل، وماذا سيحدث لهما؟ كان الخوف يتسلل إلى قلبها فتصلّي.

رُزقا طفلاً ذكراً عند الساعة السادسة مساء في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) 1922. كانت المدينة بيضاء، يغطيها الثلج، ومن مداخنها ترتفع الأعمدة الرمادية. في الغرفة الدافئة، نظرت زوجة جوزف أسطفان إلى الأب الجديد يلف سيجارة تبغ سعيداً، وسألته

ماذا سيسمّي إبنه؟ هو نظر إلى زوجته العرقانة في السرير الأبيض الكبير وقال:

ـ الأم تُسمّي.

وهكذا سمّت مرتا إبنها: «جاك». سمعته يزعق زعقاته الأولى على هذه الأرض. حملته على ذراعيها. سكت. شعرت بهشاشته اللانهائية. الدموع غسلت وجهها وهي تصلّي «أبانا الذي في السموات». كانت أسعد لحظة في حياتها.

الجزء الرابع

- 109 -
السنوات الطيبة

هكذا دخلت السنوات الذهبية. العشرينات المباركة للقرن العشرين. اتسعت الأشغال وكذلك العائلة. انضم إلى جاك على التوالي مارغريت (1924) وجيني (1926) وجميل (1927). البيت الجديد في «كامدن ستريت» الذي يعجّ بمتاجر الحلويات، ملأته أصوات الأولاد السعيدة. الأربعة كبروا وهم يركضون بين المدرسة والبيت و«البارك». كان أسعد أيامهم عندما تقبل أمهم وتأخذهم نهار الأحد ـ بعد القدّاس ـ إلى المعمل، كي يتفرجوا على ماكينات الخياطة. جاك «العفريت» كان يهجم على قارورة زيت التنظيف؛ باكراً تعلّم كيف يُزيت دولاب «السنجر» و«قشاطها». انطبعت تلك السنوات في ذاكرتهم مثل حقبة خيالية تسبق الدخول إلى العالم الحقيقي: العشرينات (منذ الذكريات الأولى وحتى 1929 ـ 1931) كانت «الجنّة» بالنسبة إليهم، الفردوس المفقود الذي يعجز أحدهم عن استعادته، لكنه يحصل على فردوس موازٍ له بينما يقعد أمام الأم ويسمع قصصها. حتى زوجها كان يجلس ويصغي إلى القصص المكررة إذا تكلمت. (سألت نفسك وأنت تقرأ الأسماء في نهاية «كتاب الحكمة»: ماذا حصل لهذا الرجل الذي يُدعى علي؟ أين ضاعت أخباره؟). الأولاد طالبوها خصوصاً بحكايات الطريق وجزدان الحرير، عندما كانت تتجول في أنحاء أميركا، وحدها، مشياً أو في القطار.

كلّهم (الأربعة) تفتّح وعيهم وهم يسمعون أزيز ماكينات الخياطة. جاك رضع حليب أمه في المعمل. وكذلك مارغريت. وكذلك جيني. ازدهرت منتوجات المعمل حتى جاوز الطلب عليها حدود الممكن. الزوجان اتفقا على التوسع: أولاً تمدد المعمل حتى احتل طبقات المبنى جميعاً؛ بعد ذلك استأجرا مبنى آخر وابتاعا آلات جديدة، أسرع، وأكثر تطوراً. كانت مرتا تهدهد السرير الصغير (سرير من الخشب الأبيض) بيد وتنقل التصاميم من الكتالوج إلى الورق الشفاف باليد الأخرى. قبل العيد الأول لجاك انصرفت إلى حياكة كنزات صوفية له بالصنارة: كان هذا يأخذ وقتاً ثميناً منها، فسهرت أكثر من ليلة حتى وقت متأخر. تعبت وارتفعت حرارتها. عالجت نفسها بالمشروبات الساخنة. زوجها ابتاع مكسرات وفواكه مجففة وصار يطاردها بهذه حتى أنهكها. عندما هدّدها أن يفك ما تنسجه من الكنزة إذا ظلت تسهر إلى نصف الليل ضحكت حتى بكت. جوزف أسطفان كان يأتي كي يزورها في الأعياد، هو وزوجته وإحدى بناته. كان ينظر إليها في بيتها الجديد، ونظرة زوجها تلاحقها أينما ذهبت، فيشعر بحزنٍ حلو. وفي القطار العائد إلى بروكلين ـ كل مرة ـ يقول لزوجته إنه سعيد من أجل مرتا، طالما تمنى لها هذه الحياة الطيبة.

باتت حياتها تماماً كما قال الرجل: طيبة! غمرها سلامٌ لا نهائي. وبينما تُرسل البضائع بالقطار إلى مدن أميركا وتخطط لفتح متجر يعرض منتوجات المعمل في هنري ستريت (بروكلين) إنتابها الشعور أن هذا كلّه يحدث لسبب. لم يكن شعوراً بمقدار ما كان صلاة: كانت تشعر أن الربّ يُغدق عليها حبّه بلا حساب. في هذه الأثناء باتت ثرية وقادرة على التبرع بمال كافٍ لبناء كنيسة صغيرة. كان زوجها يتحرك في ظلّها ولا يضايقه ذلك إطلاقاً. بينما يتكلم عنها أمام آخرين يبدو فخوراً بها كأنها ليست زوجته، كأنها إبنة له!

الذين عرفوه قبل الزواج قالوا إن شيئاً فيه قد تغيّر. لم يكن ذلك دقيقاً. كانوا يحكمون على مظاهر سطحية، منها أنه كفّ عن السفر والجولان والمغامرة. في مطلع 1927، ومرتا حبلى بجميل (آخر العنقود)، جاء كشّاش يدعى يوسف الحايك من دير القمر وقال إنه يعرف آل جابر في كفرنبرخ وسأل هل يريد أن يأخذ لهم رسالة. كان عائداً إلى الوطن بعد سفر دام تسع سنوات. في هذه السنوات الطويلة لم يخلع الشروال ولا الطربوش! كان أغرب كشّاش سوري في أميركا! أتى مباشرة بعد «الهدنة» التي فتحت البحار، أتى في وقت الخطر والألغام (نيويورك تايمز نشرت خبراً في مطلع 1919 عن غواصات ألمانية تعمل في المحيط الهندي وتطلق توربيدات على سفن أميركية غير عارفة أن الحرب انتهت! غواصات أخرى اختفت عقدين من الزمن في الدائرة القطبية وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية ظهرت من جديد صدئة وشبه معطلة في بحر الشمال يقودها بحارة إبيضَّ شعرهم وتخّت عظامهم في سنوات الاختباء).

يوسف الحايك رجع إلى جبل لبنان بزنار مملوء ذهباً. أقاربه قالوا إنه كان ما زال لابساً الشروال القديم نفسه. في كيس جنفيص حمل مثل ساعي البريد عدداً هائلاً من الرسائل والهدايا (بينها «كروزات» متّة). عن طريقه اكتشف محمد جابر مكان أخيه المنقطعة أخباره في المهجر من قبل نشوب «حرب الأربعتعش». كان يملك عنوانه البريدي الآن وكتب له ردًّا على الرسالة. بعد شهور قليلة ودّع زوجته وطفله (شاهين) وركب البحر كي يزور أخاه: لم يودّع الأب، بشير جابر. كان خائفاً أن يمنعه! ترك المهمة الصعبة لزوجته («ستّي أم شاهين»). قصته مكانها ليس هنا. يكفي أن نقول إنه بلغ أميركا والتقى أخاه وصُدم عندما اكتشف أنه متزوج وعنده عائلة. استمع إلى حكاياته وشرب معه متَّة. لكنه لم يتصادق مع مرتا.

- 110 -

فراق

أثناء غياب محمد جابر في المهجر أملى أبوه الوصية التي تحتل الفصل 2 من هذا الكتاب. لماذا تدهورت صحة بشير جابر في تلك الفترة؟ كان في الحقل في الوادي يسقي الأشجار. اعترضت طريق المجرفة بعض الجذور المشتبكة بالأرض. كان يخبطها بجنب المجرفة، ويستخدم قوة كافية لحفر قناة جديدة للمياه، فانكسرت العصا بين يديه. عند رجوعه إلى «الدار» قال لزوجة إبنه: «صدري مكبوس». كان قليل الشكوى، وهي فرشت له. نام الليل ولم ينهض في الصباح.

عند رجوع إبنه (محمد جابر) من المهجر، كان الأب يستقر تحت التراب، عند شجرة الجوز، حيث دفنته «ستّي أم شاهين». زوجها، جدي أبو شاهين، أعلمها أنها أخطأت لأن جذور شجرة الجوز قد تُحرك القبر!

كان يشرب المتّة (اكتسب العادة سريعاً، لاحقاً انقطعت الرسائل مع الأخ الغائب في أميركا. أما «عادة المتّة» فتمسكت به ثم بأقاربه وجيرانه)، قاعداً على المصطبة تحت تعريشة العنب، وهو يلاعب إبنه البكر شاهين. بعد وقتٍ قصير التحق بالجندرمة؛ سلاح الدرك الجديد (البوليس) الذي أنشأه الفرنسيون في ذلك العهد (الانتداب الفرنسي على لبنان بدأ بانتهاء الحرب الكبرى. لزم الأمر

حرباً عالمية ثانية كي يخرجوا من بلاد الشام).

من الجندرمة انتقل محمد جابر إلى الجيش، فرقة الخيالة. كان مولعاً بالأحصنة. اشترك في حرب 1948 ونال وساماً. في 1950 تقاعد وصار على المعاش. يقبض راتبه من ثكنة بيت الدين نهاية كل شهر. يسدد لصاحب الدكان حسابه (يشتري بالدين أثناء انتظار المعاش). ويحيا حياة معقولة. في تلك الفترة كانت أخبار أخيه انقطعت تماماً. بعد الزيارة اليتيمة إلى أميركا في 1927 ـ 1928 لم يلتقيا.

اعتنى بحقول أبيه ـ خصوصاً جلول الزيتون في «عين علي». كانت هذه زيتونات العائلة، يتوارثها الذكور جيلاً بعد جيل. حبّاتها كبيرة الحجم، رقيقة القشرة، كثيرة الزيت. ما زالت موجودة إلى هذا اليوم. طريقها صعبة (قَدَم) لأنها بعيدة عن «الطريق العام»، وفي بعض الأماكن يغزوها الشوك والقصب والشجر البرّي. لكنها سالكة. بعض الجلول أخضر الحيطان بسبب الخزّ (الطحلب). المنطقة شديدة الرطوبة، باردة، والمياه التي تنبع من التلة التي تعطي المكان إسمه (عين علي) صافية، تتمتع بطعم صخري فريد، وأثناء فصل الشتاء تتجمد. كان علي الأكبر بين الإثنين لكنه لم يرجع.

ذلك الفراق القديم تكرر في عائلات كثيرة. تقارير القناصل لا تدخل إلى بيوت العقد في جبل لبنان ولا تخبرنا الكثير عما حدث فيها. في بيت العقد، حيث عاش جدي حتى موته، الحيطان سميكة: كل حائط بسمك متر ونصف المتر! هذه الهندسة القديمة لم تعد شائعة. في الحرب الأهلية (1975 ـ 1990) استُخدمت هذه البيوت ملاجىء للحماية من قصف المدافع. الحائط إلى يمينك فيه حفرة مستطيلة توضع فيها «عدّة المتّة» وتُغطى بستارة بيضاء. على الستارة

تطريز بالأزرق. هذا «شغل» من؟ لا أعرف. لكن «ستّي» كانت تكره الخيط والإبرة. الباب الخشب الذي يقودك إلى الغرفة الداخلية، حيث الأسرة الحديد، يطقطق عندما تفتحه، ومسكته الحديد باردة صيفاً شتاء. في نهاية هذه الغرفة باب آخر: هذا زجاج وحديد (من قبل كان خشباً) ويرتفع عن الأرض نصف متر تقريباً، ومنه تخرج إلى المصطبة (إذا كنت طفلاً عليك أن تكافح كي تتسلق هذه العتبة).

هنا شجرة التين القديمة، بعض فروعها مُطعَّم منذ 1972 وثمره أسود وليس أبيض. هذه الحبّات الحمراء تنمو حتى تصير أكبر من تفاحة، والأحفاد يتصارعون عليها. على جذع الشجرة طُرِقت ألواح خشب تتسلق الفضاء حتى سطح البيت: الجذع سلم أيضاً. لكنه خطر. عليك أن تحاذر لئلا تقع وتدق رقبتك على باطون المصطبة (مرات يختفي الباطون تحت الأوراق الكبيرة اليابسة والثمار المتساقطة، لكنه موجود؛ ما عليك إلا استعمال المكنسة، وتتأكد). كنّا نسمّيها «المصطبة الورّانية» و«الخِربة». آثار الحائط القديم المتداعي باقية. كان يوجد بيت هنا، بيت آخر، لكنه تخرّب.

الوسام المحفوظ إسمه «ميدالية فلسطين التذكارية» (مرسوم رقم 13294) ومُنح من قبل المقدم خليل ضاهر قائد لفيف المقر العام للرقيب محمد جابر رقم 681 من لفيف المقر العام. بموجب القرار رقم 44 بتاريخ 30 آذار (مارس) 1949. مرفقة بالوسام «شهادة حسن سلوك» من المقدم كسبار تُفيد أن الرقيب محمد بشير جابر الرقم 681 من بلدة كفرنبرخ قضاء الشوف محافظة جبل لبنان «قد قام بتأدية خدماته العسكرية بأمانة وإخلاص وكان حسن السلوك طيلة المدة التي قضاها في الجيش». ماتوا وتبددوا.

الدوقة تقلا ـ ابنة دير القمر التي سيطرت على حي كامل في

بوينس أيرس وكان يرهبها الساسة واللصوص معاً ـ هل يتذكرها أحد الآن؟ ورثت عن أبيها ملحم صعب ثروة صغيرة. يتيمة ووحيدة ومطاردة بالنميمة والحسد استطاعت أن تضاعف ثروتها عشرات المرات. هذه ليست مبالغة: مرّر لها جنرال معلومة ثمينة في الوقت المناسب فاشترت عقارات في أطراف العاصمة. سكة الحديد مُدَّت هناك والعقارات صار ترابها ذهباً. الأب كان طموحاً من قبلها: استورد البرغل الشامي (القمح نصف المطبوخ والمجروش بالطاحونة) للسوريين في أميركا الجنوبية. امتلك نزلاً صغيراً أيضاً، يؤوي الكشّاشين والمهاجرين الواصلين حديثاً من البلاد البعيدة. مات بالسلّ وإبنته «الدوقة» (جريدة «لسان الحال» البيروتية أوردت في أحد أعداد سنة 1920 أنها حصلت على اللقب من إمبراطور النمسا. ولعل ذلك صحيح) ماتت بالسلّ أيضاً، بعده بعشرين سنة تماماً، وفي البيت نفسه: لم تتخلَ عن بيت أبيها، ولا عن الفرش القديم، حتى بعد أن بلغت من الثراء حدًّا جعلها تمتلك مقطورة خاصة، مبطنة بالخشب والمخمل والذهب، تُربط إلى قاطرة، وتمضي هكذا، ملوكية ومثيرة للأقاويل، عبر السهول الأرجنتينية.

- 111 -
الحظ

مثل الدوقة تقلا جنت «مرتا الملكة» أرباحاً طائلة من تجارة الأراضي. كان حظها يبتسم. بولس عزيز انتقل من تجارة الفرو مع الهنود الحمر في منطقة البحيرات الكبرى إلى مهنة السمسرة وشراء الأراضي وبيعها. نجاحاته الأولى كانت في الشمال الشرقي، في ماساتشوستس ثم في منطقة شلالات نياجارا على الحدود الكندية. نشر إعلانات في جرايد بوسطن العربية، وفي جرايد نيويورك، ولعب دوراً مهماً في حفظ ثروات سورية ـ أميركية: عندما حلّ الثلاثاء الأسود، في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1929، وانهارت «وول ستريت» وبدأت إفلاسات البنوك، نجا كثير من هؤلاء المهاجرين* الذين جمعوا ثرواتهم سنتاً على سنت. بين الذين نجوا مرتا وزوجها وعائلتها المكونة من أربعة أولاد.

المعمل سيُفلس، هذا صحيح، وجزء كبير من أموالها سيضيع. لكن، في المقابل، بقيت العقارات: هذه أنقذت العائلة. نصل إلى ذلك بعد قليل، لكن أولاً أريد أن أذكر شيئاً عن عطلة الميلاد 1928.

تلقوا دعوة إلى عرس في نيويورك ولم يلبوا الدعوة: البنت

---

* السوري يفضل الأرض على الحساب البنكي.

الصغرى لشريكها السابق جوزف أسطفان تزوجت في ذلك الشتاء، لكن مرتا لم تحضر المناسبة. كان زوجها معتل الصحة، يسعل ليل نهار، ونصحه الطبيب أن يذهب جنوباً أو إلى الساحل الغربي. وهكذا، وبدل الذهاب إلى حفل في بروكلين، ذهبت العائلة كلّها إلى «أوتيل ماريلاند» في باسادينا ـ كاليفورنيا. سافروا لابسين الصوف والمعاطف وعندما بلغوا باسادينا كانوا يتصببون عرقاً، كأنهم عبروا فصل الشتاء إلى فصل الصيف في لحظة. بدّلوا ثيابهم ومشوا على الطريق وتفرجوا على مهرجان الزهور.

كانت الطيور تملأ الأشجار والببغاوات الملونة تتقافز في الأقفاص والأولاد يتراكضون بالنصف كم وبالبناطيل القصيرة بينما الثلج يندف على نيويورك. هنا، في الطبقة الثانية من «أوتيل ماريلاند»، قررا الانتقال من فيلادلفيا إلى كاليفورنيا. كانت خطة طموحة، صعبة التنفيذ (ماذا يفعلان بالمصنع؟ كيف ينقلان العمل والتجارة عبر البلاد، من شرق أميركا إلى غربها هكذا؟). لكن التحسن الذي طرأ على صحة زوجها تحت شمس كاليفورنيا، أغرى مرتا بالحماسة: انكبّت على دفاترها، تجمع وتطرح وتحسب، بينما الصغار يلعبون في الخارج، وزوجها يركب سيارة الهادسون الجديدة (باعوا الفورد بـ 500 دولار واشتروا هذه بثلاثة آلاف) ويطير على الطريق الساحلي مسابقاً قطار «سانتا في» وناظراً إلى حقول الشمندر السكري. كان يصطحب إبنه جاك أحياناً ويتوقفان في إحدى المزارع (بيت ضخم أبيض يتوسط الحقل الشاسع، بسكة حديد خاصة تصل إلى قلب الحقل لنقل حمولة الشمندر؛ إلى هذا الحد كان الملاكون أثرياء في هذه الولاية!). ينزلان من السيارة الطويلة ويمشيان وسط الخضرة. المياه تجري في السهل والأب يشير إلى النبات ويتكلم.

جاك يقفز سعيداً والطيور تعبر السماء والهواء يهزّ الورق. في إحدى رحلاتهما دخلا لوس أنجليس وجلبا علبة بوظة كبيرة (نصف غالون) وأكلاها معاً في السيارة، على طريق العودة إلى «أوتيل ماريلاند». كانت بوظة باللبن، نكهتها كرز وحامض، وبينما يلتهمانها قبل أن تذوب، أخبر إبنه عن زمنٍ قديم في بلاد بعيدة. هكذا أتخيل حياته. ولكن من يعرف كيف عاش حقاً؟

مرتا غنّت للطفل كي ينام وهي تنظر إلى مارغريت وجيني تنعسان على السرير وتلهوان بالدمى المحشوة صوفاً. كانت تخبرهما قصصاً من كتاب مملوء رسوماً. لكنهما هربتا إلى الدمى وبعثرتا الثياب الصغيرة على السرير والسجادة. جاك يحفظ القصص في هذا الكتاب عن ظهر قلب. مرتا أيضاً حفظتها: بينما إبنها يكبر تعلمت معه في كتبه. بعد سنوات، بينما القاضي يوجه إليها أسئلة من التاريخ الأميركي قبل أن يعطيها الجنسية الأميركية، كادت أن تضحك: هذه دروس إبنها جاك!

كان المساء يأتي على مهل والنوافذ تعتم في الفندق والمصابيح تضاء حول البركة. الفتاة الإيطالية التي تساعدها (لورا) تحركت على رؤوس أصابعها وهي تدور حول السرير وتحمل مارغريت ثم جيني إلى الغرفة المجاورة. جميل فتح عينيه الواسعتين في سريره الأبيض الصغير ونظر إلى أمه. انحنت ورفعته وحملته إلى النافذة. أبعدت الستارة ونظرت إلى نزلاء الفندق بثيابهم الخفيفة، يتحلقون حول البركة المستطيلة ويشربون المرطبات. كان هذا كلّه مسحوراً! والسماء تظلم، والليل يهبط، والمصابيح تهتز، وكذلك الظلال. سمعت ضجة جاك في الرواق قبل أن ينفتح الباب. كان عالي الضحكة. شعرت بالسرور. على ذراعيها خلد الطفل إلى النوم من جديد.

- 112 -
الحظ (2)

لكنها أمطرت تلك الليلة. الرعود أيقظتهما بعد نصف الليل. جلست مرتا في الفراش وأضاءت المصباح على الكومودينة فرأت زوجها واقفاً إلى النافذة يتأمل البرق يسطع فوق سلسلة التلال. كانت السماء حالكة السواد والبرق مثل الشجر الأزرق المتفرع. امتلأ الوادي كلّه بالضوء وبانت قناطر «جسر كولورادو» مثل وحشٍ خرافي غارق في النوم لا توقظه عاصفة. دوى الرعد مرة أخرى وزعق الطفل خارجاً من النوم. حملته وهدهدته حتى نام. في هذه الأثناء طلب زوجها خدمة الفندق على التلفون فصعد إليه فتى أسود يحمل إبريق المياه الساخنة. جلب شاياً أيضاً وسكراً. ضحكت مرتا وهي تراه يتلعثم ويخرج غير عارف لماذا طلب الرجل المياه الساخنة وحدها، بلا شاي ولا حليب ولا قهوة ولا كاكاو. تساقط المطر غزيراً على زجاج النافذة وهي تنظر إليه يلبس الكلسات في قدميه لئلا يبرد ثم يُخرج القرعة من حقيبته ويملأها متّة. كانت الساعة تقارب الثانية فجراً. عانقته ونامت مستندة إليه.

ذهب عنه السعال أثناء تلك العطلة. بينما يغني ترانيم الميلاد مع الأولاد في بهو الفندق المزين بالأضواء والأشجار، استرد صحته. عند رجوع العائلة إلى فيلادلفيا وجدوا الثلوج تغمر المدينة. كان هذا حسناً أيضاً ولم تتراجع صحته. بدا أنها سحابة عابرة، ولعلها كانت كذلك.

لم يتمكنوا من الانتقال إلى باسادينا في تلك الفترة. وأخذت وتيرة العمل تفرض نفسها من جديد. غرقا في الشغل، بين المصنع والمتجر، وعندما وصلت رسالة أخرى من إبن خال مرتا (من بتاتر) تسألها هل يوجد عمل في أميركا اشترت له تذكرة أخرى ـ للمرة التي لا تعرف رقمها ـ وأرسلت في طلبه. كانت بحاجة إلى شخص يساعد، ويكون من العائلة. وفي هذه المرة أيضاً لم يأت. لكنه بعث رسالة وقال إن خالها «تعبان» وهذا ما يمنعه الآن من السفر. قرأت الرسالة وفكرت أن بتاتر صارت بعيدة، وخالها أيضاً! كان هذا غريباً بالنسبة إليها، لكنه حقيقي. كأن العائلة من حولها ـ زوجها وأولادها ـ أبعدتها عن بتاتر (والماضي) أكثر مما أبعدها المحيط.

في ربيع 1929 اشترت عبر وسيطها (بولس عزيز) أرضاً في باسادينا، مزروعة برتقالاً. دفعت عمولة لبولس ولشخصٍ ثانٍ أيضاً ولم يزعجها ذلك. كانت ربحت قبل أسابيع فقط ثلاثة أضعاف المبلغ الذي دفعته مقابل قطعة أرض في لارامي ـ ويومنغ. أغرب ما في الأمر أنها اشترت العقار على الخريطة وباعته على الخريطة من دون أن تذهب وترى الأرض في الولاية البعيدة!

الأزمة المالية التي بدأت بالإنهيار المفاجىء في «وول ستريت» سهّلت عليها الإنتقال إلى باسادينا. كانت ضربة تقصم الظهر: بين ليلة وضحاها أفلس المصرف وفقدت مدخراتها. ثروة كاملة تلاشت هكذا، من دون أن تشتري أو تبيع. وقفت مع المودعين في الصفوف الطويلة، وزوجها جنبها. البوليس وقفوا في باب المصرف المقفل. كان ذلك بلا ضرورة. لم يرمِ أحد حجارة على المصرف. الناس داروا دائخين حول الأبواب المقفلة ثم تبعثروا تحت المطر الحزين. في جميع مدن أميركا تكرر مشهد واحد في شتاء 1929 ـ 1930.

مصارف تعلن إفلاسها ومودعون ـ خسروا مدخراتهم ـ يقفون في صفوف طويلة عبثية. ماذا ينتظرون؟ بعضهم أحرق براميل الزبالة.

الرئيس Hoover تكلّم في الراديو وبشَّر المواطنين أن الأزمة لن تطول. لم يكن يعلم ـ وكيف يعلم ـ أن الكساد بدأ للتو وأن الإنهيار الاقتصادي طويل. دام الكساد حتى كبر جاك ودخل الجامعة. لم تتحرك عجلة الاقتصاد الأميركي ـ والعالمي ـ مجدداً إلا مع بدء الإستعدادات للحرب العالمية الثانية! سباق التسلح ملأ المصانع عمالاً من جديد!

لكن قبل ذلك، قبل أن يكبر جاك ويدخل الجامعة، غادرت العائلة فيلادلفيا. تعطل المصنع من دون رواتب للعاملات والعاملين. وتراجعت مبيعات المتجر عندما توقف الطلب. اختفت السيولة وعمّ الخوف. في الشوارع انتشر المتشردون والعاطلون عن العمل. بين ليلة وضحاها ظهرت مجمعات سكنية مبنية من الكرتون والصناديق! الجمعيات الخيرية فتحت مطابخ تُوزع حساء الدجاج. بدأ الجوع.

مرتا بكت وهي توضب الثياب في الحقائب. ثم كفكفت دموعها وشكرت ربّها لأنها ـ قبل وقوع الكارثة ـ اشترت العقار في باسادينا. اعتبرت نفسها محظوظة.

- 113 -

مزرعة في باسادينا

كان بيتاً خشباً مربعاً يتوسط بساتين البرتقال. انتقلت العائلة نهائياً إلى هنا أثناء ربيع 1931. رويداً رويداً تراجع «كامدن ستريت» في ذاكرة الأولاد حتى امتزج بالرسوم الملونة في «كتاب القصص الخيالية». لم يكن جاك بلغ العاشرة بعد. وجميل إبن الأعوام الأربعة كان ما زال يحيا على أكواب الحليب. خافوا عليه من فقر الدم. وتباروا على إطعامه اللحم، بلا جدوى. كان يلوك القطعة المخفية تحت طبقة الزيتون ثم يبصقها. مارغريت وحدها كانت تفلح في دفعه إلى أكل البيض المخفوق: تطعمه البيض لقمة لقمة وهي ترقص حوله وتغني وتلاعبه. تحت أشجار البرتقال كبرت بسرعة، كأن شمس كاليفورنيا ناسبتها أكثر. جيني في المقابل استولت عليها الحساسية: قضت الربيع تعطس. احمرت عيناها وظهر طفح جلدي على ذراعيها. في الربيع التالي تكرّر الأمر. ثم اعتادت ذلك ولم تعد تهتم. الأب أيضاً تأقلم مع المكان الجديد. ولعله عاش عندئذٍ أجمل أيام حياته.

بنى قنًّا كبيراً للدجاج، وعلى مسافة من البيت أقام حظيرة للبقر. كانت مرتا تحسب المشتريات على الدفتر وتنظر إليه. يُبادلها النظرة فتشعر أنها بخير. الجرايد امتلأت بأخبارٍ فظيعة. في ضواحي المدن الكبرى عائلات كاملة صارت على الطريق. بعد وقتٍ غير

طويل ظهر المتشردون في شوارع باسادينا. مرتا كانت عائدة من السوق ورأت رجلاً يدفع عربة أمامه وفي العربة ثلاثة أولاد: كانوا كأكياس مملوءة عظماً وعيونهم غائرة في المحاجر.

سمعت عن مناطق تُتلف فيها محاصيل البطاطا والذرة والحبوب لأن أحداً لا يأتي ويشتريها. كان هذا مرعباً: أن تقرأ عن ناس يتضورون جوعاً بينما أصحاب الحقول يتلفون مزروعاتهم! لم تفهم ماذا يحدث. أغرقت نفسها في دروس الأولاد. مدارس باسادينا تعطلت في تلك الفترة ـ كانت مديونة للمصارف! ـ ومرتا أخذت على عاتقها تعليم الأولاد الحساب والتاريخ والجغرافيا والإنكليزية والعلوم. كان ذلك صعباً لكنه أفادها. من دون ذلك هل كانت تنجو؟ ساعدتها أيضاً أشغال المزرعة. وهي ترشّ ذرة للدجاج وتُعلّم جاك كيف يبسط يده فلا تقع الحبوب في نقطة واحدة بل تنتشر على مساحة واسعة وتصل إلى الدجاجات جميعاً، تذكرت شخصاً كان هي قبل زمنٍ بعيدٍ. تذكرت مرتا القديمة لكنها لم تستسلم لها. كانت أخرى الآن، ووجدت في هذه المعرفة قوّة.

عندما أثقلت الثمار الأشجار استأجرا عمالاً من الجوار وآخرين قدموا من أماكن بعيدة. أميركا كلّها كانت على الطرقات في تلك الحقبة: أرتال من البشر تسعى غرباً، إلى حيث المزارع والحقول. يعملون بسنتات قليلة، وأحياناً من دون مقابل، ويكتفون بإحسان الملاكين: بعض البطاطا أو الفواكه لسد الرمق وإبعاد الجوع.

مارغريت كانت تبكي عندما ترى الأولاد يتصارعون على برتقالة وقعت من صندوق وتدحرجت على الطريق. أبوها حملها وأدخلها إلى البيت وأعطاها صنّارة أمها. هكذا بدأت تخيط.

وسرعان ما برعت في التطريز. كانت تشبه أمها في بعض طباعها. جيني لم تكن تشبه أحداً في العائلة: كأنها وُلدت هنا خطأ! كانت سريعة الغضب، كثيرة الصياح، تتقاتل مع ظلّها. في المرة الأولى التي رأت الحبوب الحمراء على ذراعيها ظلّت تحكها بأظافرها حتى أدمت اللحم. كرهت الجلوس إلى الكتب والدفاتر، تحت نظرة أمها الصارمة، ومرة تلو أخرى جربت التهرب من الفروض. كانت بين أخوتها الأشد نهماً إلى الطعام. وزاد من إظهار نهمها قصر قامتها (مارغريت كانت طويلة، مثل أمها). جيني (إلى حد) كانت غير محظوظة. في يوم شديد الحرارة أثناء تموز (يوليو) 1933، أخفت نفسها عن العيون عند حافة البساتين، لئلا تُجبر على الإستحمام. كانت تهوى الاستحمام لكنها في ذلك النهار بالذات قررت أنها لن تتحمم! بينما تخفي نفسها هكذا وراء الأشجار داست على قطعة طرية، تشبه غصناً يابساً. عندما تحركت القطعة (كانت حيّة) زعقت وركضت إلى البيت. وسّخت نفسها وظلّت تبكي ولم تعد تخرج إلى البستان. لاحقاً تغلبت على هذا الخوف الطفولي. دعمتها أمها عاطفياً، وهذه العاطفة شفتها. كانت مرتا صارمة، لكن هذا لم ينبع من قسوة فيها، بل العكس. أولادها أدركوا ذلك بمرور السنين. كانت الأم والأب في آنٍ معاً؛ وبات هذا دقيقاً ـ على نحوٍ حرفي ـ بعد شتاء 1934.

هذا ما حدث: فجأة لم يعد الأب يتحمل التبغ. قبل أن يُشعل السيجارة التي لفّها يبدأ ضيق النفس. منذ سنوات لم يضايقه سعال. فجأة باغته الألم في الصدر والحنجرة. لم يبصق دماً. لم ترتفع حرارته. لكنه غدا عاجزاً عن شرب المتّة. ما كان مرضه؟ لا أعرف. في الأربعين من عمرها ترملت مرتا للمرة الثانية.

- 114 -

مزرعة في باسادينا (2)

في الأربعين من عمرها ـ في نصف رحلة حياتها ـ ترملت مرتا للمرة الثانية. إذا كان إيمانها أنقذها في المرة الأولى فإنه لم ينفع في هذه المرة: كان زوجها على حافة الموت وكانت تعلم ولا تصدق. أستطيع رؤيتها في الكنيسة، أي كنيسة، تبكي وتتضرع للربّ ألا يأخذ زوجها منها. أستطيع أن أراها منهارة، عظام وجهها ظاهرة، تستند إلى الفاصل الخشب، وتنظر إلى الربّ يسوع المسيح مرفوعاً على الصليب لا ينظر إليها. بعد الدفن لم تدخل الكنيسة طوال سنوات. المحبس لن تنزعه أبداً. عندما لفظت الروح، في خريف 1974، كانت لا تزال تلبس محبسها. كيف بقيت حيّة أربعين سنة إضافية؟ أعلم أن جمالها ذوى ـ انطفأ؟ ـ بعد ذلك الشتاء. من دون أن تبكي تغيّر لون بشرتها: صارت صفراء كامدة. تسنّنت العظام ونتأت سلسلة ظهرها. صارت ناشفة، متخشبة، ولولا حاجة الأولاد إلى صوتها كانت خرست أيضاً وكفّت عن التنفس. لم ينقذها الإيمان هذه المرة. خرج الإيمان من صدرها بينما زوجها ينطفىء بين ذراعيها. كان يشهق طالباً الهواء، والورم في حنجرته وزلعومه يمنع الأوكسجين من التسرب إلى رئتيه. هل مات مختنقاً؟ لا أعرف كيف مات بالضبط، لكنني أعرف أنها حضنته وهو يموت. كانت وحدها، في مكان يقع خارج العالم، وفقدت الرجل الذي أحبّته بعد أن

وعدت نفسها ألا تحبّ ثانية. فقدت الثاني كما فقدت الأول. وفي هذه المرة كانت عاجزة حتى عن الموت! كانت تحمل وزر أربعة أولاد.

أولادها أجبروها أن تبقى حيّة. لكن خروج الإيمان من صدرها أطفأ ناراً: لم تعد هي. العالم من حولها صار عالماً آخر. فجأة، بين ليلة وضحاها، صار الكون مجهولاً، مرعباً، مملوءاً بالأخطار المحدقة. ولا أحد يريد أن يساعدها. وحتى لو جاء أحد كي يساعدها فكيف ترضى بذلك؟ كانت وحدها، وتحت جناحها أربعة بلا حول ولا قوة، بينما العالم كلّه ينحدر إلى الهاوية. لا أدري كيف تحملت كل ذلك.

بولس عزيز نقل النعي إلى المعارف. وجوزف أسطفان جاء من آخر أميركا كي يُعزّيها. وقف أمام الأرملة التي شاخت عشر سنوات في ليلة واحدة ولم يتمكن من بلع ريقه. تجمد كالتمثال مرعوباً محطم الروح. عندما رفعت يدها كي تصافحه أدرك أنه لا يعرفها! لم تكن هي! كانت غيرها! جلس معها إلى طاولة المطبخ وشرب القهوة الباردة. كان يسمع بكاء في غرفة أخرى ورأى ولداً يطلّ بين أشجار سوداء ثم يختفي. أراد أن يقول شيئاً لكنه لم يجد كلمة. جاء وذهب كالأخرس. لعله لم ينطق حرفاً. بعد فترة جاء مرة ثانية وفي هذه المرة جلب معه زوجته وإحدى بناته. في المرة الثالثة أتى إبنه بصحبته وكذلك زوجة الإبن: كانت تحمل طفلاً بين ذراعيها، يشبهها ولا يشبه زوجها. بعد ذلك رجع جوزف أسطفان في زيارة رابعة، وفي هذه المرة أخبرته أنها تنوي شراء متجر في باسادينا لأن هذا هو الشغل الذي تعرفه. وصل الصوت إليه آتياً من مجرة أخرى. وافقها الرأي وهو يبحث في عينيها عن أثرٍ من شعاعٍ قديم. وخيّل إليه أنه

يرى شيئاً. في اللحظة التالية أظلمت نظرتها وغاب عنه كل أمل.

كانت الفصول دارت دورة كاملة والشتاء يحلّ مرة أخرى. في القطارات التي استقلها عائداً إلى الساحل الشرقي (East Coast) شعر جوزف أسطفان أنه هو أيضاً شاخ عشر سنوات دفعة واحدة. في هذه الزيارات الأربع المتتالية إلى المزرعة المنكوبة في باسادينا فقد قطعة من روحه. عندما ظهرت نيويورك أخيراً، ملتفة بعاصفة ثلجية بيضاء، رفع يده ووضعها على قلبه. عندئذٍ فقط أيقن الرجل الستيني إلى أي حدٍ أحبَّ المرأة التي تُدعى مرتا.

- 115 -
مزرعة في باسادينا (3)

أثناء السنة الثانية تباعدت زيارات التعزية والتلفونات. لكن الرسائل استمرت في الوصول. كانت تحمل طوابع أميركية وغير أميركية. وصلت رسائل من ولايات لم تكن تعرف إسمها. ورسائل من أقصى كندا. ورسائل من المكسيك والأرجنتين. كشّاشون بالكاد تحفظ أسماءهم ـ لكنها إذا بحثت في دفاتر قديمة تجدها ـ انتهت بهم الرحلة في البرازيل وفنزويلا والبيرو، كتبوا لها. بعضهم بان وجهه أمامها وتذكرته. استغربت أن رسائل كثيرة احتوت أسماء الأولاد. كانوا يسألون عن أولادها بأسمائهم (جاك وجميل ومرغريت وجيني) وأحدهم لم يحفظ غير إسم واحد فكتب: «جميل وأخوته». كانت رسائل تعزية ولم تعرف من يعزي من. معظمهم نُكب في تجارته خلال السنوات الأخيرة. كشّاشون ادّخروا القروش على مرّ السنوات الطويلة وعندما بلغ عصر الكشّة نهايته فتحوا المتاجر وكبروا تدريجياً. ثم حلّت الكارثة: لئلا يعلنوا الإفلاس ـ عليهم ديون كثيرة ولا أحد يدخل المتجر ويشتري الآن ـ وتلحقهم الوصمة السوداء ما تبقى من الحياة نقلوا الأقمشة والثياب الباقية على الرفوف إلى بيوتهم. تخلوا عن المتجر وصاروا يحملون البضاعة على ظهورهم من جديد ويسعون بين البيوت وعلى الطريق. عصر الكشّة عاد في فترة الكساد (Great Depression)، لكنه عاد باهتاً، بخيلاً، وعديم

القيمة. الناس عضّهم ناب الجوع. والذين اشتروا ثياباً من قبل ظلّوا يلبسون الثياب القديمة. أخرجوا الإبرة والخيط ورقعوا الثقوب. الكشّاشون الذين تحولوا أصحاب دكاكين عجزوا عن البقاء فوق سطح الماء: غرقوا بينما أصحاب مخازن الجُملة الكبار يطلبون تسديد الديون. مع هذا، وفي نكبتهم، وجدوا الوقت كي يخطوا لـ«مرتا الملكة» رسائل تعزية.

بعضهم تأخر الخبر قبل أن يبلغه. وبعضهم بلغه الخبر باكراً وكتب باكراً لكن الرسالة تأخرت في الوصول. أغرب من الرسائل التي ملأت صندوقاً، كانت التلفونات. يرن الهاتف في الليل أو الصباح أو الظهيرة وترفع السماعة وتسمع «ألو» ثم الصمت. ثم «ألو» مرة أخرى، أعلى وأقوى وأعمق، وبعد ذلك يلفظ الصوت إسمها، بالعربية أو بالإنكليزية، بحسب المتصل. مرات تتداخل اللغتان، ويقول المتصل من هو، أو من هي، وتتذكره أو لا تتذكر... بعضهم لم يخطر في بالها منذ سنين! يسألها عن حالها ـ بعد التعزية الأولى ـ ويسأل عن الأولاد... لكنه بعد ذلك يتكلم عن نفسه! أحدهم تلفن وقال «أنا جورج مزنر» ثم أجهش بالبكاء. لم تعرف ماذا حدث له، لا تتذكر هذا الإسم، والخط انقطع، أو أنه عجز عن الكلام وأقفل الخط. هذا الإتصال تلقته بعد منتصف الليل. أيقظها من نومها، الخفيف أصلاً. بعد أن ردّت السماعة إلى مكانها شربت ماء ووقفت إلى النافذة تنظر إلى نجوم آب (أغسطس) تسطع في السماء. كانت باردة مثل قطعة حطب، وعندما رفعت يدها كي تطرد حشرة طنّانة سمعت مفصلها يطرطق. هل كانت على قيد الحياة؟

حين زارها جوزف أسطفان في تلك المرة الثالثة ومعه إبنه وعائلة الإبن الذي حارب في سيبيريا وعاد وتحول أستاذاً، أرادت أن

تتركهم وتخرج وتعبر البستان وتمشي إلى الجسر الذي سمّوه بعد 1929 «جسر المنتحرين». الناس المنكوبون في أرزاقهم يأتون إلى هنا ويقفزون إلى الفضاء. تتكسر عظامهم في قعر الوادي ويأتي رجال من قسم الشرطة ويأتي أيضاً طبيب. مع أنهم ماتوا يأتي طبيب! كانت تذهب إلى السوق في وسط المدينة ولا تجد ما تطلبه. بضائع كثيرة اختفت. لعلها الظلمة في عينيها.

كان الصغير ينهكها. أكله قليل وطوال الوقت يركض ويركب على الدجاجات ويتسلق الأشجار والحيطان ويغيب عن نظرها. أخوه كبر في تلك الفترة وهو يطارده ويحاول أن ينتبه له، لكن الصغير لا يكلّ، مع أنه لا يأكل شيئاً! من أين يجلب هذه الطاقة إذاً؟

احتارت في أمره. كانت تسلق له «بيض الغنم» الغني بالحديد وتهرسه مع أعشاب وزيت وتطعمه غصباً عنه. عندما يبصق طعامه تخشى أن تضربه. كانت يدها ترتجف وهي تلقط الملعقة. إذا ضربته قد تكسره نصفين. لم تضربه. أخوته تولوا أمره، جاك ومرغريت وجيني. كانوا يُصممون الألعاب الطويلة التي تنتهي بالملعقة الداخلة إلى فمه. وتحسّن أكله تدريجياً.

باعت آخر عقار في فيلادلفيا وسدّدت ما تبقى من ديونها. ثم استأجرت المتجر الذي عثرت عليه في باسادينا، في «أرويو ستريت»، غير بعيد من الفندق الكبير*. كان هذا في صيف 1936. جاك ساعدها على تركيب الرفوف. ومرغريت كانت تقف وراء المنضدة، إبنة 12 ربيعاً، جميلة كزهرة في ثوبها الأصفر، عندما باعت مرتا القطعة الأولى: بنطلون رجالي بـ 83 سنتاً.

---

* .Vista Del Arroya Hotel

- 116 -
المتجر - أرويو ستريت

تحجّرت. على الأقل من الخارج، لعيون الغرباء، بدت خشنة وصلبة، متماسكة كالجص في ثوبها الأسود. أوكلت المزرعة إلى رجلٍ مكسيكي الأصل نازح من أوديسا ـ تكساس، يُدعى خواكيم، زوجته أميركية إسبانية الأصل تُدعى كاستيلا، عندها أخوة في هوبس ـ نيومكسيكو وجلبتهم للعمل في المزرعة واحداً بعد واحد. كانت تطبخ أيضاً، والأولاد الأربعة أحبّوا طعامها. هذه العائلة ـ خواكيم وزوجته وأخوة الزوجة ـ أعطت للمزرعة حياة جديدة.

في هذه الأثناء تفوّق جاك في المدرسة: عندما أنهى دراسته في 1938 وجد باب جامعة كاليفورنيا مشرعاً أمامه. احتار بين الفيزياء والهندسة الميكانيكية، وكذلك بين جامعتين. ثم حسم أمره: لن يذهب إلى ساليناس ـ كاليفورنيا لأنه لا يريد أن يترك أمه.

صرف التفكير عن Stanford والتحق بـ Caltech* في باسادينا. كان خياراً ذكياً ولن يندم. بينما يسجل إسمه في الصفوف الأولى إجتاح هتلر بولندا. عند رجوعه إلى البيت من اليوم الجامعي الأول سمع الراديو عالي الصوت. كان يدنو من الثامنة عشرة، ومتذكراً حكايات سمعها، إنتابه الخوف. على عكس جميل ـ الأصغر والأكثر

* California Institute of Technology.

ميلاً إلى المغامرة ـ كان لا يطيق الحوادث التي تُعكر المسيرة الطبيعية للحياة. موت أبيه أورثه خوفاً أبدياً من المستقبل وتقلباته. التصق بأمه كي يحميها. ومن دون أن ينتبه كان أولاً يحمي نفسه. جميل لم يكن هكذا: وجد العالم طيّعاً بين يديه. منذ طفولته لم يهب الخطر. عندما رأى ثعلباً يخرج من بين الأشجار عند الغسق ويسطو على قن الدجاج قرر أن يقبض عليه. طوال أيام انتظره في النقطة ذاتها مسلحاً بالحجارة. لم ينل من ذلك الثعلب لكنه أنقذ قن الدجاج. الحيوان الصغير شعر بوجوده وابتعد عن المزرعة. بعد فترة علّمه خواكيم كيف يصيد الثعالب بأفخاخ الحديد.

في «أرويو ستريت» ينادونها «مرتا». صار هذا إسمها الوحيد في باسادينا. لا كشّاشات هنا. ولا أحد يكلّمها بالعربية. كانت تبلغ المساء منهكة من الوقوف. العروق الزرق بانت في ساقيها. في بعض الصباحات تأتي معها مرغريت وتساعدها على مسح الأرض والزجاج قبل أن تمضي إلى المدرسة.

لم تكن بحاجة إلى مساعدة. لكنها تصادقت مع إبنتها. كانت إحداهما تحبّ صحبة الأخرى. جيني لم تكن في هذه الدائرة، غير أنها في أكثر من ليلة سعت إلى فراش أمها باكية ونامت جنبها، تحت اللحاف. يكون جسمها بارداً كالثلج، والدموع الحارة تسلق وجنتيها. تنشج بين ذراعي أمها ثم تنام. تقول إنها مشتاقة إلى أبيها. الأم أخبرتها أنها هي أيضاً فقدت أباها وهي صغيرة. وفقدت أمها أيضاً. أضاءت مصباحاً وأخرجت من الخزانة صندوقاً خشباً بقفل نحاس وفتحته. كانت تحفظ فيه تذكارات قديمة. أزاحت قطعاً معدنية وأخرجت مسبحة ورثتها عن أمها. أقفلت الصندوق وردّته إلى الخزانة. جالسة في الفراش تُسبّح بالمسبحة القديمة ـ ثم تناولها إلى

إبنتها التي مدّت يدها ـ أخبرتها أشياء لم تعرف أين كانت تخفيها. حكت عن أمها وحكت عن أبيها. بينما تحكي شعرت أنها ليست هي. كان شعوراً غامضاً: بدا لها أنها غريبة عن نفسها. بدا لها أنها كانت تسير على الطريق ثم قفزت فجأة وعبرت مسافة غير مفهومة وبدأت تسير على طريق أخرى ليست طريقها! ولم تنتبه! وما زالت على الطريق الغريبة! لكن أين هي طريقها؟ كانت متعبة، والنوم القليل يضاعف تعبها. في الصباح، بينما تغتسل وتشم رائحة البيض المقلي وخبز الذرة، حاولت أن تتذكر شيئاً نسيته بينما تحكي عن أمها وأبيها. بعد ذلك، خلال النهار الطويل في المتجر في «أرويو ستريت»، زاولها مرة أخرى ذلك الشعور: أنها تسير على طريق خطأ! ثم امتلأ المتجر بزبائن آتين من الفندق المجاور ونسيت أفكارها.

الرئيس روزفلت تكلم في الراديو. كانت في المطعم الذي يواجه المتجر تشتري همبرغر بعشرة سنتات وتأكلها واقفة. سمعته يقول إن أميركا ستبقى على حياد في هذه الحرب وأن لا مصلحة لها فيها. كان صوته هادئاً، ومع ذلك تغيّر مذاق السندويشة. لم تكملها. لفّتها بالورقة وأخذتها معها إلى المتجر. بعد أيام كانت تتسلم بضاعة من محطة السكك. رأت حادثة مرعبة. إمرأة بيضاء طويلة القامة تلبس معطفاً أسود وعلى رأسها برنيطة فرو رمت نفسها تحت عجلات القطار. قطعها الوحش الحديدي نصفين ومزق ثيابها. هي استندت إلى الحائط وأوشكت أن تقع على الأرض. اقترب رجل وأعانها على الوقوف بينما الصياح يرتفع في المحطة. ركضت إمرأة عجوز تحمل شالاً وغطت قسماً من الجسم المقطع. كانت تشهق وتعجز عن التنفس.

- 117 -

المتجر ـ أرويو ستريت (2)

شهقت وحاولت أن تأخذ نفساً. خرجت من المحطة ويدها على الحائط. كانت دوّامة الصيحات تتردد كالصدى في رأسها. مشت على الطريق الطويل إلى المتجر وبينما تمشي أضاعت دربها. كان هذا مستحيلاً لكنه حدث. أخذتها خطواتها إلى المقبرة.

لم تعرف أين هي ذاهبة إلا بعد أن غمرتها الظلال الباردة لأشجار السيكويا العملاقة. عبرت المنطقة المظلمة ودفعت الباب الحديد المطرق ودخلت من السور الحديد. كانت الأشجار الضخمة وراء ظهرها الآن، وبعد خطوات قليلة مترددة ـ جسمها من خشب ـ وجدت نفسها أمام قبر زوجها. جلست على الأرض ونظرت إلى العشب الأخضر.

أحسّت بالنار تحرق وجهها. استخدمت المنديل فتبلّل في لحظة. لم تكن تعرف أنها تبكي. رفعت وجهها ورأت الأوراق ترتعش والأغصان تخفق والسماء تدنو. كانت سماء غريبة، غير مفهومة. انخفضت ثم ارتفعت ثم سالت، كانت بخاراً وغيوماً ورأتها تخفق وتتراكض وتعبر بين الأغصان والأوراق وتبتعد. سمعت صياح الطيور وشعرت بظلمة تباغتها. لم تخف من الظلمة المبكرة لكنها شعرت بالضياع: كانت رمشة عين لكنها بدت دهرية، طويلة إلى ما لا نهاية. غمرتها ظلمة الغيوم والأغصان، صار التراب أسود رطباً

بارداً، وحتى العشب الأخضر تبدل لونه إلى الأسود.

اقتحم الظلام عينيها وأشجار السيكويا العملاقة اقتربت وأحاطت بها. شعرت بيديها تغوصان في التراب وتشتبكان بالجذور الحيّة. مدّت يداً وانتزعت نبتة تسلقت الشاهد. كانت لولبية الساق، فيها زهور صفر تشبه ما ينبت على برميل خشب متروك في العراء. انتزعتها من دون حاجة إلى عنف، ثم ألقتها جانباً. هذه الحركة العفوية ردَّتها ـ بعد تغرّب دام خمس سنوات ـ إلى نفسها.

مدّت يدها مرة أخرى وخلّصت الشاهد الحجري من نبتة أخرى. . . بينما تُنظف حول القبر هكذا شعرت أنها تسترد مادة فقدتها. كان هذا بالضبط إحساسها: أن مادة مفقودة منها قد عادت للتو إليها. مثل جميع الأحاسيس الطاغية دام هذا لحظة ثم تبدد. كانت حالة من الوجد الصوفي غير القابل للشرح بالكلمات. لكن الذكرى لم تختفِ. حتى وهي تعود إلى البيت عند المساء، ومشهد المرأة المخيف يرجع إليها، لم تختفِ الذكرى. عجلات القطار رفعتها ورمتها إلى أمام مقطوعة إلى نصفين، ممزقة المعطف والثوب. . . كانت جزمتها حمراء، لم تنسَ ذلك! لكن الشعور الآخر استولى عليها: كانت تُنظف الشاهد من النبات اللولبي الأصفر الزهور، فتراجعت أشجار السيكويا الباردة إلى الخلف وتسربت حرارة إلى الجو وشعرت بالملائكة.

كانت لحظة وجيزة. لكنها في تلك اللحظة شعرت بالربّ. لم تكن وحدها. تلك الليلة، وهي تلبس ثياب النوم وتمشط شعرها، سمعت غناء وراء الأشجار، في أطراف البستان، حيث السقيفة الخشب. ميَّزت صوت خواكيم بين الأصوات لكن الضجة سرعان ما تلاشت. كان الليل يتقدم وانطفأ وهج النار. شعّت نجوم السماء

وساد الصمت العالم. لم تفكر في الحرب وراء المحيط. ولم تتخيل شيئاً. للمرة الأولى منذ زمن بعيد استلقت ونامت على الفور. كان نومها عميقاً، وطوال الليل لم تستيقظ مرة واحدة. في الصباح شعرت أنها ملآنة. كأنها لم تنم وحدها في التخت! كأنها قضت ساعات الليل محضونة! ركبت السيارة وأوصلها جاك إلى المتجر قبل أن يكمل طريقه إلى الجامعة. في السيارة كان يسألها عن أشياء مختلفة، لعله كان يتكلم وحسب، لكنها ظلّت شاردة. هذا نادر الحدوث. لكنه حدث.

وجدت نفسها وحيدة في المتجر، ترتب الواجهة بلا حاجة، وتشعر بآلام متنقلة في جسمها: كأن القطار البخاري صدمها هي أيضاً! وضعت الإبريق على سخّان الكهرباء وأعدّت كوباً من الشاي. بينما تُحرك السكر بالملعقة صارت تبكي. لم تفهم لماذا تبكي. كانت وحدتها أعمق من أي وقت مضى، وهاوية حزنها بلا قرار. خدعها ذلك الشعور أمس، تحت أشجار السيكويا، وظلّت أسيرة الخدعة ليلة كاملة! كانت يدها ترتجف. ردّت كوب الشاي إلى الصينية ولم تشرب. درعها الحجري تحطم إلى قطع صغيرة، إلى شظايا وطحين، بينما سيارات الشيفروليه والفورد والهادسون والبويك تعبر «أرويو ستريت» وتطلق زماميرها.

- 118 -
المتجر - أرويو ستريت (3)

كانت تتحسن؟ تُشفى؟ اضطربت دورتها بإضطراب نفسها وباغتتها هبّات حرارة وبرودة. كانت سائرة على حبلٍ رفيع، تتأرجح وتحاول عبثاً أن تثبت في مكانها، غير عالمة أن هذا مستحيل! عليها أن تتقدم، وإلا تسقط! لكن أين تعثر على القوّة كي تتحرك إلى أمام؟

في خريف 1940 اشترت المتجر. كان إيجاره الشهري 120 دولاراً واشترته بثمانية آلاف. أخذت من «مصرف باسادينا» قرضاً مدته عشر سنوات وفتحت «ورشة» في المزرعة؛ تدريجياً ظهر «البيت الكبير». المقاول أعلمها أنه جاهز للتسليم في خمسة شهور ووقّع العقد. بينما تتفحص الخريطة وجاك يدور حول الطاولة وقلم الرصاص ثابت وراء أذنه شعرت بدوخة خفيفة: كانت سعيدة ولم تستوعب من أين يأتي هذا الشعور!

المقاول سألها هل وُلدت في نيويورك؟ كانا يتكلمان عن «الساحل الشرقي» ولسببٍ ما ظنّ أنها مولودة في نيويورك. أخبرته أنها جاءت إلى أميركا قبل سنة من إندلاع الحرب العالمية الأولى. رفع عينيه إلى السقف كأنه يعد أرقاماً مكتوبة «فوق» ثم لفظ الجواب الذي توصّل إليه: «27 سنة». كان ذلك طفولياً ومضحكاً، ومرة أخرى شعرت بالفرح. لكنها بعد رجوعها إلى المتجر تعبت: هل تذكرت عندئذٍ أياماً قديمة في فيلادلفيا، عندما كانت تصعد وتهبط

هكذا، في كل ساعة؟ هل يتذكر الإنسان ما جرى له؟ أم أن النسيان هو السيد؟ وإذا تذكرنا ماذا يتبدل؟ هل يُعطينا التذكر قوّة؟ وماذا يكون سرّ هذه القوّة؟ وماذا يربطها بضعفنا الدائم؟ كانت متعبة، ربما لأنها سهرت ليلتين وهي تساعد جيني في دروسها . . . كانت متعبة، ربما بسبب هذا المشروع الجديد وورشة البناء التي ملأت المزرعة فوضى وغباراً وضجة. . . كانت متعبة، لهذا السبب أو ذاك، ربما لهذه الأسباب مجتمعة، وبينما ترفع قماشاً ثقيلاً من صندوقٍ فتحته للتو، وتُكرر للمرة التي لا تعرف رقمها طقوساً زاولتها أكثر من عقدين (أين بدأ هذا؟ في متجر السيد سكياس؟)، شعرت مرة أخرى بدوخة. هذه المرة لم تصبها سعادة. الظلام كبَّل دماغها. مالت واستندت إلى الصندوق لئلا تقع على الأرض. لم تعرف ماذا حدث لها. لكنها شعرت بالذعر. رعب فظيع اجتاح كيانها: ماذا لو أصابها شيء الآن؟ ماذا لو ماتت؟ عندئذٍ ماذا يحدث للأولاد؟ كانت تنزلق على أرض تسيل، وشعرت بالبرد يقبض على كاحليها.

جاهدت كي تبقى واعية. فتحت عينيها وحاولت أن تفتح فمها. عليها أن تنادي، أن تطلب نجدة. كانت الضجة بعيدة، وراء الباب الزجاجي. لم ترَ الناس ولا السيارات ولا حتى الثياب والأحذية والبرانيط في الواجهة. كانت نظرتها تزوغ والنقط البيضاء والحمراء تسبح أمامها. استسلمت في لحظة تخلٍ لكن شيئاً لا يُدرى كنهه تحرك في أعماقها عندئذٍ ورفعها من الهوّة: تراجع الألم في ساعدها وذهب الضغط عن أضلاعها. قلبها خفق من جديد وأسنانها أفلتت الشفة السفلى. مرّت الذبحة الصدرية من دون أن تقتلها. بلا وعي تحركت شفتاها. كانت مرتا حداد تصلّي من جديد.

ـ 119 ـ

قلب مرتا

جاك كان عائداً عند الغروب ورأى جيني تركض وجميل يدنو خلفها بخطى واسعة. قبل أن تفتح فمها عرف أن شيئاً سيئاً قد حدث.

ـ أمي في المستشفى.

مرغريت خرجت في تلك اللحظة من البيت تحمل حقيبة. خلفها بانت كاستيلا تحمل حقيبة أخرى.

ـ ماذا حدث؟

أخبروه أن التلفون لم يقل الكثير، لكنها بخير، ويجرون فحوصات لها.

كانت أطول رحلة في حياته. طارت السيارة على الطريق وهم يتأرجحون في داخلها. وحده جميل لم يرتجف في السيارة الهدسون (الباقية من أيام الأب) في تلك الرحلة المفزعة من المزرعة إلى المستشفى. في عشرين دقيقة وصلوا. لكن كيف تُقاس هكذا رحلة بالدقائق؟ كانوا لا يعرفون ماذا ينتظرهم. وجاك توقع الأسوأ: لولا الحقائب ـ مرغريت قالت إن أمها طلبت الثياب لأنها قد تقضي ليلتين في المستشفى ـ كان تحطم. الحقائب أعطته أملاً: الثياب الموضبة. سأل أخته هل كلّمتها في التلفون؟ قالت لا، إتصلت ممرضة من المستشفى، لكنها قالت إن أمي تطلب كذا وكذا.

لا أريد أن أتوسع في هذه الحوارات التي دارت في السيارة الطائرة: كان الكلام يرتطم بالزجاج ويرتد ويطرق الرؤوس. كانوا مذعورين وعندما بلغوا المبنى الأبيض تضاعف ذعرهم ألف مرة. وحده جميل ـ الأصغر ـ ظلّ رابط الجأش. هذه ليست مبالغة: جاك كان يرتجف في ثيابه. مع أنه طويل القامة، شديد الساعدين، ورفاقه في الجامعة يعتبرونه شجاعاً... ارتجف مثل الطفل وهو يتسلق الدرجات ركضاً ويخاف أن يفقد التوازن. قالت أخته «أمي في المستشفى» فوقع العالم كالصخرة على رأسه.

الأسوأ لم يحدث. بل العكس: أجروا الفحوصات اللازمة وبعد ثلاثة أيام فقط خرجت. الطبيب أعطاها دواء (حبّة صباحاً وأخرى مساء) وألزمها أن ترتاح في سريرها ـ في البيت ـ إسبوعين طويلين.

و«بعد ذلك؟» سأله جاك.

«بعد ذلك إنتبهوا لها»، قال الطبيب.

كانوا يتحلقون حول أمهم ولا يصدقون كيف جرى لها هذا. جيني ظلّت تبكي طوال الوقت. جميل شدّها من يدها إلى الزاوية وأمرها أن تصمت أو تخرج. غصّت بدمعها: كانت تعرف أنه قاسٍ ويقدر أن يفعل ذلك. أن يطردها! مسحت دموعها وسكتت. أمها رفعت وجهها لحظة ونادتها إليها. خرج الصوت واهناً، غريباً، حزيناً. مع ذلك جذبها الصوت جذبة عنيفة. في رمشة عين كانت على السرير، جالسة جنب المريضة. الطبيب قال حظكِ طيب. ومرتا وافقت على قوله. كان السكون يغمرها وهي تستند إلى إبنيها، خارجةً من المبنى الأبيض إلى الباحة المغمورة بضوء الشمس.

برقت سيارة الهادسون التي غسلوها للمناسبة. كانت أجمل من

سيارة جديدة، وبينما يساعدون الأم على الدخول شعرت أنها تبدأ حياة أخرى: كان هذا عجيباً لكنه حقيقي. كل ما قاله الطبيب بدا لها صحيحاً لكنه يخلو من القيمة أيضاً. قال إن الإرهاق ـ والتوتر والإنفعال النفسي الشديد ـ سبّب لها هذه الأزمة القلبية. لم تشكّ في تشخيصه لكنها لم تهتم كفاية. كانت تعرف ذلك من دون أن يلفظ الكلمات أمامها. ما لا يعرفه هو كيف نجت. قال إن هذا حظها الطيب وكان يمكن ألا تنجو! مرتا بقيت ساكتة، كانت تعرف أكثر منه.

ماذا ظنّت مرتا؟ ماذا حدث لها وهي مطروحة على أرض متجرها في أرويو ستريت ـ باسادينا؟ هل ظنّت أن الملاك نزل من السماء وفتح صدرها وأخرج القلب المضروب وزرع في مكانه قلباً جديداً؟ لا أعرف ماذا تخيلت وهي تلتفت وتنظر إلى أولادها على المقعد الخلفي وتفكر أنها هنا، ما زالت معهم! كان جاك يقود السيارة متمهلاً، لئلا تتضايق على الطريق. رأت عينيه تبرقان، ومرة أخرى انتبهت إلى حنانه اللانهائي. كان أرقّ من فتاة، وعندما غمرها بذراعيه في المستشفى شعرت أن هذا يكفي ـ أن هذه العاطفة تكفي ـ كي تعيش إمرأة مثلها مئة حياة أخرى. لن أتكلم عن حزنها وهي تكتشف ما نسيته. اكتشفت أنها طوال السنوات الماضية عاشت غريبة عن أولادها! كانت تعتني بهم واحداً واحداً، بلى، تغسل ثيابهم وتطبخ طعامهم وتساعدهم في دروسهم، ربَّتهم مثل أم وأبٍ ولم ترفض لهم طلباً، بلى، لكنها أنجزت هذا من دون أن تكون بينهم! طوال هذه السنوات عاشت في بيت السلحفاة الحجري، تُغدق عليهم عاطفتها ولا تقبل منهم حبًّا أو حناناً... طوال الوقت أبقت نفسها محجوزة في قلب زنزانة مقفلة ومخفية في أعماقها. هل كانت حيّة طيلة هذه السنوات؟ منذ لفظ زوجها الروح بين ذراعيها في تلك الليلة

الماطرة، هل كانت حيّة؟ نزل الملاك من السماء وأخذ القلب الميت وأعطاها الحياة الجديدة.

بان المنعطف. خفّف جاك سرعة السيارة وأدار المقود دورة شبه كاملة. ظهرت أشجار البرتقال دفعة واحدة وبان البيت. كان أجمل بيت في العالم: هذا المكان في باسادينا حيث تحيا مع صغارها. ما زالوا صغاراً؟ كان الطبيب يظنّها نائمة وسمعته يتكلم مع جاك. سأله عن أبيه، أين هو؟ «أبي ميت»، قال جاك. سأله الطبيب متى مات، قبل فترة قصيرة، قبل أسابيع؟

«مات قبل سنوات»، قال جاك.

«إذاً ليس هذا هو السبب»، قال الطبيب.

- 120 -

جاك وأخوته

إنتبهوا لها. حاموا حول سريرها كالكواكب السيّارة. وبينما تحكي لهم شيئاً تذكرته صدفة تشكّلت ـ منذ هذه الساعة وعبر أجيال تالية ـ مجموعة مرتا الشمسية. في ذكريات أحفادها ـ وفي القصص التي كتبها وليام ج. حدّاد بالإنكليزية ـ تبدو عجوزاً بيضاء الشعر يتحلق حول كرسيها الهزّاز أحفادها الصغار ويصغون في دهشة إلى ذكرياتها. لكن ذلك في المستقبل البعيد، ومرتا لم تغدُ عجوزاً بعد. خطَّ الشيب شعرها، بلى. منذ سنوات بانت الخصل الرمادية. لكنها ما زالت قويّة. حين خرجت من فترة النقاهة انكبّت على العمل.

في فترة قصيرة ضاعفت أرباح المتجر: كان إقتصاد البلاد يزدهر، والسفن تبحر كل لحظة محملة ثياباً وسلاحاً وأدوية وأطعمة إلى أوروبا. اشترت كمية ضخمة من البناطيل والقمصان الـ Manhattan، اشترت شراشف ومناشف من أحجام مختلفة، اشترت ملابس نسائية وأحذية وسكربينات وجزماً، اشترت قبعات ومعاطف وكنزات وجوارب، ثم طبعت في المطبعة في «لامب ستريت» ألف ورقة إعلان، وأرسلت إحدى مساعداتها (ما إن خرجت من السرير حتى أجبرها جاك على توظيف مساعدتين)، محملة بالإعلانات إلى موقف الباصات الجديد في باسادينا. لم تكتفِ بذلك: طبعت إعلانات أكبر حجماً. علّقتها في محطة السكك، وعلى عربات

الترامواي. أثناء قعودها الإجباري في البيت وضعت خططاً كثيرة. في نهاية السنة نشرت إعلاناً في الصحيفة المحلية مع قائمة أسعار كاملة. وقبل أن يحلّ الميلاد وجدت مخزنها فارغاً! كانت تظن أن المخزون لن ينتهي قبل السنة الجديدة! اشترت كمية أخرى على وجه السرعة وهذه المرة نشرت إعلاناً إضافياً: «تصفية على الأسعار».

تدفق الزبائن إلى المتجر ووجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مساعدات أخريات. حتى مرغريت وجيني حضرتا كل يوم بعد المدرسة للمساعدة. أثناء العطلة جاء جميل أيضاً وسرعان ما بانت موهبته: النساء وقفن في الصف أمام رفوفه. كان في الرابعة عشرة، زيتوني البشرة أسود الشعر واسع العينين، ضحكته عالية (جاك كان يضحك هكذا وهو صغير، في زمن «كامدن ستريت»... ما زالت تذكر تلك الضحكة)، ويبدو للعيون الغريبة رجلاً في العشرين. كان شديد الثقة بنفسه، دائم السخرية من مهنة البيع والشراء، يميل إلى أشغال المزرعة والبساتين. أعزّ أصحابه خوان الأخ الأصغر لكاستيلا زوجة المدبر خواكيم. تعلّم من العائلة المذكورة الأسبانية، وصار يميتهم ضحكاً في البيت حين يتكلم بالأسبانية كأنه وُلد في المكسيك! لم يكن يحبّ متجر الثياب. مع هذا، وفور ظهوره في المكان لابساً قبعة الكاوبوي على رأسه، ظهر جلياً أنه بائع أصيل. هو ومرغريت تنافسا: قررت الأم لكل مساعد ومساعدة نسبة مئوية من المبيعات. تحول البيع إلى لعبة عائلية. كان جاك يعود من الجامعة فيسمع الضحك يملأ المكان. لم يخف على أمه من العمل الكثير. بدت له إمرأة أخرى. وردّته الذاكرة إلى زمن قديم.

البيت أيضاً ملأته الخفّة. صار العشاء مناسبة ينتظرونها. ذهب الصمت عن الأم. وصارت تحكي عن أشياء كثيرة. بينما تحكي رجع

الأب إلى البيت. جلس معهم إلى الطعام ولفّ تبغاً ونفخ الدخان في دوائر صوب السقف. كان إبريق المتّة يصفر على النار وشفتهم الذكريات. تراصت العائلة، تداخلت الحجارة مثل حائط الدكّ. نسجوا الخيوط المتينة وتعلقوا هكذا فوق النسيج المتين: كانت الهاوية تحت أقدامهم على الدوام، لن تذهب الهاوية السوداء الفاغرة الفم. لكنهم في الأعلى، على النسيج المتين، بنوا حياة جديدة. لم يكن بيت عنكبوت. تحلّقوا حول الأم وبينما بعضهم يدعم بعضاً صعد «البيت الكبير» وألقى ظلاله على البساتين.

لم تكدر تلك الفترة سحابة. مرتا لن تشكو من عارض صحي مرة أخرى. لم تدخل المستشفى بعد ذلك إلا لإجراء فحوصات دورية. في فترة النقاهة، بينما جاك وأخوته يغمرون روحها بالمحبة، نظرت من النافذة ورأت «الورشة» وخوان يتسلق البرج الخشب كي ينظّف خزّان الماء. كان رشيقاً، سريعاً، وقوياً كثور. اختفى عن نظرها في جوف الخزان. وعندما ظهر من جديد رمى أشياء لا تعرف ما هي من فوق ونادى على جميل. سمعت ضحكة إبنها المدوّية ثم أصغت إلى حديثهما. كانا يتكلمان بالأسبانية والإنكليزية معاً. ومرة أخرى أدركت أنها تحيا في أرض مسحورة. كانت ناعسة بسبب الدواء الذي أخذته ورأت برهة من المستقبل. ماذا رأت؟ كان الآتي امتداداً لهذه الساعة، وغمرها الهدوء.

- 121 -
جاك وأخوته (2)

سقطت باريس فشعر جاك بالخوف. كان خوفاً غير منطقي - فرنسا بعيدة وأميركا لن تدخل الحرب - لكنه أمسك به من زلعومه. أثناء ربيع 1941 توطدت علاقته بزميلة تدعى باتريسيا هينيغن، أهلها من «سانتا في» Santa Fe. كانت أميركية، شقراء، خضراء العينين، ولا تعرف من أميركا غير «سانتا في» وباسادينا والطريق بينهما. بادلته الحب على المقاعد الخضراء تحت أشجار الجامعة. وقفت جنبه تحت المظلة بينما الأمطار تتساقط على ورشة «مرصد بالومار». كانت الجامعة تنتظر وصول التلسكوب الجديد العملاق لكن تركيبه تأخر بسبب انشغال المصانع بإنتاج السلاح. أحد أساتذته (ريتشارد فينمان)* أخبره وهما يسيران من المختبر إلى الكافيتيريا أن الجيش لا يمكن أن يأخذ جنوداً من Caltech لأن «العقول» لا تعرف كيف تطلق النار. كان يضحك وهو يقول ذلك لكن صوته البارد ضايق جاك.

أغارت الطائرات اليابانية على القاعدة البحرية الأميركية في بيرل هاربور - هاواي بعد أربعة أيام من عيد ميلاده. كانت بقايا قالب الحلوى ما زالت في البراد. شعر أن الطائرات خرجت من وساوسه. كان ذلك في 7 كانون الأول 1941. ودخلت أميركا الحرب العالمية الثانية.

* نال نوبل الفيزياء سنة 1965.

ذعره تضاعف عندما مرّ على المتجر ورأى جنود المارينز مدججين بالسلاح في أرويو ستريت. كان الشارع يعجّ بالعربات والشاحنات ولم يفهم ماذا يحدث. ظهرت أمه أمامه وأخبرته أن الجيش قرر تحويل الفندق المجاور إلى مستشفى عسكري. منذ الصباح ينقلون إلى هنا أدوية وأسرة ومعدات طبية ومولدات كهرباء. كان الراديو يضج في المطعم المواجه والمذيع يقول إن حاملة الطائرات أريزونا غرقت أيضاً وعدد القتلى جاوز الألفين. الرئيس روزفلت تكلم وقال هذا اليوم يدخل في تاريخ العار: هاجمنا اليابانيون قبل أن يعلنوا الحرب، وبلا إنذار مسبق.

كان مضطرباً وهو ينظر إلى المارينز ثم إلى سيارة الصليب الأحمر ثم إلى أمه من جديد. عرفت ماذا يدور في رأسه.

تحرك داخل مثلث لعله ينسى العالم الواقعي. كان يمضي من أمه إلى المختبر إلى باتريسيا. دار بين هذه النقاط الثلاث طوال الفترة الممتدة من 1941 إلى 1944. اقترب موعد التخرج فشعر بالبرد. كانت باتريسيا تعانقه في مدخل كلية الفيزياء وسألها هل تتزوجه؟

ـ Yes.

قدم طلبه كاملاً إلى مجلس الخدمة العسكرية مع شهادة الزواج. أعفوه سنة. كان تأجيلاً ولم يكن إلغاء. ذهب إلى أمه وأخبرها أنهم منحوه التأجيل لمدة سنة واحدة. سألته هل أخبر زوجته. قال سأذهب وأخبرها الآن. هزّت رأسها وبدت متعبة.

كانا يسكنان معها، ومع بقية العائلة، في «البيت الكبير». هنا، في المزرعة، حبلت باتريسيا بطفلها الأول (ألبرت).

انتظر جاك نهاية السنة التي أعطيت له كمن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام. في أحد الصباحات غادر الجامعة بعد ساعة من وصوله

وساق سيارته بلا هدف عاجزاً عن التركيز. كان يعمل في مختبر يتبع المرصد الجديد الذي لم يكتمل تجهيزه بعد. وكانت زوجته تعمل في كلية الهندسة، مساعدة في المكتبة. بدا له العالم غير مفهوم: لماذا يأخذون شخصاً مثله إلى حرب؟ ماذا يستطيع واحد مثله أن يفعل هناك؟ وجد نفسه أمام شاحنة عسكرية تقفل الطريق. عرف أين هو. ركن السيارة ودخل المتجر. رأى وجوهاً لا يعرفها ثم ظهرت أمه. نظرت إليه من نقطتها البعيدة ـ بينهما زبائن ـ ورأت ضياعه وخوفه وهشاشته اللانهائية. وراء جاك كان الجنود يقطعون الطريق ضاحكين.

تركت المتجر في عهدة مساعدة وأخذته إلى المطعم القريب. اشترت سندويشات وعصيراً وجلست معه. قالت إنها جائعة. لم تكن جائعة. كان صامتاً ولم تقل شيئاً مهماً. أخبرته أشياء قديمة، لا صلة لها بما يفكر فيه، لكن صوتها خفّف قلقه. بينما يجلسان هكذا نسي الموعد وما ينتظره.

ـ 122 ـ

جاك وأخوته (3)

قبل أن يحلّ الموعد ويؤخذ إلى الجيش إنتحر هتلر وقُتِل موسوليني وأمر الرئيس ترومان* بإلقاء قنبلتين ذرّيتين على اليابان. قتلت الحرب العالمية الثانية أضعاف ما قتلته الحرب الأولى، لكنه نجا. عاش ورأى عائلته تكبر: بعد ألبرت رُزق ثلاثة أولاد (ويليام ولوكاس ومارلين). اشتغل في «مرصد بالومار» ولم يترك الجامعة. كانت تمنحه أماناً بحاجة إليه. مثل أمه كانت الجامعة ـ بمبانيها وأشجارها والتلسكوب الذي يكشف النجوم والمجرات والكواكب ـ ملاذاً وعالماً محدد الهدف. أخته مرغريت كانت تجد ملازمته البيت والمزرعة مسألة طريفة. جيني أيضاً كانت تعاكسه أحياناً. جميل في المقابل كان يطلب رضاه. إعتاد جاك أن يعيره السيارة، وأن يمدّه بالمال إذا طلب. (مرة سدّد عنه ديناً بلغ مئة وخمسين دولاراً. هذا في 1944. وأخوه الصغير لم يبلغ سنّ الرشد بعد).

جيني ستدخل كلية الطب في تلك الفترة (الأربعينات). في 1970 ـ وهي زوجة وأم لولدين (توماس وآنا) و«دكتورة» ـ دُعيت إلى مؤتمر طبي في فيلادلفيا. سألت أمها هل تود مرافقتها؟ وهكذا

* هاري ترومان. رأيناه من قبل ـ ولم نذكر إسمه عندئذٍ ـ جندياً في الحرب العالمية الأولى يقصف قنابل تجريبية ناظراً إلى ساعته صبيحة «الهدنة».

سافرتا معاً بالقطار. سأصف هنا الرحلة، وفي الفصل التالي أعود وأكمل فترة الأربعينات.

كانت رحلة هادئة في طقس صافٍ. انبسطت السهول ثم كرجت التلال. قطع القطار جسوراً معلقة على أنهار وتسلق مضائق ثم انحدر ثم انطلق في سرعة ثابتة عبر البراري. كانت المناظر تتبدل خارج الزجاج والمرأة التي كلّل البياض رأسها تنظر وتتعرف إلى بلدات وتستغرب ملامح أخرى. كانت هناك سهول فارغة تعرفها وتنتظر أن تراها من جديد لكنها لم تعثر عليها! رأت بلدات لم تكن موجودة من قبل. ورأت مدناً انطفأت في هذه الأثناء وصارت فارغة، أو شبه فارغة، بيوتها متساقطة، وكرات الشوك تتدحرج حيث كانت الطريق. عندما أُدخلت عربة الطعام ووُضعت أمامها الصينية وعليها الطبق بالغطاء الفضي شعرت أنها في منام. رفعت الغطاء ـ فقط كي تتأكد ـ ورأت قطعة البفتاك المقلية بالزبدة وجنبها البطاطا المقلية. امتلأت حزناً، وكان ذلك شبيهاً بالسعادة.

إبنتها جيني، الطبيبة الأربعينية الثابتة اليد، قطعت «البفتاك» بسكين حادة وأكلت غارقة في أفكارها. نظرت إليها تأكل ثم نظرت إلى الخارج مرة أخرى: مرّ رجلٌ يجرّ ثوراً عنيداً يرفض الحركة. لعل الرجل لا يتحرك أيضاً: كان القطار سريعاً ولم تعرف ماذا حدث لهما. وخيّل إليها أن هذا أيضاً رأت مثله من قبل.

في القطار، بينما تطوي المسافات مبتعدة عن باسادينا، اشتاقت إلى البيت وأشجار البرتقال ونزهتها على الشاطىء. اشتاقت إلى أحفادها، إلى باتريك المحتال كثعلب (أصغر أبناء جميل) يقفز ويعانقها ويتعلق برقبتها ويرفض النزول من دون وعد بقطعة حلوى من المرطبان على سطح البراد. اشتاقت إلى الدجاجات في القن الذي

جدّدته وراء البيت. واشتاقت إلى الأشجار والنباتات التي زرعتها في الحديقة. أرادت أن تصحب إبنتها في هذه الرحلة إلى فيلادلفيا، لكن المناظر أتعبتها! لم تكن بحاجة إلى هذا الآن! كانت تحبّ الراحة، في المزرعة، وتشعر أنها عاشت كفاية على الطرقات. بينما القطار يدخل محطة في بلدة شبه مهجورة رأت رجلاً عجوزاً يُخرج رأسه من كوخ خشب بنافذة مربعة. فوق الكوخ رأت مدخنة من قرميد أحمر تنفث دخاناً. كان الغروب يميل إلى ظلمة المساء وخُيِّل إليها أنها عاشت هذه الساعة قبل سنوات طويلة. كانت تنتظر أحداً ولم يأتِ الذي انتظرته.

إبنتها سألتها هل تشعر بالتعب؟

هزّت رأسها أن لا. جلبت لها كوب ماء. أخذته وشربت وشكرتها. كانت المصابيح تضاء في القطار. رأت الوجوه المنعكسة في النوافذ عندما خيّم الظلام. بعضهم كان يخلد إلى النوم أو يستعد للنوم. الرحلة طويلة من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي. لم تسافر يوماً بالطائرة ولا تريد أن تجرب ذلك الآن. حتى التلفزيون لم تتعود إليه. ما زالت تسمع الراديو. لا تنظر إلى صندوق الصور. وتفضل عليه الجلوس في الحديقة وتأمل الدجاجات.

نامت إبنتها. ظلّت تنظر من الزجاج إلى أضواء تظهر كثيفة متكتلة ثم متناثرة ومتباعدة في ليل أميركا اللانهائي. حين عبر القطار منطقة من حقول النفط رأت ألسنة حمراء تخرج من الأرض مقذوفة إلى الأعالي، ملتهبة، مثل براكين عمودية تُجرب عبثاً بلوغ السماء. كانت الشعلة تتطاول وتعجز عن بلوغ النجمات. رأتها في القبّة، مشكوكة كالخرز، ومن دون انتباه عاد فكرها إلى باسادينا والبيت والأبناء والأحفاد. فتحت جيني عينيها فرأت أمها تصلّي. ابتسمت عندما سمعت الكلمات العربية.

ـ 123 ـ
جاك وأخوته (4)

وهكذا كبروا. المتجر عانى قليلاً أثناء سنوات الحرب، خصوصاً في 1942 و1943، عندما صارت المصانع تُنتج للجيش حصراً، ولم تعد تعثر في السوق على شراشف جيدة أو بناطيل سميكة أو حتى وجوه مخدات! كانت تركب الباص الـ Greyhound مع مرغريت وجيني وجميل إلى سان فرانسيسكو وتجلب بضاعة من هناك وتدفع نقداً. كان هذا خطراً إلى حد، لأن هذه «سوق سوداء» وليست قانونية، ولكن الكل كان يفعل هذا و«القانون» لن يحبس أحداً من أجل الشراشف. أوقفت هذا نهائياً عندما سمعت عن شخص حبسوه في سكرامنتو بينما يملأ صندوق سيارته أحذية وبطانيات. لاحقاً سيتحول الأمر إلى طرفة في البيت، تلك الرحلات بالباص إلى سان فرانسيسكو. لكنها ندمت ضمناً على ما فعلته وذهبت إلى الكنيسة وصلّت طالبة الغفران؛ لا لأنها اشترت من «السوق السوداء» (كانت مضطرة) ولكن لأنها أخذت الأولاد معها. في 1944، وبعد إنزال النورماندي وتحرير باريس وتراجع الألمان، بدأت البضاعة تصل من سياتل في الشمال. «الجنود استولوا على غنائم ضخمة»، كان يُقال بين أصحاب المتاجر، «والآن صارت عندنا شراشف». كانوا يمزحون لكن هذه لقمة خبزهم. وامتلأت الرفوف من جديد.

ازدادت أرباحها وتوسعت. اشترت متجراً في الجهة الأخرى من الشارع. عندما طلبت مرغريت أن تتوقف عن الدراسة وأن تبقى معها في التجارة قبلت. بعد ذلك اكتشفت أنها صارت حقاً كبيرة ومتقدمة في السن. كانت تمزح حين تقول ذلك، ومع هذا شعرت أنه حقيقي. بينما تشاهد إبنتها تبيع وتقبض وتتسلم الطرود وتوقّع إمضاءها على أوراق التسلم شعرت أنها ترى نفسها قبل عشرين سنة أو ثلاثين. كان الأمر مذهلاً. مرغريت وَرِثت إيماءاتها.

أثناء الحرب الكورية (1950 ـ 1953) استُدعي جميل إلى الخدمة العسكرية. دفعت مبلغاً من المال يكفي لتأجيل انضمامه إلى الجيش سنة واحدة. استدعوه في 1952 وكان فتح قبل شهور فقط متجراً لبيع المواد الغذائية في الشارع نفسه: أرويو ستريت. أراد أن يستقل بتجارته وأقرضته ما يحتاج إليه من أجل ذلك.

خلال السنة المذكورة انتبهت إلى قلبها: كانت تذهب إلى الشاطىء في الأيام الصافية وتمشي بمحاذاة الباسيفيكي. في هذه الأيام لا يُرى الضباب متدحرجاً على صفحة المحيط. بينما تسير هكذا، وجيني تخبرها عن الجامعة وأصدقائها وأساتذتها، كان الهواء يداعب وجهها ورائحة الملح والطحالب البحرية تنسيها العالم الواقعي. صلّت من أجل إبنها الصغير والربُ استجاب. انتهت الحرب الكورية قبل أن يُجنّد. كانت مناسبة للإحتفال في المزرعة لكنهم لم يحتفلوا: أُخِذَ خوان ـ الأخ الأصغر لكاستيلا زوجة المدبر خواكيم ـ إلى معسكر تدريب في كنساس أثناء صيف 1951. كان يسنّ المنجل ويستعد لموسم الحصاد وأخذوه. أعطوه بارودة وعلموه تركيب الحربة في رأسها ثم شحنوه بالقطار مع فرقتين إلى لوس أنجليس ومن هناك بالقطار مرة أخرى ثم بالباخرة إلى جزر المحيط

الهادىء. انتهى به الأمر في مرفأ كوبي في اليابان. كان ممنوعاً من التدخين بسبب الربو لكن طبيب الجيش أعلمه أن هذا ليس مرض الربو والدليل أنه يتحمل تدخين الآخرين في المعسكر. إعتبر أنه يخترع الأعذار كي يبقى في أميركا. صلّوا من أجله وهو وراء البحار، والصلاة نفعت. كلّما جاء أمر بالإبحار من كوبي إلى خط الجبهة بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية يهبّ إعصار! في الختام أبحرت فرقته وعندما بلغوا كوريا سمعوا أن الجيش الصيني صار طرفاً في الحرب الآن. كانت الجيوش تتكاثر وتعاظم الخطر. رأى خوان خنادق مملوءة جثثاً وشعر أنه لن يرجع إلى كاليفورنيا. كانت جثثاً صفراء، مشروحة العيون، صغيرة الحجم، حافية الأقدام، متراصفة كالشتل في أثلام الحقل. ركع بين الموتى وصلّى.

لم تقتله الحرب الكورية. رجع إلى المزرعة مضمد الرأس بالشاش فاقد البصر في العين اليمنى. لم يقبل بكاء أخته كاستيلا. أسكتها بعبارة واحدة:

ـ عندي عين بعد.

عندما خلع ثيابه في ذلك العصر الربيعي العطر الهواء شاهدوا العلامات على ظهره. شرح لهم أن كيس العتاد ـ الحقيبة التي تحوي الذخائر وأدوات الطعام ومطرة الماء والملابس والبطانية والأدوية والضمادات ـ يزن أكثر من ثمانين باوند. اغتسل ولبس ثياباً نظيفة، واسعة بعض الشيء، ثم قطع البستان إلى «البيت الكبير». كانت «السيدة» تهمّ بالخروج ذاهبة إليه وخلع قبعته وألقى عليها التحية. «صليت من أجلك»، قالت له. «أعرف»، قال.

- 124 -
جاك وأخوته (5)

صلّت من أجلهم في البيت وفي المتجر وفي الطريق وفي الكنيسة. أخذها جاك إلى المرصد وجلست على المقعد العالي ونظرت في عدسة التلسكوب. كان يدلّها إلى الكواكب ويلفظ أسماءها الغريبة باللاتينية والإنكليزية. فتح أمامها خرائط فلكية وصار يدلّها إلى النجوم على الخريطة ثم «فوق»، في القبّة الصافية السوداء. كانت ليلة رائعة وظلّت في ذاكرتها سنوات. رأت المجرة بذيلها الأبيض كفستان العروس ودمعت. ظنّ جاك أنه ضايقها. مسحت عينيها بمنديل مطرز الحاشية وقالت «أنت لا تعرف كم أنا فخورة بك». كانت فخورة بهم جميعاً. جميل، بعد حماقات لا تُعد، نضج في المتجر الجديد حيث يبيع كل ما يؤكل، من الحبوب والخضر والفواكه إلى الأجبان واللحوم والحلويات. كانت تنظر إلى اللافتة النيون المعلقة فوق متجره، وهي تمرّ بالسيارة عند المساء عائدة إلى المزرعة، وتبتسم. مرات تطلب من مرغريت أن تتوقف. مرغريت التي تقود متمهلة ـ إذا كانت أمها معها ـ تكون مستعدة من قبل أن تسمع الكلمات.

كانت تدخل وتسلم عليه فيتدفق بالكلام ويخبرها عن خططه الجديدة للمكان. تسمعه وتشعر أنها تكبر فعلاً. وحين تبلغ البيت وتسمع الأحفاد راكضين إليها تبدأ صلاتها من جديد. كانوا يعجقون

المكان بأصواتهم الحلوة وكانت سعيدة في قلب الأصوات. قالت لمرغريت إن حظها طيب لأن باتريسيا تعمل في الجامعة بدوام كامل: لولا ذلك ربما طلبت أن تسكن منفردة! كانت تمزح لكنها على عادتها التي استجدّت في السنوات الأخيرة لم تكن تمزح تماماً! كانت فعلاً محظوظة: رأت أحفادها يكبرون أمام عينيها يوماً بعد يوم.

كانوا يسألونها هل تحبّ أن تذهب في زيارة إلى البلاد، إلى بتاتر. جميل تحمّس في إحدى الجلسات وعرض أن يصطحبها. حدث هذا في 1956 أو 1957. لم تقل لا. ولم تقل نعم. جاك أخذ أخاه جانباً بعد ذلك وأمره ألا يكرر ما فعله. كان يخاف عليها من إرهاق السفر ومن الانفعال. جميل تضايق وردَّ على أخيه الكبير أنه سمعه أكثر من مرة، قبل الآن، يسأل أمه السؤال نفسه. ابتسم جاك: «أنا أسألها لكن لا أعرض أن أشتري التذكرة وأذهب معها».

بعد فترة سمعوا عن الحوادث في بيروت. عندما نزل جنود المارينز على الساحل اللبناني في عام 1958 تسمّرت مرتا إلى جانب الراديو. كان ذلك أيضاً جزءاً من العالم المسحور: أن تذهب أميركا إلى البلاد البعيدة! لم تقل لأحد إنها لن تذهب إلى وطنها مرة أخرى. لكنهم أدركوا ذلك، من دون شك. لاحقاً أرسلت إلى ابن خالها تفويضاً يُخوّله التصرف بالبيت والحقل. بينما تختم ذلك الظرف بقطعة الشمع تنهدت: قبالتها كانت نافذة مفتوحة على الأشجار والشمس وأرجوحة معلقة فوق مساحة رمل.

ماذا أخبركم بعد عن حياة مرتا حداد؟ رأت أولادها يتزوجون ورأت أحفادها. كانت عائلتها حياتها الآن. تعلقت خصوصاً بألبرت، حفيدها الأول. كان صغير الحجم مثل أمه، وأشقر مثلها،

لكنها تولّعت به. في بداية الستينات قرر جاك الانتقال إلى بيت ضمن «سكن الأساتذة» داخل الحرم الجامعي: كان مضطراً بسبب عمله ودوامه الليلي في المرصد. لكنها شارطته أن يسمح للأولاد بإبقاء أغراضهم في بيتها. ضحك وقال: «الأولاد كبروا». قالت: «حتى لو فعلوا ذلك!».

أثناء حرب فييتنام استُدعي ألبرت إلى الخدمة العسكرية. في تلك الفترة كانت مرتا تلزم المزرعة معظم الأيام وتذهب إلى المتجر بين حين وآخر. قررت وحدها أن تترك التجارة تدريجياً لمرغريت. فعلت ذلك ببساطة: ذات صباح، بينما العائلة قاعدة إلى الفطور، أعلمت مرغريت أنها اليوم لن تذهب معها إلى المتجر. كان ذلك مباغتاً لكنها ضحكت وقالت «هذه مزرعتي أيضاً وأنا لا أعرف عدد أشجارها بعد».

صارت تهتم بشؤون المزرعة. تتنزه في أرجائها وخواكيم يشرح لها ما يشرحه. طوال الوقت يتكلم باحترام شديد. ومن دون أن يقول «سيدتي» يبدو كامل الإخلاص. فيه صدق الناس في البلاد البعيدة. كانت تعتبره عزيزاً ولعله شعر بذلك. أولاده أيضاً وُلدوا هنا، تحت نظرتها. كانت تهتم بعائلته، ومدبرو المزارع المجاورة كانوا يحسدون حظه. السيدة الكريمة ساعدته أيضاً في تسديد ديونه. كانت ديوناً قديمة طاردته من ولاية أخرى. و«السيدة» خلّصته.

كانت في البيت تُطرّز عندما حضر ألبرت. مسحة كآبة غطّت وجهه وهو يتكلم. قال إنه أمام خيارين فقط: يذهب إلى المعسكر أو يدخل إلى السجن. «أريد نصيحتك يا جدتي».

وضعت «الشغل» من يدها وسألته عن رأي أبيه. ابتسم فإزداد وجهه كآبة: «هو جلبني إلى هنا». التفتت بلا وعي صوب النافذة،

لكنها ـ من كرسيها الهزّاز ـ كانت عاجزة عن رؤية السيارة في الباحة.

ـ لماذا لم يدخل؟

أخبرها ألبرت إنه يتكلم مع خواكيم.

عندما خرج ألبرت إنتبهت أنها عاشت ساعة تشبه هذه من قبل: كانوا يطلبون أباه، وكان جاك يقف أمامها صغيراً في المتجر في أرويو ستريت. وراء ظهره كان الشارع يعجّ بالجنود والأوتيل يتحول إلى مستشفى عسكري!

في السيارة التي حملته من المزرعة إلى البيت داخل الحرم الجامعي كان ألبرت واجماً. الأب أيضاً ـ جاك ـ بدا واجماً. كان يكره أي فراق. مع هذا تكبّر على نفسه وركن السيارة جنب الرصيف ونزل واشترى بوظة وتقاسمها مع إبنه. وضّب ألبرت أغراضه تلك الليلة وودّع أباه وأمه وأخوته وركب القطار. تسلل عبر الحدود الكندية، كما شرحت له جدته. وبقي في كندا حتى انتهت الحرب.

بعد ذلك، عندما رجع الجيش الأميركي من فييتنام وتقرر العفو عن الفارين من الخدمة مقابل غرامات مالية، أخرجت «الجدّة» دفتر شيكاتها من الجارور ضاحكة الوجه والقلب. كان الربّ يُعينها، هي تُصلّي وهو يستجيب. صلّت أن يبتعد «الوحش» عنها، وعن الأبناء والأحفاد. وكلّما دنا منها أيقنت أن الربّ أيضاً قريب. في أواخر الستينات كانت تسير مع خواكيم بين الأشجار التي يسقيها وأخبرها أن صاحب المزرعة المجاورة «يخطط أن يبيع»؛ هو عرف ذلك من المدبّر. توقفت عن المشي وأصغت. عند رجوعها إلى البيت دخلت المطبخ وملأت كوب ماء وأذابت فيه ملعقة سكر وملعقة ماء الزهر من نتاج المزرعة. شربت هذا ثم جلست إلى طاولة التلفون وطلبت

الرقم. اشترت المزرعة المجاورة من دون أن تخبر أحداً وفي دوامة تسجيل العقار وتخليص الضرائب طلبت من المحامي خدمة إضافية: هكذا قسمت الأرض كاملة إلى أربعة عقارات شبه متساوية، وسجّلتها بأسماء جاك ومرغريت وجيني وجميل. المحامي أبقى التدبير سرًّا كما طلبت. لن يعرف أولادها شيئاً من هذا إلا بعد وقت.

- 125 -
حديقة التفاح - باسادينا

في صيف 1973، بعد ستين عاماً على نزولها في «أليس أيلاند» حاملة كيس الجنفيص الذي يحوي حياتها، أثمرت الأشجار التي زرعتها في باسادينا، تفاحاً. كانت خمس أشجار، توزعت الحديقة التي سوَّرتها شجيرات الياسمين وألواح الخشب الأبيض. أحد أحفادها اقترح زراعة صف من أشجار الأرز الأحمر (Red Cedars) الأميركي وراء «الياسمينات» لحماية الحديقة من رياح المحيط ومن ضجة الشارع والعمران الذي يتمدد. وجدت الفكرة ذكية وطلبت الأشجار من «نورث داكوتا». المهندس الزراعي نصحها ألا تفعل ذلك لأن هذه الأشجار تحبّ الطقس البارد. قالت: «نجرب». جرّبت ورأت الأشجار تنمو متمهلة. كانت تجلس في الحديقة وتُطرّز وتُعلم حفيداتها التطريز. في ألبوم العائلة المحفوظ عند ويليام حدّاد صورة فوتوغرافية تظهر فيها «الجدّة» محاطة بأحفادها: ألبرت وويليام ولوكاس ومارلين (من جاك وباتريسيا)، ونورمان وسليم وماري وتيودور (من مرغريت وإدوارد)، وتوماس وآنا (من جيني ومارك)، وكريستوفر وجورج وباتريك (من جميل وألسا). تنقص الصورة حفيدة واحدة: جاين Jane إبنة جميل المقيمة عندئذٍ في باتون روج (لويزيانا) مع زوجها الأميركي السوري الأصل إبراهيم الشويري، الإبن الوحيد ليوسف الشويري الملقب بـ«ملك القطن»

والمتوفى سنة 1959 بحادثة غرق عبّارة في الميسيسيبي.

الصورة التُقطت في ذلك الصيف ذاته (1973) وتكشف جانباً من البيت ـ إلى جهة المطبخ ـ تتسلقه نباتات زينة ذات زهور حمراء كبيرة متفتحة. الجدة تلقي على كتفيها وشاحاً أبيض، ناصع البياض، كأنه جزء من شعرها. على الوشاح تطريز أحمر ناعم. ألوان الصورة احتفظت بنقائها رغم مرور السنين. الأحفاد والحفيدات يتلاصقون ضاحكي الوجوه، حتى أن الجدّة تبدو مضغوطة بينهم! لكنها تبتسم أيضاً. النور يشعّ من وجهها العجوز. شجرة تفاح واحدة تظهر في زاوية الصورة: على أحد الأغصان نستطيع أن نحصي أربع تفاحات. لاحقاً ستخبز الحفيدات ـ وبناتهن ـ فطائر تفاح شهية، بالقرفة والسكر، من هذه الأشجار.

في الألبوم صورة للجدّة وهي تجلس على كرسيها الهزّاز، في الحديقة، وخلفها تقف جاين Jane الغائبة عن الصورة السابقة. هذه من 1973 أيضاً. الحديقة تبدو صفراء خريفية والجدّة تلتحف ببطانية صوف. مع هذا يظهر ضوء الشمس ساطعاً على النوافذ. للوهلة الأولى يخيل إليك أن البيت يحترق. لعل الصورة التُقطت عند الغروب. الشبه بين الجدّة والمرأة الصغيرة الواقفة مدهش. تزوجت جاين رغماً عن والديها وهي لم تجاوز الخامسة عشرة بعد. كانت متوسطة القامة، سوداء الشعر، حنطية اللون، ومن عينيها يخرج ضوء جذّاب يأسر كل من يمرّ أمامها. رآها إبراهيم الشويري مرة واحدة، وكانت تلك المرة كافية كي يشعر بالمرض في أحشائه. أهلها قالوا لا، ما زالت صغيرة. هي جمعت أغراضها في كيس وهربت من النافذة. كان ينتظرها أمام صالة السينما. أخذها بسيارته الدودج ولم يرجع. لاحقاً قبلت العائلة هذا الزواج. في الصورة التي تجمعها مع

جدّتها تبدو جاين حزينة وفاتنة. أعتقد أن هذا الانطباع مرتبط بيديها المستقرتين على كتفي الجدّة. وعلى أي حال لا تبدو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، بل في العشرينات: كأنها نضجت في الحديقة، بين أشجار الخريف، وهي تتصوّر مع جدّتها.

لا يحوي الألبوم صوراً للجدّة وهي تسقي أشجار التفاح والياسمين والخوخ، ومساكب الخُضَر المربعة، وأحواض الورد وإكليل الجبل والعطر (الكولونيا). زرعت أيضاً حبقاً ومردكوشاً وعلّمت كنّتها ـ ألسا ـ كيف تُطيِّب اللحم بالأعشاب. لم تكن كثيرة الوقوف في المطبخ. لكنها بين حين وآخر كانت تُعدّ طعاماً لم تذق منه منذ سنوات. اكتشفت أنها عموماً لا تفلح في طبخاتها. كانت تضحك وتضع الملعقة على حافة الطنجرة بعد أن تذوق. ثم تخرج إلى الحديقة وتنظر إلى الأشجار: خصوصاً أشجار التفاح. من أجلها مدَّ المدبّر خواكيم خرطوماً خفيف الوزن من الخزّان القريب. كانت تحبّ أن تروي الحديقة. تلبس على رأسها قبعة مكسيكية للحماية من الشمس وتقضي فترة بعد الظهر متنقلة بين الخضرة والورود.

- 126 -

كانت في الثمانين، أو تدنو منها. بينما تتأمل المياه تكرّ بين أعناق البقدونس والرشاد استعادت ذكرى بعيدة فتركت الخرطوم على الأرض ودخلت إلى البيت. أخرجت من الخزانة الصندوق الصغير واستخرجت منه البومبيجة الفضّية. بعد أسبوعين أو ثلاثة وصلها من إل باسو تكساس الطرد البريدي الذي طلبته: علبة كبيرة Yerba Mate. رجعت إلى شرب المتّة. بينما تغرز ذيل البومبيجة Bombilla في القرعة الساخنة امتلأ صدرها بالدموع. مع الرشفة الأولى شعرت أنها تسترجع حياة كاملة. دخل باتريك وسألها ماذا تشرب؟ قالت «تعال». ذاقها وعبس. وجدها مُرّة. لم يفهم لماذا تشرب Grandma هذا الشاي المرّ. بعد ذلك صار يشرب معها متّة بالحليب لا بالماء. تضع له سكراً كثيراً في كل قرعة. ويحبّها. «أنا أشرب متّة مع جدّتي»، يقول لأبيه على التلفون.

باتت الحديقة مقرها. ولا تدخل إلى البيت إلا عندما يبرد الطقس. في الليل تنظر إلى مذنّبات تقطع السماء الشاسعة. وتسمع الراديو. مارلين إبنة جاك سألتها مرة هل تتذكر طفولتها في سورية، هل تتذكر أقاربها هناك، حين كانت صغيرة.

هزّت رأسها وظلّت ساكتة. مارلين سألتها ماذا تتذكر، هل تتذكر أشخاصاً محددين؟ الجدّة قالت بالتأكيد، أنا لست خَرِفة بعد.

مارلين ضحكت وانتظرت حكاية. لم تخبرها الجدّة حكاية. استولى عليها الأسى وهي تلفظ جملاً متقطعة عن إبن عمها الذي علّمها كيف تفتح أكواز الصنوبر الخضراء كي تأكل اللبّ: كان يضع الأكواز قريباً من النار فتنشف بسرعة وتتفتح وحدها. مارلين سألتها لماذا تحزن هكذا وهي تتكلم عن إبن عمها. الجدّة بقيت ساكتة. مارلين سألتها عن إسمه. «خليل»، قالت الجدّة. مارلين لفظت الإسم وبدأته بحرف الكاف: «Khalil». الجدّة ابتسمت ثم ابتعدت بنظرتها إلى مكان آخر.

لم أكن هناك ولست متأكداً من كل هذا. لكنني أستطيع رؤيتها وحدها ذات مساء، تسقي الحديقة الساكنة، وتشعر بالهدوء. البيت هادىء، بعد قليل يرجعون. لكنها وحدها الآن، والمياه تتدفق من الخرطوم. أعلم أنها بعد شهور تخلد إلى النوم في سريرها، بعد الصلاة، كعادتها كل ليلة، عند الساعة التاسعة. تحبّ أن تنهض باكراً مع صياح الديك. تحبّ الخروج إلى الحديقة وتحبّ أن ترى الأشجار تخرج من الظلام وتستضيء بشعاع الشمس. وقت الصباح قريب من قلبها. لكنها ذات ليلة ستنام وهي تشعر ببعض التعب. للحظة تفكر في النهوض لِشُرب الماء أو العصير. لكنها ناعسة. تنام وفي الفجر يصيح الديك، لكنه لا يوقظها. أعلم أن هذا آتٍ بعد قليل.

لكنها الآن تسقي الحديقة ساعة المساء وتسمع غناء الطيور. لعلها لا تسمع غناء الطيور. المياه تكرّ في المسكبة، تروي النبات الأخضر، وهي تصغي إلى الخرير.

هكذا أريد أن أتركها، في الحديقة التي زرعتها تفاحاً في باسادينا، تسمع خرير المياه وتحيا إلى الأبد.

روايات للمؤلّف:

1 ـ سيّد العتمة، دار الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ شاي أسود، دار الآداب، 1995.

3 ـ البيت الأخير، دار الآداب، 1996.

4 ـ الفراشة الزرقاء (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامّة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ رالف رزق الله في المرآة، دار الآداب، 1997.

6 ـ كنتُ أميراً، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ نظرة أخيرة على كين ساي، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ يوسف الإنجليزي، المركز الثقافي العربي، 1998 .

9 ـ رحلة الغرناطي، المركز الثقافي العربي، 2002 .

10 ـ بيروت مدينة العالم (الجزء الأوّل)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2006 .

11 ـ بيريتوس: مدينة تحت الأرض، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005، طبعة ثانية 2006 .

12 ـ بيروت مدينة العالم (الجزء الثاني)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005 .

13 ـ تقرير ميليس، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005 .

14 ـ بيروت مدينة العالم (الجزء الثالث)، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2007 .

15 ـ الاعترافات، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2008 .